

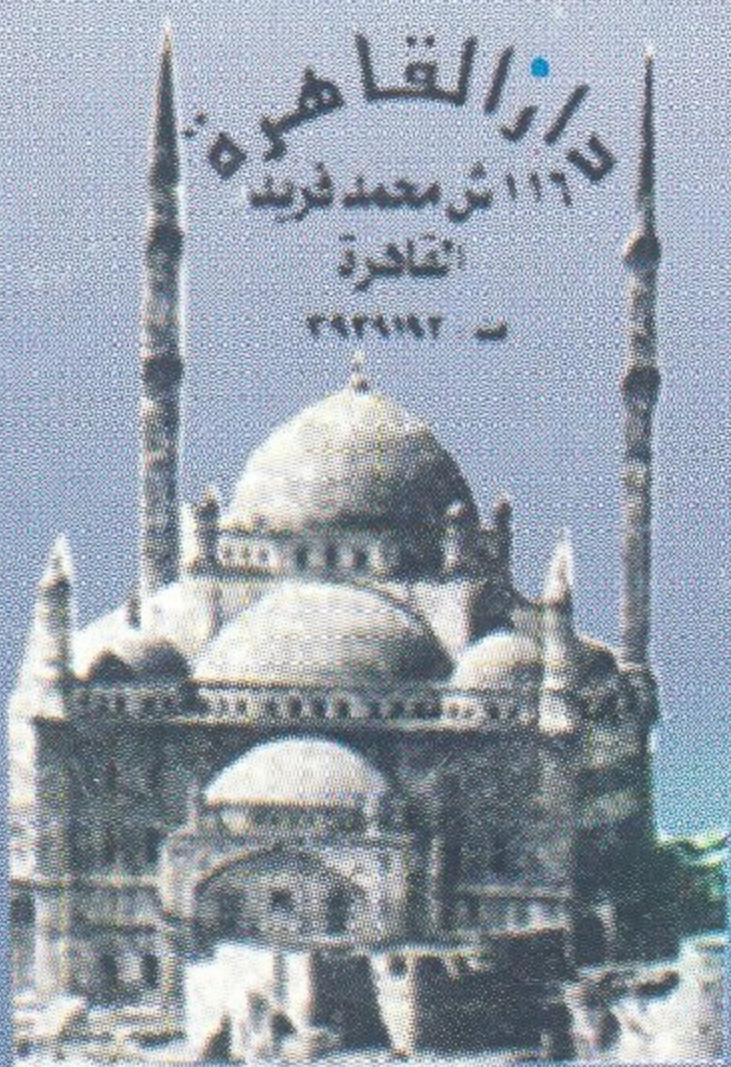
التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام

في عصر الحروب الصليبية

(٥٢١-٦٦٠ هـ)

الدكتور

جمال فوزي محمد عمار



0205435

Bibliotheca Alexandrina



مكتبة
المفتدين

التاريخ والمؤرخون فى بلاد الشام

فى عصر الحروب الصليبية

(٥٢١ - ٦٦٠ هـ)

الدكتور

جمال فوزى محمد عمار

قسم التاريخ الإسلامى والحضارة
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر

دار القاهرة

١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة

ت / ٣٩٢٩١٩٢

حقوق الطبع محفوظة

التاريخ والمؤرخون فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (٥٢١ - ٦٠٠) الدكتور / جمال فوزى محمد عمار ٣٣٩ ١٥٨٦٨ I. S. B. N. 977 - 314 - 098 - 9 ٢٠٠١ الأولى مكتبة القاهرة للكتاب ١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة القاهرة - جمهورية مصر العربية ٣٩٢٩١٩٢ ٣٩٣٣٩٠٩ - ٣٩٢٩١٩٢	اسم الكتاب : اسم المؤلف : عدد الصفحات : رقم الإيداع : الترقيم الدولى : سنة النشر : الطبعة : الناشر : العنوان : البلد : تليفون : فاكس :
--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

مقدمة

البحث في طبيعة المعرفة التاريخية والمؤرخين الذين شكلت كتاباتهم مادة هذه المعرفة ، ومحاولة تصور مسيرة الحركة التاريخية للتاريخ الإسلامى ، هو أحد فروع الدراسات التاريخية عميقة الجذور فى حقل التراث التاريخى الإسلامى .

لا غرو فى ذلك ، فالحضارة العربية الإسلامية تميزت بأنها حضارة ذات نزعة تاريخية ، يؤكد هذه النظرية الحجم الهائل الذى يحتله التراث التاريخى على خريطة التراث العربى الإسلامى بوجه عام .

ولعل أبرز النماذج التراثية البسيطة والأولية فى هذا الفرع من الدراسات التاريخية هو رسالة الكافيجى (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) المعروفة ، وكتاب الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوى (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) .

وأما الدراسات المعاصرة فى هذا الميدان فكثيرة متنوعة ، ومن أبرزها كتب : مصادر التاريخ الإسلامى للدكتورة سيدة كاشف والتاريخ والمؤرخون العرب للدكتور السيد عبد العزيز سالم والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى الذى حاول فيه المؤلف تغطية حركة تطور علم التاريخ ورجاله فى ميدان التاريخ الإسلامى بشكل عام . وكذلك بعض الرسائل الجامعية .

ويدولى أن هذه المؤلفات - فى معظمها - ، فى خضم اهتمامها الحريص على ترسيخ أركان نظرية علم التاريخ الإسلامى واستعراض حركة تطور هذا العلم بشكل عام ، لم تتوقف كثيراً أمام تفاصيل هذه الحركة فى كثير من فترات التأليف التاريخى الإسلامى .

من هنا مست الحاجة إلى دراسات مستقلة تقف متأنية أمام هذه الفترات المختلفة تبرز حركة التاريخ الإسلامى فيها وتجلي غوامضها . ومن هذه الفترات فترة عصر الحروب الصليبية التى لم تحظ - فيما أعرف - ، برغم أهميتها البالغة ، وبغض النظر عن مثل الكتابات التى سبق الإشارة إليها والتى تناولتها بوجه عام ، لم تحظ إلا بكتابات قليلة خاصة بها ، نعرف منها مثلاً : كتاب الحياة العقلية فى

عصر الحروب الصليبية في مصر والشام للدكتور أحمد أحمد بدوي ، وهو ، كما يبدو من عنوانه ، ليس كتاباً متخصصاً في الحركة التاريخية في ذلك العصر ، وكتاب مؤرخو الحروب الصليبية للدكتور السيد الباز العريني ، وعنوانه يوحي بأنه يغطي حركة التاريخ في تلك الفترة تغطية شاملة ، إلا أن هذا العنوان في الحقيقة لا يعبر بدقة عن المضمون ، فالكتاب مقسم إلى قسمين : يتناول أولهما بالدراسة المؤرخين الغربيين الذين عاصروا تلك الفترة وكتبوا عنها أمثال : وليم الصوري (١١٣٠ / ١١٨٤ م) وجوانفيل (١٢٢٤ / ١٣١٧ م) . وأما القسم الثاني فيتعلق بالمؤرخين المسلمين في تلك الفترة ، وينقسم بدوره إلى فصلين ، الأول منهما يتناول بشكل عام الكتابة التاريخية الإسلامية حتى القرن الثاني عشر الميلادي بينما يحمل الفصل الثاني عنوان : مؤرخو صلاح الدين ، ويحاول المؤلف فيه أن يترجم لبعضهم مثل : ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ / ١١٤٤ - ١٢٣٤ م) ، وابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٢ م) وابن أبي طي (٥٧٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٧٩ - ١٢٣٢ م) . وتنتهي هذه الدراسة بإيراد بعض النصوص من كتاب « البرق الشامي » للعماد الأصفهاني . وهكذا يتضح أن المؤلف اقتصر في القسم الثاني - وهو ما يعنينا في موضوعنا - على مؤرخي صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ) المعاصرين له فقط . فضلاً عن أن هذه الدراسة تعتبر ترجمة سريعة لمن تناولتهم من المؤرخين غير متعرضة بذلك إلى البحث بالتفصيل في مضمون مؤلفاتهم ولا إلى طبيعة المعرفة التاريخية في تلك الفترة ولا إلى مناهج المؤرخين واتجاهاتهم المختلفة .

ومن بين هذه المؤلفات أيضاً كتابا الدكتور نظير حسان سعادوي : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ، ثلاثة من معاصري صلاح الدين ، وهما على منوال الدراسة السابقة .

من هذا المنطلق فقد خطر لي محاولة التعرض بالدراسة التفصيلية للحركة التاريخية والمؤرخين في زمن الحروب الصليبية ببلاد الشام خلال العهدين الزنكي والأيوبي (٥٢١ - ٦٦٠ هـ) تقريباً . وأما الفترة الباقية من قرني الحروب الصليبية السادس والسابع الهجريين - المتعارف عليهما - فهي داخلة في العصر المملوكي الأول .

وقد دفعنى لهذه الدراسة أسباب قوية منها : أن تلك الفترة تعتبر من أكثر فترات التاريخ الإسلامى صراعاً ودموية ، وهى عصر من العصور الحرجة فى تاريخ المسلمين . فهذه هى الخلافة العباسية المتقلدة رسمياً لأمر المسلمين ولكن مقاليد الأمور ليست فى أيديها حقاً ، وهؤلاء هم أمراء المسلمين فى بلاد الشام والجزيرة العراقية ومصر وغيرها يضطرون حول قطعة من الأرض أو قلعة أو مدينة يضمها أحدهم إلى ملكه الضعيف المهتز على حساب أخيه غير عابئين - فى أول الأمر - بهذا العدو اللدود الذى يتقدم لاجتياحهم جميعاً .

فقد هبَّ الغرب لاستعادة ما تصوره أملاكاً أصيلة من أماكن مقدسة فى منطقة القلب من العالم الإسلامى فى بلاد الشام ، انتزعتها المسلمون منه إبان عصور فتوتهم الغابرة ، محاولاً تكوين مملكة لاتينية فى الشرق الإسلامى بصفة دائمة مستمرة .

إذا فقد تحولت المسألة إلى صراع بين حضارتين فلا غرو فى أن تنتج تلك الفترة الحاسمة من الصراع والكفاح - فيما أنتجت على الجانب الإسلامى من معارف - كوكبة من ألمع نجوم الحركة التاريخية الإسلامية عبر مسيرتها الطويلة ، اطلعت بحمل عبء التأريخ لعصرها وغيره من العصور فى مؤلفات كثيرة متنوعة . من هنا استحققت تلك الحقبة - عصر الحروب الصليبية - ببلاد الشام - محل الصراع الرئيسى - وقفة متأنية تعالج بالدراسة حركة التأريخ الإسلامى فيها وأبرز أعمالها وأعمالهم .

وأخيراً ، أقول كما قال ابن الأثير فى مقدمة كتابه « الكامل فى التاريخ » : « على أنى مقر بالتقصير ، فلا أقول إن الغلط سهو جرى به القلم بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم » .

الدكتور

جمال فوزى محمد

تقديم

ملامح الأوضاع السياسية والحضارية في بلاد الشام

خلال فترة الدراسة (٥٢١ . ٦٦٠ هـ)

وتأثيرها في الحركة التاريخية





أولاً : ملأ مع الحالة السياسية :

(١) نبذة عن الأوضاع السياسية ببلاد الشام في ظل السلاجقة :-
ظهر الأتراك السلاجقة ببلاد ما وراء النهر^(١) ، وكانت قوتهم الفتية بمثابة
دماء جديدة سرت في جسد الخلافة العباسية المتهالك - خاصة أنهم اعتنقوا
الإسلام على مذهبها السني - ، وبعد صراع طويل مع الغزنويين^(٢) وغيرهم ،
أصبح السلاجقة أعظم قوة في خراسان^(٣) ، وقد برزت خلال ذلك شخصية
زعيمهم ركن الدين طغرل بك بن محمد بن ميكائيل بن سلجوق^(٤) (٤٣٢ -
٤٥٥ هـ) ، الذي اعترفت الخلافة العباسية بسلطنته عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م مما
أكسب دولته صفة شرعية ، وانطلق السلاجقة يصارعون كثيراً من القوى القائمة
على أرض الخلافة وغيرها حتى كونوا دولة قوية مترامية الأطراف بخراسان والعراق
والشام وآسيا الصغرى وغيرها . وفي عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م قتل الوزير السلجوقي
العظيم نظام الملك^(٥) وتبعه في نفس العام السلطان السلجوقي ملكشاه أقوى
سلاطين السلاجقة ، ومن هنا بدأ عهد التفكك والفرقة والتنافس بين أبناء البيت

-
- (١) بلاد ما وراء النهر : يقصد بها ما وراء نهر جيحون بخراسان ، وليس بما وراء النهر موضع يخلو
من العمارة من مدينة أو قرية أو زرع أو مرعى . انظر : ابن عبد الحق البغدادي : مراصد
الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ط ليدن ج ٣ ص ٣٤ .
- (١) الدولة الغزنوية إحدى الدول الإسلامية المستقلة بخراسان وبلاد الأفغان والهند خلال العصر
العباسي الثاني ، سقطت سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م . انظر عنها :
- د . أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة دار البحوث العلمية الكويت ط
١ سنة ١٩٧٥ م ص ١٠٥ .
- (٣) خراسان : بلاد واسعة بين العراق والهند ومن أمهات بلادها نيسابور وهراة ومرو انظر : ابن عبد
الحق : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٤٣ .
- (٤) سلجوق بن دقاق أو تقاق ، إليه ينسب السلاجقة وهم طائفة من الأتراك الغزنويين سلجوق
قيادتهم ووحيد كلمتهم . انظر : د . أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة
ط ١ ص ٢١ .
- (٥) أبو علي حسن بن علي بن إسحق الطوسي ، كان سياسياً وإدارياً ماهراً ، محباً للعلم راعياً
للعلماء ، وزيراً للسلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) ولابته ملك شاه من بعده .
انظر في ترجمته مثلاً : ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية تحقيق د . عبد القادر أحمد
طليحات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م ص ٩ ، ١٠ .

السلجوقي ، وكان من مظاهر ذلك تنازع أولاد ملكشاه على عرش السلطنة ؛ ثم تنازع ابنه الأكبر بركياروق (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ) وعمه تاج الدولة تتش وآلى دمشق ، حيث انتهى هذا النزاع بمقتل الأخير بعد معركة طاحنة بينهما قرب مدينة الرى (١) عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، ولكن بكياروق لم يحاول ضم بلاد الشام إليه على أثر ذلك ، وكان تتش قد ترك ولدين هما : فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق ، فاستولى الأول على ملك حلب بينما أخذ الثاني دمشق ، ولم يكن هذان الوريثان يتمتعان بالحنكة والمقدرة التي تمكنهما من مواجهة الأوضاع القلقة والمضطربة ببلاد الشام خلال تلك الفترة مما أدى إلى انحلال سلطان السلاجقة بها ، وظهور عدد من البيوت المتصارعة على النفوذ ، فضلاً عن هجمات الفاطميين بمصر - رغم ضعفهم - على بلاد الشام أواخر القرن الخامس الهجري لمحاولة استرداد نفوذهم بها ، والذي سلبهم السلاجقة إياه إبان حركة التوسع ، وبهذا كانت الفرصة مهيأة لأن يؤتى الغزو الصليبي القادم من الغرب إلى بلاد الشام ثماره المرجوة في بادئ الأمر .

(ب) أثر الحروب الصليبية :

اختلف الباحثون في تحديد ماهية الحركة الصليبية ومداهما الزماني والمكاني . ولعل أجمع تعريف لها ، ما ذكره أحد الباحثين بقوله : « حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى ، بقصد امتلاكها ، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق » (٢) .

(١) الرى : يفتح أوله وتشديد ثانيه ، مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن ببلاد الجبال وهي البلاد المعروفة بعراق العجم . انظر : ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٤٩٩ .

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية مكتبة الأنجلو المصرية ط ١ سنة ١٩٦٣م ج ١ ص ٢٥ ، ويقصد بالشرق الأدنى بلاد الشام ومصر وإفريقية (تونس) التي تعرضت للعدوان الصليبي تقريباً .

ولقد جرى العرف على تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ١٠٩٥ / ١٢٩١م والواقع أنه سبق هذه البداية جذور ومقدمات ، وتلا النهاية امتداد لفترة من الزمن^(١) ولكن أبرز أدوار هذه الحركة ثمانى حملات عسكرية قذف بها الغرب الأوروبى نحو الشرق الإسلامى - عدا الحملة الرابعة التى توجهت للقسطنطينية بسبب خلاف بين قادتها^(٢) - واستطاعت أولاها تكوين مملكة صليبية ضمت أربع إمارات هى : الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس^(٣) . وامتدت هذه الحملات خلال القرنين السابع والثامن الهجريين تقريبا وكانت وجهتها كالتالى : الحملات الأولى والثانية والثالثة والسادسة إلى الشام والخامسة والسابعة إلى مصر والثامنة إلى تونس . وقد صاحب هذه الحملات وتخلف عنها نتائج بعيدة الأثر فى حياة الغرب والشرق على السواء ، وتركزت أثارها فى منطقة الشام مركز الصراع الرئيسى .

(ج) هجوم المغول :

بلاء آخر حل بالشرق الإسلامى إبان تلك الفترة ، حيث تجمعت قبائل التتر البربرية من أواسط آسيا واتجهت نحو الغرب ، فاكتسحت فى طريقها كل شىء وأسقطت الخلافة العباسية وقتلت الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) وخربت بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م وانطلقت نحو الشام فاكتسحت مدنه وتركت به أبلغ الآثار ، ولم يقف فى وجه هذا السيل سوى المماليك فى مصر ، إذ هزموا المغول فى عين جالوت بفلسطين بعد سقوط بغداد بعامين ، ثم تابعوا مطاردتهم وتطهير بلاد الشام منهم^(٤) .

(١) انظر : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ ، د. محمد حلمى محمد أحمد : مصر والشام والصليبيون ط ٢ سنة ١٩٨٢م ص ١٧ وما بعدها .

(٢) المعروف أن هذه الحملة أسقطت الحكم البيزنطى بالقسطنطينية وظلت تحكمها حوالى ستين عاما . انظر فى ذلك : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ط ١ ج ٢ ص ٩٢٩ - ٩٤٠ ، د. قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية الكويت سلسلة عالم المعرفة رقم ١٤٩ سنة ١٩٩٠م ص ١٤٨ .

(٣) الرها : مدينة ببلاد الجزيرة شمال العراق ، وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس مدن معروفة ببلاد الشام .

(٤) فى شأن المغول انظر مثلاً : رشيد الدين فضل الله الهمذانى : تاريخ المغول نقله عن الفارسية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، د. فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

(د) لهجة عن الزنكيين والأيوبيين :

في عام ٥٢١هـ ولي عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة أفسنقر الموصل وأعمالها من قبل السلاجقة ومنذ ذلك الحين عمل على تكوين دولة له على حساب جيرانه من المسلمين والصليبيين فملك حلب سنة ٥٢٢هـ وحماة سنة ٥٢٣هـ وغيرها ، واتسع ملكه ، ولكن زنكي قتل عام ٥٤١هـ بعد عامين فقط من تخليصه مدينة الرها من أيدي الصليبيين . واقتسم ولداه سيف الدين غازي ونور الدين محمود أملاكه ، فحل الأول بالموصل بينما ملك الثاني حلب وبقية الأملاك الشامية ، وتولى نور الدين محمود بدأ عهد جديد في الجهاد ضد الصليبيين ، إذ حاول نور الدين أن يجمع ملك الشام في يده فاستولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ من صاحبها مجير الدين بن بوري بن طغتكين ، واصطدم مع الفرنجة في عدة مواقع واغتصب منهم كثيراً من أملاكهم بالشام ، وفي عام ٥٥٩هـ بدأ الصراع بين نور الدين والصليبيين على ملك مصر حيث كان سلطان الفاطميين بها يحتضر ، وبعد صراع قوى استقرت مصر في يد نور الدين نهائياً سنة ٥٦٤هـ ، وناب عنه بها قائده أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، ولكن شيركوه ما لبث أن توفي بعد حوالي شهرين فقط من توليه الوزارة للفاطميين بمصر ، وحل ابن أخيه صلاح الدين مكانه ، واستطاع بعد صعوبات عديدة الإمساك بزمام الأمور في مصر وفي عام ٥٦٧هـ أقام صلاح الدين بأمر من نور الدين الخطبة للعباسيين وأسقط بذلك الخطبة للفاطميين ، وبذا انقرضت الدولة العلوية بمصر. وعادت مصر مرة أخرى لدائرة النفوذ العباسي السني . وفي عام ٥٦٩هـ توفي نور الدين محمود ، وملك ولده الملك الصالح إسماعيل وكان صغيراً ألعوبة في أيدي مجموعة من قادة أبيه ، الذين لم يراعوا قط المصلحة العامة وعملوا لمصالحهم الشخصية فدب النزاع والتصارع بينهم ، مما استدعى دخول صلاح الدين إلى بلاد الشام حيث ملك دمشق سنة ٥٧٠هـ ، وبعد سنوات من الصراع ضد الزنكيين بالشام والموصل استطاع صلاح الدين تكوين دولة قوية موحدة تمتد من مصر إلى الشام والجزيرة^(١) فضلاً عن اليمن ، مما أتاح

(١) الجزيرة : جزيرة أحمور هي التي بين دجلة والفرات ، تجاور الشام ، وتشتمل على ديار مضر وديار بكر وسميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات وهي صحبحة الهواء بها مدن جليلة وقلاع وحصون كثيرة من أمهات مدنها حران والرما والرقرة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابر ومادين وأمد وميا فارقين والموصل ، وغير ذلك .

انظر : ابن عبد الحق ، مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٥٢ .

له منذاً قوياً في صراعه المقبل ضد الصليبيين ، وبلغ هذا الصراع قمته في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ حيث أنزل صلاح الدين وجيشه الإسلامي أقوى هزيمة حلت بالصليبيين منذ قدومهم للشرق ، وتوالت بعدها فتوحاته بالشام إذ انتزع من مخالِب الفرنجة عكا ويافا وصيدا وبيروت وعسقلان وغيرها ونوج فتوحاته بالدخول إلى بيت المقدس ولم يبق بيد الصليبيين غير شريط صغير بساحل الشام . وكان من نتيجة انتصارات صلاح الدين الباهرة أن قذف الغرب في وجهه بما عرف تاريخياً بالحملة الصليبية الثالثة بقيادة أعظم ملوك أوربا ، وبعد صراع طويل معها انتهى الطرفان إلى ضرورة حقن الدماء ، فوقعوا صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ الذي لم يبق بيد الفرنجة سوى الشريط الساحلي .

وما لبث صلاح الدين أن توفي في العام التالي ، وانفرط عقد الدولة القوية الموحدة التي أقامها وتمزقت أشلاؤها في الصراع بين خلفائه ، ومرت عليها فترات قوة وضعف وواجهت عدداً آخر من حملات الصليبيين إلى أن سقطت على أيدي المماليك في مصر سنة ٦٤٨ هـ ، واستعاد هؤلاء أملاكها بالشام من أيدي المغول حيث أتم المماليك سلطانهم بالشام حوالي عام ٦٦١ هـ ، وبذا بدأ عهد جديد هو عهد الدولة المملوكية .

لعل هذه هي أبرز ملامح الحياة السياسية ببلاد الشام قبيل وخلال فترة الدراسة (٥٢١ - ٦٦٠ هـ) . وربما لزم هنا الالتفات إلى الجانب الآخر من حياة شعوب تلك المنطقة ، وهو :

ثانياً : ملامح الأوضاع الحضارية :

(١) عناصر المجتمع الشامي وطوائفه :-

نظراً لموقع بلاد الشام الجغرافي المتميز الذي توسط به العالم القديم مما أتاح لها التحكم في كثير من طرق التجارة في تلك العصور ، فضلاً عن أهميتها الدينية كمهبط للرسالات السماوية والظروف التاريخية التي مرت بها وكونها بؤرة صراع بين القوى العالمية خاصة الفرس والروم في القديم ثم المسلمين والروم بعد ذلك ، نظراً لكل ما سبق ، فإن هذه البلاد حفلت خلال هذه الفترة بعناصر سكانية عديدة وأجناس متباينة ، فهناك القبائل العربية التي هاجرت إليها من شبه الجزيرة العربية

على فترات كبنى كلاب الذين وصل نفوذهم إلى حد تكوين إمارة لهم في حلب دامت حوالي ستين عاماً (٤١٤ - ٤٧٣ هـ) تحت رعاية بنى مرداس ، وبنى طيء بفلسطين وكانت لهم مكانة كبيرة علي عهد الدول الإسلامية الحاكمة بالشام ، وبنى كلب وكانوا قبل الإسلام ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام الجنوبية ، وكان لهم دور في اضطراب الأوضاع السياسية بالشام خلال القرن الخامس الهجرى ومحاولة القبائل العربية بالشام التحالف لأجل التخلص من النفوذ الفاطمى بها وهو التحالف الذى دعا إليه المرادسيون بحلب وقضى عليه الفاطميون فى النهاية . وكذا بنو عمار فى طرابلس وبنو منقذ فى قلعة شيرز^(١) وكان لهم دور كبير فى حرب الصليبيين وغيرهم .

كما ضم المجتمع الإسلامى ببلاد الشام فى ذلك الوقت عناصر أخرى مؤثرة غير العناصر العربية كالأتراك والتركمان والأكراد الذين جاءوا للبلاد مع تنامى النفوذ السلجوقى واتجاهه نحو الغرب ثم قيام دولة الزنكيين والأيوبيين وشكلوا أرسنقراطية إقطاعية عسكرية . هذا بالإضافة إلى الفرنجة الغربيين الذين جاءوا من جنسيات شتى .

كما ضم المجتمع الشامى من الناحية المذهبية طوائف متعددة ، فعلى الجانب الإسلامى وجد إلى جانب المذهب السنى فرق شيعية كالإسماعيلية وينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) وهم يمثلون تياراً ثورياً شيعياً ويعرفون أيضاً بالباطنية لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ، وكان ظهورهم بإيران فى عهد ملكشاه السلجوقى ، وبدأ نشاطهم الهدام يمتد للشام منذ بداية القرن الثانى عشر أى مع دخول الصليبيين إليها وقد استعملوا العنف والاعتداءات فى تحقيق مآربهم وطالت أيديهم كثيراً من الزعماء المسلمين والصليبيين ، بل إنهم حاولوا قتل صلاح الدين نفسه أكثر من مرة ، وقد أثروا كثيراً فى سير الأوضاع فى تلك الفترة . ومن فرق الشيعة وجد أيضاً الدررز وهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، بدأت دعوتهم على يد محمد بن على بن إسماعيل الدرزى وحمزة بن على

(١) شيرز : يفتح أوله قلعة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم .

الزنكي زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) ثم انتشرت في سوريا ولبنان وما تزال موجودة للآن . كما وجدت طائفة النصيرية وهم من غلاة الشيعة وتمركزوا بجبال سوريا الشمالية .

وكذلك انقسم مسيحيو الشرق بدورهم إلى موارنة وأرمن وأقليات أخرى ، كما عرف المجتمع الفرنجي ببلاد الشام الهيئات الدينية الحربية كالإستبارية والداوية والتوتون وهي هيئات أقامتها مجموعات من الفرسان الصليبيين بالشام وجمعت بين حياة الرهبانية والفروسية أي ربطت الحرب بالعقيدة واتسع نفوذها وصارت لها الإقطاعات الواسعة واليد العليا في الحرب ضد المسلمين .

كما عرف المجتمع الصليبي ببلاد الشام النظام الطبقي فيالي جانب الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان وجد الأحرار البرجوازيون كما وجد الرقيق والأقنان (١) .

ولم تكن فترة الحروب الصليبية كلها بالطبع مجرد معارك دموية متصلة ، وإنما تخللتها علاقات إنسانية على مستويات الحياة المختلفة في أوقات السلم ، التي كانت أطول كثيراً من أوقات الحرب ، فمن الملاحظ أن الصليبيين بعد انقضاء الجيل الأول منهم نسوا إلى حد كبير تعصبهم الديني الأعمى وسعوا للمحافظة على ما بأيديهم ، بل إنهم كانوا تقريباً يشمئزون من كل قادم جديد من الغرب متحمس للحرب ، ويعبر عن ذلك أسامة بن منقذ أحد فرسان الحروب الصليبية المسلمين بقوله : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين » (٢) .

(١) في شأن الأوضاع الاجتماعية بالشام في تلك الفترة وتعدد الطوائف والمذاهب انظر : حامد زيان غانم : حلب في العصر الزنكي رسالة ماجستير بأداب القاهرة سنة ١٩٧٠م ودريد عبد القادر نوري : سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة (٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣م) رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة بغداد سنة ١٩٧٦م ، د. محمود محمد الحويري ، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد ، دار المعارف سنة ١٩٧٩م ص ١٦ - ١٠١ .

وفي تعريف الفرق والمذاهب انظر : د. محمد حمارة ، تيارات الفكر الإسلامي ط دار الشروق ١٩٩١م .

(٢) الاعتبار: تحقيق د. فيليب حتى ، بيروت ط سنة ١٩٨١م ص ١٧٢ .

فعلى المستوى الاجتماعى تبادل الطرفان التأثير والتأثر وإن كان التأثير فى الجانب الفرنجى أظهر - ربما ساعد على ذلك الفارق الحضارى لصالح المسلمين فى تلك الفترة - كما بدا فى الملبس والمأكل والمشرب والحفلات والأعياد ورياضة الصيد ، وغير ذلك^(١) .

(ب) الشام ملتقى زجارات الشرق والغرب :

اعتمدت الحياة الاقتصادية ببلاد الشام فى هذه الفترة إلى جانب الزراعة على التجارة - التى لم تتأثر كثيراً بالحرب بين الجانبين الإسلامى والمسيحى لطول فترات السلم وللحرص على الكسب الاقتصادى - اعتماداً كبيراً ساعد على ذلك مرور كثير من طرق التجارة بأرضها وشواطئها ، فعلى الساحل الشامى انتهت الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى من الهند والصين وغيرها ومن الخليج الفارسى (العربى حالياً) والبحر الأحمر ، وكذا الطرق القادمة من آسيا الصغرى وأوروبا براً ثم الطريق البحرى الرئيسى من غرب أوروبا وإيطاليا . وفى ظل الحملات الصليبية نحو الشرق وجدت المدن التجارية الكبرى كالبندقية وجنوة وبيزا فرصتها فى زيادة حجم معاملاتها التجارية مع الشرق الإسلامى والخروج من أرباحها بنصيب الأسد ، وقد لعبت بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية دور الوسيط التجارى فى نقل السلع والحاصلات بين الهند والصين وغيرها من بلاد الشرق البعيد وكذا الشرق الإسلامى من جهة وبين الغرب الأوروبى من جهة أخرى ، وقد أولع الغرب بتلك السلع كالتوابل والبهارات ومن المنتجات الشامية صدر للغرب مثلاً الفواكه وزيت الزيتون ، أما صادرات الغرب للشام فتمثلت فى الثروات الطبيعية والحاصلات والمواد الخام ، كما اشتهرت مدن الشام فى ذلك الوقت بعدة صناعات كالزجاج والخزف والمنسوجات والورق ، وغير ذلك^(٢) .

(١) انظر : د. زكى النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبنانى بيروت سنة ١٩٥٧ م ص ١٢٩ - ٢١٠ .

(٢) انظر : د. الحورى ، المصدر السابق ص ١٠٤ - ١٤٦ .

(د) صلاح النشاط الثقافي :

سرت في الشرق الإسلامي روح تعليمية علمية مع اهتمام الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك بإنشاء سلسلة من المدارس وتشجيعه للعلم والعلماء ، وإغداقه عليهم وقد تبعه في ذلك ببلاد الشام نور الدين محمود بن زنكي وتلاه صلاح الدين الأيوبي وغيره من الأمراء الأيوبيين واشتهرت أسماء مدارس مثل المدرسة النورية والعمادية والصلاحية والعاذلية . كما برزت ببلاد الشام في تلك الفترة عدة مدن كمراكز كبيرة للعلم كدمشق وحلب والقدس وحماة .

وقد أدى الهجوم الصليبي على بلاد الشام إلى أن صارت تلك المنطقة محط اهتمام الرأي العام الإسلامي ، هذا بالإضافة إلى قيام دول وحواضر قوية بها جابهت الغزو الصليبي مما أدى إلى هجرة العلماء إليها يدرسون ويعلمون ويجاهدون ، فأوجد ذلك نهضة كبيرة في مختلف فروع العلم بها ، وبرز علماء أعلام كالمحدث المشهور ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) ، والفقيه المحدث ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) والفقيه المجاهد عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) ، والأديب المعروف ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) والجغرافي الشهير ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، وغيرهم كثير^(١) .

والمعلومات ضئيلة عن الجانب الثقافي في حياة المجتمع الفرنجي ببلاد الشام ، إذ لم يعرف هذا المجتمع الاستقرار طوال هذه الفترة مما يتيح له الفرصة للتذكير والتأمل والتعلم فهو إما في حالة حرب أو استعداد لها أو ترقبها . كما أنه يبدو أن كلا الطرفين الإسلامي والفرنجي قد عزف عن تعليم لغات بعضهما ربما بسبب الحاجز النفسي بين الفريقين وعامل العداوة المتأصلة^(٢) . وإن كان بعض الفرنجة قد

(١) عن الحياة الثقافية ببلاد الشام في تلك الفترة ، انظر على سبيل المثال : د. أحمد أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، مكتبة نضهة مصر ، د. محمد حلمي أحمد ، الحياة العلمية في مصر والشام بين ١١٢٧ - ١٢٥٠م ، بحث مستخرج من المحلة التاريخية المصرية العدد ٧ سنة ١٩٥٨م .

(٢) انظر : د. عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، مؤسسة شباب الجامعة سنة ١٩٨٦م ص ٣٠ - ٣٣ .

حاول معرفة العربية وتذوق آدابها كالمؤرخ الصليبي وليم الصوري (١١٣٠ - ١١٨٤م) (١).

ثالثاً : الحركة التاريخية ببلاد الشام وتأثيرها بالأوضاع السابقة خلال فترة الدراسة (٥٢١ - ٦٦٠هـ) :-

المطالع للتراث التاريخي المتبقى لنا من إنتاج منطقة الشام خلال فترة الدراسة وأسماء المؤرخين المدونين بكتب التراجم يدرك ضخامة هذا الإنتاج وثرأه وتنوعه .

ويدو أن الظروف السياسية لهذه المنطقة في ذلك العصر وكونها بؤرة اهتمام العالم الإسلامي لما تعرضت له من عدوان ضار ، صليبي ومغولي ووقوعها في وجه هذين الخطرين وقيام حكومات قوية بها ترفع إلى جانب لواء الجهاد راية العلم ، ثم بعد ذلك حكام مدن ومقاطعات يتنافسون في مضمار جلب العلماء والأدباء ومناصرة العلم ، يبدو أن ذلك هو الدافع الرئيسي لوجود هذا الكم الكبير من التراث التاريخي الذي غطى تقريباً جميع اتجاهات الكتابة التاريخية .

يتحدث أحد المستشرقين عن ضعف الثقافة العربية ، وبالتالي التدوين التاريخي بفارس والعراق تحت وطأة الغزو المغولي ، ثم يقول : « على أنه حدث قبل هذا أن انتقل مركز التدوين التاريخي بالعربية إلى الشام حيث كان ظهور أسرته آل زنكي والأيوبيين حافظاً على تأليف عدد من كتب التاريخ » (٢).

فتعبيراً عن التحدي - في مقابل العدوان - والرغبة في الإحساس بالذات والثقة بالنفس ونظراً للشعور العام بترابط الكيان الإسلامي زماناً ومكاناً تولد الميل إلى محاولة تذكر الماضي المجيد والتذكير به بشكل شامل ، فجاءت كتب التاريخ العام التي تحمل فترات التاريخ الإسلامي كله حتى تصل إلى اللحظة المعاصرة ، وفي هذا الاتجاه لمع كثير من الأسماء بالشام مثل : نور الدين شاهنشاه بن أيوب أخي

(١) انظر : د. السيد الباز العريني مؤرخو الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢م ص ١٠٣ ، د. محمود الحويري : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ، دار المعارف ص ٢٢٠ .

(٢) هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة د. إحسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٩م ص ١٦٨ .

صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٤٣هـ) وله كتاب « التاريخ » ، والعظيمي (ت بعد ٥٥٨هـ) صاحب تاريخ العظيم وهو تاريخ عام حولي مختصر ، حتى نهاية سنة ٥٢٨هـ . والأمير الأيوبي المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ) وله كتاب « مضممار الحقائق وسر الخلائق » وهو تاريخ حولي كبير ، والمؤرخ الجغرافي الكبير ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) وله كتاب الدول وكتاب المبدأ والمآل ، والمؤرخ المشهور ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) صاحب كتاب الكامل في التاريخ ، وكذا ابن أبي طي الحلبي الشيعي (ت ٦٣٠هـ) ولم يتبق شيء من كتبه سوى مقتطفات في كتب الآخرين ، وله « معادن الذهب » في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب ، وكتاب حوادث الزمان ، وابن نظيف الوزير الكاتب (ت بعد سنة ٦٣١هـ) وله تاريخ عام كبير سماه الكشف والبيان في حوادث الزمان وآخر موجز بعنوان : التاريخ المنصوري . والقاضي ابن أبي الدم (ت ٦٤٢هـ) وهو صاحب التاريخ المظفري ، والقفطي (ت ٦٤٦هـ) أحد وزراء الأيوبيين وقضاتهم ، له التاريخ الكبير على السنين ، وسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) صاحب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، وهناك أيضا كتاب البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان وحوله خلاف في نسبه إلى العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) أو إلى أصفهاني آخر يعرف بعماد الدين القاضي (توفي بعد ٥٩٣هـ / ١١٩٧م)^(١) .

(١) وهو موجز تاريخي حتى سنة ٥٩٢هـ ولا يزال مخطوطاً وقد ذيل عليه آخر يسمى الأمير المجاهد الإسفهلار علم الدين سنجر المسروري الصالحى متولى القاهرة وذكر أنه سينتهي إلى سنة ٦٦٧هـ بدءاً من عام ٥٩٤هـ ولكنه انتهى في المخطوطة بالفعل إلى سنة ٦٣٦هـ ، وفي سنة ٥٩٠هـ تردد بالمخطوطة هذه العبارة : « وفيها حكى عن ابن العميد عن من سمعه أنه ورد من ملك الحبشة كتاب إلى سيف الإسلام صاحب اليمن » ، فإن كان المقصود بابن العميد الشيخ المكين بن العميد المؤرخ النصراني المتوفى بعد سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م فذلك يزيد البلبلة في نسبة الكتاب لتأخر زمن ابن العميد .

انظر : الشيخ عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع أو بستان الحوادث الجامع لتواريخ الزمان ، مخطوطة مصورة بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية برقم (٨٧) تاريخ .
وحول الخلاف في نسبة الكتاب انظر : د. شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون دار العلم للملايين بيروت ط ٣ سنة ١٩٨٧م ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

واحتدام الصراع فى تلك الحقبة على أرض بلاد الشام ربما دفع إلى الاهتمام بالتاريخ لهذا الإقليم على حدة وتفصيل أحواله مما ساعد على ظهور كثير من التواريخ الإقليمية والبلدانية وتواريخ المدن وكذا تواريخ الدول الكائنة بأرجاء تلك المنطقة وما قرب منها . فقد كتب ابن الأكفانى الدمشقى (ت ٥٢٤هـ) تمة تاريخ داريا وهو إضافة زادها على كتاب تاريخ داريا - وهى من بلاد غوطة دمشق تقع إلى الجنوب الغربى منها - للقاضى عبد الجبار الخولانى الدارانى (ت بين سنة ٣٦٥ ، سنة ٣٧٠هـ) ، وكتب الأثرى الحلبى (ت ٥٤٢هـ) كتابا فى تاريخ حلب من سنة تسعين وأربعمائة يتضمن أخبار الفرخ وأيامهم وخروجهم إلى الشام من السنة المذكورة وما بعدها إلى حدود سنة ٥٢٥هـ سماه المفوف ، وهو على وجه التقريب الكتاب الأول والوحيد المعاصر فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى من الجانب الإسلامى ، وصاحبه شاهد على الأحداث قريب منها ، ويبدو للأسف أن هذا الكتاب قد ضاع فيما ضاع من تراث تلك الفترة .

ووضع ابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ) الكتاب المعروف باسم « ذيل تاريخ دمشق » كما وضع العظمى السابق كتابا فى تاريخ حلب ، وألف ابن عساكر المحدث الدمشقى المشهور تاريخه الضخم المعروف لمدينة دمشق وعلمائها ، ووضعت كتب فى فضائل القدس ومكة والمدينة وعسقلان وغيرها ، وكتب العماد الأصفهانى تاريخ دولة آل سلجوق وابن الأثير التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، وابن أبى طى سلك النظام فى تاريخ الشام وسيرة ملوك حلب ، والمقدسى (ت ٦٤٣هـ) فضائل الشام ، ووضع القفطى فى تاريخ الأقاليم ثلاثة كتب : فى تاريخ مصر إلى أيام صلاح الدين واليمن إلى عهده وفى تاريخ المغرب ، وفى تاريخ الدول وضع أربعة كتب هى : الإيناس فى تاريخ بنى مرداس ، وتاريخ البويهيين ، وأخبار السلجوقية ، وتاريخ محمود الغزنوى وبنيه . كما ألف ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) أشهر كتابين فى تاريخ مدينة حلب وهما بغية الطلب على التراجم ووضع له مقدمة فى جغرافية المدينة والمنطقة وكتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب وهو فى التاريخ السياسى .

ونظراً لتعدد أجناس وقبائل الشام فى ذلك العصر - كما سبقت الإشارة - فقد

برر أثر ذلك في مجال التأليف ، فأرخ بعض المؤرخين لأقوامهم التي انتسبوا إليها كما فعل الأثري في أخبار تميم وأيامهم وابن منقذ في تاريخ آل منقذ وابن العديم في الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة ... وغيرها .

وفي ميدان الحروب الصليبية حمل لواء الجهاد أبطال مشهورون نالوا إعجاب جمهرة المسلمين . ودون المؤرخون أخبارهم ، فوجدنا مجموعة من كتب السير والمذكرات تظهر في تلك الفترة منها : الاعتبار لأسامة ابن منقذ (ت ٥٨٤هـ) ، أحد أبطال هذه الحروب والكتاب سيرة ذاتية لحياته . ودون القاضي الفاضل (٥٩٦هـ) كاتب صلاح الدين ووزيره - الذي قيل إن قلمه كان يعدل سيف صلاح الدين - مذكراته التي عرفت بالمتجددات أو تاريخ الماجريات ، ويدي أحد الباحثين^(١) عجبه من أن الرجل لم يحد حذو زميله العماد الأصفهاني - كاتب صلاح الدين أيضاً - فيدون ما عرف من أمور السياسة والتاريخ في عصره ، وقد كان في قمة الأحداث .

ويبدو لي أن الرجل كما يظهر من سيرته كان تقياً عزوفاً ، فربما أحزنه ما آلت إليه الأمور بعد وفاة صلاح الدين من خلاف بين أبناء البيت الأيوبي مما أدى إلى تمزق الجبهة الإسلامية الموحدة التي شارك قلمه سيف صلاح الدين في تشييدها ، فآثر الرجل الانسحاب من الحياة العامة ولم يسع لصحبة أولى الأمر ، وربما صده ذلك أيضاً عن أن يضع المؤلفات الكبيرة عن عصره على غرار ما فعله زميله العماد . ربما قوى هذا الظن الذي ذهبت إليه أن رفاق صلاح الدين الثلاثة الفاضل والعماد وابن شداد ، قد اختلفت أحوالهم بعد وفاة صلاح الدين ، فابن شداد - ستأني ترجمته - توجه بعد وفاته إلى حلب سنة ٥٩١ هـ حيث عينه صاحبها الملك الظاهر ابن صلاح الدين وزيراً وقاضياً له ، وحاول جمع كلمة أبناء صلاح

(١) انظر : د. شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٣ سنة ١٩٨٧ م ص ١٩٣ . وعن القاضي الفاضل انظر مثلاً : السبكي طبقات الشافعية الكبرى تحقيق عبد الفتاح محمد الحلوم مطبعة الحلبي ط ١ ج ٧ ص ١٦٦ - ١٦٨ ،

Sir Hamilton Gibb : The life of Sala din from the works of Imad Ad - Din and Baha Ad - Din, Oxford 1973, Page . 4 .

الدين وتطلب ذلك قيامه بسفارات عديدة ، وظل متمتعاً بمنزلة كبيرة أيام الظاهر وابنه العزيز ، ولما بلغ العزيز هذا سن الرشد استقل بالحكم واستولى عليه جماعة من الشباب ، فلزم ابن شداد داره مع احتفاظه بوظيفته ونشاطه في التدريس إلى أن توفي سنة ٦٣٢ هـ ، أما العماد الأصفهاني - ستأني ترجمته أيضاً - فكان بطبعه كاتباً وأديباً وصاحب تآليف ، فلما توفي صلاح الدين حاول أن يستأنف سابق جاهه ومنزلته ولكن الأمور تغيرت عليه ، فلزم داره وانكب على استئناف مهنة الكتابة والتآليف ، نعرف هذا من سيرته ونستشفه من قوله : « وحالت حالي وزال إدلالى وزاد بلبالى وبطل حقى واتسع خرقى وتنازل جاهى وتنازق أشباهى ... وظن الفنى عنى وانخلف فى ضن الإخلاف بى ظنى ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر بعزم تأتبه وحزم تأتبه وعز تأتبه ، فعرف افتقاره إلى معرفتى وفقرى والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب درى ونضارة حلى درى فكتبت له وحليت من الملك عطلة ووشيت الكتب ووشعتها وجليت الرتب ووسعتها وهزرت البراعة وأغزرت البراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة » (١) .

أما القاضى الفاضل فإنه قد هالته الحال فلزم داره كلية ، حتى إنه استدعى مرة حين اشتد الخلاف بين خلفاء صلاح الدين سنة ٥٩١ هـ ليعالج الموقف بسداد رأيه فحاول حتى وقع الصلح ، فلما تجدد الخلاف وطلبت مشورته مرة أخرى امتنع وظل معتزلاً حتى توفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ (٢) .

وفى مجال السير والمذكرات ، سجل العماد الأصفهاني السيرة العسكرية لصلاح الدين فى كتابه « البرق الشامى » والفتح القسى فى الفتح القدسى ، وكتب ابن أبى طى كثر الموحدين فى سيرة صلاح الدين وعقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر - ابن صلاح الدين - ودون ابن شداد سيرته المشهورة لصلاح الدين

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ط ليدن ١٨٨٨ م ص ٤٥٥ .

(٢) انظر : د. نظير حسان سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٢ م ص ٣٣ . ولد الفاضل بعسقلان بالشام ورغم أنه عاش ومات بمصر ، ومع ذلك أوردت ذكره فى هذه الدراسة لنفس السبب الذى أدخلت به أعمال ابن الأثير فى هذه الدراسة ، وسوف أشير لذلك فى التمهيد لهذه الدراسة عند الحديث عن نطاق البحث .

تحت عنوان : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

وقد سبق الذكر أن بلاد الشام حفلت في تلك الفترة بالنظر لظروفها السياسية والحضارية بعيد من العلماء من شتى المذاهب التي غيت بها البلاد في ذلك الوقت ومن الأدباء والشعراء ، وقد وضعت في تراجم هؤلاء وأولئك المعاجم الكثيرة وكتب الطبقات مثل : جامع الوفيات لابن الأكفاني ، ووضع ابن عساكر فضلاً عن تراجم تاريخ دمشق معجماً للشيوخ وللنساء وغير ذلك وكتب ابن منقذ كتاب شعراء الشام وابن صصري الفقيه الشامي تلميذ ابن عساكر (ت سنة ٥٨٦هـ) معجم الشيوخ والعماد الأصفهاني خريدة القصر وجريدة العصر وذيل الخريدة في تراجم الشعراء والأدباء في زمانه ، كما ألف ابن شاهنشاه كتاباً في طبقات الشعراء والمقدي (ت سنة ٦٠٠هـ) كتاب الكمال في معرفة الرجال وياقوت الحموي معجم الأدباء وكذا فعل ابن أبي طي في تراجم الأدباء والشعراء ورواة ومصنفي الشيعة وطبقات الإمامية . وابن أبي الدم في التاريخ المقفى وهو في مجلدات عديدة على التراجم وابن الصلاح في طبقات الشافعية وللقفطي أربعة كتب : أخبار النحويين ، والمحمدون من الشعراء وإنباه الرواة إلى أنباه النحاة وإخبار العلماء بأخبار الحكماء .

وفي الجوانب الحضارية والإدارية والنظم والتعليم السياسي كتب مؤرخو الشام في تلك الفترة كتباً عديدة مثل : نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري (ت ٥٨٩هـ) ، أدب السياسة لابن الأثير ، والمنهج المسلوك في سياسة الملوك للمؤلف نفسه والعقد الفريد للملك السعيد للحفار النصيبني (ت ٦٥٢هـ) ، بل إننا نجد أميراً أيوبياً محباً للعلم والعلماء ، هو ابن ندى الجزري بن صاحب شمس الدين محمد الأيوبي أمير الجزيرة ودمشق (توفي بدمشق سنة ٦٥١هـ) يبدو أنه كان مهتماً بالفكر السياسي ، إذ نجد له ستة مؤلفات في هذا الموضوع ضاعت كلها للأسف وهي : لطائف الواردات ومعالم التدبير ومرآة الملك وضوابط الملك ووظائف الرئاسة والتذكرة الملوكية .

بل إن هؤلاء المؤرخين قد أدلوا بدلوهم في ميدان الجغرافيا وكتب الرحلات نجد ذلك مثلاً لدى ياقوت الحموي في معجم الأدباء والمشارك وضعاً والمفترق

صقعا ، وابن أبي طى فى اشتقاق أسماء البلدان وابن حمويه (ت ٦٤٢هـ) فى المسالك والممالك .

ونعثر فى هذه الفترة على تأليف فى تواريخ العلوم لدى القفطى فى أخبار المصنفين وما صنّفوه والسرورى الطبرسى (توفى بحلب سنة ٥٨٨ هـ) فى معالم العلماء وهو فهرس بكتب الشيعة وأسماء المؤلفين مما يشير إلى تأثير تعدد المذاهب الموجودة ببلاد الشام على حركة التأليف التاريخى فى ذلك الوقت وإغنائه لها .

هذا إذن سجل سريع لأبرز ملامح واتجاهات الحركة التاريخية ببلاد الشام خلال فترة الدراسة (٥٢١ - ٦٦٠هـ) ، يظهر مدى غناها وتنوعها وتعبيرها إلى حد كبير عن الظروف التاريخية لتلك المنطقة خلال ذلك العهد ^(١) .

رابعاً : نطاق البحث :

يتحدد مكان هذه الدراسة ببلاد الشام والتي تمثلها الآن دول سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، هذا التحديد فقط من أجل توضيح المعالم ، ولكن المعروف أن ميدان الثقافة والمعرفة بالذات ليس مجالاً للتحديد الصارم ، بمعنى أنى لا أشرط - فى هذه الدراسة - فيمن يمثل تلك الحركة التاريخية بهذه المنطقة من المؤرخين أن يكون شامى المولد والنشأة والمعيشة والوفاة ، إذ لو اشترطت ذلك لأخرجت من نطاق الدراسة مجموعة من أبرز مؤرخى هذه الفترة ولدوا ونشأوا فى غير الشام ثم جاءوا إليها وسجلوا تاريخ أحداثها بل شاركوا أحيانا فى صنع هذه الأحداث ، ولعل

(١) عن الحركة التاريخية ببلاد الشام فى تلك الفترة ، انظر مثلا : د. أحمد بدرى الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٥١ - ٢٨١ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربى ، الجزء السادس ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، د. رمضان عبد التواب ، دار المعارف ط ٢ ص ٥ - ١٥٠ صفحات متفرقة ، د. شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ ط ٢ سنة ١٩٨٧م ص ٢٣٣ - ٢٦٦ ، ٢٨٥ - ٣٠٣ ، د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى الأول ، دار الفكر العربى ، ط ١ ص ٢٩١ - ٣١٢ صفحات متفرقة ، Claude Cahen : La syrie du nord AL' epoque descroisades, Paris 1940, Lessources arabes, PP. 33 - 93 .

أبرز أمثلة ذلك العماد الأصفهاني الأصل وابن شداد الموصلى ، وعلى هذا لا ضير أن تتقبل هذه الدراسة مؤرخين ليسوا شامى الأصل ولكنهم ألموا ببلاد الشام فترة من حياتهم وبرزوا فيها . والعبرة بالأثر ، فالمرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ، بل إنها تتقبل من ليسوا من أصل شامى ولم يقيموا بالشام فترة طويلة ، وإنما زاروها لماماً بغرض العلم أو الجهاد ، ولكن أحداث الشام كانت دافعاً لهم على وضع مؤلفاتهم أو أن هذه المؤلفات ركزت على رواية تلك الأحداث واهتمت بتفاصيلها بحيث صارت مصادر أساسية لا غنى عنها لدارس تاريخ الشام فى تلك الفترة . ولعل أوضح مثال لذلك هو المؤرخ الموصلى عز الدين ابن الأثير صاحب الكامل والباهر وغيرهما .

وتحدد بداية الفترة الزمنية للدراسة ببداية العهد الزنكى وبالتحديد عام ٥٢١هـ وهو العام الذى ولى فيه عماد الدين زنكى الموصل من قبل السلاجقة - كما سبق الذكر - وهو تاريخ يتواكب تقريباً مع بداية التأريخ لأهم حدث ألم ببلاد الشام فى ذلك العهد وهو الحروب الصليبية . إذ إنه فى غضون هذه السنوات تقريباً ألف ابن حمدان الأثارى الحلبى (ت ٥٤٢هـ) الكتاب الوحيد المعاصر للحملة الصليبية الأولى لدى الطرف الإسلامى وألم فيه بأحداث خروج الصليبيين للشام وما تلا ذلك إلى حوالى سنة ٥٢٥هـ وهو كتاب « المفوف » فى تاريخ حلب^(١) فضلاً عن أن هذه السنة تعتبر - كما قلت - بداية العهد الزنكى الذى بدأ حركة المقاومة ضد الصليبيين بعد أن كسبوا الجولة الأولى وأقاموا إمارات لاتينية لهم بالشرق . هذه المقاومة التى شحذت كثيراً من أقلام المؤرخين للتسجيل والمتابعة ، وتحدد نهاية الفترة بنهاية العهد الأيوبى الذى خدم مؤسسوه لدى أصحاب البيت الزنكى ثم ورثوا أملاكهم وخلفوهم فيها وحملوا بعدهم راية الجهاد حتى قوضوا البنيان الصليبي ببلاد الشام بحيث لم يبق منه سوى النزر اليسير الذى سهل على المماليك أصحاب الأمر بعد الأيوبيين التخلص منه . فعلى وجه التحديد تنتهى الدراسة بعام

(١) انظر : د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، ج٢ ص ٢٢٦ ، والمفوف ثياب رقيقة مخططة . انظر المعجم الربيط مادة (فاف) .

٦٦٠ هـ ، وهو تقريباً العام الذي حل فيه النفوذ المملوكى محل السيادة الأيوبية على الشام ، حيث خلص المماليك أملاك الأيوبيين بالشام من أيدي المغول الذين اكتسحوها عام ٦٥٨ هـ ، وكان هؤلاء المماليك قد أقاموا دولتهم بمصر على أنقاض دولة الأيوبيين سنة ٦٤٨ هـ ، كما سبقت الإشارة .

فهذه الدراسة تقتصر على العهدين الزنكى والأيوبي من عصر الحروب الصليبية (٥٢١ - ٦٦٠ هـ) وتتبقى من هذا العصر الفترة الداخلة ضمن العصر المملوكى الأول .

وبناء على العرض الموجز المذكور آنفاً للحركة التاريخية والإنتاج التاريخى لبلاد الشام فى تلك الفترة ، ورغم أن هذا العرض ربما فاتته أشياء لم يذكرها ، إلا أنه قد أوضح غزارة إنتاج المنطقة التاريخى فى تلك الفترة ، ولكن هذا التراث لم يصل إلينا بالطبع إلا أقله ، وبناء على هذا الموجود بالفعل وبناء أيضاً على المفاضلة بين اتجاهات الكتابة التاريخية التى شكلت هذه الحركة التاريخية واختيار أقربها للتاريخ ، فقد بنيت هذه الدراسة على ثلاثة اتجاهات ، عرفت بكل منها وعرضت موجزاً لتاريخ التأليف فيه وصولاً إلى فترتنا . ثم اخترت من مصادر الفترة ما يمثله ودرسته دراسة تطبيقية ترجمت فيها للمؤلف بإيجاز لأن المعلومات فى هذا الصدد متوافرة غالباً بكتب التراجم ، ثم ركزت على دراسة مضمون الكتاب ومصادره ومنهجه وأهميته ، مما ساعد فى الكشف عن اتجاهات مؤرخى تلك الفترة وملامح حركتها التاريخية ، ثم ختمت بفصل قارنت فيه بين المصادر المدروسة وأوضحت ملامح الحركة مجتمعة كما بدت لى . أما الاتجاهات الثلاثة المختارة فهى :

التاريخ العام ومثلت له بكتب : مضمار الحقائق وسر الخلائق لابن شاهنشاه والكامل فى التاريخ لابن الأثير والتاريخ المنصورى لابن نظيف الحموى والتاريخ المظفرى لابن أبى الدم ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى .

والتاريخ الإقليمى ، كتاريخ الدول أو الأسر ، ومثلت له بكتابين هما : تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهانى ، والتاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية لابن الأثير . وتاريخ المدن ومثلت له أيضاً بكتابين هما : الكتاب المسمى بـ ذيل تاريخ دمشق .

لابن القلانسي وكتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم .

والسير والمذكرات مثلت لها بكتب : الاعتبار لابن منقذ والبرق الشامي ،
والفتح القسي للعماد الأصفهاني والنوادر السلطانية لابن شداد .

لعل هذه المصادر المدروسة تمثل أبرز ما أنتجت الحركة التاريخية في بلاد الشام
في تلك الفترة وأقربها للتاريخ ، ولعل المتروك لا يغير كثيراً من ملامح هذه الحركة
كما ينتها دراسة هذه المصادر .

ويبقى أن أشير إلى أن الدراسة اقتصرت على تناول الإنتاج المكتوب باللغة
العربية ، ومن ثم فلا يدخل في نطاقها ما قد يكون أنتجه المؤرخون المصاحبون
للحملات الصليبية من الغرب أو غيرهم بغير العربية .

وأكرر هنا أنني ركزت في هذه الدراسة على دراسة المؤلفات التاريخية لا
المؤرخين أنفسهم ، إذ الحديث عنهم متناثر في بطون الكتب - وبعضهم كتب عنه
كثيراً - فألمت بأبرز ما في حياة كل منهم .



مكتبة
المفتدين

الفصل الأول التاريخ العام



أول : مدخل : « مفهوم الانجاء وتطور حركة التأليف فيه » :

(أ) مفهوم مصطلح « التاريخ العام (أو العالمى) » :-

يقصد بهذا المصطلح فى التراث التاريخى الإسلامى أن يبدأ المؤلف كتابه - فى الغالب - بالحديث عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة ، ثم يتوالى حديثه عن أم ما قبل الإسلام - بما فيها العرب - متابعاً سلسلة الأنبياء والأحداث الكبرى ، وعادة ما يأخذ تاريخ الأمم الأخرى كالفرس والروم والهنود قبل الإسلام لدى المؤرخ طابعا ثقافيا لقلة الأخبار الواردة عن التاريخ السياسى^(١) ، وذلك على سبيل المقدمة للتاريخ الإسلامى ، ثم يتابع المؤرخ أخبار العالم الإسلامى إلى عصره .

ومن هنا يلاحظ أن مصطلح « التاريخ العام » يطلق على هذه المؤلفات فى شىء من التجاوز ، لأن المؤرخ ما إن يبدأ فى سرد حوادث تاريخ الإسلام حتى يهمل أمر تواريخ الأمم الأخرى عدا أخبار متفرقة هنا وهناك ، أى يتحول المؤلف إلى تاريخ عام للعالم الإسلامى فقط . وفى هذا يقول بعض الباحثين : « وكتب أولئك المؤرخون بإيجاز أو بإسهاب تاريخ العالم بادئين به منذ الخليقة . وجاعلين ذلك الملخص مقدمة للتاريخ الإسلامى . غير أن مما تجدر الإشارة إليه أن ما كتبه أولئك المؤرخون عن تاريخ العالم (كمقدمة للتاريخ الإسلامى) ليس تاريخا بالمعنى الذى يدل عليه المفهوم الحديث لذلك العلم ، لأنه ما أن يبدأ المؤرخ بتدوين الحوادث التى تعود لتاريخ الإسلام حتى يهمل كل شىء سواه يتعلق بتاريخ الأمم الأخرى ، (٢) .

(١) انظر : فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة د. صالح أحمد العلى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢ سنة ١٩٨٣ م ، ص ١٢١ .

(٢) د. نور الدين حاطوم ، نبيه عاقل ، أحمد طربين ، صلاح مدنى : المدخل إلى التاريخ ، مطبعة الإنشاء بدمشق سنة ١٩٦٤ م ص ٢٨٤ ، وربما قصد بكلمة المفهوم الحديث « هنا الاتجاه لكتابة تاريخ العالم ككل وهو ما تمثله موسوعات تاريخ العالم الحديثة فى الغرب كقصة الحضارة لدهورانت وغيرها ، وإن ركزت هذه الموسوعات أيضاً - فى الغالب على دور شعوب بعينها فى صنع التاريخ كشعوب أوروبا .

(ب) دواعي ظهور هذا الاتجاه :

لعله من نافلة القول أن أذكر هنا أن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا الوحدة السياسية أو يتضوا تحت لواء دولة واحدة تجمع شملهم . وبعد مجيء الإسلام بفترة قصيرة وجد العرب أنفسهم على قمة دولة مترامية الأطراف ، وعوضت خبرة الشعوب المفتوحة نقص الخبرة السياسية والإدارية لدى العرب ، وتكونت الأمة الإسلامية الموحدة التي دعا إليها الدين الجديد ، وأحست هذه الأمة الوليدة بحاجتها إلى معرفة تاريخها وتاريخ غيرها من الأمم المجاورة ، وقد تحدث القرآن الكريم والأحاديث النبوية عن هذه التواريخ كثيراً ، واتسع أيضاً نطاق دار الإسلام مما أوجد حاجة ملحة لمتابعة أخبار أطرافها المتعددة ومناطقها المختلفة ، كان هذا على ما يبدو سبباً رئيسياً - إلى جانب عوامل أخرى كعالمية رسالة الإسلام ووضع التقويم الهجري والرغبة في المعرفة في حد ذاتها^(١) - في ظهور فكرة التاريخ العام (أو العالمي) لدى كتاب التاريخ الإسلامي .

وانظر في هذا أيضاً : د. عبد الله محمد جمال الدين : نشأة التاريخ الإسلامي في الأندلس ، بحث منشور بحوليات كلية دار العلوم ، العدد ١٣ سنة ١٩٩١م ص ١٤٩ .
وقد حاولت تأصيل مفهوم هذا المصطلح من خلال المصادر القديمة التي تتناول حركة التأليف التاريخي كالإعلان بالتوبيخ للسخاوي وكشف الظنون لحاج خليفة وغيرهما ولكني لم أجد طلبتي ، وحتى المراجع الحديثة لم تحدد ذلك بشكل دقيق . وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحد الباحثين أوضح أن التسمية المثبتة هنا لصاحب كشف الظنون وهي « حاج خليفة » هي الصواب وأن « حاجي » نطق خاص بالأترك .

انظر : عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح ، الدراسات التاريخية في مصر في القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير بدار العلوم سنة ١٩٩٢م مج ٢ ص ٤٠٧ ، وهو ينقل هنا عن : د. محمود محمد الطناحي : الموجز في مراجع الترجمة والبلدان والمصنفات وتعريف العلوم ، مكتبة الخانجي سنة ١٩٨٥م .

(١) في تفصيل ذلك انظر : د. شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ج١ ص ٥٧ وما بعدها ، د. عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت سنة ١٩٦٠م ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، د. قاسم عبده ، الرؤية الحضارية للتاريخ ، دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٨٥م ص ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

(ج) بداية ظهور هذا الاتجاه وتطور حركة التأليف فيه :

تأخر ظهور هذا الاتجاه في ميدان الكتابة التاريخية عند المسلمين عن الاتجاهات الأخرى المبكرة في التأليف كالأنساب والمغازي والسير ، ومن المعروف أن بداية الكتابة التاريخية الفعلية قد تأخرت لما بعد ظهور الإسلام بفترة نظراً لضآلة معارف العرب التاريخية قبل الإسلام ، فضلاً عن أن تبلور هذه الكتابة في اتجاهات واضحة في ذلك الوقت حيث لم يتوافر لديهم الحس والشعور التاريخي بصورة قوية^(١) ، ويعتبر أحد الباحثين^(٢) أن معارف من أسلم من اليهود مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحرار والتي كانت تتخذ كوسيلة لتفسير وتفصيل ما أوجز القصص القرآني حول خلق العالم وتاريخ الأنبياء قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - هذه المعارف صورة بدائية للتأليف في تاريخ العالم ، بينما يرى آخر أن مجالس السمر التي كان يعقدها « معاوية بن أبي سفيان » حيث يقص عليه « عبيد بن شربة »^(٣) وغيره سير الملوك ومكائدهم وأخبار المتقدمين ، كانت نمطاً من الأخبار التي مهدت لظهور التواريخ العامة ، يقول : « ولكن بعض الخلفاء ، مثل معاوية بن أبي سفيان ، رأى أن التاريخ بما يحويه من رصيد في التجارب السياسية للشعوب

(١) لاستيضاح ذلك انظر : د. شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ١ ص ٥٢ - ٥٦ ، د. عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ١٣ - ١٨ ، فرائز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٢٩ - ٢٨ .

(٢) انظر : فؤاد سيزكين : تاريخ التراث العربي ، ترجمة د. محمود فهمي حجازي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٩٨٣م مج ١ ج ٢ ص ١١٩ .

(٣) عبيد بن شربة الجرهمي أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يسمع منه وعاش في زمان معاوية ووفد عليه من اليمن فسأله معاوية عن الأخبار المتقدمة فأجابه فأمر أن يدون عنه وينسب إليه ، وعاش إلى أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦) هـ ، وله من الكتب : كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين وهو مطبوع . انظر في ترجمته : محمد بن إسحق النديم : الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان سنة ١٩٧٨م ، ص ١٢٢ . ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم الأدباء ، نشر دافيد صمويل مرجليوث مط دار المأمون ج ١٢ ص ٧٢ - ٧٨ ، د. شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ١ ص ١٢٦ .

الأخرى يمكن أن يعينهم على مشكلات الحكم ، لقد ذكر المسعودي^(١) صاحب مروج الذهب أن معاوية كان يقضى ثلث الليل يستمع إلى ... سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ... ومن نتائج هذه المجالس السمرية التي كان يعقدها معاوية ظهرت الروايات التاريخية المنسوبة إلى عبيد بن شربة والتي كانت نمطاً من الأخبار التي مهدت لظهور التاريخ العام^(٢) .

ومن الباحثين أيضاً من يذهب إلى أن التراث النسبي عند العرب قبل الإسلام والذي لم يقتصر على الأفراد أو الأسر بل امتد ليشمل العشائر والقبائل وما إلى ذلك ، هذا التراث يمكن أن يعد من العوامل التي مهدت لقبول نظرة التاريخ العالمي في الفكر الإسلامي^(٣) .

فإذا تجاوزنا هذه الآراء النظرية المعقولة ، وأتينا مباشرة إلى بداية التأليف الفعلي في هذا الاتجاه ، وجدنا أن الباحثين يكادون يتفقون على أن ذلك كان مع بداية القرن الثالث الهجري تقريبا ، حيث استتبت الفتوحات الإسلامية وتمت حركة ترجمة العلوم واتسع أفق المؤرخ ليصبح ذا نظرة شاملة . يقول أحدهم : لقد صاحب التاريخ للأنساب والمغازي والسير ، التأليف في التاريخ العام للدولة الإسلامية ، ولما كان التأليف في الأنساب والمغازي والسير يعتمد اعتمادا كلياً على تاريخ العرب والإسلام فقط ، لذلك فقد وجد منذ نشأة الدولة الإسلامية في عهد الراشدين ، أما التاريخ العام الذي شمل تاريخ جميع الشعوب التي دخلت في الإسلام كما شمل تاريخ جميع العلوم والمعارف فلم يبدأ إلا بعد حركة ترجمة

(١) علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي (ت ٣٤٥ هـ) من ذرية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، رحالة بحالة من أهل بغداد ، أقام بمصر وتوفى بها ، ورحل إلى فارس وكرمان والصين وغيرها ، وله مصنفات كثيرة أشهرها « مروج الذهب » مطبوع . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء تحقيق إبراهيم الزبيق وآخرين ، مؤسسة الرسالة ط ٢ سنة ١٩٨٤ م ، ج ١٥ ص ٥٦٩ ، خير الدين الزركلي ، الأعلام ط ٣ ج ٥ ص ٨٧ .

(٢) د. قاسم عبده ، الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٣٤ - ٣٥ .

العلوم التي تمت في بداية القرن الثالث الهجري^(١).

وربما كان أول كتاب في التاريخ العام هو الكتاب المنسوب للهيثم بن عدى^(٢) وهو تاريخ على السنين^(٣). ثم يخطر هذا النوع من المؤلفات خطوات سريعة نحو النضج على يد خليفة بن خياط (ت حوالي ٢٤٠ هـ) في كتاب التاريخ ولعله أقدم كتاب بين أيدينا لتاريخ الإسلام مرتب على الحوليات، وابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) في كتاب «المعارف»، وأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ) في «الأخبار الطوال»، واليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م تقريباً) في كتاب «التاريخ» إلى أن يكتمل بناؤه على يد المؤرخ الكبير ابن جرير الطبري^(٤) في كتاب تاريخ الرسل والملوك ثم يتابع هذا

(١) د. أحمد رمضان أحمد: تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ م، ص ١٦٥. وانظر كذلك: د. السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر سنة ١٩٦٧ م، ص ٨٧، ٨٨، د. شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون ج ١ ص ١٨٤، فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الثعلبي الطائي البحتري الكوفي (ت ٢٠٧ هـ) مؤرخ عراقي عالم بالأنساب والآداب، اختلف بمجالسة المنصور والمهدى والهادي والرشيد وروى عنهم وهو عند علماء الحديث ليس بثقة، وله كثير من المؤلفات منها: تاريخه المرتب على السنين، وأخبار زياد بن أبيه، لتظهر في ترجمته: ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان، ط ٢ سنة ١٩٧١ م ج ٦ ص ٢٠٩ - ٢١١، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان، ط ٢ سنة ١٩٧٠ م ج ٢، ص ٣٢ - ٣٤، خير الدين الزركلي الإعلام ط ٣ ج ٩ ص ١١٤، ١١٥.

(٣) سيرد الحديث عن طريقة التاريخ على السنين عند الحديث عن الكتابة الحولية في هذا الفصل.

(٤) محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر الإمام المفسر المؤرخ، كانت ولادته سنة أربع وعشرين ومائتين على الأرجح بأمل طبرستان ووفاته سنة عشر وثلاثمائة ببغداد ورحل في طلب العلم إلى الري والبصرة والكوفة ومصر وغيرها وكان إماماً في الفقه والحديث وله التفسير المشهور باسمه وتاريخه المعروف بتاريخ الرسل (أو الأمم) والملوك، لتظهر في ترجمته: ابن خلكان: وفيات الأعيان تحقيق د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت لبنان مج ٤ ص ١٩١، ١٩٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ط ٤ ج ١ مقدمة المحقق، خير الدين الزركلي الإعلام ج ٦ ص ٢٩٤.

الاتجاه تطوره على مراحل ، فيأخذ طابعا فلسفيا يزاج فيه المؤلف بين الفلسفة والتاريخ ويحاول ربط الكون والحياة بنظرة كلية شاملة على يد المطهر بن طاهر في كتابه البدء والتاريخ الذي ألفه سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م . ثم يأخذ شكلا موسوعيا على يد المسعودي يمزج فيه بين التاريخ والجغرافيا في كتاب « مروج الذهب » ، ويشابه التاريخ الحضاري في كتاب تجارب الأمم لمسكويه (ت ٤٢١هـ) ، ثم يأخذ شكلا متوازيا بين الأحداث والتراجم لدى ابن الجوزي^(١) في « المنتظم في تاريخ الملوك » ، إلى أن يصل إلى الفترة محل الدراسة حيث تبلور صورته النهائية المتسقة لدى ابن الأثير^(٢) في كتابه المشهور « الكامل في التاريخ » ، وإلى جانب هذا المؤرخ الكبير تدلى مجموعة من المؤرخين متوسطي الشهرة بدلوها في هذا الاتجاه خلال هذه الفترة ومنهم : ابن شاهنشاه وابن نظيف وابن أبي الدم وسبط ابن الجوزي^(٣) .

(د) الكتابة الحولية مزايها وعيوبها :

اعتمد كثير من المؤلفات في التاريخ العام على الصورة الحولية في الكتابة التاريخية ، أي كتابة الأحداث وترتيبها على أساس تعاقب السنين ، وذلك مقابل الطريقة الموضوعية التي سارت عليها بعض المؤلفات كتاريخ اليعقوبي ومروج الذهب للمسعودي ، وهي ترتب المادة على أساس الموضوعات كعهود الحكام أو عناوين الحوادث .

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله القرشي البغدادي الحنبلي ، أبو الفرج ، انتهى نسبه إلى الصديق - رضي الله عنه ، محدث مفسر فقيه واعظ أديب مؤرخ من كبار المؤلفين وأئمة الروعاظ ، ولد ببغداد سنة ٥١٠هـ - تقريبا وتوفي بها سنة ٥٩٧هـ ، انظر : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ج٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ ، عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٥٨م ج٥ ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) سيرد التعريف به فيما بعد .

(٣) سيرد التعريف بهم فيما بعد .

وربما جاز هنا التوقف قليلا أمام مزايا هذه الطريقة وما يوجه لها من انتقادات، إذ يكاد يجمع الباحثون على أن الميزة الأساسية للطريقة الحولية أنها تمكن المؤرخ من تسجيل كل ما يعن له ويقع بين يديه من معلومات دون عائق فهو لا يفعل أكثر من أن يرصفها بعضها بجوار بعض في كل حول ثم يربط بين السنوات وبعضها بقوله « ثم جاءت سنة كذا » أو « ودخلت سنة كذا » . ولكن في المقابل يعترف هؤلاء الباحثون بأن هذه الطريقة غالباً ما تؤدي إلى تمزيق الحوادث الكبرى وتفتيت المعالم الرئيسية في مجرى التاريخ إلى جزئيات صغيرة تتلاشى بين غيرها من حوادث السنين ، حتى إذا جاء القارئ إلى جزء جديد منها في سنة جديدة نسي ما قد سبق من تفاصيلها (١) .

وهناك زاوية أخرى انتقدت من خلالها الطريقة الحولية ، وهي ظاهرة الافتقار إلى المنهجية وضمور روح النقد والتعليل والتحليل في المؤلفات الحولية ، يعبر عن ذلك أحد الباحثين بقوله : (ويعتقد بعض المؤرخين أن أسلوب المعالجة الحولية كان وراء فقر المنهج التاريخي عند معظم مؤرخي العصور الوسطى حيث تقوم تلك الطريقة على رصد الحقائق المجردة دونما صلة أو رابطة تجمعها) (٢) .. وهذا في الواقع ليس عيباً في الطريقة الحولية ، ولكن عيب في غالبية التراث التاريخي ، سواء ما صيغ منه على الطريقة الحولية أو الموضوعية أو غيرها ، ولعل الداعي إلى اختصاص الطريقة الحولية بذلك دون غيرها هو كون معظم المؤلفات التاريخية الضخمة - خاصة كتب التاريخ العام - اتبعت هذه الطريقة . ولذا فقد آثرت إرجاء مناقشة هذه المسألة إلى موضع آخر يأتي فيما بعد . إن شاء الله تعالى .

(١) في تفصيل ذلك انظر : د. السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٨٣ - ٨٥ ، عبد الرحمن حسين العزاوي : المنهج التاريخي عند المؤرخين العراقيين في العصر البويهي ، رسالة ماجستير بدار العلوم سنة ١٩٧٩ م ، ص ٢٤٧ - ٢٥١ .

(٢) د. محمود إسماعيل عبد الرازق : منهج المؤرخ ابن تغري بردي في كتاب النجوم الزاهرة ، مقال ضمن مجموعة أبحاث بعنوان المؤرخ ابن تغري بردي أعدتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م ص ١١٨ -

ثانياً : دراسة تطبيقية لمؤلفات تمثل هذا الانجاز (١) :

١ - كتاب « مضمار الحقائق وسر الخلائق » (٢) .

(أ) المؤلف :

الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب « حماة » ، عاصر عم أبيه السلطان « صلاح الدين الأيوبي » فترة حيث شارك هو وأبوه السلطان في حروبه وجهاده ، وعاش مرفهاً في إمارة أبيه ، ثم عاش القلق السياسي والنزاع مع أقربائه وغيرهم ، حتى استقرت إمارته على حماة وبعض البلاد الأخرى . وكان شجاعاً محباً للعلماء ، والفضلاء ، وكان مولعاً إلى جانب التاريخ بالأدب والشعر وله كتاب في طبقات الشعراء ويحتمل أن تكون سنة ٥٦٧هـ هي سنة ولادته ، وتوفي سنة ٦١٧هـ (٣) .

(ب) مضمون الكتاب :

يقع الكتاب في الأصل في مجلدات عديدة قد تصل إلى عشرة مجلدات (٤) ، ولكن ما وصل إلينا منه جزء ضئيل للغاية يشمل التأريخ لحوادث السنوات من ٥٧٥ إلى ٥٨٢هـ ويبدو أن هذه السنة لم تكن نهاية المضمون ، إذ ينقطع الكلام

(١) رتب دراسة هذه المؤلفات ترتيباً زمنياً حسب سني وفاة مؤلفيها ، وسأبع ذلك في بقية الدراسة

(٢) نارت شكوك حول نسبة هذا الكتاب لابن شاهنشاه ، ولكن المحقق د. حسن حبشي أثبت صحة هذه النسبة من خلال إشارات بالكتاب نفسه ولدى مؤرخي تلك الفترة ، في مقدمته للكتاب . انظر : ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق تحقيق د. حسن حبشي عالم الكتب سنة ١٩٦٨م .

(٣) انظر في ترجمته مثلاً : أبو شامة : الذيل على الروضتين نشر عزت العطار الحسيني ط ١ سنة ١٩٤٧م ص ١٢٤ ، د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ومقدمة المحقق لكتاب المضمون .

(٤) انظر : أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٤ ، الزركلي الأعلام ط ٣ ج ٧ ص ٢٠٤ ، مقدمة المحقق للمضمون ص ل .

في نهايتها وإن أشار المؤلف إلى نهاية كتابه بقوله : « خلافة الناصر لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وذكر مختصر من إياك ومحاسن سيرته وذكر ما تجدد للبيت الأيوبي من الفتوحات والغزوات وغير ذلك . والشام ومصر واليمن ، ذكرته مفصلاً اختتم به كتابي الموسوم بكتاب المضمار وبالله المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل » (١) .

ورغم أن المؤلف ساق أحداث كتابه - كما هو واضح من الجزء المتبقي - على نظام الحوليات ، إلا أن كل حديثه يدور حول ثلاثة محاور رئيسية هي : أخبار دار الخلافة ببغداد ، وأخبار صلاح الدين وما يتجدد له من فتوح وأعمال بمصر والشام واليمن ، ثم عناية فائقة وتفصيل دقيقة - ينفرد بها في الغالب - عن حملة قراقوش المظفري مملوك والده من مصر نحو الغرب ، وهناك بعض أخبار قليلة أوردها عن الموحدون في المغرب ، ربما لتأخمة حدودهم لنشاط قراقوش في شمال أفريقية (٢) .

(ج) مصادر الكتاب :

أ - الوثائق : وهي المستندات المعاصرة للتاريخ الذي تناوله كالرسائل الصادرة من ديوان الإنشاء في الحواضر إلى ولايات وأقاليم الدولة والمنشورات والسجلات والأحكام والفتاوى ونصوص المعاهدات والمخالفات وعقود البيع والشراء ، وغير ذلك ، وهي إما وثائق وسجلات رسمية صادرة مثلاً عن ديوان الإنشاء الذي كان يتولى إرسال الأوامر الصادرة من الخلفاء والسلاطين واستقبال ما يرد إليهم (٣) ، وإما أن تكون مجرد اتفاقات فردية كالعقود الشخصية (٤) .

(١) المضمار ص ٤ ، والناصر هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) .

(٢) السابق ص ٣٣ ، ٥٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٣) انظر : د. حسن حسبي : ديوان الإنشاء نشأته وتطوره مقال ضمن كتاب أبر العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م .

(٤) انظر : د. السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ص ١٣٣ .

يكثُر الاستشهاد بالوثائق في الكتاب ، حتى أن بعضها يغطى صفحات عدة وهي وثائق متصلة بالأحداث التي عاصرها المؤلف وشارك في كثير منها ، مما يعطى الكتاب أهمية بالغة ويجعل منه مع كتاب الفتح القسى للعماد الاصفهاني - والذي غطى فترة تالية له وحفل بالوثائق عنها أيضاً ، وستأتي دراسته - وثيقتين ناطقتين بأهم فترات جهاد صلاح الدين الأيوبي وأعماله . وقد أورد المضممار بعض وثائقه كاملة وبعضها بشكل جزئي^(١) ، ولعل من المناسب لإيضاح أمر وثائقه عن طريق الجدول التالي^(٢) :

(١) انظر صفحات ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ - ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، من كتاب المضممار .

(٢) وضعت هذا الجدول هنا وسيرد مثل ذلك مرة أخرى فقط خلال دراسة كتاب الفتح القسى للعماد فيما بعد ، وذلك دون بقية المصادر التي تناولتها الدراسة وسببه أنهما حافظان بالوثائق الواضحة المعبرة عن الأحداث ، أما بقية المصادر فالوثائق فيها - غالباً - قليلة مقارنة بهما وواردة - على الأكثر - بالمعنى مدمجة بين سطور الكتب .

الكاتب	موضوع الوثيقة	المُرسل إليه	المُرسل
—	بخصوص بيت الأحرار وهو حصن للفرج ومل بهجر السلطان المسلمين على هدمه بالقوة أم بترضاهم بمال طلبوه .	السلطان صلاح الدين	الملك المنظفرتقي الدين عمير والد المولف
—	بخصوص غارة لعز الدين فرخندها ابن أخى صلاح الدين على الصليبيين بهصفد (١) .	للخليفة الناصر بغداد (الديوان العزيز)	السلطان صلاح الدين
—	بخصوص شكر الديوان العزيز على تشريفات أرسلت له من قبل دار الخلافة .	للخليفة بغداد الأمير معين الدين عبيد الرحمن بن اتر	السلطان صلاح الدين السلطان صلاح الدين
—	بأمره أن يكون في مساعدة الملك المنظفرتقي الدين عمر ، الذى أمره السلطان بالتأهب وانتظار مجيئه إليه بالشام من مصر وذلك حين سمع السلطان بوفاة الملك الصالح بن نور الدين محمود صاحب حلب سنة ٥٧٧هـ .	صاحب الروندان (٢) مجد الدين ابن الصاحب	السلطان صلاح الدين
—	بهدف فيها بلاهه فى الإسلام وجهاده ونهيجته للدولة العيسابية ويذكر فيها غدر المراسلة .	أساة دار الخلافة موظفو الديوان	الناصر لدين الله السلطان صلاح الدين
—	مدارلات قصيرة بخصوص عدم استخدام كتاب من أهل اللمة فى الديوان .	الديوان العزيز (الخلافة)	السلطان صلاح الدين
القاضى الفاضل	بخصوص اجتماع المراسلة وحلفائهم على حرب السلطان سنة ٧٥٨هـ .		

الكاتب	موضوع الوثيقة	المرسل إليه	المرسل
القاضي الفاضل والمعاد الاصفهاني	فصول متفرقة للتهنئة بفتح امد ^(٣) . بخصوص البشارة بفتح حلب وتملكها سنة ٥٧٩هـ . نسخة منشورة بولاية الملك المظفر مصر واعمالها . نسخة منشورة بتولية الملك المعادل سيف الدين أخى صلاح الدين حلب واعمالها . بحث فيها على ارسال المساكر المصرية للجهاد سنة ٥٧٩هـ . أجزاء من كتاب بشرح فيها الأحوال الجارية .	بعض الأمراء الامصار	السلطان صلاح الدين السلطان صلاح الدين
والمعاد الاصفهاني	للبشارة بفتح مدينة صفاقين ^(٤) وعودة إلى الموصل وما جرى من الصلح .	الملك المظفر تقي الدين عمر مسجد الدين بن الصاحب أمشاذ الدار الأمامية (دار المخلافة) سيف الإسلام طفتكين أخى السلطان وملك اليمن .	السلطان صلاح الدين السلطان صلاح الدين

- (١) صفد : مدينة في جبال لبنان . انظر : مراصد الاطلاع ج٢ ص ١٦٠ .
(٢) الراندان : قلعة حصينة بكورة الجورة من نواحي حلب . انظر : مراصد الاطلاع ج١ ص ٤٥٦ .
(٣) امد : إحدى مدن الجزيرة بشمال المراق . انظر مراصد الاطلاع ج١ ص ٢٥٣ .
(٤) صفاقين : إحدى مدن الجزيرة كسابقتها ، وهي بفتح الأول وتشديد الثاني . السابق ج٢ ص ١٨٢ .

ومن تحليل الجدول السابق يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

(١) كل الرسائل ما عدا اثنين موجهة من طرف السلطان صلاح الدين الأيوبي ذى النشاط الفعال فى هذه الفترة مما يبرز أهمية الكتاب كوثيقة عن فترة من عصره وجهاده كما ذكرت من قبل .

(٢) حوالى نصف رسائل صلاح الدين موجهة إلى دار الخلافة (الديوان العزيز) مما يدل على مدى حرصه على كسب تأييد الخلافة لسياساته وأعماله لإضفاء الشرعية عليها خصوصاً فى مقابل منافسيه من المواصلة وغيرهم وإن كانت بعض هذه الرسائل قد وجهت باسم مجد الدين ابن الصاحب أستاذ دار الخلافة فى ذلك الوقت ، مما يوحي بتعدد مراكز النفوذ حول الخليفة وعدم استشاره بالسلطة ، وذلك بدهى فى عهد الضعاف من خلفاء بنى العباس .

(٣) مضمون الرسائل إما بشارة بفتح أو حث على مساعدة أو شكر للخلافة أو شكوى لها من الخصوم أو منشور بولاية ، فهى معاصرة للأحداث معبرة عنها وثيقة الصلة بها .

(٤) يلاحظ أخيراً أن المؤلف لم ينص على كتابى الوثائق أو الرسائل كالعماد الأصفهاني أو القاضى الفاضل إلا فى مرات محدودة .

ولم يستعمل المؤلف تقريباً - مصادر مكتوبة غير الوثائق ، أو لم يشر لذلك ، على الأقل فى الجزء المتبقى لنا من كتابه .

٢ - المعاصرة والمشاهدة والإطلاع الشخصى :

اعتمد المؤلف على هذا المصدر بصورة كبيرة إذ يشير فى عدة مواضع إلى مشاركته فى المواقع والأحداث - وفى ذلك فائدة عظيمة -^(١) . يقول مثلاً فى حصار حصن « بيت الأحزان » - الذى بناه الفرنج - سنة ٥٧٥ هـ : « فلما

(١) والغريب أن المؤرخين المعاصرين واللاحقين له لم يتردد ذكر المضمار لديهم كثيراً كمصدر أساسى فى تلك الفترة لأنه ربما لم ينتشر ذكره ، رغم أن ذلك مستبعد لمكانة المؤلف وشهرته .

أصبحنا يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور وقد تعالى النهار وإذا الجدار قد انقض ^(١) ويقول في موضع آخر : « وتوجهنا بعد ذلك إلى بعلبك وخيما بمرج عدوسة أياماً » ^(٢) .

« ولما وصلنا إلى حماة أمر والدى الملك المظفر بإحضار سباط لضيفة السلطان ، وأسبغ من إحسانه على جماعة من الأمراء والأجناد وربنا أحوال حماة ، ورحلنا منها .. » ^(٣) . « ثم توجهنا إلى مصر بالعسكر المصرى وذلك فى شعبان بمقتضى المنشور فسار فيها أحسن سيرة محمودة ، وأقام فيها منار العدل بأتم سياسة ^(٤) ، « فبينما نحن مقيمون فى حصارهم إذ وصلنا الخبر باجتماع الفرغ وتحاشدهم فى الموضع المعروف بالواله ، وكنا قد ضايقتنا الكرك أشد مضايقة » ^(٥) ، « ولما فتح السلطان ميفارقين ، فشرعنا حينئذ بتزيين البلدين : القاهرة ومصر ، وأرسلنا رسلنا إلى جميع البلاد المصرية بذلك ، وضربت البشائر فى جميع الأماكن وسررنا بما من الله تعالى عليه من النصر والظفر ، وخلع على المبشرين له بذلك ووفر عطيتهم وشرفهم » ^(٦) .

٣- السماع :

أورد المؤلف بعضاً من رواياته محكية عن أمراء وأصدقاء له ، يحكى عنهم مع عدم ذكر أسمائهم - فى الغالب - : « ولقد حدثنى من أتق به » ^(٧) .
« حكى لى بعض أصحابى ممن أتق به بعد ما أقسم بالله » ^(٨) ، وقد ينص

(١) المضار ص ٤٩ .

(٢) السابق ص ٩٧ .

(٣) نفسه ١٥١ .

(٤) نفسه ١٥٨ ، وهو هنا يتحدث عن والده الملك المظفر .

(٥) نفسه ١٨٩ .

(٦) نفسه ٢٢٢ ، والسلطان هنا هو صلاح الدين الأيوبي .

(٧) المضار ص ٣٧ .

(٨) السابق ص ٥٤ وانظر أيضاً ص ١١٥ ، ١٣١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ .

على اسم مصدره أحيانا : « فحكى أبو طالب صاحب باب المراتب عن استاذ الدار ابن الصاحب أنه سمع من الخليفة أنه قال ... » (١) ، « فذكر لنا أنه باع من ذخائرها من الغلات والحبوب والفرش المستعملات الآمدية والبسط والخيام سبع سنين ، وإنما ذكر ذلك ليعلم أن الدنيا بأسرها لم يكن لها عند السلطان قدر » (٢) .

ويلاحظ هنا أهمية كثير من رواياته السماعية بحكم نفوذه وجاء المروى عنهم وكونهم من الشخصيات العامة المطلعة على سير الأمور ، ولكن رواياته المسموعة - فى الغالب - أقل عددا وأهمية من مشاهداته ومشاركته . ولا نجد لدى المؤلف ذكرا - فى نطاق ما تبقى لنا - للمصادر الأخرى كالمؤلفات السابقة عليه أو المعاصرة له أو الآثار مثلا أو غيرها ، وربما وجدت فى الأجزاء الضائعة من الكتاب .

(د) منهج المؤلف فى كتابه :

من خلال دراسة الكتاب يمكن الوقوف على عدة ملامح يتسم بها منهج المؤلف فى كتابه ، ففى حديثه عن أخبار دار الخلافة يقدم تفاصيل دقيقة نخرج منها بانطباع مؤداه أن هذه الدار قد تفسى الفساد فيها واستشرى وأن هذا الكيان المهيب (الخلافة) أجوف أخرق رغم المظاهر والأبهة ، فالسرادق العظيم يضرب ، والأمراء والمماليك وأرباب الدولة يخرجون خيامهم فتضرب هناك ويركبون متأهبين للخدمة الشريفة ، ذلك كله لأن الخليفة خارج إلى ظاهر بغداد للصيد ، يقول : « وفيها أمر بإخراج السرادق الشريف ، وكان سرادقا عظيما لم يعمل مثله ، وكان من الأطلس المختلف الألوان ، وأمر أن يضرب السرادق عند الكشك الحديد قريبا من الميدان ، وأن يخرج الأمراء والمماليك وأرباب الدولة خيامهم فتضرب هناك وتقدم إلى أرباب الدولة أن يتأهبوا للركوب فى الخدمة الشريفة وأن يحضروا إلى باب النصر ، وركب الناس لامثال الأمر ، وذلك فى زوال شهر ربيع الأول من السنة

(١) نفسه ص ١١٥ .

(٢) نفسه ص ١٢٩ ، والحديث هنا عن الأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان الذى سلمه صلاح الدين الأيوبي مدينة أمد بعد فتحها سنة ٥٧٩هـ .

وحضروا إلى باب النصر ففتح لهم ، وخرج الخدم وتقدموا إلى الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الحرم ، وأن يكون مقامهم في بستان الأربعين فدخلوا وكان من جملتهم الأمير قاسم بن مهنا العلوي الحسيني أمير مدينة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فخرج الخليفة وعليه جبة بيضاء وطيلسان أبيض وبين يديه أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب والخدم ، وبين يديه عن يمينه وعن شماله ، فقام الناس وقبلوا الأرض وخدموا ودعوا ، وكان أولهم خدمة جلال الدين أبو المظفر بن البخاري نائب الوزارة ، فتقدم وقبل الأرض ثم قبل الركاب الشريف ثم تلاه الأمراء وأرباب الدولة فخدموا ودعوا والخليفة لا يرد على واحد منهم جهراً ولا يسمع منه مطلقاً حتى تقدم الأمير قاسم أمير المدينة ، فقبل الأرض ثم قبل الركاب الشريف ثم دعا وأحسن وأبلغ في دعائه ، فوقف له أمير المؤمنين ورد عليه السلام جهراً ، ورفع يده فوضعها عليه وأحسن له البشري ، ثم مضى راكباً والناس بين يديه مشاة حتى خرج من باب النصر ، فأشار إلى أستاذ الدار أبي الفضل بالركوب فركب ، ثم ركب بعده نائب الوزارة ثم الأمراء وأرباب الدولة ، وسار فخرج إلى ظاهر بغداد إلى أن وصل الميدان الذي فيه الكشك فدخل إليه ، ولم يدخل معه إلا أستاذ الدار ابن الصاحب ، ثم دخل إلى الكشك فبقى فيه ذلك اليوم وبات فيه ، فلما أصبح ركب في الميدان وجعل يسير فيه ، ثم أذن للناس من الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الميدان فدخلوا ، فكان أستاذ الدار عن يمينه ، وابن البخاري عن شماله ، ثم إنه خرج في يومه ذلك إلى الصيد ومعه جماعة الأمراء والمماليك ، ولم يخرج معه من أرباب الدولة سوى أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان في كل يوم يتصيد ويرجع إلى الكشك ، فلم يزل ذلك إلى يوم الجمعة ، فتوجه إلى جامع الرصافة لصلاة الجمعة ، وكان يوماً مشهوداً ، فلما قضى صلاة الجمعة ، وكان الخطيب يومئذ أبو الفرج بن المنصوري ، أمر أن تهيأ له سمارية خفيفة ، فنزل بها وسار في دجلة ، والأمراء في السماريات بين يديه يسرون في خدمته ، وكان الخليفة جالساً في صدر السماوية في قبة سوداء ، وأستاذ الدار قائم بين يديه وكذلك جماعة ، (١) .

(١) المضمار ص ٣٩ - ٤١ ، والسمارية في النص بمعنى العوامة .

والخليفة - الناصر لدين الله - يأمر بنقض السفينة المعروفة بالزيزب - وهي لحمل الموتى وقد غرم على بنائها أموالاً طائلة - وذلك لأن رؤيته لها في دجلة أمام التاج الشريف وهي تحمل الموتى يكدر عليه صفو الحياة^(١). وهو - أى الخليفة - يأمر بأن ينعم على محمد بن يحيى الفراه من المخزن كل شهر بثلاثين ديناراً وجميع ما يحتاج إليه وأن يعطى داراً ، ذلك لأنه حسن الخلقة . والخليقة لا يصبر عنه ساعة واحدة^(٢).

والخليفة يطلق يد القتل فى كل من يتوهم أنه ينظر إليه أو يقصد أن يمشى فى طريقه ، فكان أهل بغداد إذا غلب على ظنونهم أنه فى طريق هربوا عنها إلى أخرى ، وإذا صادفه أحد فى طريق وراه بغير اختياره كاد أن يهلك من شدة الخوف ، فهرب الناس كافة وهان عنده سفك الدم ، وفيها كثر الخليفة - أدام الله أيامه - ليلاً يمشى فى الأسواق ومعه جماعة منهم نجاح الشرايى ، وأبو الحسن ابن الكرخى وأبو العز ومحمد بن يحيى الفراه ، وكان يمشى متكرراً مرة فى زى المعجم ومرة فى زى الفقهاء ، وكان يعتقد أن أمره يخفى على أهل بغداد ، وكان لا يخفى مكانه للذين معه لأنهم كانوا معروفين عند الناس ، فكان كالعالم إذا اجتاز فى موضع عرف بمن هم معه ، فكان الناس يلحون بالنظر إليه ويقفون أثره ، ويمضون خلفه ، ورأى أن السكوت عنهم يوجب تكدير الوقت ، وخاف على نفسه فأطلق القتل فى كل من يتوهم أنه ينظر إليه أو يقصد أن يمشى فى طريقه إلى أن انحسرت المادة ، فكان أهل بغداد إذا غلب على ظنونهم أنه فى طريق هربوا عنها إلى أخرى ، وإذا صادفه أحد فى طريق وراه بغير اختياره كاد أن يهلك من شدة الخوف ، وإن استغاث إليه أحد وهو فى الصيد فإن خاطبه بمولانا أو دعا له وعرف أنه قد عرفه ، ما يخلو أمره من أحد أمرين : أما أن يقتله أو يعرض عنه ، ولا يقضى له حاجة ليزيل من قلبه أنه أمير المؤمنين ، إلى أن هرب الناس كافة ، وهان عنده سفك الدم^(٣).

(١) المضمار ص ٥٩ .

(٢) السابق ص ٨٥ .

(٣) المضمار ص ١١٩ .

والخلافة فى اختيارها لرجالها تنظر إليهم بمقياس مقدار ما يذلون فى إرضاء نزوات الخليفة ونساء الدار ، فالخليفة يخلع على مجاهد الدين خالص الخادم ، وسبب الإنعام فى حقه خدمته لأمير المؤمنين زمن إمارته ، وكانت بحر - درة أمير المؤمنين - تحبه وتحترمه (١) .

ونماذج أخرى كثيرة يسوقها المؤلف بتفاهاتها مصحوبة منه بالدعاء للخليفة بدوام أيامه وثبات ملكه وبالصلاة والتسليم عليه . ثم يسطر المؤلف بجوار هذه المهازل أخبار الجهاد الإسلامى بقيادة الأيوبيين تجاه الصليبيين وحلفائهم فى جبهة مصر والشام وما يعانونه من مشاق المرابطة ، فهو جهاد دائم متواصل ، فهل قصد المؤلف - ولو من طرف خفى - إلى إثارة السخرية من كيان الخلافة وتصرفاته الهزيلة - فى زمن ضعفه - وأن هذا لا يليق بخلافة المسلمين خاصة وأن بلداناً إسلامية تمر بظروف تجابه فيها عدواناً صليبياً شرساً ؟

أم كان هذا تمثيلاً مع السياسة الرسمية لبنى أيوب تجاه الديوان العزيز ، والتي تحرص على المسالمة وتأدية فروض الطاعة لكسب الشرعية وتسهيل اتحاد المسلمين فى مقابل العدوان ؟

فهو ليس مؤرخاً من عامة الشعب ، بل من بيت السلطنة ، ولذا فإنه ملتزم بهذه السياسة الموالية رغم ما يذكره من مهازل الخلافة .. ربما ، وربما كان هذا من باب إثبات التاريخ لا غير ، فهو مؤرخ سياسى سلطوى ولهذا فنحن لا نكاد نظفر لديه بنظرة نقدية تجاه الحكام إلا من كان من حزب مجابهة كالمواصلة الزنكيين ، فهو هنا مؤرخ حزبي ناقد لتصرفات الطرف الآخر ، كقوله مثلاً :

« وتبين لهم ما كان المواصلة عليه من العنث والمخادعة » (٢) ، ولكن إذا كان الغرض مجرد إثبات التاريخ ، لماذا إذن ركز غالباً على محورى أخبار الخلافة والجهاد وأوردهما متجاورين دون غيرهما من الأخبار ؟

(١) انظر : السابق ص ٧٩ .

(٢) للمضمار ص ١٠٩ ، والمقصود هنا رسل دار الخلافة الذين أرسلوا للإصلاح بين صلاح الدين والمواصلة الزنكيين ، وانظر كذلك ص ٥٩ ، ٦٠ .

والى جانب هذا لا يخلو الكتاب من بعض الأخبار عن الأوضاع الحضارية والاقتصادية والاجتماعية ، يقول مثلاً فى أحداث سنة ٥٧٥هـ : « فيها غلت الأسعار جداً بالعراق واشتد المحل وكثر الجذب وكانت العملات كثيرة موجودة غير أن الناس رفقوا أيديهم عن البيع »^(١) ، ويقول : « وفيها كثر اللوباء حتى مات من الخلق ما لا يحصى كثرة »^(٢) . وفى ود بالغ تحدث المؤلف كثيراً عن والده - باعتباره مشاركاً أساسياً فى الأحداث إذ كان الملك المظفر تقي الدين عمر من كبار معاونى عمه صلاح الدين ومن أشجع قواده - ، ويكاد فى كل مرة يرد ذكره يدعو له مما ينم عن حب شديد له ، يقول مثلاً : « ذكر سبب غيبة والدى الملك المظفر - سقى الله عهوده الرضوان - عن هذه النبوة »^(٣) . « ذكر ولاية والدى » الملك المظفر - رضوان الله عليه - مصر وأعمالها وتقليده إياها »^(٤) .

بل إنه يتحدث عن بقية أفراد البيت الأيوبي بنفس الروح ويشئ عليهم كثيراً وبخاصة السلطان صلاح الدين وابن أخيه « عز الدين فرخشاه » عم المؤلف وكان مع أخيه وللد المؤلف من كبار قواده عمهما صلاح الدين - مما يدل على حب شديد وولاء عام من قبل المؤرخ لأهل بيته ، يقول : « كان عمى عز الدين فرخشاه ذا رأى سيدي وفعال حميد »^(٥) .

ولم يحفل المؤلف كثيراً فى كتابه بأمر الوفيات ، ولم يفرد لها مكاناً خاصاً إلا فى سنة ٥٨١هـ^(٦) . والتحديد الزمانى والمكانى للأحداث شائعان فى الكتاب بحكم مشاركة المؤلف فى الأحداث وقربه منه ، وإن كان غالباً لا يهتم بتحديد اليوم أو الشهر ويكتفى بقوله « وفيها » أى فى السنة - يقول مثلاً : « ودخلت هذه

(١) السابق ص ٣٠ .

(٢) نفسه ص ٣٠ .

(٣) نفسه ص ١٥ .

(٤) نفسه ص ١٥٤ ، وانظر كذلك ٢٥ ، ٢٦ ، ٩٥ .

(٥) المضطرب ص ٣١ ، وانظر كذلك ٩٤ ، ٩٥ .

(٦) نفسه ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

السنة سنة ٥٧٨هـ - والسلطان مخيم على البركة من أرض مصر بجميع عساكره، شديد العزم على قصد الشام فكان رحيله من البركة يوم الاثنين خامس محرم فصار على طريق صدر، وكان نزوله على أيله بعد خمس ليال^(١)، وكان اجتماع عمى فرخشاه مع السلطان دون بصرى، ثم نزلنا بها وسرنا منها متوجهين إلى دمشق فكان دخولنا إليها يوم الاثنين سابع عشر صفر، فلم يزل السلطان بها تمام الشهر المذكور وأياما قلائل من شهر ربيع الأول، ثم توجه إلى غزوة طبرية ويسان^(٢)، وكان تسليم حلب يوم السبت ثامن عشر صفر من سنة تسع وسبعين^(٣).

هـ - الأسلوب :

تغطي الاستشهادات الشعرية مساحة واسعة من الكتاب مما أعطاه إلى جانب الوثائق - طابعا أدبيا قويا، ولهذه الأشعار صلة قوية بالأحداث، توأكبها وتعبر عنها، يقول بمناسبة فتح صلاح الدين حصن مخاضة الأحزان أو بيت الأحزان بين دمشق والساحل، سنة ٥٧٥هـ : « ولما استقر السلطان بدمشق أتته التهئة من الناس من كل مكان بفتح الحصن المذكور وما رزقه الله تعالى من النصر والظفر بالعدو وامتداحه جماعة من الشعراء، فكان من جملتهم أبو الحسن على بن محمد الساعتي الخراساني من أهل دمشق، امتدحه بهذه القصيدة :

بحدك أعطاف القنا تعطف وطرف الأعادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب وسيف إذا ما هزك الله مرهف

(١) المضمار ص ٩٣، وأيله بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام مرصد الاطلاع جـ ١ ص ١٠٨. وهي إيلات الآن على خليج العقبة.

(٢) المضمار ص ٩٤، ٩٥، وبصرى بالضم والقصر موضع بالشام. مرصد الاطلاع جـ ١ ص ١٥٧ يسان الفتح ثم السكون مدينة بالأردن - مرصد الإطلاع جـ ١ ص ١٨٩، وطبرية بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بها وهي من أعمال الأردن - المرصد جـ ٢ ص ١٩٤.

(٣) المضمار ص ١٤٣.

وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يدُ وجه الأرض بل حال دونه رجال كآساد الشرى وهي تزحف .. (١)

ويقول : ووصله - أى صلاح الدين - الخبر بوصول رسل دار الخلافة إلى
دمشق فسار بمساكره متوجها إليها محفوا بالنصر والظفر ، فلما دخلها اجتمع
برسولى دار الخلافة وهما صدر الدين شيخ الشيوخ وبشير الخادم . فأفاضوا عليه
الخلع النبوية وكان وصله مع الرسولين المذكورين قصيدة امتدحه بها الأجل العالم
جمال الكتاب أمين الدولة أبو الفتوح محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط
التعاويذى الكاتب البغدادي ، وكان من أفاضل الشعراء بدار الخلافة فأنفذها إليه
يهته بالخلع النبوية وهي :

واخلع قلوب الناكبين بلبسها خلعا إلى شرف الخلافة تنسب
فرجية وشى يكاد شعاعها الذ هبى بالأبصار حسا يذهب
وعمامة ما تاج كسرى مثلها فى الفخر، وهي بتاج كسرى تعصب
ومهند طبعته قحطان ، وأهـ دته إلى مصر قديماً يعرب (٢)
مسى عتادا للخلائف بينهم متوارثا يوصى به لابن أب .. ،

وهو يورد قصائد كاملة للشعراء - قد تصل إلى ثمانين بيتا - أو أجزاء كبيرة
منها فى مديح صلاح الدين الأيوبي ، ومناسبات دار الخلافة (٣) . بل إنه أورد
قصيدة لأحد الشعراء فى مدحه هو نفسه (٤) . وشعراؤه معروفون ينص على
أسمائهم كما رأينا ونلمح الذوق الأدبي للمؤلف فى أحكامه النقدية على الشعراء
وقصائدهم يقول مثلا : وحضر شعراء الديوان العزيز على جارى العادة لتهنئة

(١) المضمار ص ٣٠ .

(٢) السابق ص ١٩٠ ، ١٩٥ .

(٣) انظر : المضمار ص ٢٠ - ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ - ٤٤ - ٥٠ - ٧٦ - ٧٩ ، ٩٧ - ١٠٢ ، ١٩٠ ،
١٩٧ .

(٤) انظر : السابق ١٩٧ - ١٩٩ .

مولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين عند جلوسه في الخلافة في ذي القعدة ، فأشدد كل منهم كلمته ، فمن ذلك الأجل أمين الدولة محمد بن عبد الله سبط التعاويذى وكان من أفاضل الشعراء المقدمين ذكرتها بتمامها لاستحسانها وهي ... (١) .

و (بين المضمار والمصادر المعاصرة له :

يختلف المؤلف في تفاصيل بعض الروايات والأحداث مع بعض المؤرخين المعاصرين له يقول مثلاً بعد حديثه عن استيلاء « عز الدين مسعود » صاحب الموصل على حلب بعد وفاة صاحبها « الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود » سنة ٥٧٧ هـ : « وعلم - أى عز الدين مسعود - أنه لا يستقر له بها أمر فرغب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار في تعويضها له بحلب ، فتسلمها وسلم سنجار إليه » (٢) ، أى أن عز الدين حسب هذه الرواية - هو الذى رغب عماد الدين فى استبدال سنجار بحلب ولكن رواية ابن الاثير على عكس ذلك إذ يروى أن عماد الدين هو الذى طلب حلب والإسلم سنجار لصلاح الدين فرفض عز الدين أولاً خوفاً من أن يضعف عماد الدين أمام صلاح الدين فيسلمها إليه ثم رضخ أخيراً ، يقول : « ولما وصل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين ، صاحب سنجار يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين وقال : إن سلمتم إلى حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حيثذ جماعة من الأمراء بتسليمها ، وكان أشدهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة ، وكثرة عساكره وبلاده ، وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفاً من عز

(١) نفسه ص ٦ ، وكلمة هنا بمعنى : قصيدة .

(٢) نفسه ص ٦٠ ، ويوافق هنا رواية العماد الاصفهاني . انظر : منا البرق الشامى اختصار البندارى تحقيق د . فتحية النبروى ، مكتبة الخانجي سنة ١٩٧٩ م : ص ١٨٥ ، وستراد دراسة « منا البرق » فيما بعد .

الدين ، لأنه عظم في نفسه ، وكثر معه العسكر . وكان الأمراء الحلبيون لا يلتفتون إلى مجاهد الدين ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل ، فاستقر الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضاً عنها . فسار عماد الدين فتسلمها ، وسلم سنجار إلى أخيه وعاد إلى الموصل ^(١) .

وفي المداورات التي جرت بين صلاح الدين والمواصلة عند حصاره للموصل سنة ٥٧٨ هـ ، يذكر المضممار أن المواصلة قبلوا التنازل عن حلب لصلاح الدين إذ يقول : « وكان قد استقر مع الرسل أنهم يسلمون إلى السلطان حلب ويستعيدون منه البلاد فقدموا على ما قدموه من التقرير ^(٢) » بينما رواية ابن الأثير تشير إلى رفضهم ذلك ونزول صلاح الدين على إرادتهم ، إذ يقول : « وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله ، وقد وصل إليه - أي لصلاح الدين - قبل نزوله على الموصل ، ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصلح ، فأقاما معه على الموصل ، وترددت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منه ، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب ، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ، ثم نزل عن ذلك ، وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوه على ذلك أيضاً ، وقال عز الدين : هذا أخى له العهد والميثاق ولا يسعنى نكثها ^(٣) . وربما كان ذلك هو الراجح ، فلو لم يصر المواصلة على موقفهم

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ، ط دار نادر بيروت سنة ١٩٧٩ ج ١١ ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ويتفق ابن العديم مع ابن الأثير هنا . انظر : زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق د. سامي الدمان المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ٣ أجزاء سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ ج ٣ ص ٤٧ وسنجار بالكسر ثم السكون مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بشمال العراق بينها وبين الموصل ثلاثة أيام مرصد الاطلاع ج ٢ ، ص ٥٧ ، والرقعة بفتح أوله وفتح ونشديد ثانيه مدينة مشهورة على الجانب الشرقي للفرات مرصد الاطلاع ج ١ ، ص ٤٧٨ .

(٢) للمضممار ص ١٠٩ ويتفق هذا مع كلام العماد الاصفهاني . انظر : منا البرق ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣) الكامل ج ١١ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

وتعهدوا بتسليم حلب ثم نكثوا بعهدهم ، لاستمر صلاح الدين على الأرجح - في حصارهم حتى يذعنوا ، ولكنه فض الحصار معللاً ذلك على حد قول ابن شاهنشاه على لسان صلاح الدين موجهاً كلامه لرسول دار الخلافة : « هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ، ونهب لوصولك الموصل ، وكان نزول السلطان عليها في رجب وعشرة أيام من شعبان ،^(١) ومع هذا لم يصرف صلاح الدين نيته عن الموصل بالكلية ولكنه عاود حصارها سنة ٥٨١ هـ حتى أذعنت له وتم الصلح .

وفي تقديري أن الترجيح في مثل هذه الخلافات أمر عسير على الباحثين المتأخرين وقد لا يحالفه الصواب كثيراً ، فلو ملنا مثلاً لرأى ابن شاهنشاه لمعاصرتة للأحداث المروية ومشاركته فيها وقربة من صناع القرار ، لخالجنا الشك في مدى حياده باعتباره ممثلاً لأحد الطرفين المتنازعين وبالمثل ربما كان ابن الأثير - وهو أيضاً معاصر ومشارك أحياناً - يرى وجهة النظر الموصلية^(٢) ، خصوصاً وأنا نعدم - على حد علمي - مصدراً معاصراً لهذه الفترة يروى تفاصيلها هكذا وبحيادية تجاه الطرفين ، دون أن ينتمى إلى أي منهما .

(١) المضاير ص ١١٠ .

(٢) سبئى الحديث عن موقف ابن الأثير من الزنكيين والأيوبيين فيما بعد .

٢. كتاب : « الكامل فى التاريخ » ،^(١)

حظى هذا الكتاب ومؤلفه بشهرة واسعة . ولذا فقد تعددت حولهما الدراسات بين موسعة وموجزة ، ولعل أهم هذه الدراسات رسالة دكتوراه وضعها « عبد القادر أحمد طليمات » بعنوان « المؤرخ ابن الأثير^(٢) » ، قسمها قسمين ، فى القسم الأول ترجم للمؤلف وأسرته وعرض لمؤلفاته الأربعة المشهورة - سيأتى ذكرها - بوجه عام مع تتبع جيد مفصل لمصادرنا ، كما تحدث بشكل بسيط معمم عن مفهوم ابن الأثير للتاريخ وتفكيره التاريخى وخصائصه . أما القسم الثانى فقد خصصه لدراسة كتاب « الكامل » وهو عبارة عن استعراض لمادة الكتاب فى فتراته المختلفة مع مقابلة بعض أخباره بمصادر تاريخية أخرى ، ويدولى أن هذه الدراسة - رغم جودتها - ليست وافية لا سيما فيما يخص منهج ابن الأثير وسمات الكتابة التاريخية عنده ، ولهذا فقد بدا لى أن أخص المؤلف وكتابه الكامل والباهر بجزء من هذه الدراسة ، وفيما يلى دراسة كتاب الكامل مع التركيز على السمات المنهجية ، على أن تأتى دراسة الباهر فى فصل لاحق .

(١) نص ابن الأثير على اسم كتابه فى مقدمته فقال : « وقد سميته اسماً يناسب معناه ، وهو الكامل فى التاريخ » مقدمة المؤلف ج١ ص ٦ . بينما أشار له فى كتابه الباهر باسم « المستقصى فى التاريخ » انظر : الباهر ص ٢٠٤ .

(٢) انظر : عبد القادر أحمد طليمات : المؤرخ ابن الأثير رسالة دكتوراه بأداب عين شمس سنة ١٩٦٧ م ، وقد أصدر نفس المؤلف كتاب : « ابن الأثير الجزرى » سلسلة أعلام العرب (٨٣) سنة ١٩٦٩ م ، وهو ملخص لهذه الرسالة تقريبا ومن الدراسات الأخرى حول المؤلف وكتابه : د. فيصل السامر : ابن الأثير بغداد ط ٢ سنة ١٩٨٦ م ، ثم دراسات متفرقة فى : د. سعيد عبد الفتاح عاشور بحث بعنوان : « دراسة حول كتاب الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، طبع ضمن كتابه بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٧ ، د. السيد الباز العيرنى : مؤرخو الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٢ م ص ٢٠٦ - ٢٣٤ ، عباس العيرنى : التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان بغداد سنة ١٩٥٧ م ، ج١ ص ٢٤ - ٥٢ . د. محمد يوسى مهران : التاريخ والتأريخ الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٩٢ ص ١٣٤ - ١٣٨ ، د. نظير حسان سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصالح الدين الأيوبى مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٢ م ص ٦ - ١٣ .

(أ) المؤلف :

عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، ولد حوالي سنة ٥٥٥ هـ وتوفي سنة ٦٣٠ هـ^(١) . وهو أوسط ثلاثة إخوة أكبرهم مجد الدين أبو السعادات (ت ٦٠٦ هـ) وبرع في علوم الدين واللغة ، وأصغرهم ضياء الدين (٦٣٧ هـ) وبرز في علوم الأدب ، وكان أبوه من وجهاء عصره ، تولى وظائف مهمة للزركيين وحرص على رعاية أولاده وتنشئتهم تنشئة علمية .

ولد عز الدين في جزيرة ابن عمر^(٢) ثم انتقلت أسرته للموصل ، حيث

(١) هذا ما اتفق عليه بين من ترجموا له تقريباً وإن خالف في ذلك مؤرخ مثل أبي شامة الذي جعل مولده سنة ٥٥٠ هـ ووفاته سنة ٦٣١ هـ ، انظر الذيل على الروضتين ص ١٦٣ ، وفي ترجمة ابن الأثير انظر : إبراهيم زكي خورشيد وآخرون دائرة المعارف الإسلامية المترجمة مج ١ ص ٨٢ ، ٨٣ ، بطرس البستاني ، دائرة المعارف بيروت لبنان مج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ابن خلكان : وفيات الأعيان مج ٣ ص ٣٤٨ - ٣٥٠ ، خير الدين الزركلي الأعلام ط ٣ ج ٥ ، ص ١٥٣ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي ط عيسى البابي الحلبي ط ١ ج ٨ ص ٣٩٩ - ٣٠٠ ، فازيليف العرب والروم ترجمة د . محمد عبد الهادي شعيرة ، د . فؤاد حنين علي دار الفكر العربي ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين مطبعة دائرة معارف القرن العشرين سنة ١٩٢٣ مج ١ ط ٢ ص ٥٣ ، ٥٤ ، اليافعي : مرآة الجنان ج ٤ ص ٧٠ يا قوت الحموي : معجم البلدان مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٩٠٦ م مج ٣ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) عن نسبة الجزيرة يقول ابن خلكان : « والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون إنها جزيرة ابن عمر ، ولا أدري من ابن عمر ، وقيل إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين ، ثم إنني ظفرت بالصواب في ذلك وهو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر فأضيفت إليه ورأيت في بعض التواريخ أنها جزيرة ابني عمر أوس وكامل ولا أدري أيضاً من هما ثم رأيت في تاريخ ابن المستوفى في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد أخى أبي الحسن المذكورة أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس التغلبي » وفيات الأعيان تحقيق د . إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت لبنان مج ٣ ص ٣٥٩ ، ٣٥٠ .

ويقول يا قوت الحموي : « جزيرة ابن عمر بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ولها رستاق مخصب واسع الخيرات وأحب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن الخطاب » معجم البلدان مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٩٠٦ م مج ٣ ص ١٠٢ .

مشب وبدأ طلب العلم ، ثم زار بغداد ودمشق والقدس وحلب طلباً للعلم ، وقد عزف عن تولى الوظائف الحكومية على عكس أبيه وأخويه - وإن أرسل في بعض السفارات - ربما لزهده فيها واعتباره من حوادث الزمان بشأن من يتولى خدمة السلطان وربما أيضاً لثراء أسرته الذي عوضه عن طلب الرزق وأتاح له التفرغ للعلم وقد شهد له بالفضل وكرم الأخلاق والتواضع والتبحر في علوم كثيرة بجانب التاريخ كعلم الحديث والنحو^(١) واشتهر لابن الاثير من بين مؤلفاته أربعة كتب هي : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، واللباب في تهذيب الأنساب ، وهو تهذيب الأنساب للسمعاني^(٢) والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية ، والكامل في التاريخ ، وقد عده السبكي من الشافعية في طبقاته .

(ب) مضمون الكتاب : يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة يتحدث فيها عن دافع التأليف وبعض ملامح منهجه ، ثم يبدأ في الحديث عن بدء الخليقة ويتابع أخبار أم ما قبل الإسلام مركزاً على سلسلة الأنبياء إلى أن يصل إلى أيام العرب في الجاهلية فيفصلها بإسهاب ، ثم يصل إلى تاريخ الإسلام فيتلاشى اهتمامه بتاريخ الأمم الأخرى لحد كبير ، ويتابع التاريخ الإسلامي إلى سنة ٦٢٨ هـ أي قبيل وفاته بعامين فقط ، مع اهتمام بوفيات العلماء والأعيان آخر كل عام .

(ج) مصادر الكتاب : لم ينص المؤلف على مصادر إلا نادراً وبطرق

(١) يقول ابن خلكان : « وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم وصنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه الكامل » ابتداءً فيه من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستماية ، وهو من خيار التواريخ » وفيات الأعيان مج ٣ ص ٣٤٨ ، ويقول اليافعي : « كان صدرًا معظمًا كثير الفضائل ، كان بيته مجمع الفضل لأهل المرسل ، وحافظاً للتواريخ وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم » . امرأة الجنان ج٤ ص ٧٠ .

(٢) عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي الفقيه الشافعي (ت ٥٦٢ هـ) ، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث الثقات ، له كثير من التصانيف منها : تذييل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ مرو ، والأنساب وهو مطبوع : انظر : خير الدين الزركلي الأعلام ج٤ ص ١٧٩ ، اليافعي امرأة الجنان ج٣ ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

مختلفة - سأيئها ففما بعد - ولكن المتصفح للكتابة ففدرك مدى تعدد مصادره وتنوعها كما ففلى :

أولاً : المصادر المكتوبة :

١ - المؤلفات السابقة : اعتمد المؤلف على ككشفر من المؤرخفن والمؤلففن السابقفن علىه والمعاصرفن له ، وكان اعتماده الأساسف من أول تاريخه إلى سنة ٣٠٢هـ على الطبرف ، وقد علل ذلك فف مقدمة كتابه بثقته ففه ، حتى أنه غالباً ففشر إليه بـ « قال » دون ذكر اسمه وهو فعنفة ، ولكن ذلك لم ففمنعه من استكمال مادته من مصادر أخرى ، وبخاصة فف حفته عن أيام العرب فف الجاهلفة والتي لم ففحدث الطبرف إلا عن بعضها ، فمن مصادره كتب هشام الكلبف (ت ٢٠٤هـ) ، والواقدف (٢٠٧هـ) وابن إسحق (ت ١٥١هـ) وأبف عبفدة معمر بن المنف (ت ٢٠٩هـ) وفف فترة ما بعد الطبرف اعتمد على أمثال : أبف زكرفا الأزدف الموصلف صاحب تاريخ الموصل (ت ٣٣٤هـ) وابن مسكوفه صاحب تجارب الأمم (ت ٤٢١هـ) والوزفر أبف شجاع صاحب ذفل تجارب الأمم (ت ٤٨٨هـ) وثابت بن سنان بن قرة صاحب التاريخ (ت ٣٦٥هـ) وابن منده الأصبهانف صاحب تاريخ أصفهان (ت ٤٧٠هـ) وابن الصائف صاحب التاريخ (ت ٤٨٠هـ) وابن القلانسف صاحب ذفل تاريخ دمشق (ت ٥٥٥هـ) - ستأف دراسته - وابن السمعانف صاحب ذفل تاريخ بغداد وتاريخ مرو (ت ٥٦٣هـ) والقاضف الفاضل وزفر صلاح الدين الأبوبف (ت ٥٩٦هـ) فف مذكراته ورسائله ، والعماد الأصفهانف (ت ٥٩٧هـ) وابن عساكر (ت ٥٧٢هـ) وابن منقذ (ت ٥٨٤هـ) وابن الجوزف (ت ٥٩٧هـ) واعتمد على ككشفر من كتب الأدباء والمحدثفن وغيرهم ككتب المبرد ودمفة القصر للباخرزف ومشارب التجارب للبهقف ، وصحف البخارف .. وغيرها (١) .

(٢) الوثائق : فلفت النظر أن مؤرخنا رغم مكانته الاجتماعية والعلمفة

(١) انظر على سبفل المثال : الكامل ج١ ص ٢٢٣ ، ٤٨٣ ، ٥٠٢ ، ج٢ ص ٢٦٣ ، ج٤ ص ١٢٤ ، ج٦ ص ٤٧٦ ، ج٧ ص ٤٣٠ ، ج٨ ص ٨٦ ، ٩١ ، ٦٤٧ ، ٧٠٨ ، ج٩ ص ١٥١ ، ج١٠ ص ١٠٨ ج١١ ص ٣٣ ، ٤٤٩ ، ٤٩٨ ، ج١٢ ص ٥٦ ، ٥٩ . وانظر أيضاً : عبد القادر أحمد طلبمات ففقق مخطوط الدولة الأتابكفة رسالة ماجستير بأداب عفن شمس سنة ١٩٦٢م مع ١ ص ١٤ وما بعدها .

المرموقة ورفعة مناصب أبيه وإخوته - وإن لم يل هو وظائف رسمية كما سبق - مما يسهل عليه الإطلاع على كثير من الوثائق والسجلات وأسرار الدولة في عهده ، إلا أن ذلك لا يبرز بوضوح في كتابه ، فرغم ضخامة الكتاب واتساع مجاله فإنه لم يستعمل فيه الوثائق خصوصاً في الفترة التي عاصرها إلا نادراً وفي مواضع متفرقة أحياناً بشكل كامل للوثيقة وفي أغلب الأحيان مجتزئاً لها فمثلاً على غير العادة من عدم اهتمامه بالوقوف طويلاً أمام نصوص الوثائق من مراسلات ومعاهدات وغيرها نجد المؤلف يخرج عن هذه العادة ويورد قطعة كبيرة من نص كتاب « طاهر ابن الحسين » إلى ابنه « عبد الله بن ظاهر » حين ولاء الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ - ٢١٨ هـ) من الرقة إلى مصر ، ويقدم ابن الأثير لذلك بقوله :

« ولما ولاء المأمون كتب إليه أبوه طاهر كتاباً جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك ، وقد أثبت منه أحسنه لما فيه من الآداب والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، لأنه لا يستغنى عنه أحد من ملك وسوقه وهو : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ... »^(١) ، ثم يورد النص ممتداً لحوالي ثلاث عشرة صفحة ، وذلك أمر نادر الوقوع في الكامل كما ذكرت . وكذلك كتاب من صلاح الدين الأيوبي لأخيه تورانشاه بعد هزيمة الأول من الفريجة في وقعة الرملة سنة ٥٧٣ هـ^(٢) ، ونص رسالة من الفنش على حد تعبير ابن الأثير - وهو Alfonso ملك الفرنج بالأندلس إلى أبي يوسف يعقوب الموحدى صاحب بلاد المغرب والأندلس (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ)^(٣) ، وكتاب من تاجر بمدينة الري يصف جحافل التتار وأفاعيلهم عند بداية اكتساحهم بلاد المشرق الإسلامي^(٤)

وربما اطلع المؤلف على وثائق كثيرة بالفعل ولكنه نشرها في كلام عادي في

(١) الكامل ج٦ ص ٣٧٤ .

(٢) السابق ج١١ ، ص ٤٤٣ .

(٣) انظر الكامل ج ١٢ ص ١١٣ ، ولم يحدد المؤلف شخصية هذا الملك بدقة ، إذ إنه قد عرف بهذا الاسم كثير من حكام إسبانيا في تلك الأونة ، انظر في ذلك The new encyclopaedia vol 1, PP. 256 - 259 .

(٤) انظر : الكامل ج١٢ ص ٥٠٣ - ٥٠٤ . وانظر في استعمال الوثائق في الكامل ج٢ : ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ج٦ : ٣٦٤ - ٣٧٧ ، ج١١ : ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

ثانياً كتابه حتى لا يتضخم أكثر من ذلك ، يقول عن إحدى الوثائق : « وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى ، ولولا خوف التطويل لذكرته قليلاً من مكاتباته » (١) .

(٣) النقوش : وهي الكتابات المحفورة على جدران الآثار ، وقد كانت من بين مصادر المؤلف ، في حالات نادرة ، يقول في حوادث سنة ١٦٧ هـ : « وكذلك أمر بالزيادة في المسجد الجامع بالموصل ، ورأيت لوحاً فيه ذكر ذلك ، وهو في حائط الجامع ، سنة ثلاث وستمئة ، وهو باق » (٢) .

ثانياً : المصادر السماعية (أو المشافهة) : - اعتمد عليها المؤلف وحكاها بطرق شتى ، فتارة يقول : حكى أو احكى لى أو حدثنى أو أبلغنا . وقد يفصح عن مصدره قليلاً فيقول : حدثنى والدى أو أخى (يقصد مجد الدين أبا السعادات) أو سمعت جماعة من فضلاء المغاربة - أو وقد حدثنى بعض أصدقائنا من الأكراد الحميدية ، أو وحكى غير هذا بعض فضلاء الأكراد ، وخالف فيه فقال ... ، أو وحكى أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال ... أو وسمعتهم يذكرون أن ... أو وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح ... أو وقد حدثنى صديق لى من التجار . أو فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بليس ، أو حكى لى إنسان صوفى ، أو حكى لى بعض أصدقائنا بل مشايخنا من الأئمة الفضلاء أو وهكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال ، أو فحدثنى بعض من كان بها من الجند ، أو قد حدثنى بعض من أتق فيه من أهل العلم بما يحكيه أو حكى لى بعض من كان يلازمه ، أى يلازم الملك « القاهر » أحد ملوك الموصل والزنكيين ، أو حكى لى بعض خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم أو وسمعت من بعض أهلها أو فحدثنى بعض المجاورين أو حدثنى بهذا الرجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك

(١) السابق ج ١١ : ٤٣٧ ، ومعنى الكتب هنا : الرسائل .

(٢) نفسه ج ٦ ، كما عاين الآثار نفسها انظر مج ١ / ٣٢٦ حيث يقول « ... وبني هيكلاً عظيماً للزهرة ، وكان على البنيان ، فهدم من أعلاه كثير وهو باق إلى يومنا هذا وهو سنة ثلاث وستمئة ، وقد رأيت وهو محكم البناء » .

البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وأنكر البعض أو حكى لى من يتولى بيع الغنم بالموصل أو وحدثنى بعض الأسرى ... إلخ ، (١) .

ثالثاً : المعاصرة والاطلاع الشخصى : وهى أوثق مصادر المؤرخ عموماً لاعتمادها على المعاينة الشخصية دون وسيط أو معاصرة الحدث والقرب منه على الأقل ، وقد برز دور المعاصرة والمشاهدة لدى المؤلف فى روايته لأحداث الفترة التى عاصرها حيث اعتمد فى كثير من أخبارها على مشاهداته الشخصية ، بل إنه شارك فى بعض أحداثها السياسية والعسكرية ، فقد كان بالموصل حين حاصرها صلاح الدين سنة ٥٨١هـ يقول : « فلما قارب - أى صلاح الدين - البلد ، نزل على فرسخ منه ، وامتد عسكريه فى تلك الصحراء بنواحي الحلة المراقية ، وكان يجرى بين العسكريين مناوشات بظاهر الباب العمادى ، وكنت إذ ذاك بالموصل ، وبذل العامة نفوسهم غيظاً وحنقاً لرده النساء ، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه » (٢) .

بل إن المؤلف شارك فى بعض أحداث الحروب الصليبية كمجاهد مسلم فى

(١) فى مصادر ابن الأثير الشفاهية ، انظر مثلاً : الكامل : ج ٩ : ٢٦ ، ج ١٠ : ١٠٤ ، ٤٩٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٥ ، ٦٣٤ ، ٦٦٤ ، ج ١١ : ١٥ ، ٤٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٣٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٤٨٣ ، ٥٣٦ ، ج ١٢ : ٣٢ ، ٣٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٣٣٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤١٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٦٦ ، ٤٧٦ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ .

(٢) الكامل ج ١١ : ٥١٢ ، والسيدتان هما أم عز الدين صاحب الموصل وابنة عمه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، أرسلهما صاحب الموصل إلى صلاح الدين الأيوبي يطلبان إجراء الصلح فرددتهما دون إجابة طلبهما حسب رواية ابن الأثير ، بينما ذكر العماد الأصفهاني عكس ذلك . انظر : منا البرق ص ٢٦٦ ووافق فيه ابن شاهنشاه المضمار ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، حيث ذكرا أن صلاح الدين أكرم النساء وقبل شفاعتهن واستقر الأمر على أن يكون عماد الدين صاحب منجار وهو أخو صاحب الموصل وسيطاً ، وتم الصلح . وقد كان هذا فى حصار صلاح الدين للموصل للمرة الثالثة والأخيرة سنة ٥٨١هـ ، بينما ذكر ابن الأثير خروج النساء وردهن وعدم قبول شفاعتهن فى الحصار الثانى وكان سنة ٥٨١هـ أيضاً . أما الحصار الأول فكان سنة ٧٥٨هـ ، ولم يقع صلح إلا فى المرة الأخيرة إذ رحل صلاح الدين عن الموصل فى المرتين الأولىين بدون وقوع الصلح .

جند الموصل تحت راية صلاح الدين ، يقول عن ذلك مثلاً : لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق وحضر عند القاضي الفاضل مودعاً له ومستشيراً ، وكان مريضاً وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص ، فنزل على بحيرة قدس ، غربي حمص وجاءته العساكر ، فأول من أتاه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكى بن مودود بن أقسنقر ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور ، وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها ، فاجتمعت عليه وكثرت عنده ، فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي ، وكنت معه حينئذ ، فأقام يومين وسار جريدة ، وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل إلى بلد الفرخ فأغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ، ووصل إلى قرب طرابلس ، وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ، وعاد إلى معسكره سالماً . وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حد له ، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر^(١) ، وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة^(٢) ، ولقد تنوعت مشاهداته بين معاينة آثار المعارك ومشاركته فيها ، يقول عن إحدى المعارك بين المسلمين والصليبيين سنة ٥٢٤ هـ : فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لخصمه ، واشتد الأمر بينهم ، ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين ، فظفروا وانهزم الفرخ أقبح هزيمة ، ووقع كثير من فرسانهم في الأسر وقتل منهم خلق كثير ، وتقدم عماد الدين إلى

(١) الكامل ج ١٢ : ٦ ، وحمص بكسر ثم مكون ، بلد كبير مشهور بين دمشق وحلب . المراصد ج ١ : ٣٢٠ ، قدس بالتحريك والسين للمهملة بالشام قرب حمص يضاف إليها بحيرة قدس . المراصد ٢ : ٣٩١ ، نصيبين بالفتح ثم الكسر ، مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل بين الموصل والشام المراصد ٣ : ٢١٤ ، الخابور من مدن الجزيرة كذلك . المراصد ١ : ٣٣٣ ، وقد سبق التعريف بالجزيرة المحصورة بين دجلة والفرات وذكر أنها تشكل مدناً جلييلة وقلاعاً وحصوناً كثيرة كحوران والرها والرقفة ورأس عين ونصيبين وسنجان والخابور وماردين وميافارقين والموصل وغيرها . المراصد ١ : ٢٦٣ ، وحصن الأكراد حصن منيع على الجبل المقابل لحمص . المراصد ٣٠٥ ، وصافيثا والعريمة ويحمور مواضع بالشام ، طرابلس بفتح الطاء وضم الباء بلدة بالشام على شاطئ البحر ، المراصد ٢ : ١٩٨ .

(٢) الكامل ١٢ : ٢٥ .

عسكره بالإيجاز ، وقال : هذا أول مصاف عملناه معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ، ففعلوا ما أمرهم وقد اجتزت بتلك الأرض سنة أربع وثمانين وخمسمائة ليلاً ، فقليل لى : إن كثيراً من العظام باق إلى ذلك الوقت ،^(١)

وتشمل مشاهدته كذلك تتبع أحوال أهل البيوتات وأرباب الملك بعد تحول الزمان عنهم ، يقول مثلاً خلال حديثه عن آثار تخريب ونهب الخوارزمية للبلاد سنة ٦٢٢ هـ : « ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنويعلى ، وهم أغنياء فنهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان وشيء يسير من المال ، فسير ما سلم معه إلى الشام مع الولدين ليتجرا بما ينتفعون به ، وينفقونه على أنفسهم ، فمات أحد الولدين بدمشق ، واحتاط الحاكم على ما معهم ، فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لا يعلمها إلا الله ، يقول : أخذت الأموال والأموال ، وقتل بعض الأهل وفارق من سلم منهم الوطن بهذا القدر الحقير أردنا أن نكف به وجوهنا عن السؤال ونصون أنفسنا ، فقد ذهب الولدان والمال . ثم سار إلى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر ، فأخذ وعاد إلى الموصل ، فلم يبق غير شهر حتى توفى ، إن الشقى بكل حبل يخنق »^(٢) .

كما شاهد ولاحظ وسجل الظواهر الاجتماعية والكوارث الطبيعية ، يقول مثلاً : « وفي هذه السنة - ٥٧١ هـ - في شهر رمضان ، انكسفت الشمس جميعها وأظلمت الأرض حتى بقى الوقت كأنه ليل مظلم وظهرت الكواكب ، وكان ذلك صحوه النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه ، وكنت حيثئذ صبياً بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء أقرأ ، عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً وتمسكت به فقوى قلبى ، وكان عالماً بالنجوم أيضاً ، وقال لى

(١) الكامل ١٠ : ٦٦٣ وانظر كذلك ١١ : ٥٣٨ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ .

(٢) الكامل ج ١٢ : ٤٢٧ ، وانظر كذلك ٩ : ٢٨٩ ، ١١ : ١٤٩ ، ودقوقا بالفتح ثم الضم وبعد

الواو قاف أخرى وألف ممدودة بلدة بين إربل وبغداد معروفة . المرصد ١ : ٤٠٥ .

وقال لي : ألا ترى هذا جميعه فانصرف سريعاً (١) ، وفي هذه السنة
٦٠٤ هـ ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الأرض وقت السحر وكنت
حيثنذا بالموصل ، ولم تكن بها شديدة وجاءت الأخبار من كثير من البلاد بأنها
زلزلت ولم تكن بالقوية (٢) .

رابعاً : منهج المؤلف في استخدام مصادره : -

من خلال عرض مصادر كتاب « الكامل » يمكن التماس عدة سمات
يتصف بها منهج المؤلف في استخدام هذه المصادر . فقد استغنى عن السند وبذلك
صارت معظم رواياته مجهولة المصدر لدينا ، هو قد يشير للمصدر بشكل مبهم ،
بقوله « وقيل » أو بالإشارة جماعية : قالت الجروس ، قالت النصارى ، أو وقد ذكر
بعض مؤرخي الشام ، وقد يحدد اسم المصدر : وقال الهيثم بن عدي ، دون أن
يحدد عن أي كتيب أخذ ، ولكنه في أحيان نادرة يشير للمؤلف وكتابه : « وذكر
الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي في كتاب تاريخ دمشق » . كما أن معظم
مصادره السماعية تلتى مبهمه أيضاً ، كأن يشير إليها بشكل جماعي دون تحديد
شخص معين ، ويلاحظ أن هذه المصادر الأخيرة كانت قوية متنوعة قريبة من
الأحداث عامة بهولطن الأمور غالباً ، فقد اعتمد كثيراً على والده ثم أخيه - وهما
موظفان رسميان كبيران بحكومة الموصل كما سبق - كذلك كبار الأمراء ورجال
الحاشية ، وأهل الاختصاص في الأمر المروري عموماً .

تبدو دقة المؤلف في مراعاة قاعدة التخصص في كل إقليم أو بلد يؤثر له
على طريقة الباحثين - إذ يقدم المراجع المحلي على غيره ففي تاريخ العراق - مثلاً -
يعتمد على المؤرخين العراقيين مثل ابن الجوزي وغيره وفي أخبار الشام والجزيرة
يفيد من ابن القلائشي وابن عسكرك ، يقول مثلاً بعد روايته بعض الحوادث الواقعة

(١) الكامل (١) : ٤٣٣

(٢) السنين (١) : ٧٧٧٧ وانظر كذلك (١) : ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ ،

في إقليم خراسان سنة ٢٣٤ هـ : « هذا الذي ذكره لصاحب التواريخ من الخراسانيين ، وقد ذكر العراقيون هذه الحوادث على غير هذه السياقة ، وأهل كل بلد أعلم بأحوالهم ، ونحن نذكر ما ذكره العراقيون مختصراً » (١) .

ويفاضل أحياناً بين مصادره مرجحاً بعضها على البعض الآخر ، يقول مثلاً في أثناء حديثه عن نسب البويهيين : هكذا ساق نسبهم الأمير أبو نصر بن ماكولا رحمه الله ، وأما ابن مسكويه فإنه قال : إنهم يزعمون أنهم من ولد يزيد جرد بن شهریار آخر ملوك الفرس ، إلا أن النفس أكثر ثقة بنقل ابن ماكولا ، لأنه الإمام العالم بهذه الأمور ، (٢) .

وقد اتهم بعض الباحثين (٣) ابن الأثير بتعمد تضليل قرائه بتجهيل مصادره والاعتداء بالتحريف على رواياتها أحياناً - خاصة عندما يتطرق للحديث إلى صلاح الدين الأيوبي - ، وقد لا يكون الأمر على هذه الصورة السافرة ، فإن مسألة الاسترسال دون تحديد المصادر بدقة كانت من سمات التأليف في تلك العصور وربما كان ذلك هروباً من تضخم المادة أكثر مما هي عليه الآن ورغبة في الاختصار . أما بخصوص التحريف ، فإن صح في الروايات التي استشهد بها هؤلاء الباحثون

(١) الكامل ٨ : ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٢) السابق ٨ : ٢٦٥ ، وابن ماكولا هو الأمير سعد الملك أبو النصر على بن أبي القاسم هبه الله الوزير (٤٢٩ - ٤٨٧ هـ) توفي قتيلاً بجرجان ، وكانت هويته علم الحديث ، وله في علم الرجال كتاب ، الإكمال في رفع الأرياب عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب انظر ترجمته في : الكامل ١٠ : ١٢٨ ، ويجعل ولادته ٤٢٠ هـ ووفاته ٤٧٥ هـ ، وفي موضع آخر يجعل مولده سنة ٤٠٢ هـ ووفاته سنة ٤٨٦ هـ . انظر : الكامل ١٠ : ٢٢٧ ، د . شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ١٠٦ .

(٣) انظر : د . السيد الباز العريني مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٦ - ٢٣٤ ، عبد القادر طلبمات : المؤرخ ابن الأثير صفحات متفرقة خلال الرسالة ، د . نظير معداري : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ١٠ ، ١٢ .

M. Hilmy , M. Ahmad . some notes on arabic historiography during the Zengid and Ayyubid periods (521/1127 - 648/ 1250) page . 90, edited by : Bernard Lewis and p. M. Holt , in historians of the Middle east, London, 1962 .

فربما كان لذلك دوافعه لدى المؤلف والتي سبق الإلماح إليها ، وسيأتي الحديث ،
عنها في منهجه خاصة عند الحديث عن موقفه من الزنكيين والأيوبيين عموماً
وصلاح الدين بخاصة .

(د) منهج الكتاب : يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة يبين فيها دوافعه لتأليف
الكتاب حيث إنه كان مجباً لمطالعة التواريخ ، وأن ما وقع بين يديه منها يتسم بعدم
توازن مادته بين الجوهري والثانوي من الحوادث والأخبار والتركيز على أقاليم معينة
دون أخرى ، وهكذا . فشرع هو في تأليف كتاب جامع من أول الزمان متتابعاً إلى
عصره يتلافى هذه العيوب ويكون تذكراً له . فلما جمع أكثر مادته أعرض عنه
وتكاسل لكثرة مشاغله رغم إلحاح أصدقائه عليه باتمامه وحينئذ طلب إليه أمير
الموصل^(١) إخراج الكتاب ، فنشط المؤلف إليه وأتمه ، فكان له فيه بالفعل منهج
متميز وطريقة خاصة ، سأحاول إبراز سماتها فيما يلي :

أولاً : طريقة التأليف :

شرع المؤلف في تأليف كتابه محاولاً أن يتجنب ما وقعت فيه التواريخ السابقة
عليه فحاول أن يوازن فيه بين أخبار الأقاليم المختلفة وأن يميز بين المهم وغيره من
الحوادث فيعطى كلاً حجمه ، وأن يجمع قدر الإمكان الحادثة في مكان واحد فلا
يقطعها بين الشهور والسنين ، وربما لا يكون أول من حاول ذلك ولكنه أكثر من
حاول بين نظرائه ، كما جمع الحوادث الصغيرة في مكان واحد في نهاية كل عام
تحت عنوان « ذكر عدة حوادث » وتابع وفيات الأعيان والفضلاء والعلماء والكبراء
في نهاية كل عام . وسار من أول التاريخ إلى هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم
- على الطريقة الموضوعية حيث لم يكن هناك تقويم زمني يسير عليه ، فهو يذكر
عنوان الموضوع ثم يتحدث عنه وربما ذكر خلال ذلك في أي وقت كان هذا

(١) لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي أبو الفضائل بدر الدين الملقب بالملك الرحيم (٥٧٠ - ٦٥٧هـ)
صاحب الموصل ، طالت أيامه بها وكان من أجل الملوك ومن أعلام وأسهرهم على رعاياه .
انظر : ابن تغري بردى النجوم الزاهرة مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٢٨م ،
ج ٧ ص ٧٠ ، الزركلي الأعلام ج ٦ ص ١١١ .

الحدث أو ذاك مؤرخاً له بما كانوا يؤرخون به قبل الهجرة من الحوادث الكبار كالطوفان أو رفع المسيح أو عام الفيل . ثم تأتي هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيسير المؤلف حيثئذ على الطريقة الحولية بذكر السنة الهجرية وما حدث فيها ، وقد نجح المؤلف كثيراً في تلافى عيوب هذه الطريقة بجمع الحادثة الواحدة في مكان واحد من الكتاب وإن غطت تفاصيلها أعواماً عديدة ، فقد جمع مثلاً أخبار دولة بني مرداس في حلب الممتدة من حوالي سنة ٤٠٢ هـ إلى سنة ٤٧٢ هـ ضمن حوادث عام ٤٠٢ هـ ، وعقب على ذلك بقوله : « فهذه جميع أخبار بني مرداس أتيت بها متتابعة لئلا تجهل إذا تفرقت »^(١) . ولكن المؤلف لم يستطع دوماً أن يطبق هذه الطريقة ، فقد جاءت أخبار ثورة الزنج في البصرة مثلاً - والتي دامت حوادثها حوالي أربعة عشر عاماً - ممزقة على السنين في الكامل .

والأمر الملحوظ على كتاب الكامل - كغيره من كتب التاريخ العام في التراث التاريخي الإسلامي غالباً - أنه في إطار معالجته لفترة ما قبل الإسلام لا يقيم توازناً فعلياً بين أخبار الأمم السابقة ، فبينما يتركز حديثه عن بني إسرائيل والعرب والفرس لا نجد أخباراً كثيرة عن أم الترك والروم والبربر مثلاً وملوكهم وتواريخهم ، لعل هذا خضوع لنوعية المادة التاريخية المتوافرة لدى المؤرخين المسلمين ، أو ربما كان مرده إلى أن سلسلة الأنبياء كانت في بني إسرائيل وأن الأحداث الكبرى في تلك العصور الغابرة جرت غالباً على أرض بلاد فارس والعراق والجزيرة العربية والشام ومجاورتها ، حيث تتركز هذه الأمم المذكورة ، وقد ركز القرآن الكريم حديثه على أم بعينها - كبنى إسرائيل - دون أخرى . ولعل السرف في ورود تفاصيل كثيرة عن إقليم دون غيره في كتب التاريخ العام كإقليم العراق هو النشأة المبكرة والنشاط الواسع لمدرسته التاريخية^(٢) ، مما أوجد مادة وفيرة عنه لدى المؤرخين ، وينحسر

(١) الكامل ٩ : ٢٣٤ .

(٢) المعروف أن مدرسة العراق التاريخية أو أن التأليف التاريخي الإسلامي في العراق بدأ مبكراً وقويماً إلى جانب مدرسة المدينة المنورة بالحجاز بالمقارنة لبلاد أخرى كالشام ومصر ، بل إنه واصل المسيرة في حين تعطلت أو ضعفت مدرسة المدينة - ربما نظراً للظروف السياسية وانتقال مراكز النفوذ - واستقطب العراق مؤرخي الحجاز اللامعين كالواقدي وبرز فيه في وقت مبكر أعلام =

اهتمام ابن الأثير أحياناً عن مساحات واسعة من العالم الإسلامي ليركز على منطقة بعينها أو حدث بذاته ، كتركيزه مثلاً على منطقة مصر والشام والجزيرة بشمال العراق في الفترة من تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة للفاطميين بمصر سنة ٥٦٤هـ إلى وفاته ٥٨٩هـ ، حتى أن الكتاب يكاد يتحول إلى مؤلف عن الحروب الصليبية في هذه الفترة ، وقد يبدو ذلك طبيعياً في فترة أصبحت فيها هذه المنطقة من العالم لإسلامي هي محور الصراع والتوتر ومثار اهتمام الرأي العام الإسلامي ، إلا أن بقية أقاليم العالم الإسلامي لا تحظى من اهتمام المؤلف في هذه الفترة إلا بشذرات بسيطة خفيفة .

ثانياً : السمات العامة لمنهج الكتاب :

يمكن لدارس الكتاب أن يلاحظ عدة سمات تشيع في ثناياه ، وتعطيه مجتمعة طابعاً خاصاً به إلى حد كبير ، فالمؤلف رغم اهتماماته السياسية والعسكرية كثيراً ما يشغل باله بالحديث عن الشؤون الحضارية والبيئية والحيوية كغلاء الأسعار أو رخصها وسقوط الأمطار بغزارة أو شحها واشتداد الأوبئة وغير ذلك ، يقول في نص طويل معبر عن هذه الملاحظة : « وفيها - سنة ٦٢٢هـ - اشتد الغلاء بالموصل ... ومن العجب أن السلق والجزر والشلجم بيع كل خمسة أرطال بدرهم ، وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم ، وبيع في بعض الأوقات كل سبعة أرطال بدرهم وهذا ما لم يسمع بمثله ، فإن الدنيا ما زالت قديماً وحديثاً ، إذا غلت الأسعار ، متى جاء المطر رخصت إلا هذه السنة فإن الأمطار ما زالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع ، وكلما جاء المطر غلت الأسعار وهذا ما لم يسمع بمثله ، فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط يكون وزنه خمسة وأربعين رطلاً دقيقاً

= مثل : أبو مخنف ت ١٥٧هـ ، سيف بن عمر توفى ١٨٠هـ / ٧٩٦م ، نصر بن مزاحم ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م ، والهيثم بن عدى ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م . واستمرت مدرسة العراق نشيطة قوية إلى ما بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .
انظر في ذلك مثلاً : د. حسين نصار : نشأة التدرين التاريخي عند العرب مكتبة النهضة المصرية ص ٧٨ ، ٧٩ ، د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ١ ص ١٦٩ وما بعدها .

بالبغدادى، وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم وكان الأرز مكوك
بائنى عشر درهماً فصار المكوك بخمسين درهماً، وكان النمر كل أربعة أرطال
وخمسة أرطال بغيراط، فصار كل رطلين بغيراط ومن عجيب ما يحكى أن السكر
النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم وربع، كان السكر الأبلوج المصرى النقى كل
رطل بدرهمين، فصار السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف، والسكر
الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع، وسببه أن الأمراض كثرت واشتد الوباء قالت
النساء هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حار فينفع منها والأبلوج بارد يقويها،
وتبعهن الأطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهم فغلا الأسمر بهذا السبب، وهذا من
الجهل المفرط، وما زالت الأشياء هكذا إلى أول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت
والمرض فى الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى، فممن مات
فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسى خطيب الموصل وكان من
صالحى المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهوراً^(١).

ويتحدث المؤلف عن أصول بعض النظم السائدة فى المجتمع الإسلامى، فيقول
مثلا فى حديث طويل عن بعض تنظيمات كسرى الفرس «أنوشروان» فى شأن
الخراج والجنود: «كان ملوك الفرس يأخذون من غلات كورهم قبل ملك كسرى
أنوشروان فى خراجها من بعضها الثلث ومن بعضها الربع وكذلك الخمس
والسدس على قدر شربها وعمارتها ومن الجزية شيئاً معلوماً، فأمر الملك قباذ بمسح
الأرضين ليرفع الخراج عليها فمات قبل الفراغ من ذلك، فلما ملك أنوشروان أمر
باستتمام ذلك ووضع الخراج على الحفظة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون
والأرز على كل نوع من هذه الأنواع شيئاً معلوماً ويؤخذ فى السنة فى ثلاثة أنجم

(١) الكامل ١٢: ٤٤٧، ٤٤٨، وانتظر أمثلة أخرى فى ٢: ٢١٠، ٥٠٢، ٥٠٥، ١٠،
٦١، ٦٢، ١١٦، ٣٠١، ٥٤٤، ١١: ٦٦، ١٢٤، ١٣٧، ٢٢٨، ٤٥١، ٤٥٢، ١٢،
٢٩٤، ٢٩٥، ٣٣٢، ٤١٨، ٤٤٩، ٤٦٧.

وقد حدد النص وزن المكوك بـ ٤٥ رطلاً ببغداديا والرطل البغدادى ١٢ أوقية. الوسيط مادة منن
والقيراط ٢٠/١ من مثقال الذهب. انظر: د. السامر: ابن الأثير ص ٩٤، ٩٥، ٩٧،
السلجَم أو السلجَم نبت وقيل ضرب من البقول ابن منظور: لسان العرب مادة سلجم، سلجم.

وهي الوضائع التي اقتضى بها عمر بن الخطاب ، وكتب كسرى إلى القضاة في البلاد نسخة بالخراج ليمتتع العمال من الزيادة عليه ، (١) .

ويقطع المؤلف أحيانا سياق الأحداث التاريخية المتوالية ليسهب في وصف حدث اجتماعي ما كحديثه الطويل عن زفاف ابنة السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ) إلى الخليفة «المقتدى بأمر الله» (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) وما حواه هذا العرس من غرائب ، يقول : « في المحرم - سنة ٤٨٠هـ - نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين حملاً مجللة بالديباج الرومي ، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة وثلاثة عماريات وعلى أربعة وسبعين بغلاً مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلى ، وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الرائقة ، عليها مراكب مرصعة بأنواع الجواهر ، ومهد عظيم كثير الذهب ، وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين والأمير برسق وغيرهما . ونثر أهل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب وكان السلطان قد أخرج عن بغداد متصيلاً ، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى ترکان خاتون ، زوجة السلطان ، وبين يديه نحو ثلاثمائة موكبية ، ومثلها مشاعل ، ولم يبق في الحریم دكان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والائتتان وأكثر من ذلك ، وأرسل الخليفة مع خادمه ظفر محفة لم ير مثلها حسناً ، وقال الوزير لترکان خاتون : سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره ، فأجابت بالسمع والطاعة .

وحضر نظام الملك فمن دونه من أعيان دولة السلطان ، وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير وجاء نساء الأمراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منه منفردة في جماعتها وتجملها ، وبين أيديهن الشمع الموكبيات والمشاعل ، يحمل ذلك جميعه الفرسان ، ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان ، بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء ، وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك

(١) الكامل ١ : ٤٥٥ ، ومسح الأرض قاسها بالذراع ونحوه ، الوسيط مسح .

بالمراكب العجيبة ، وسارت إلى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة لم ير ببغداد مثلها. فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لسماط أمر بعمله حكى أن فيه أربعين ألف من السكر ، وخلع عليهم كلهم ، وعلى كل من له ذكر في العسكر ، وأرسل الخلع إلى الخاتون زوجة السلطان وإلى جميع الخواتين ، وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك (١).

وكما اهتم المؤلف بتتبع الأحداث السياسية وأخبار الخلفاء والملوك والأمراء فإنه أعطى أيضاً فكرة عما يعمل في جوف المجتمع وما يدور بين طبقاته وطوائفه من صراع وفتن وأحداث تستحق التسجيل ، وأكثر ما مثل لذلك من بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية لردح طويل من الزمن ، يقول مثلاً : « وفيها كانت فتنة ببغداد ، وسببها أنه حضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد ، فشكوا من يهودها ، وقالوا لنا مسجد تؤذن فيه ونصلي ، وهو مجاور الكنيسة ، فقال لنا اليهود : قد آذيتونا بكثرة الأذان ، فقال المؤذن : ما نبالي بذلك فاختموا ، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود ، فجاء المسلمون يشكون منهم ، فأمر ابن العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر ، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة ، فخفف الخطيب الخطبة والصلاة ، فعادوا يستغيثون ، فأتاهم جماعة من الجند ومنعواهم ، فلما رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرته للإسلام ، فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق الجامع ، ورجموا الجند فهربوا ، ثم قصد العامة دكاكين المخلطين ، لأن أكثرهم يهود ، فنهبوا ، وأراد صاحب الباب منعهم ، فرجموه ، فهرب منهم ، وانقلب البلد ، وضربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري ، وأحرقوا التوراة فاختموا اليهود ، وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجداً ، ونصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين ، فظنها العامة نصبت تخويفاً لهم لأجل ما فعلوا ، فعلقوا عليها في الليل جرداناً ميتة ، وأخرج

(١) الكامل ١٠ : ١٦٠ ، ١٦١ ، وإن كان هذا النوع من الزيجات يعتبر زواجاً سياسياً بالنظر لأطرافه وبالتالي يعتبر حدثاً سياسياً . والمن معيار قديم كان يكال به أربوزن وقدره رطلان ببغداديان والرطل اثنتا عشرة أوقية عندهم بأوقيتهم . انظر الرميض من .

جماعة من الحبس لصوص فصلبوا^(١) ، ويقول : « ... كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ، ثم أصلح النقيب الظاهر بينهم »^(٢) ، « جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية ، من محال الجانب الغربي - ببغداد - بسبب قتل سبع أيضاً ، أراد أهل قطفتا أن يجتمعوا ويطوفوا به ، فمنعهم أهل القرية أن يجوزوا به عندهم ، فاقتتلوا وقتل بينهم عدة قتلى ، فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلافي الأمر ، ومنع الناس من الفتنة فامتنعوا ، وفي تاسع رمضان - سنة ٦٠١ هـ - كانت فتنة بين سوق السلطان والجعفرية - ببغداد أيضاً - منشؤها أن رجلين من المحدثين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه ، فاجتمع أهل المحدثين ، واقتتلوا في مقبرة الجعفرية ، فسير إليهم من الديوان من تلافى الأمر وسكنه ، فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ، ومعه جماعة كثيرة ، فطاف في البلد ، وقتل جماعة ممن فيهم شبهة ، فسكن الناس »^(٣) .

ويرصد الكتاب بعض العادات الاجتماعية ، فخلال تأريخه لأحداث الحروب الصليبية تحدث عن بعض عادات الصليبيين ، يقول مثلاً : « فلما قتل - يقصد المركيس الفرنجي صاحب صور قتله الباطنية بالشام سنة ٥٨٨ هـ - ولى بعده مدينة صور كند - كونت أى زعيم - من الفرنج من داخل البحر ، يقال له ، الكندهرى ، وتزوج بالملكة فى ليلته ، ودخل بها وهى حامل ، وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح »^(٤) ، وبمناسبة حديثه عن هجوم التتر الكاسح على العالم الإسلامى ، يقول : « وأما ديانتهم ، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه »^(٥) .

(١) الكامل ١١ : ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٢) السابق ١١ : ٥٢٢ .

(٣) نفسه : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، وانظر كذلك ٣٣١ ، ٤٢٤ .

(٤) نفسه : ٩٢ .

(٥) نفسه ١٢ : ٣٦٠ .

وتتيح الطريقة الحولية للمؤلف أن يورد من الحوادث كل كبيرة وصغيرة ومهمة وثانوية إن أراد ذلك ، حتى أنه كثيراً ما يورد أخبار الظواهر الطبيعية البسيطة ككسوف الشمس وخسوف القمر وظهور كوكب غريب ، وهو أيضاً يسجل كثيراً من الكوارث الطبيعية الخطيرة كالزلازل والفيضانات ، يقول مثلاً : « في هذه السنة - سنة ٢٠٣ هـ - انكسفت الشمس لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، حتى ذهب ضوءها ، وغاب أكثر من ثلثيها »^(١) ، « وفيها - سنة ٢٢٢ هـ - ظهر عن يسار القبلة كوكب ، فبقى يرى نحواً من أربعين ليلة ، وله شبه الذنب ، وكان أول ما طلع نحو المغرب ثم رثى بعد ذلك نحو المشرق ، وكان طويلاً جداً ، فهال الناس ذلك وعظم عليهم »^(٢) ، « في هذه السنة - سنة ٥٥٢ هـ - في رجب ، كان بالشام زلازل كثيرة قوية ضربت كثيراً من البلاد ، وهلك فيها ما لا يحصى كثرة ، فخرّب منها بالمرّة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وأفامية وحمص الأكراد ، وعرقه واللاذقية وطرابلس وأنطاكية »^(٣) . « وفيها - سنة ٣٢١ هـ - في رجب ، جاء في غزنة سيل عظيم أهلك الزرع والضرع ، وغرق كثيراً من الناس لا يحصون ، وضرب الجسر الذي بناه عمرو بن الليث ، وكان هذا الحادث عظيماً »^(٤) . كما أنه يتوقف مع كثير من الغرائب ، يقول على سبيل المثال : « وفيها - سنة ٤٥٨ هـ - ولدت صبية بباب الأربع ، ولداً برأسين ورقبتين ووجهين ، وأربع أيد على بدن واحد »^(٥) .

وللطرائف حظها في الكتاب ، فلم يمتنع المؤلف من إيراد بعضها خلال سردہ للأحداث ، من ذلك قوله : « ومن أحسن ما يذكر أن محمد بن علي الإسكافي ، كان يتولى إقطاع عجيف ، فرفع أهله عليه إلى عجيف - أي وشوا به - فأخذه

(١) الكامل ٦ : ٣٥٦ .

(٢) السابق ٦ : ٤٧٦ .

(٣) نفسه ١١ : ٢١٨ .

(٤) نفسه ٩ : ٤١١ .

(٥) نفسه ١٠ : ٥٣ .

وأراد قتله ، فبال في ثيابه خوفاً من عجيف ، ثم شفع فيه فقيده وحبسه ، ثم صار إلى الروم وأخذ المعتصم كما ذكرنا ، وأطلق من كان في حبسه ، وكانوا جماعة منهم الإسكافي ، ثم استعمل على نواح بالجزيرة ، ومن جملة باعينا ، قال - أى الإسكافي - : فخرجت يوماً إلى قل باعينا ، فاحتجت إلى الضوء فجئت إلى تل فلت عليه ، ثم توضأت ونزلت وشيخ باعينا ينتظرنى ، فقال لى فى هذا التل قبر عجيف وأرانيه فإذا أنا قد بلت عليه ، وكان بين الأمرين سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً ^(١) . ولا يخلو الكتاب من الفكاهة وتتبع النوادر ، يقول مثلاً عن إحدى الوفيات : « وفيها - سنة ٤٢٠ هـ - توفى أبو الحسن على بن عيسى الربعى النحوى عن نيف وتسعين عاماً ، وأخذ النحو عن أبى على الفارسى ، وأبى سعيد السيرافى ، وكان فكهاً كثير الدعاية ، فمن ذلك أنه كان يوماً على شاطئ دجلة ببغداد ، والملك جلال الدولة والمرضى والرضى كلاهما غى سميرية ، ومعهما عثمان بن جنى النحوى . فناداه الربعى : أيها الملك ما أنت صادق فى تشيعك لعلى بن أبى طالب ، يكون عثمان إلى جانبك ، وعلى ، يعنى نفسه ، ها هنا ! فأمر بالسميرية فقربت إلى الشاطئ وحمله معه وقيل إن هذا القول كان للشريف الرضى وأخيه المرتضى ، ومعهما عثمان بن جنى ، فقال : ما أعجب أحوال الشريفين ، يكون عثمان معها وعلى يمشى على الشط ^(٢) .

ويعد كتاب الكامل أحد المصادر المساعدة على التأريخ للعلوم لحرص مؤلفه - غالباً - فى حديثه عن العلماء والمؤلفين على النص على أسماء مؤلفاتهم وأعمالهم أو بعضها ، يقول : ثم ملك انطيس بيوس اثنتين وعشرين سنة وفى أيامه كان بطليموس صاحب المجسطى والجغرافيا ، وغيرهما ^(٣) ، ويقول : « فى هذه السنة

(١) الكامل ١٢ : ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، وانظر كذلك ٩ : ٥٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ٥٨٠ ، وفى النص : عجيف هو : عجيف بن عتبة أحد قواد المعتصم الذين تأمروا عليه فى فتنة العباس بن المأمون ضد عمه المعتصم أثناء فتح عمرية والتي كشفها المعتصم الخليفة العباسى (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) ، وعاقب المشتركين فيها ومنهم عجيف ، وباعينا يكون الباء قرية كبيرة كالمدينة فوق جزيرة ابن عمر لها نهر كبير يصب فى دجلة . مرصد الإطلاع ١ : ١٢٠ .

(٢) الكامل ٩ : ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٣) السابق ١ : ٣٢٦ .

سنة ٤٧٧ هـ - في جمادى الأولى ، توفى الشيخ أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد الصباغ ، الفقيه الشافعي صاحب الشامل والكامل ، وكفاية المسائل وغيرها من التصانيف (١) .

وفي حديثه عن الوفيات كثيراً ما يشير إلى اتجاه المترجم له المذهبي ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٤٢٦ هـ - توفى ... وأبو علي الحسين بن أحمد بن شاذان ، المحدث الأشعري مذهباً » (٢) . « وفيها - سنة ٩٩ هـ - في المحرم ، توفى القاضي أبو الفرج عبيد الله بن الحسن ، قاضي البصرة ، وله ثلاث وثمانون سنة ، وكان من الفقهاء الشافعية المشهورين » (٣) ، « في هذه السنة - سنة ٥٩٦ هـ - في جمادى الآخرة ، وثب الملاحدة الإسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي ، وزير خوارزم شاه تكش ، فقتلوه ، وكان صالحاً كثير الخير ، حسن السيرة ، شافعي المذهب » (٤) .

« وفيها - سنة ٢٥٢ هـ - في ربيع الآخر ، توفى القاضي برهان الدين أبو القاسم منصور ابن أبي سعد محمد بن أبي نصر أحمد الصاعدي قاضي نيسابور ، وكان من أئمة الفقهاء الحنفية » (٥) ، وهذا مما يساعد كثيراً في حركة التاريخ للمذاهب ، كما أن المؤلف كثيراً ما يورد أحكاماً على العلماء من حيث الثقة في الحفظ أو الضعف وخلافه ، يقول مثلاً : « وفي ذى الحجة - سنة ٥١٦ هـ - توفى عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف أبو طالب ، ومولده سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وسمع البرمكي ، والجوهري والعشاري ، وكان ثقة حافظاً للحديث » (٦) ، « وفيها - سنة ١٥٠ هـ - مات مقاتل بن سليمان البلخي

(١) الكامل ١٠ : ١٤١ ، وانظر كذلك ٩ : ٢٥٢ ، ٤٦٦ ، ١٠ : ١٠٨ ، ١٦٣ ، ٢٥ ، ٢٥٤ ،

٣٠٢ ، ٦٣٨ ، ١١ : ٣٣٣ ، ٤٤٩ ، ١٢ : ٢٢٩ .

(٢) السابق ٩ : ٤٤٥ .

(٣) نفسه ١٠ : ٤١٥ .

(٤) نفسه ١١ : ٢٢٩ .

(٥) نفسه ١١ : ٢٢٨ .

(٦) نفسه ١٠ : ٦٠٦ ، وانظر كذلك ١١ : ٩٦ ، ٤٥٤ ، ١٢ : ١٥٩ .

المفسر وكان ضعيفاً في الحديث»^(١)، «وفيها - سنة ١٥٦هـ - مات عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قاضي إفريقية، وقد تكلم الناس في حديثه»^(٢)، وحديث ابن الأثير عن نفسه وأسرته قليل جداً، ربما لطبيعة هذه الأسرة المحافظة^(٣)، ويشي هذا الحديث بما كانت عليه هذه الأسرة من يسار وجاه عريض، يقول مثلاً حاكياً عن قفل تجارى أخذه الفرنج بالشام سنة ٥٨٨هـ: «حكى لى بعض أصحابنا، وكنا سيرنا معه شيئاً للتجارة إلى مصر، وكان قد خرج فى هذا القفل، قال...»^(٤)، ويحدث عن أبيه فيقول: «حدثنى والدى، رحمه الله، قال: كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين، كما علمتم، فلما كان قبل موته ييسر أتنا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة، وهذه العقيمة هي قرية تحاذى الجزيرة بينهما دجلة، ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم، وبعضها عليه خراج، وبعضها مطلق من الجميع، قال: وكان لى فيها ملك كثير، فكنت أقول: إن المصلحة أن لا يغير على الناس شيء، وما أقول هذا لأجل ملكى، فإننى أنا أمسح ملكى، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة، فجاءنى كتاب النائب يقول: لا بد من المسحة، قال: فأظهرت الأمر، وكان بها قوم صالحون، لى بهم أنس، وبيننا مودة، فجاءنى الناس كلهم، وأولئك معهم يطلبون المراجعة...»^(٥).

ويتحدث أحياناً عن نفسه وأهله وأحوالهم المعيشية، فيقول: «وفيها سنة ٦٢٢هـ - اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها، فأكل الناس الميتة والكلاب والسنائير فقلت الكلاب والسنائير بعد أن كانت كثيرة، ولقد دخلت يوماً

(١) الكامل ٥ : ٥٩٤ .

(٢) السابق ٦ : ١٢ .

(٣) انظر : د. السامر : ابن الأثير ص ٦٣ .

(٤) الكامل ١٢ : ٨٢ .

(٥) السابق ١١ : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، والجريب مكبال قدره أربعة أقفزة ، والقفيز مكبال كان يكال به قديماً ويختلف مقداره فى البلاد وبما يدل بالتقدير المصرى الحديث نحو ستة عشر كيلوجرام ، ومن الأرض قدر مائة وأربع وأربعين فراعاً ، انظر : الرسيط مادنى جرب ، قفز .

إلى داري فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطيبخه فرأيت سنائير استكثرتها ، فمدت ، فكانت اثنا عشر سنورا ، ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنائير لعدمها وليس بين المرتين كثير ، وغلا مع الطعام كل شيء فبيع رطل الشيرج بقيراطين ، بعد أن كان بنصف قيراط قبل الغلاء ، وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلاً بدينار ، (١) .

ونحن لا نعلم الكثير عن سيرة ابن الأثير خاصة نشأته وطفولته وحياته الخاصة ولا تهدينا المصادر القديمة والمراجع الحديثة لشيء كثير في ذلك ، وهو يحدثنا أحيانا بشكل عارض عن أدائه فريضة الحج سنة ٥٩٣ هـ ، ومشاركته في الجهاد مع صلاح الدين الأيوبي - كما سبق - وهو لا يذكر أباه غالباً إلا في سياق رواية بعض الأخبار عنه ، ولم يلق الضوء على أحد من أفراد أسرته إلا على أخيه مجد الدين أبي السعادات قليلاً وخاصة بمناسبة وفاته سنة ٦٠٦ هـ . أو حديثه عن طلبهما العلم معا (٢) .

كما ترجم المؤلف لكثير من شيوخه ترجمات تطول وتقصر ، يقول مثلاً : « في هذه السنة - سنة ٥٨٤ هـ - توفي شيخنا أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن سويذة التكريتي ، كان عالماً بالحديث ، وله تصانيف حسنة » (٣) ، « وفيها في صفر ، توفي شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهذان ، المعروف بابن أفضل الزمان بمكة ، وكان ، رحمه الله ، عالماً متجراً في علوم كثيرة خلاف

(١) الكامل ١٢ : ٤٤٧ ، السنور : حيوان أليف من الفصيلة السنورية وربة اللواحم من خير مأكله الفأر ، ومنه أهلى ويرى . انظر : الرميض سنر .

(٢) في حديثه عن أسرته ، انظر : الكامل ١١ : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ١٢ : ٨٢ ، ٢٨٨ ويلاحظ أن المؤلف لم يذكر إطلاقاً أخاه الأديب الشهير « ضياء الدين المتوفى سنة ٦٣٧ هـ » صاحب كتاب « المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب » وغيره وربما كان ذلك لقطيعة كانت بينهما كما يذكر الذهبي ، انظر : العبر في خبر من غير ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ج ٢ بتحقيق أبو هاجر محمد بن بسيوني زغلول ، ص ٢٣٢ ، حيث يقول عن ضياء الدين : « وكان بينه وبين أخيه عز الدين مقاطعة كلية » .

(٣) الكامل ١٢ : ٢٦ .

فقه مذهبه والأصوليين والحساب والفرائض والنجوم ، والهيئة والمنطق وغير ذلك ،
وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن ، وأقام بمكة حرسها الله تعالى ، مجاوراً فتوفى
بها ، وكان من أحسن الناس صحبة وخلقاً ، (١) .

ولعل هذا العرض السابق لاهتمامات المؤلف الحضارية والاجتماعية بجوار
اهتماماته السياسية والعسكرية ، يخفف من حدة الاتهام الموجه إلى مؤرخي تلك
العهود بشكل عام من أنهم أولّوا الجانب السياسي والعسكري وحياة الحكام
والأمراء كل عناية في حين أهملوا الاقتراب من طبقات المجتمع المختلفة وتصوير
حياة عامة الشعوب ومشاكلهم ، وأن التاريخ يجب ألا يكون فقط بياناً عن المعارك
والعمليات الحربية أو عن المؤامرات والدسائس الدبلوماسية والسياسية ، بل عليه أن
يعرض نظرة عامة للحياة بأسرها (٢) .

ويسجل المؤلف أحياناً حوادث يتفق حدوثها معاً مما يدل على التنبيه والتدبر
لحوادث التاريخ - يقول مثلاً : « ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان ألب
أرسلان توفى بعده القائم بأمر الله ، ولما توفى السلطان ملكشاه ، توفى بعده
المقتدى بأمر الله ، ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله » (٣) .
ويقول عن الوزير العباسي « أبو علي مقله » : « ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث
دفعات ووزر لثلاثة خلفاء ، وسافر ثلاث سفرات : اثنتين منفيّاً إلى شيراز ، وواحدة
في وزارته إلى الموصل ، ودفن بعد موته ثلاث مرات وخص به من خدمة ثلاثة » (٤) .

وقد ذكرت من قبل طريقته في جمع الأجزاء المتفرقة لحادث واحد في مكان
واحد قدر الإمكان واستكمالاً لذلك أذكر أنه كان يعود فيجمل أمراً ما يكون قد

(١) السابق ١٢ : ٤٢ ، ٤٣ . وانظر كذلك ٣٨ ، ١٣١ ، ٢٥٨ ، ٢٩٥ ، ٥٠٥ .

(٢) انظر : أرنت كاسيرر : في المعرفة التاريخية ، ترجمة : أحمد حمدي محمود ، دار النهضة
العربية ص ٦٨ ، جوزيف داهموس : سبعة مؤرخين في العصور الوسطى ، ترجمة د. محمد
فتحى الشاعر ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩م ص ١٢ ، ١٣ ، عماد الدين خليل : الإمارات
الأرتقية في الجزيرة والشام ، رسالة دكتوراه منشورة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ١ سنة ١٩٨٠م
ص ٣٣ .

(٣) الكامل ١٠ : ٥٥ .

(٤) السابق ٨ : ٣٤٦ .

كر بعضه متفرقاً من قبل وذلك بمناسبة حدث ما مهم يتصل بهذا الأمر ، من ذلك مثلاً حديثه عن الأندلس وولاتها مجملاً وكان قد فرق الحديث عنه من قبل ، من لدن الفتح سنة ٩٢ هـ إلى أن غلب عليها « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام » ، وذلك الإجمال جاء بمناسبة « ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس » سنة ١٢٩ هـ (١) .

وقد أدرك المؤلف أهمية ذلك بالطبع فقال معقباً على هذا الإجمال : « هذا ما ذكرناه من ولاية الأندلس على الاختصار وقد تقدم أبسط من هذا متفرقاً ، وإنما أردناه ها هنا متتابعاً ليتصل بعض أخبار الأندلس ببعض لأنها وردت متفرقة ، ونرجع إلى ذكر عبور عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إليها » (٢) .

وقد يفعل المؤلف العكس فيذكر الخبر مجملاً أولاً ثم يعود فيذكره متفرقاً فيما يلي من السنين ، ومثال ذلك حديثه في سنة ١٥١ هـ تحت عنوان « ذكر ولاية يزيد بن أبي حاتم أفريقية وقاتل الخوارج » (٣) حيث أجمل الحديث عن يزيد هذا في هذا المكان ، ثم عاد في السنين التالية فذكر أمره منجماً .

وتتميز شخصية المؤلف من خلال الكتاب بكثير من الوقار والتواضع فهو لا يُدُلُّ بعلمه ولا يقطع بيقينية أخباره دوماً ، بل كثيراً ما يصفها بأنها ظنية تخمينية ، وهو لا يهاجم من أجل إشباع الذات ولا يتيه بما عنده ، ولعل مصداق ذلك في ندرة حديثه عن نفسه في الكتاب ، وهو يؤكد هذه المعاني بوضوح حيث يقول في مقدمة كتابه معتذراً عما قد يكون وقع فيه من غلط : « على أني مقر بالتقصير ، فلا أقول إن الغلط سهو جرى به القلم ، بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم » (٤) .

ولا يخفى المؤلف هواه السياسي في كثير من المواطن نحو الخلافة العباسية

(١) الكامل ٥ : ٤٨٩ - ٤٩٣ .

(٢) نفسه ٥ : ٤٩٣ .

(٣) السابق ٥ : ٦٠١ ، ٦٠٢ .

(٤) السابق ١ : ٦ .

التي عاش في زمانها ، يقول في حديث ودود عنها بعد حديثه عن فتوح السند أيام الأمويين وأخذ عمالهم ما غلبوا عليه من الفتوح ، نظراً لضعف الدولة الأموية أواخر أيامها : « وكان العمال يقاتلون العدر فكانوا يفتحون ناحية ويأخذون ما تيسر لهم لضعف الدولة الأموية بعد ذلك ، إلى أن جاءت الدولة المباركة العباسية ، ونحن نذكر إن شاء الله أيام المأمون ببقية أخبار السند »^(١) ، وتبرز بقوة عاطفة المؤلف الدينية في كلام صريح في خضم الأحداث أحياناً ، يقول مثلاً : « في هذه السنة سنة ٤٨٤ هـ - استولى الفرنج لعنهم الله ، على جميع جزر صقلية ، أعادها الله تعالى إلى الإسلام والمسلمين »^(٢) ، ويقدم تقديمًا رائعًا لحديثه عن خروج التتر إلى بلاد الإسلام والذي تظهر فيه بحرارة أحاسيس المؤرخ المسلم ومشاعره تجاه وطنه ودينه وأهل ملته ، يقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ، استعظماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، إلا أني حتى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول : « هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقرت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن ، لم يتلوا بمثلها ، لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر بيني إسرائيل من القتل ، وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملائع من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة لمن قتلوا ، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم ، وتفنى الدنيا إلا بأجوج ومأجوج . أما الدجال فإنه

(١) الكامل ٤ : ٥٩٠ .

(٢) السابق ١٠ : ١٩٣ .

يعطى على من اتبعه ، وبهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١) .

ودقة المؤلف تدفعه لتصحيح ما يبدو غير مستقيم من الروايات ، كسرده ونقله وإصلاحه لرواية يوم البردان وهو من أيام العرب في الجاهلية^(٢) . ومن مظاهر دقته وتحريه أيضاً قوله مثلاً بعد حديثه عن نهاية الغزنويين وابتداء دولة الغوربين في غزنة^(٣) : « وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيه خلف لو ينكشف الحق فأصلحه إن شاء الله تعالى »^(٤) .

ومؤرخنا ذو بصيرة ونظرة شاملة ، كما أنه أحياناً يسبق الأحداث عندما تستدعي طبيعة الحدث ذلك ، فيعطى فكرة مستقبلية عن الحدث في عجالة ثم يتركه على أن يعود إليه في محله ليفصله ، يقول مثلاً بمناسبة حديثه عن خروج صاحب رومية (روما) من طاعة (قسطنطين) أحد قياصرة الروم ، ولم يقدر هذا الأخير عليه فتصالحا : « ولم يزل أمر الإفرنج بعد هذا يقوى ويزداد ويتسع ملكهم كالاستيلاء على بعض بلاد الأندلس على ما نذكره ، وكأخذهم جزيرة صقلية وبلاد ساحل الشام والبيت المقدس على ما نذكره »^(٥) .

وقد بلغ الكتاب - ككثير من الحوليات التاريخية الإسلامية - شأوا بعيداً من الدقة في ذكر أخص التفاصيل ، انظر مثلاً هذا النص « وفيها - سنة ٣هـ - قيل

(١) الكامل ١٢ : ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢) نفسه ١ : ٥٠٦ - ٥١١ .

(٣) الدولة الغورية : إحدى الدول الإسلامية المستقلة عن الخلافة العباسية في بلاد الأفغان وشمال الهند (٥٤٣ - ٦١٢هـ - ١١٤٨ - ١٢١٥م) .

(٤) الكامل ١١ : ١٧٠ .

(٥) الكامل ١ : ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، وانظر ١٠ : ٢٧٢ . وعن بعض مزايابن الأثير وربطه بين متفرق الحوادث وخاصة الصليبيات ، انظر :

Francesco Gabrieli , The arabic historiography of the Crusades P. 1 . 3 , 1 .

4 ,in Historians of the Middle east .

ولد الحسن بن على فى النصف من شهر رمضان ، وفيها علفت فاطمة بالحسين ، وكان بين ولادتها وحملها خمسون يوماً ، وفيها حملت جميلة بنت عبد الله بن أبى بعبد الله بن حنظلة بن أبى عامر غسيل الملائكة فى شوال ،^(١) .

وفضلاً عن توافر الحس المكاني لدى المؤلف بمعنى وضوح مسرح الحوادث التى يرويها ، فإنه يتوافر لديه أيضاً الحس الزماني بمعنى التحديد الدقيق لزمن وقوع الحوادث غالباً . فمع أنه يتبع النظام الحولى فى ترتيب مادته إلا أنه لا يكتفى كثيراً بذكر السنة ولكنه يتطرق لذكر الشهر وأحياناً اليوم ، بل فى بعض الأحيان الجزء من اليوم ، لاحظ مثلاً هذه النصوص : « فى هذه السنة - سنة ٣٥٠هـ - فى المحرم ، مرض معز الدولة البويهى »^(٢) ، « ... فوصلوا يوم الخميس لست بقين من شوال »^(٣) ، « فى هذه السنة - سنة ٣٥٤هـ - ليلة السبت رابع عشر صفر انخسف القمر جميعه »^(٤) .

وينوع المؤلف فى استعمال التقاويم ، فهو غالباً يستخدم التقويم الهجرى ، ولكنه أحياناً يستخدم تقاويم أخرى كالتقويم السريانى أو الفارسى قارناً إياها بالهجرى : « فاضطر - أى صلاح الدين الأيوبي - إلى الرحيل عنها - أى عن مدينة صور بساحل الشام حين استعصت عليه - آخر شوال ، وكان أول كانون الأول ، إلى عكا »^(٥) ، « وفيها - سن ٢٤٥هـ - ... ، وكان نيروز المتوكل الذى أرفق أهل الخراج بتأخيرها إياه عنهم لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الأول ، ولسبع عشرة خلت من حزيران ، لثمان وعشرين من اردبيهشت »^(٦) .

(١) الكامل ٢ : ١٦٦ .

(٢) السابق ٨ : ٥٣٤ .

(٣) نفسه ٨ : ٤٢٦ .

(٤) نفسه ٨ : ٥٦٥ .

(٥) نفسه ١١ : ٦٥٦ .

(٦) نفسه ٧ : ٨٩ .

ثالثاً : النقد التاريخي في الكتاب :-

يتميز المؤلف بروح نقدية يحكمها في كثير من أخباره ورواياته وقد توزعتها عدة مستويات ، فمن نقد الروايات الضعيفة وغير المعقولة إلى نقد الشخصيات العامة إلى نقد الحكام وحتى الشعوب والطوائف تعرض لها بالانتقاد.

١ - نقد الروايات الضعيفة واللامعقولة :

لا يدع كثيراً من الروايات على عواهنها ، وإنما يحاول أن يبدى رأياً فيها ، يقول ، مثلاً معلقاً على الروايات الخرافية عن نسب « بلقيس » ملكة سبأ : «والجميع حديث خرافة لا أصل له ولا حقيقة» (١). وهو لا يسلم كثيراً بالمبالغات الجامحة اللامعقولة ، يقول بعد إيراده روايات عن قوة جيش بلقيس الخرافية وغناها المفرط : «وقد تواطأوا - أي الرواة على الكذب والتلاعب بعقول الجهال واستهانوا بما يلحقهم من استجهال العقلاء لهم ، وإنما ذكرنا هذا على قبحة ليقف بعض من كان يصدق به عليه فينتهي إلى الحق» (٢).

٢ - نقد المصادر :

تعرض المؤلف بالنقد لمصادره مراراً ومنهم الطبري نفسه ، يقول مثلاً من رواية طويلة : « لما ملك الحارث بن عمرو بن حجر الكندي العرب وقتل النعمان بن المنذر ابن امرئ القيس ، كما ذكرناه ، بعث إليه قباذ - كسرى الفرس - أنه قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد ، وأحب لقاءك ، وكان قباذ زنديقياً يظهر الخير ويكره الدماء ويدارى أعداءه ، فخرج إليه الحارث والتقيا ، واصطلحا على أن لا يجوز الفرات أحد من العرب ، فطمع الحارث الكندي ، فأمر أصحابه أن يقطعوا الفرات ويغيروا على السواد ، فسمع قباذ فعلم ، أنه من تحت يد الحارث ، فاستدعاه فحضر ، فقال له : إن لصوصاً من العرب صنعت كذا وكذا ، فقال : ما

(١) الكامل ١ : ٢٣٢ .

(٢) نفسه ١ : ٢٣٤ .

علمت ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود ، وطلب منه شيئاً من السواد فأعطاه ستة طسايح ، وأرسل الحارث بن عمرو إلى تبع وهو باليمن ، يطمعه في بلاد العجم ، فسار تبع حتى نزل الحيرة وأرسل ابن أخيه شمرذا الجناح إلى قباد ، فحاربه ، فهزمه شمر حتى لحق بالرى ، ثم أدركه بها فقتله ، ثم وجه تبع شمر إلى خراسان ، ووجه ابنه حسان إلى السغد ، وقال : أيكما سبق إلى الصين فهو عليها ، وكان كل واحد منهما في جيش عظيم ، يقال كانا في ستمائة ألف وأربعين ألفاً ، وأرسل ابن أخيه يعفر إلى الروم ، فنزل على القسطنطينية فأعطوه الطاعة والإتاوة ، ومضى إلى رومية فحاصرها ، فأصاب من معه طاعون ، فوثب الروم عليهم فقتلوهم ، ولم يفلت منهم أحد ، وسار شمر ذو الجناح إلى سمرقند فحاصرها ، فلم يظفر بها وسمع أن ملكها أحرق وأن له ابنة ، وهي التي تقضى الأمور ، فأرسل إليها هدية عظيمة ، وقال لها : إننى إنما قدمت لأتزوج بك ومعى أربعة آلاف تابوت مملوءة ذهباً وفضة ، أنا أدفعها إليك وأمضى إلى الصين ، فإن ملكت كنت امرأتى وإن هلكت كان المال لك ، فلما بلغت الرسالة قالت : قد أجبته فليبعث المال فأرسل أربعة آلاف تابوت ، فى كل تابوت رجلان ، ولسمرقند أربعة أبواب ولكل باب ألفا رجل ، وجعل العلامة بينهم ، أن يضرب بالجرس ، فلما دخلوا البلد صاح شمر فى الناس وضرب الجرس ، فخرجوا وملكوا الأبواب ودخل المدينة فقتل أهلها وحوى ما فيها وسار إلى الصين فهزم الترك ودخل بلادهم ولقى حسان بن تبع قد سبقه إليها بثلاث سنين ، فأقاما بها حتى ماتا ، وكان مقامهما فيما قبل إحدى وعشرين سنة ، وقيل : عادا فى طريقهما حتى قدما على تبع بالغنائم والسبي والجواهر ، ثم انصرفوا جميعاً إلى بلادهم ومات تبع باليمن فلم يخرج أحد من اليمن غازياً بعده - ويستمر المؤلف فى سرد بقية الرواية ثم يقول معلقاً عليها ومفنداً لها - قلت هذا الذى ذكر أبو جعفر من قتل قباد بالرى وملك تبع البلاد من بعد قتله من النقل القبيح والغلط الفاحش ، وفساده أشهر من أن يذكر ، فلولا أننا شرطنا أن لا نترك ترجمة من تاريخه إلا ونأتى بمعناها من غير إخلال بشيء لكان الإعراض عنه أولى . ووجه الغلط فيه أنه ذكر أن قباد قتل بالرى ، ولا خلاف بين أهل النقل من الفرس وغيرهم أن قباد مات

تحتف أنفه في زمان معلوم ، وكان ملكه مدة معلومة ، كما ذكرناه قبل ، ولم ينقل أحد أنه قتل إلا في هذه الرواية ، ولما مات ملك ابنه كسرى أنوشروان بعده ، وهذا أشهر من : قفانبك ، ولو كان ملك الفرس انتقل بعد قباد إلى حمير ، كيف كان ملك ابنه بعده وتمكن في الملك حتى أطاعه ملوك الأمم وحملت الروم إليه الخراج ! ، ثم ذكر أيضاً أن تبعاً وجه ابنه حسان إلى الصين وشمراً إلى سمرقند وابن أخيه إلى الروم وأنه ملك القسطنطينية وسار إلى رومية فحاصرها ، فبالت شعري ! ما هو اليمن وحضرموت حتى يكون بهما من الجنود ما يكون بعضهم في بلادهم لحفظها ، وجيش مع تبع ، وجيش مع حسان يسير بهم إلى مثل الصين في كثرة عساكره ومقاتلته ، وجيش مع ابن أخى تبع يلقي به مثل كسرى ويهزمه ويملك بلاده ويحاصر به مثل سمرقند في كبرها وعظمتها وكثرة أهلها ، وجيش مع يعفر يسير به إلى ملك الروم ويملك القسطنطينية ! والمسلمون مع كثرة ممالكهم واتساعهم وكثرة عددهم قد اجتهدوا ليأخذوا القسطنطينية أو ما يجاورها ، واليمن من أقل بلادهم عدداً وجنوداً ، لم يقدروا على ذلك ، فكيف يقدر عليه بعض عساكر اليمن مع تبع ؟ هذا مما تأباه العقول وتمجه الأسماع ،^(١) ويستمر المؤلف في تفنيد الرواية إلى أن يقول : « ولو فكر أبو جعفر في ذلك لاستحيا من نقله »^(٢) .

ومن نقدهم المؤلف من مصادره أيضاً ابن مسكويه^(٣) والعماد الأصفهاني^(٤)

(١) الكامل ١ : ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٣١ ، ٤٢٢ ، وفي النص : طسايح جمع طسُوج وهو الناحية ، السغد أو الصفد : مملكة كانت تمتد بين نهري سيحون وجيحون وعاصمتها سمرقند وأهم مدنها بخارى ، انظر : د. أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي مكتبة النهضة المصرية ، ج ٢ ط ٧ سنة ١٩٨٤م ص ١٣٤ ، و « قفانبك » من مطلع معلقة امرئ القيس الشاعر الجاهلي الشهير الذي يقول :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل .. بسقط اللوى بين الدخول فحومل .

(٢) السابق ١ : ٤٢٣ ، وانظر كذلك ١ : ٢٢ ، ٤١١ ، ٦ : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) نفسه ٧ : ١١٨ ، ٨ : ١٦٨ .

(٤) نفسه ١١ : ٤٢٩ .

وحمل بشدة على ابن الجوزى ، يقول مثلاً : « فإن ابن الجوزى قد صنف كتاباً سماه تلبيس إبليس ، لم يبق فيه على أحد من سادة المسلمين وصالحينهم » (١) .
ويقول فى موضع آخر : « فإن ابن الجوزى لم يبق على أحد إلا مكسرى الحنابلة » (٢) .

٣ - نقد الشخصيات العامة :

ومنهم العلماء : يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٢٢٦هـ - توفى أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن العلاف البصرى ، شيخ المعتزلة فى زمانه وزاد عمره على مائة سنة ، وله مسائل فى الأصول قبيحة تفرد بها » (٣) ، ويركز المؤلف بخاصة على علماء الحديث من حيث الثقة والضعف وغير ذلك ، وهذا شائع عنده بصورة واضحة خاصة فى حديثه عن الوفيات ، وقد سبقت أمثلة لذلك .

وهو لا يحجم أحياناً عن نقد بعض الشخصيات الكبرى فى تاريخ الإسلام إن كانت تستحق ذلك من وجهة نظره خصوصاً من زاوية المعتقد الدينى ومدى سلامته ، يقول فى وفيات سنة ٤٢٨هـ « وفى شعبان توفى أبو على بن سينا الحكيم ، الفيلسوف المشهور ، صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة ، وكان موته بأصبهان وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه ، ولا شك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد ، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه فى الإلحاد والرد على الشرائع فى بلده » (٤) .

ولكن المؤلف معتدل المزاج ، لا يحتد فى نقده بل يحاول الإنصاف وتوازن الأحكام ، يقول مثلاً عن الشاعر الأندلسى محمد بن هانىء شاعر المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥هـ) ، بمناسبة مقتل هذا الشاعر سنة ٣٦٢هـ : « وكان

(١) الكامل ١٠ : ٦٧١ .

(٢) السابق ١١ : ٣٣٣ ، وانظر كذلك ٩ : ٥١٧ ، ١٠ : ٦٤٠ .

(٣) نفه ٦ : ٥٢١ .

(٤) نفه ٩ : ٤٥٦ .

من الشعراء المجيدين إلا أنه غالى في مدح المعز حتى كفره العلماء ، فمن ذلك قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار . . . فاحكم فأت الواحد القهار

- ويورد له نماذج أخرى على هذا النمط إلى أن يقول - ، وقد تأول ذلك من يتعصب له ، والله أعلم ، وبالجمله فقد جاز حد المديح ،^(١) .

٤ - نقد الحكام :

لم يتردد المؤلف في توجيه النقد مرات عديدة في كتابه إلى الحكام على مختلف مستوياتهم بدءاً بالأمرء الصغار إلى الحكام الكبار من الملوك والسلاطين وحتى الخلفاء ، من ذلك نقده المرير لأمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » زعيم المرابطين في المغرب والأندلس (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) ، لتصرفاته غير اللائقة مع « المعتمد بن عباد » صاحب إشبيلية وقرطبة وأسرته ، رغم أنه سلمه بلاده بأمان - على ما يقول المؤلف - حين اجتاحت المرابطون الأندلس سنة ٤٨٤ هـ ، يقول : « وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده ، إلا من رضى ، لنفسه بهذه الرذيلة ، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم ، حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم ، وذكر ذلك المعتمد في أبيات ترد عند ذكر وفاته ، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسى ولؤم قدرة »^(٢) . ويورد المؤلف عدة صفحات متناقضة ومتجاورة لشخص واحد ، خصوصاً إذا كان يترجم له عند وفاته مثلاً ، وربما يعود ذلك ، إلى وجود هذه المتناقضات في هذه الشخصية بالفعل ، أو ربما يعود إلى تعدد مصادر المؤلف التي استقى منها أخبار تلك الشخصية ، ومنها الموالي المادح

(١) الكامل ٨ : ٦٢١ ، ٦٢٢ .

(٢) السابق ١٠ : ١٩٠ ، وإن خفف من مرارة هذا النقد أن ملوك الطوائف بالأندلس ، ومنهم أصحاب إشبيلية هؤلاء قد أضعوا البلاد وأطمعوا فيها أعداءهم ، وتعددت الخلافات بينهم ، وإن كان هذا لا يبرر أن يفعل بهم هذا خاصة بعد الأمان الممنوح لهم .

لصفاتها، ومنها النافر الناقد لأفعالها ، يقول مثلاً بمناسبة وفاة السلطان السلجوقي « طغربك » (٤٣٢ - ٤٥٥ هـ) : « كان عاقلاً حليماً من أشهر الناس احتمالاً ، وأكثرهم كتماناً لسره ، ... ، وكان رحمه الله ، يحافظ على الصلوات ويصوم الاثنين والخميس ، وكان لبسه الثياب البيضاء ، وكان ظلوماً غشوماً قاسياً ، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم ، وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً » (١) .

ورغم ميل المؤلف للعباسيين الذين عاش في ظل خلافتهم إلا أنه لا يخفى كثيراً ما ارتكبه من أخطاء ، وما حاكوه من دسائس ، من ذلك مثلاً حديثه عن مقتل « إدريس بن عبد الله » - مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب - بدس من الخليفة العباسي « الرشيد » (١٧٠ - ١٩٣ هـ) (٢) ، وتحدث أيضاً عن لهو « الأمين بن الرشيد » (١٩٣ - ١٩٨ هـ) ، وشرابه وملذاته ، ثم قال : « ولم نجد في سيرته ما يستحسن ذكره من حلم أو معدلة ، أو تجربة حتى نذكرها ، وهذا القدر كاف » (٣) .

ولم يحاول ابن الأثير - باعتباره مؤرخاً مسلماً - أن يرسم صورة مثالية للعلاقة بين المسلمين وأهل الديانات والملل الأخرى ، الداخلة في حظيرة دار الإسلام وخاضعة لحكم المسلمين وبخاصة النصارى ، فكما روى كثيراً عن صيانة المسلمين وحكامهم لعهودهم وحرمتهم على مر التاريخ ، روى أيضاً ما أصابهم على أيدي بعض حكام المسلمين ، كأفعال الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) الشائنة مع أهل الذمة ، يقول : « وفي هذه السنة - ٢٣٥ هـ - أمر المتوكل أهل الذمة بلبس الطيالة العسلية وشد الزنانير ، وركوب السروج بالمركب الخشن ، وعمل كرتين في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفتين لون الثوب ، كل واحدة منهما قدر أربع أصابع ، ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ، ومن خرج من نساءهم تلبس إزاراً عسلياً ، ومنعهم من

(١) الكامل ١٠ : ٢٨ .

(٢) السابق ٦ : ٩٣ .

(٣) نزهة ٦ : ٢٩٥ .

لباس المناطق ، وأمر بهدم بيعة المحدثه ، وبأخذ العشر من منازلهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ، ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان ، ولا يعلمهم مسلم ، وأن يظهروا فى شعائنتهم صليبا ، وأن يستعملوه فى الطريق ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض ، وكتب فى ذلك مع الآفاق (١) ، فى هذه السنة - سنة ٢٣٩ هـ - أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس ذراعين عسليتين على الأقبية والدرابيع ، والاقتصار فى مواكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين (٢) ، وفيها أمر المتوكل بهدم البيعة المحدثه فى الإسلام (٣) ، فى هذه السنة - سنة ٢٤١ هـ - ونب أهل حمص بعاملهم محمد بن عبدويه ، وأعانهم عليه قوم من نصارى حمص ، فكتب إلى المتوكل بذلك ، فكتب إليه يأمره بمناهضتهم ، وأمدّه بجند من دمشق والرمله ، فظفر بهم ، فضرب منهم رجلين من رؤسائهم حتى ماتا وصلبهما على باب حمص وسير ثمانية رجال من أشرافهم إلى المتوكل ، وظفر بعد ذلك بعشرة رجال من أعيانهم ، فضرب أعناقهم وأمره المتوكل بإخراج النصارى منها ، وهدم كنائسهم ، وبإدخال البيعة التى إلى جانب الجامع إلى الجامع ، ففعل ذلك (٤) .

ويشتد سخط ابن الأثير على معاصريه من حكام المسلمين - رغم معاصرته لهم - لتقاعسهم وتخاذلهم تجاه الأخطار الجسام الحالة - بالإسلام وأهله ، يتحدث مثلاً عن فظائع الغزو الوحشى التترى لديار الإسلام ، قائلاً : « ولقد جرى لهؤلاء التتر ، ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه ، طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزوا العراق من ناحية همدان ، وتالله لا شك أن من يجيب بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة يذكرها ويستبعدها والحق بيده ، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا

(١) الكامل ٧ : ٥٢ .

(٢) السابق ٧ : ٧١ .

(٣) نفسه ٧ : ٧١ .

(٤) نفسه ٧ : ٧٦ .

سطرنا نحن ، وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة ، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ، ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن ، (١) .

وهو يوجه نقداً شديداً لاذعاً للخليفة العباسي « الناصر لدين الله » - الذي عاش المؤلف طويلاً في خلافته (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) - لانشغاله عن أمور المسلمين بلهوه وملذاته وظلمه للرعية (٢) .

وعلى ذكر نقد المؤلف لمعاصريه من الحكام نأتى إلى ملاحظتين تكلم فيهما كثيرون ، وهما : مسألة موالاته ابن الأثير للزنكيين حكام الموصل وأولياء نعمته أسرته ، وعداوته في المقابل للأيوبيين ورثة ملكهم وبخاصة رأسهم صلاح الدين (٣) ، وأبدأ بالملاحظة الأولى فأقول : إنه بعد النظر الدقيق في كتاب الكامل - وسيأتى

(١) السابق ١٢ : ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٢) نفسه ١٢ : ٤٤٠ .

(٣) حول موضوع مدح ابن الأثير وذمه للزنكيين والأيوبيين والعلاقة بين الأسرتين ورأى المؤرخين والباحثين ودفاعهم عن هذا وذاك ، انظر مثلاً : الكامل ١١ : ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٩٧ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٤ ، ١٧١ ، د . جمال الدين الرمادى ، صلاح الدين الأيوبي ، سلسلة كتاب الشعب رقم ٢٥ ، مطبعة الشعب سنة ١٩٥٨ م ص ٢٢ ، دريد عبد القادر نوري سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة (٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣ م) رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة بغداد سنة ١٩٧٦ م ص ١٠٠ - ١٠٧ ، ص ٢٤٠ هامش ٢ ، د . سعيد عاشور : دراسة حول الكامل ، بحث منشور ص ٤٠٠ - ٤٠١ ، د . عبد القادر طليمات : المؤرخ ابن الأثير ص ٢٨٦ ، ٢٢٥ ، ٣٢٦ ، د . محمد حلمي محمد أحمد : مصر والشام والصليبيون ، ط ٢ سنة ١٩٨٢ م ص ١١١ ، ١١٩ ، محمد فريد أبو حديد ، صلاح الدين الأيوبي وعصره ، مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٧ م ، ناصر خليفة « صلاح الدين الأيوبي والنصر العظيم في حطين » مقال بجريدة القوات المسلحة ، السنة الأولى ، العدد الخامس ، الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ١٤١٣ هـ ، ١٠ ، سبتمبر سنة ١٩٩٢ م ص ٧ ، د . نظير سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية مكتبة النهضة المصرية ط ١ سنة ١٩٥٧ م ص ٢٠ ، هاملتون جب ، دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة د . إحسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٦٤ م ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، =

دور « الباهر » في هذه المسألة عند التعرض له بالدراسة - ومحاولة استنباط كنهه
مشاعر المؤلف تجاه الأسرة الزنكية ، نجد أنه مدحهم كثيراً بالفعل ولكنه في المقابل
لم يحجم عن توجيه النقد واللوم لمن أساء منهم في أحيان كثيرة ، فلقد انتقد
بعض تصرفات رأس هذه الأسرة وهو « عماد الدين زنكى » صاحب الموصل
(٥٢١ - ٥٤١ هـ) ، بسبب بعض أفعاله غير اللائقة كاستيلائه على البلاد
بالخدع والمكايد وسوء معاملته لأهلها ، يقول مثلاً بمناسبة استيلائه على مدينة «
بعلبك»^(١) وقلعتها سنة ٥٣٣ هـ ، وكانت القلعة قد استعصت عليه : « فلما
أيسوا - أى جند القلعة - من معين ونصير طلبوا الأمان فأمنهم ، فسلموا إليه
القلعة ، فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينبج منهم إلا
القليل ، فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه ، وخافه غيرهم وحذروه ، لا
سيما أهل دمشق ، فإنهم قالوا : لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء ، فازدادوا
نفوراً وجداً في محاربهته^(٢) » ، ويقول عن أحد أفراد الأسرة الزنكية وهو « سنجر
شاه » ، صاحب جزيرة ابن عمر بمناسبة مقتله سنة ٦٠٥ هـ : « وكان سنجر شاه
قبيح السيرة كثير المخاتلة والمواربة والنظر في دقيق الأمور وجليلها ، لا يمتنع من
قبيح يفعله مع رعيتيه وغيرهم^(٣) . وعلى الرغم مما اشتهر به المؤلف لدى كثير من
الباحثين من عدم ميله لصالح الدين بحكم عداوة أولياء نعمته أمراء الموصل
الزنكيين للبيت الأيوبي في البداية على الأقل - إذ إنهم انضروا بعد ذلك تحت لواء

=

Gibb : The life of Sala Din PP. 9 - 11 .

Iane poole S. A : History of Egypt in the middle ages, Mettuen co. L tt D
London, Fourth addition 1925 PP. 193 , 194, 196, 197 . 209, 211 .

(١) بعلبك بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة والكاف مشددة ، مدينة بينها وبين دمشق
ثلاثة أيام ، بها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا .

مرامد الإطلاع ١ : ١٦٢ .

(٢) الكامل ١١ : ٦٩ .

(٣) السابق ١٢ : ٢٨١ ، ٢٨٢ ، والمخاتلة : الغدر والخداع ، والمواربة مثلها ، ابن منظور ، لسان

العرب ، دار المعارف ، مادة نخل ، ورب .

صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين - على الرغم من ذلك ، فكثيرا ما نجده يمتدح صلاح الدين . حقا إنه نقده كثيرا وبشدة أحيانا ، في بعض الأخطاء العسكرية وفي تصرفات أخرى له ولرجالها ، يقول مثلاً عن فتح صلاح الدين للقدس سنة ٥٨٣هـ : « وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها ، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد على كل باب أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة ، واقتسم الأماناء الأموال وتفرقت أيدي سبا ولو أدبت فيه الأمانة لملاً الخزائن وعم الناس »^(١) ، وقد انتقد العماد الاصفهاني كاتب صلاح الدين أيضاً هذا الوضع في كتاب الفتح القسي^(٢) - ستأتي دراسته - ، ويشدد نقده اللاذع لصلاح الدين حين استعصت عليه مدينة « صور » بساحل الشام ، فيقول : « لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها ، وهذه كانت عادته ، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ، ومن حصاره فرحل عنه ، وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة ، بل فتح الجميع في الأيام القليلة كما ذكرناه ، بغير تعب ولا مشقة ، فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ، ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره ، كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ، ووعدهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجأون إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها ، وسندكر إن شاء الله تعالى ما صار إليه الأمر بعد ذلك ، ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم ، وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً ، خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم وأعدر له عند الناس »^(٣) . ويلاحظ هنا

(١) الكامل ١ : ٥٤٩ .

(٢) الفتح القسي ٥٦ .

(٣) الكامل ١١ : ٥٥٥ - ٥٥٦ ، عكا وعسقلان ، مدن مشهورة بساحل الشام .

أن العماد الأصفهاني قد انتقد أيضاً ثاقل الأمراء ونفورهم من حصار مدينة « صور » حين صمدت لهم بقوله : « كان أصحابنا قد ألفوا من مفتتح الفتح الحصول من غير تعب على هني الربح ، فما التقطوا إلا درة ثمينة ولا اشترطوا إلا لقمة سميحة فلما حصروا صور وأبصروا الأمور وشاهدوا الشهادة ، واحتاجوا إلى هجر المعيشة الرحبة المألوفة وانفقوا الأموال في جلب القوت والعلوفة ، مشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا قد طال مقامنا » (١) . وفي تقديري أن نقد العماد هنا موجه إلى الأمراء المتكاسلين المتوانين في الجهاد والذين تعودوا المكاسب السريعة ، ولم يرد بالضرورة النص على أن صلاح الدين وجنده لم يتعبوا ويجتهدوا ويلاقوا المشاق والمصاعب في فتوحهم .

وقد دافع بعض الباحثين المحدثين (٢) عن سياسة صلاح الدين السلمية أثناء الفتوحات ، والتمسوا له العذر في أمر صور ، واحتجوا بأن إتياع القسوة والصرامة في أثناء الفتوحات كان سيدفع بالصلبيين إلى التكتل والاستتال في وجه صلاح الدين مما كان سيعيق عملية التحرير ، وهو قد انتهج أسلوب الفتح السريع وعدم الوقوف طويلاً عند الجيوب والحصون المتفرقة حتى لا يعيقه ذلك عن فتح المدن الكبرى ، كما أن تجميع العدو وحصره في مكان واحد كصور أسهل من مجابته في أماكن متفرقة ، ثم يقول أحدهم : « أما ما قدر لصور من أن تبقى بعد فتح القدس عاصية وأن تكون معقلاً للصلبيين ، فإن صلاح الدين لم يكن يتوقع مجرى الأحداث في المستقبل ولم يكن له علم بأن حملة صليبية ثالثة ستكون قوية وستضم أعظم ملوك أوروبا النصرانية آنئذ ستوجه إلى صور وتتحصن فيها قبل أن يتمكن صلاح الدين من فتحها ، ولذلك فمن غير التاريخي أن نتصور صلاح الدين ، وكأنه يعد الخطط ويوزع قواته للتصدي للهجوم الوشيك من الغرب » (٣) .

ويبدو لي أن هذه الحجج سهلة النقض ، فلم يكن مطلوباً من صلاح الدين

(١) العماد : منا البرق الثامن ص ٣٢١ .

(٢) دريد عبد القادر نوري : سياسة صلاح الدين ٢٩١ - ٢٩٣ ، د. محمد حلمي أحمد ، مصر والشام والصلبيون ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) دريد نوري : سياسة صلاح الدين ٢٩٣ .

القسوة والصرامة والشدة والبطش كما فعل الصليبيون حين فتحوا القدس وغيرها ، ولكن كان يجب الاحتياط للأمر ، بالأ يمكن الصليبيين من التجمع فى مكان واحد ، كأن يقيهم فى المناطق المفتوحة ، كأسرى حرب أو مواطنين عاديين عزل أو يفرقهم داخل دولته الواسعة ، وحتى إذا سمح لهم بالتوجه نحو المدن الساحلية كان عليه أن يجردهم من كل مال وعتاد ، وأما نظرية تجميع العدو فى موقع واحد فىمكن عكسها والقول بأن مجابته متفرقاً أسهل من كونه متحداً مجمعاً ، ومن الطبيعى - لا العكس - أن تتوقع من صلاح الدين وهو القائد المحرب المخنك أن يتوقع مجيء حملات جديدة من الغرب - وهو احتمال كان قائماً دوماً فى وقتها - وأن يعد لذلك وينتهيأ له ليحمى فتوحاته ومكاسبه ويحقق المزيد لا أن يقع مرة أخرى تحت رحمة العدو ويتحول من موقف المهاجم المسك بزمام الأمور إلى موقف الدفاع والانتظار والترقب ، ويكفى لتصوير أثر مسألة صور ، قول أحد الباحثين : « كانت هزيمة صور نقطة تحول فى تاريخ انتصارات صلاح الدين ، لقد كانت هزيمة ساحقة وغلظة يصعب علاجها ، إذ أصبحت صور بعدها نقطة تجمع فيها الصليبيون وانتشروا منها فى سواحل فلسطين ، ولو لم تكن هذه المدينة الواحدة قد نجحت فى مقاومتها لكان من المحتمل ألا يسمع العالم أبداً بالحرب الصليبية الثالثة » (١) .

ومن المواطن التى انتقد فيها ابن الأثير صلاح الدين قوله فى حوادث عام ٥٨٦ هـ تحت عنوان « ذكر تسيير البديل إلى عكا ، والتفريط فيه حتى أخذت » : « لما هجم الشتاء وعصفت الرياح ، خاف الفرنج على مراكبهم التى عندهم لأنها لم تكن فى الميناء ، فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر ، فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر ، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملل والسامة ، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، مقدماً على جندها ، فأمر صلاح الدين بإقامة البديل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك ، فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا ، وجمع المراكب والشوانى ،

(١) د. محمد حلمى أحمد : مصر والشام والصليبيون ١٥٤ ، وهو ينقل هنا هذه الفقرة عن المستشرق لان بول .

وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم ، فدخل إليها عشرون أميراً ، وكان بها ستون أميراً فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا ، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم ، وكان على خزانة ما له قوم من النصارى وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى ، تارة بإقامة معرفة ، وتارة بغير ذلك ، فتفرق بهذا السبب خلق كثير ، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه . وإهمال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتي بكتاب وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب ، وعز الدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولى وابن جاولى ، وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فإنهم قد جربوا تدرّبوا ، واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه ، فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على العجز والفشل ، فكان الأمر بالفساد^(١) .

وإذا اعتبرنا النصوص السابقة وأمثالها تحمل روحاً ناقدة لبعض تصرفات صلاح الدين ورجاله ، رغم ثبوت كثير مما تضمنته من وقائع فى المصادر المعاصرة لصلاح الدين ولهذه الفترة والتي كتب بعضها بعض رجال صلاح الدين كالعماد - وستناول هذه الدراسة كثيراً منها بالبحث - ، وأقول ، إذا اعتبرناها كذلك ، فإننا لا نعدم فى الكامل فى مقابل ذلك نصوصاً تشيد بصلاح الدين وتحمّد أفعاله وتصرفاته فى مواطن عديدة ، يقول عنه مثلاً : « وكان حليماً كريماً صبوراً رحمه الله »^(٢) ، ويقول بمناسبة فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ : « وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخراً وشرقاً »^(٣) . كما أورد كلاماً طويلاً حسناً فى حقه بمناسبة وفاته سنة ٥٨٩ هـ^(٤) .

(١) الكامل ١٢ : ٥٥ - ٥٦ ، وحيفا من مدن الساحل الشامى أيضاً .

(٢) السابق ١١ : ٥٢٤ .

(٣) نفسه ١١ : ٥٥٢ .

(٤) نفسه ١٢ : ٩٥ - ٩٧ .

وفى تصورى أن ابن الأثير أرخ لكلا الأستين ، الزنكية والأيوبية ، فى كتابه ، بأمانة بوجه عام ، فمدحهم فى مواطن يستحقون فيها الثناء ، وفعل العكس حين استوجبت الأمور ذلك ، وكان منصفاً لحد كبير فى حديثه عن صلاح الدين ، فكما انتقده فى بعض التصرفات ، لم يخل عليه بالتقدير فى مواقفه العظيمة ، فجاء حديثه متوازناً لحد كبير ، يقول أحد الباحثين ، مصداقاً لذلك : « وجدير بالذكر أنه ليس هناك من القرائن والأدلة ما يثبت أن ابن الأثير كان متعصباً فى روايته ، أو متحاملاً على فريق دون آخر »^(١) ، ولعل مما يشفع لابن الأثير فى بعض انتقاداته لصلاح الدين أنه ربما نظر إليه أحياناً من زاوية الجانب المقابل - حزب المواصلة - ، ومن وجهة نظر معاصرة ، فلم يكن التاريخ قد أسدل بعد هالاته على شخصية صلاح الدين ، ولعقب التاريخ فعل السحر أحياناً ، ولذا قالوا « المعاصرة حجاب » ، كما أن صلاح الدين كبشر - ربما لم يكن منزهاً شيئاً ما عن الأغراض الدنيوية والطموح الشخصى ، بدليل اقتسام أولاده وأسرته السلطة فى حياته ، وإن كان هذا طابع العصر آنذاك^(٢) .

وفى تقديرى أن خير ما يقال فى حق صلاح الدين - رحمه الله - قول أحد المستشرقين عن جهاده : « كان الهدف دائماً فى الاعتبار ، وكل أعمال السياسة وكل حملة كانت موجهة إلى الهدف الأساسى وهو إقامة امبراطورية شرقية موجهة وتكون قوية بحيث تقوى على طرد الفرنجة إلى الشاطئ إن لم يكن فى البحر ، ومهما يكن هناك من طموح شخصى اختلط به لا شعورياً ، فإن التوسع كان معناه عند صلاح الدين بصفة رئيسية ، إن لم تكن بصفة وحيدة ، انتصار الإسلام على الكفار »^(٣) .

(١) د. محمود محمد الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ص ٧ الهامش .

(٢) ولا يستبعد البعد الدنيوى فى تصرفات وحياء صلاح الدين باحثون مثل : د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ، ج ٥ ط ٧ سنة ١٩٨٦ ص ٢١٠ ، جون لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، مقال بكتاب دراسات إسلامية لمجموعة مستشرقين ، ترجمة د. نقولا زيادة وآخرين .

Gibb : The life of Salah Adin, P. 17 .

Lane Poole : History of Egypt P. 194 .

(٣)

وقوله : « ولم تكن الفكرة التي عرفها الناس عن شخصيته - أى صلاح الدين - خاطئة ، فلقد كان شهماً ، رجب الصدر ، رقيقاً ، متعاطفاً ، صافى القلب ومتقشفاً وهكذا ، وكانت عاداته بسيطة وكان متحمساً تقياً ، ولم يكن قاسياً إلا فى حماسه للدين والعقيدة ، وهو بحق مثال الفروسية والشهامة الشرقية الإسلامية » (١) .

٥ - نقد الشعوب والأجناس :

وحتى هذه انتقد المؤلف بعض صفاتها وسماتها ، يعلق على بعض الروايات قائلاً : « فإنها من خرافات الفرس مع أشياء قد تقدمت ، وإنما ذكرناها ليعلم جهل الفرس ، فإنهم كثيراً ما يشنعون على العرب بجهلهم وما بلغوا هذا » (٢) ، وتكرر عنده هذه العبارة : « وهذا جميعه من أكاذيب الفرس الباردة » (٣) تعليقاً على أخبار الفرس ورواياتهم الخرافية عن بعض ملوكهم الماضين ، ويورد ألقاباً كثيرة اتخذها لنفسه الأفضل وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ، ثم يقول ساخراً : « على أن تربة مصر هكذا تولد ، ألا ترى إلى فرعون يقول ، (أنا ربكم الأعلى) وإلى أشياء أخرى لا نطيل ذكرها » (٤) .

ولكن المؤلف - كما سبق الإشارة - ، متوازن الأحكام - غالباً - لا ينظر للجانب السلبي فقط باستمرار ، بل إنه يشيد بالتصرفات الحسنة للحكام والأعمال الطيبة ، مدح كثيراً « شهاب الدين طغرل » أتاك (مربي) الملك « العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي » ، صاحب حلب (٦١٣ - ٦٣٤ هـ) ، فقال : « ولما عهد الظاهر إلى ولده بالملك جعل أتاكه ومربيه خادماً رومياً اسمه طغرل ، ولقبه شهاب الدين ، وهو من خيار عباد الله كثير الصدقة والمعروف ، ولما توفى الظاهر أحسن شهاب الدين هذا السيرة فى الناس ، وعدل فيهم وأزال كثيراً من

Lane Poole : History of Egypt P. 211 .

(١)

(٢) الكامل ١ : ٦٦ .

(٣) السابق ١ : ٢٤٧ .

(٤) نفسه ١٠ : ٦٧٤ .

السنن الجارية ، وأعاد أملاكًا كانت قد أخذت من أربابها ، وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ البلاد واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه ، فمن ذلك تل باشر ، كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض إليه ، فلما توفي ملكها كيكافوس ملك الروم - يقصد ملك سلاجقة الروم المسلمين - كما نذكره إن شاء الله تعالى ، انتقلت إلى شهاب الدين ، وما أقبح الملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية وأقرب إلى الخير ، ولا أعلم اليوم في ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه ، فالله يقيه ويدفع عنه ، فلقد بلغني عنه كل حسن وجميل ،^(١) .

وقد أشرتُ سابقًا إلى نقده اللاذع للخليفة العباسي «الناصر لدين الله» وعلى النقيض من ذلك يقول في حق ابنه الخليفة العباسي «الظاهر بأمر الله» (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ) : «ولم أزل ، علم الله سبحانه ، مذولى الخلافة ، أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد أهله ، وأقول لكثير من أصدقائنا : وما أخوفني أن تقصر مدة خلافته ، لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك»^(٢) . ولا يتوقف المؤلف عند حد تقييم الأشخاص سواء كانوا حكامًا أو شخصيات عامة أو غير ذلك ، وإنما يتعدى ذلك إلى تقييم دولة بكاملها ، يقول مثلاً بمناسبة مقتل «غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري سنة ٦٠٤ هـ : «وغياث الدين هذا آخر ملوك الغورية ، ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهادًا وكان محمود هذا عادلاً حليماً كريماً من أحسن الملوك سيرة وأكرمهم أخلاقاً ، رحمه الله تعالى»^(٣) .

وبعد فبطبيعة الأمور ، لا نتوقع أن نلمس لدى ابن الأثير نقداً علمياً منهجياً بالمفهوم الحديث ، يحلل ويقارن ويوازن ويستشف التوجهات ويستنبط الدلائل

(١) الكامل ١٢ : ٣١٤ ، «تل باشر» قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب . مرصد

الاطلاع ١ : ٢١٠ .

(٢) السابق ١٢ : ٥٤٧ .

(٣) نفسه ١٢ : ٢٦٧ .

«موضوع القواعد والأحكام ، ولهذا أجدني بعد هذا العرض المسهب للنقد التاريخي في الكتاب ، أتردد كثيراً قبل أن أتفق مع الرأي القائل - في شكل مطلق - : «ويكفي أن تتصفح هذا التاريخ - أي الكامل - لتبين سعة اطلاع ابن الأثير وتحريه الحقيقة ، على أنه تجنب النظر والانتقاد فسار على خطوات معظم المؤرخين المسلمين»^(١) . ولعل مما يقوى هذا التردد وجود كثير من الآراء تناهض هذا الرأي ، ومنها قول أحد الباحثين : «والحقيقة أن ابن الأثير مؤرخ محقق موهوب ، فهو رغم إهماله ذكر مصادره في كثير من الأحيان يعتنى بصحة معلوماته ، وهو في ذلك وفي النقد التاريخي له فضل سبق على ابن خلدون»^(٢) . وقول آخر : «وامتاز ابن الأثير في كل ما كتبه أنه كان فيه باحثاً وازناً معقلاً ذا وجدان ، لم يكتف بنقل الأخبار وإنما قمئها - أي ملأ تفاصيلها وجمع متشابهها إلى بعضه وأعطاهها هيكلأ - وحلل أسبابها وأبدى رأيه في أصحابها بكثير من الإنصاف وانتقد الحاكم الأيوبي انتقاداً حقاً وجريئاً ، فتلك الصفات العاقلة وضعت في المكانة الأولى بين المؤرخين الحقيقيين ، وجعلت الكامل في التاريخ ، موضع تقدير المستشرقين والمستعربين»^(٣) .

رابعاً فلسفة التاريخ عند « ابن الأثير » :-

يعنى مصطلح فلسفة التاريخ باختصار أن يكون للمؤرخ وجهة نظر فيما يرويه من أحداث ، وأن يفسر ويحلل ، ويقارن بين الوقائع ويخرج بنظرة شاملة لمسار التاريخ ، أو بتعبير آخر هو ، المعالجة التأملية للتاريخ بأكمله^(٤) .

-
- (١) جورج زبدان تاريخ آداب اللغة العربية ، ط دار الهلال ، بدون تاريخ ج ٣ ص ٨٧ .
 - (٢) د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، دار المعارف ص ١٩ من المقدمة .
 - (٣) جورج أوغست فالين ، صور من شمال جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر ، ترجمة سمير سليم شبلي ص ٢٢٠ .
 - (٤) انظر : د. أحمد رمضان أحمد : تطور علم التاريخ الإسلامي ص ٢١٥ ، ر. ه. . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة : أحمد حمدي محمود ، مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٦٢م ص ١٢ .

وحاسة ابن الأثير التاريخية تدفعه لتتبع البذور الأولى والعلل الكامنة وراء الحوادث الكبرى أحياناً ، يعلق على خلاف حدث بين « سعد ابن أبي وقاص » و « عبد الله بن مسعود » - رضى الله عنهما - عندما كانا على الكوفة يليانها لعثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، بسبب مال استقرضه سعد وهو أمير الكوفة من ابن مسعود وهو على بيت مالها ، فلما تقاضاه منه لم يتيسر له قضاؤه وأراد سعد أن ينظره ابن مسعود إلى حين ميسرة ، يقول : « فافترقوا - أى الناس الذين استعان بهم كل طرف لينصره على الآخر مسألة - وبعضهم يلوم بعضاً ، يلوم هؤلاء سعداً وهؤلاء عبد الله ، فكان أول ما نزع به بين أهل الكوفة ، وأول مصر نزع الشيطان بين أهله ، الكوفة »^(١) . ونحن نعرف بقية القصة وتطوراتها حتى وقوع الفتنة الكبرى ومقتل عثمان - رضى الله عنه - وما تلاه من أحداث تركت آثاراً عميقة فى تاريخ المسلمين . ويقول أيضاً أثناء حديثه عن بعض خلافات المسلمين أثناء فتوحهم فى عهد عثمان - رضى الله عنه - : (وأراد حبيب - وهو حبيب بن مسلمة أحد القواد الذين أرسلهم الخليفة عثمان من الشام مدداً لأهل العراق فى فتوحهم - أن يتأمر على صاحب الباب كما يتأمر أمير الجيوش إذا جاء من الكوفة ، فكان ذلك أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة والشام »^(٢) .

ويكثر المؤلف من إيراد أمثلة الحوادث التى تدعو إلى الاتعاض وتحض على الاعتبار ، وذلك هو الباعث الأساسى لتدوين الكامل ، بل الهدف من مذاكرة التاريخ بعامة كما ذكر هو فى مقدمة الكتاب ، يقول مثلاً فى وفاة الخليفة العباسى « الواثق » (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) : « وقال أحمد بن محمد الواثقى : كنت فىمن يمرض الواثق فلحقه غشية وأنا وجماعة من أصحابه قيام ، فقلت لو عرفنا خبره ، فتقدمت إليه ، فلما صرت عند رأسه فتح عينيه ، فكادت أموت من الخوف ، فرجعت إلى خلف ، وتعلقت . فنبعة سيفى فى عتبة المجلس . فاندقت وسلمت من جراحه ووقفت فى موقفى . ثم إن الواثق مات وسجيناؤه وجاء الفراشون وأخذوا ما

(١) الكامل ٣ : ٨٢ .

(٢) السابق ٣ : ١٣٣ .

مخّنه في المجلس ، ورفعوه لأنه مكتوب عليهم ، واشتغلوا بأخذ البيعة وجلست على باب المجلس لحفظ الميت ، ورددت الباب فسمعت حساً ، ففتحت الباب ، وإذا جرد قد دخل من بستان هناك ، فأكل إحدى عيني الوثاق ، فقلت : لا إله إلا الله ، هذه العين التي فتحها من ساعة ، فاندق سيفي هيبة لها صارت طعمة لدابة ضعيفة ^(١) .

وحديث المؤلف عن مجتمع الخلافة في بغداد ، مرآة صادقة في أوج ازدهاره وفي عصور انحطاطه ، بما فيها من فتن ودسائس ومؤامرات ، وما في ذلك من عبرة لمن يعتبر فهو يردد كثيراً الحديث عما يصيب الوزراء والكتاب والأعوان وحاشية السلطان عموماً على يد خليفتهم أو سلطانهم في نهاية المطاف وبعد أيام العز والجاه ، ولعله يقصد من وراء ذلك النصيح والوعظ لحاشية السلطان في كل عصر وأي مكان بألا تقول إلا خيراً وألا تهدي إلا إلى الخير ، لأن عاقبة الشر وخيمة مهما طال الأمد ، ويوم النكبة لا ينفع السلطان الغابر والجاه الذاهب ، ومن أمثلة ذلك مثلاً حديثه عن حبر الخليفة « الوثاق » الكتاب وتغريمهم أموالاً عظيمة - جمعوها غالباً في الأصل من أقوات الشعب ^(٢) - وحديثه عن القبض على محمد بن عبد الملك الزيات وهلاكه ^(٣) ، وحديثه عن قتل « إيتاخ » - أحد قواد العباسيين ^(٤) - وكذلك حديثه عن مقتل « محمد بن إبراهيم بن مصعب » وآلى فارس للمتوكل العباسي ^(٥) ، وعن عزل « يحيى ابن أكثم » عن القضاء وتغريمه ^(٦) ، وغير ذلك كثير .

ويفصل المؤلف الحديث في الحوادث الداعية للعظة والعبرة وخصوصاً لدى الحكام وولاية الأمور بعامية ، ومن ذلك ما أصاب كثيراً من خلفاء بني العباس المستضعفين عندما خرجت الأمور من أيديهم وقامت حاشيتهم بالأمر دونهم

(١) الكامل ٧ : ٣٠ ، وقبعة السيف : غطاؤه أو غمده . لسان العرب مادة قنبح .

(٢) السابق ٧ : ١٠ ، ١١ .

(٣) نفسه ٧ : ٣٦ - ٣٩ .

(٤) نفسه ٧ : ٤٦ ، ٤٧ .

(٥) نفسه ٧ : ٥٤ .

(٦) نفسه ٧ : ٧٤ .

وصاروا العوبة في أيدي الأمراء والقواد يولون من شاءوا ويعزلون من شاءوا بل
 ويعذبون من شاءوا ويقتلون من شاءوا ، وتاريخهم حافل بالأمثلة ، وما ذلك إلا من
 صنع الخلفاء أنفسهم ، إذ أطمعوا حاشيتهم وفوضوا الأمور إليهم وانصرفوا هم
 للهوهم وملذاتهم ، فضلا عن أنهم - أي العباسيين أنفسهم - انقسموا فيما بينهم
 وتكالبوا على الخلافة والإمارة وتآمر الابن ضد أبيه وقتل الأخ أخاه ، معتمدين في
 مؤامراتهم ودسائسهم هذه على القواد والجند والحاشية من الموالى وبخاصة الأتراك ،
 مما جعل هؤلاء يتحكمون في الجميع ، ولم يعد للخلفاء ، غير الاسم دون الرسم
 وهذا ما يعبر عنه أصدق تعبير قول ابن الأثير ، بعد أن روى خبر مقتل أحمد بن
 إسرائيل وأبي نوح سنة ٢٥٥هـ - وهما من رجالات الدولة على يد صالح بن
 وصيف أحد القواد الأتراك بعد أن قبض صالح هذا مالهما وعذبهما ضربا
 بالسياط ، يقول : « ولما بلغ المهتدي - وهو الخليفة في ذلك الوقت - ضربهما ،
 قال : أما عقوبة إلا السوط والقتل ؟ أما يكفى الحبس ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون !
 يكرر ذلك مرارا^(١) . منتهى العجز !! أقول بعد هذا الأستطراد الطويل عن حال
 هؤلاء الخلفاء مع أمرائهم ، من أمثلة هذه الحوادث التي يرويها المؤلف مفصلة
 للاتعاظ بها ، قوله عن خلع الخليفة العباسي المعتز وموته سنة ٢٥٥هـ ، والمعتز هذا
 هو الذي خلع الخليفة « المستعين » السابق له وأمر بقتله ، وخلع أخاه المؤيد من
 ولاية العهد وحبسه حتى مات ، يقول : « فلما رأى الأتراك أنهم لا يحصل لهم
 من المعتز شيء - وكانوا طالبوه بأموال - ولا من أمه ، وليس في بيت المال شيء ،
 اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلع المعتز ، فساروا إليه وصاحوا ،
 فدخل إليهم صالح ومحمد بن بقا المعروف بأبي نصر ، وبابكيبال في السلاح ،
 فجلسوا على بابهم وبعثوا إليه أن أخرج إلينا ، فقال : قد شربت أمس دواء ، وقد
 أفرط في العمل ، فإن كان أمر لا بد منه فليدخل بعضكم ، وهو يظن أن أمره
 واقف على حاله ، فدخل إليه جماعة منهم ، فجروه إلى باب الحجرة ، وضربوه
 بالدبابيس ، وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلا ويضع

(١) الكامل ٧ : ٢٠١ .

أخرى من شدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى يده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان ، وكانت أمه قد اتخذت في دارها سريراً ، فخرجت منه هي وأخت المعتز ، وكانوا أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحداً يجوز إليها ، وسلموا المعتز إلى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلب حسوه من ماء البثر فمنعوه ، ثم أدخلوه سرداباً ، وجصصوا عليه فمات ، فلما مات أشهدوا على موته بنى هاشم والقواد ، وأنه لا أثر فيه ، ودفنوه مع المنتصر ^(١) .

ويتحدث المؤلف عما وقع من اختلال بين قواد الطولونيين ، وسقوط دولتهم في مصر ، ثم يقول : « وهكذا يكون انتفاض الدولة » ^(٢) ، ويذكر قلب الحال بأحد أرباب الملك من ذوى البخل الشديد ونهايته غير المرضية ثم يقول : « فتعساً لطالب الدنيا المعرض عن الآخرة ألا ينظر إلى فعلها بأبنائها » ^(٣) . وراجع الحديث السابق عن انتقاد المؤلف لأمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » لفعله غير المحمود مع « المعتمد بن عباد » وأهله ثم أقرأ حديثه بعد أن روى أخبار سقوط دولة المرابطين على يد الموحدين وما فعلوه بهم من قتل وتشريد ، حيث يقول : « ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد ، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب ، فلا جرم سلط الله عليه في عقابه - ربما : أعقابه - من أرى في الأخذ عليه وزاد فتبارك الحق الدائم الملك ، الذى لا يزول وهذه سنة الدنيا ، فأف لها ثم أف ، نسأل الله أن يختم أعمالنا بالحسنى ويجعل خير أيامنا يوم نلقاه بمحمد وآله » ^(٤) .

بعد هذا السرد ، لعله يحق هذا التساؤل : هل كانت لدى المؤلف فلسفة

(١) الكامل ٧ : ١٧٥ ، ١٧٦ ، والسرب : المسلك فى خفية ، وجصص البناء : طلاء بالجص ،

وهو من مواد البناء (معرب) . الوسيط سرب ، جصص .

(٢) السابق ٧ : ٤٨٩ .

(٣) نفسه ١٠ : ٢٥٦ .

(٤) الكامل ١٠ : ٥٨٥ .

للتاريخ اختلفت عن نظرة سابقه ، أم أن مفهومه للتاريخ لم يختلف فى شىء عن هؤلاء ؟

بعد دراسة الكتاب ، والاطلاع على آراء الباحثين فى هذا الشأن ، أجدنى متفقاً مع رأى القائل بالألا تتوقع لدى المؤلف فلسفة عصرية ، وأن نرعته فى كتابة التاريخ لا تختلف عن أسلافه المؤرخين - وقد عدوا الهدف الأسمى لمذاكرة التاريخ هو الاتعاض والاعتبار - اختلافاً جوهرياً كبيراً ، ولكنه أكثر إلحاحاً من غيره فى النزعة إلى الاستفسار والتحليل والاعتبار ، وربما عدّ ذلك من البذور الأولى لفلسفة التاريخ^(١) . يقول أحد الباحثين متحدثاً عن ابن الأثير : « ... والأمر الثانى وهو مهم جداً ، نجده فى محاولته تفسير الحوادث التاريخية وتعليلها ووضع قوانين لها ، إن هذه التفسيرات ليست كثيرة ولكنها على كل حال مهمة وهى البذور الأولى لفلسفة التاريخ التى اكتملت فيما بعد عند ابن خلدون »^(٢) ، ويقول آخر : « وعلى أية حال وكما يقول روبرت فلنت ، فإن أكثر الذين عالجوا التاريخ من العرب لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولى فمن المرجح أن ابن الأثير يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهو أقرب ما يكون إلى تلك المرحلة ، فهو لم يكتف بسرد الأحداث فى نظام حدوثها وإنما حاول كذلك أن يكشف سوابقها الطبيعية ونتائجها ويظهرها ، ولكنه لا يذهب إلى أبعد من ذلك ، فهو لم يحاول أن ينفذ بصره إلى تطور الأفكار العامة التى تفسر التاريخ ويتعرف أثر أسباب التغييرات الاجتماعية الأعمق ، التى تظهر الأسباب المباشرة والظاهرة نتيجة له ، أو يتحدث بسببه ، ومع ذلك فإن ابن الأثير لم ينقل الحوادث التاريخية على علانها ، إنما

(١) انظر : د. السامر : ابن الأثير ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، وانظر فى فلسفة التاريخ عند ابن الأثير : فراتز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ ، هارى إلمر بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية ، ترجمة د. محمد عبد الرحمن برج الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م ج١ ص ١٣٩ .

(٢) د. صلاح الدين المنجد ، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت سنة ١٩٦٣م رقم ٣ من السلسلة السابقة ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ولم يضع ابن الأثير فى تقديرى - قوانين بشكل كامل وإنما هى لمحات كما سبقت الإشارة .

كان ينختار منها ما يراه موافقاً لمعقوله ، ويؤلفه تأليفاً جديداً بما يضيف إليه . وهو وإن لم يكن سار على أسلوب فلسفة التاريخ في نقده للحوادث وربطه بين الأسباب والمسببات ، وهو أسلوب لم يعرف إلا مع ابن خلدون ، فإنه كان يتقد ما ينقله ، (١) .

(هـ) الأسلوب :

يمتاز أسلوب المؤلف عن كثير من المؤرخين و المؤلفين عموماً في تلك العصور بالبساطة والسلاسة والوضوح مع الالتزام بالفصاحة ، يقول عنه أحد الباحثين : « أما ابن الأثير فينفرد عن غيره من المؤلفين بأسلوب بسيط واضح لا يجاريه فيه أحد ممن كتب قبله أو بعده » (٢) . ورغم ذلك فإنه في مرات ضئيلة تفلت منه عبارات غامضة غير مفهومة في سياقها (٣) . وتمتع كتاباته بمستوى عال من التهذيب واللياقة إلا أنه قد يستعمل أحياناً - وعلى عادة المؤرخين القدامى - ألفاظاً قد لا تبدو مناسبة في مواضعها ، كاستعمال لفظ «هلك» تعبيراً عن وفاة الشخص المسلم أو المحمود عموماً ، فيقول مثل عن وفاة أبناء النبي صلى الله عليه وسلم : « فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية » (٤) ويصف أبا موسى الأشعري بعد أن خدعه « عمرو بن العاص » في قضية التحكيم قائلاً : « وكان أبو موسى مغفلاً » (٥) . ولعل مدلولات بعض الألفاظ تغيرت - اجتماعياً ونفسياً - بمرور الزمن ولكن هذا لا يمنع من ملاحظة ذلك الأمر . ويسرع المؤلف في

(١) د. محمد بيومي مهران : التاريخ والتأريخ ، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٢م ص

١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٧٩ ، وإن كان في هذا بعض المبالغة .

(٣) ولكنها لا تبلغ درجة قول د. حسن إبراهيم حسن ، إنها - أي عبارة المؤلف - ركيكة غامضة في أحيان كثيرة ، انظر : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج٤ ط ١ ص ٥٥٦ .

(٤) الكامل ٢ : ٤٠ .

(٥) السابق ٣ : ٣٣٢ . إن صحت هذه القصة من أسامها .

تضمنين كلامه نصوصاً قرآنية يكتمل بها السياق خصوصاً إذا كان هذا السياق يروي قصة تاريخية تناولها القرآن الكريم مما يكسبه قوة وتوثيقاً^(١). وهو يستعمل التضمنين القرآني أيضاً في التعقيب على كثير من الحوادث للاتعاظ والادكار^(٢). وما إن يقترب في حديثه عن عصور ما قبل الإسلام من عصر الجاهلية عند العرب حتى يستعين بالشعر يقتبسه في كثير من الأخبار مقتدياً بسلفه الطبرى، وإن كان لا يسرف إسرافه في إيراد الشواهد الشعرية تقريبا. ويتصاعد مستوى الاستشهاد بالشعر - كوثيقة تاريخية صادقة تعكس حال المجتمع الجاهلي وظروفه - مع حلول الحديث عن أيام العرب في الجاهلية، وهذا أمر طبيعي إذ اعتمدت هذه الأيام - فيما اعتمدت عليه من وسائل - على الشعر كسلاح معنوي^(٣). وقد يورد الشعر أحيانا في ترجمة قائله للتدليل على سعة ثقافة المترجم له وغزارة أدبه^(٤)، وربما أوردته للاستحسان لا للاستشهاد التاريخي كقوله معقبا على بعض الآيات: « وإنما أثبتنا هذه الآيات وليس فيها ذكر الواقعة لوجودتها وحسنها »^(٥).

ومن هنا نجد له بعض النظرات النقدية في الشعر حيث يقول مثلاً معقبا على إحدى القصائد: « وهي حسنة جداً »^(٦). وعلى جسد المؤلف لانعدام بين استشاداته كثيراً من الآيات الغزلية الماجنة. وتبدو لديه ظاهرة استعمال الأمثال وإيرادها في مناسباتها، كقوله تعليقا على بعض الأحداث: « إن الشقى بكل جبل يخنق »^(٧) ويقال لمن تابعت عليه المصائب، وقوله: « رب ساع لقاعد »^(٨)، ويضرب لمن يملك أمرا بسهولة تعب ازاءه غيره فلم ينله.

ومن الناحية اللغوية يتسم أسلوبه بعدة ظواهر منها حرصه - وبخاصة في

(١) نفسه ١: ٦٧، ٧٣.

(٢) نفسه ٧: ١٨٧، ١٨٨، ١٠، ١٩٢.

(٣) الكامل ١: ٣٥١ - ٣٥٤، ٥١١ - ٥٢٩، وانظر أيضا ١١: ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٩٧.

(٤) السابق ٩: ٢٤٠، ٢٦٢، ٢٦٣.

(٥) نفسه ١: ٦٧١.

(٦) نفسه ٦: ١٤٣.

(٧) نفسه ١٢: ٤٢٧.

(٨) نفسه ٢: ٤٩٣.

الأجزاء الأولى من كتابه - على ضبط كثير من أسماء الأعلام والمدن وغيرها بالحروف - وهو قد أشار لذلك في مقدمة كتابه^(١) - يقول مثلاً : « عباد بضم العين ، وفتح الباء الموحدة وتخفيفها »^(٢) .

وتتعدد التسميات التي يطلقها على غير المسلمين - وخصوصاً على نصارى الروم والأندلس - فهم تارة الروم ، وأخرى الكفار أو المشركين أو الفرنج أو المجوس ... إلى غير ذلك ، كما يظهر عنده تحريف المؤرخين العرب القدامى للأسماء الأجنبية في كتبهم^(٣) ، وتكتسب لفته سمة عصرها باستعماله كثيراً من مصطلحات وتسميات الموازين والمكاييل والعملات السائدة آنذاك ، كالأوقية والرطل البغداديين والقيراط والقفيز والكر والدينار^(٤) .

(و) مآخذ على كتاب « الكامل » :-

يمكن توجيه بض المآخذ للمؤلف من خلال كتابه ، من ذلك ، مثلاً ، أنه لم يسلم أحياناً مما يقع فيه كثير من العلماء المتصلين بالسلطان عبر التاريخ من شبهة تكلف المحاباة والمداهنة ، فهو يقول مثلاً في معرض حديثه عن دافع إخراجة لكتابه ، إن نفرًا من إخوانه وذوى المعارف والفضائل من خلانته ألحوا عليه في ذلك فاعتذر لهم بالإعراض عنه وعدم الفراغ منه ، فلما جاء هذا الطلب من قبل السلطة وذويها ، أى من صاحب الموصل الذى يعيش المؤلف فى ظل حكمه ، يقول : « فبينما الأمر كذلك إذ برز أمر من طاعته فرض واجب واتباع أمره حكم لازم ، من أعلق الفضل بإقباله عليها نافقة وأرواح الجهل بإعراضه عنها نافقة .

(١) نفسه ١ : ص ٤ من مقدمة المؤلف .

(٢) نفسه ١ : ٥٣٩ ، انظر أيضاً ١ : ٦٠ ، ٦٥٥ .

(٣) نفسه ٧ : ٨ ، ١٦ - ١٧ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

(٤) الكر : من الحنطة حوالى ١٩٨٠ كجم ، ومن الشعير كجم انظر : د. السامر : ابن الأثير ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ . وسبق التعريف ببقية الموازين والمقاييس بهوامش الدراسة ، ولمزيد من التفصيل انظر : د. محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، دار المعارف ط ٣ سنة ١٩٦٩ م ، صفحات متفرقة .

من أحياء المكارم وكانت أمواتا . وأعادها خلقاً جديداً بعد أن كانت رفاتاً ، من عم رعيته عدله ونواله ، وشملهم إحسانه وإفضاله ، مولانا مالك الملك الرحيم ، العالم المؤيد المنصور ، المظفر بدر الدين ، ركن الإسلام والمسلمين ، محيي الدين في العالمين ، خلّد الله دولته ، فحيثُذ أَلقيت عنى جلاباب المهل ، وأبطلت رداء الكسل ، وألقت الدواة وأصلحت القلم ، وقلت : هذا أوان الشد فاشتدى زيم ، (١) .

ورغم عقلانية ابن الأثير ومعقوليته وحذره فى إيرادهِ للروايات التاريخية إلا أننا لا نعدم فى الكتاب وجود بعض الروايات ذات الطابع الأسطورى اللاعقلانى خاصة فى حديثه عن فترة ما قبل الإسلام ، وعلى الأخص فى حديثه عن بنى إسرائيل ولعل مرد ذلك فى جزء كبير منه يرجع إلى أن معالجة الرواية التاريخية الإسلامية لهذه الفترة قامت على أكتاف أفراد من هذه الأجناس والأمم الأخرى ممن دخلوا الإسلام وحملوا معهم إليه تراثهم ، وأنها اعتمدت أيضاً على مصادر لدى هذه الأمم نفسها وإن كان من الملحوظ أن القرآن الكريم قد روى فى تاريخ تلك العصور والأمم كثيراً من المعجزات والخوارق مما لا يعهده الإنسان فى الوقت الحاضر ، ولعل ذلك كان يتناسب مع عقلية هذه الأمم فى طور البداوة ، فالقرأ يحدث كلاً بما يناسب عقلية وفكره . يلاحظ مثلاً لذلك فى الكامل ذكر أمر « قارون » وكيف هلك (٢) وإيراده شعراً لأناس ضاربين فى القدم كسيدنا آدم وعاد الهالكة ، فمن روى شعرهم (٣) .

وإن كانت الحكايات الأسطورية وأشباهاها والتي سادت تأريخ المؤرخين المسلمين لأحوال أم ما قبل الإسلام قد توارت إلى حد كبير عندما بدأ هؤلاء المؤرخون فى كتابة تاريخ الإسلام ، إلا أن الكامل لا يخلو فى تأريخه للعصر الإسلامى من بعض الغرائب ، دون توجيه وتعليق منه أحياناً ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٢٧٦ هـ - ورد الخبر بانفراج تل من نهر البصرة يعرف بتل شقيق ، عن سبعة

(١) الكامل ١ : ٥ ، ٦ ، وألق الدراة : حلاها وزينها ، المعجم الوسيط مادة « ألق » .

(٢) السابق ١ : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) نفسه ١ : ٤٥ ، ٨٦ ، ٨٧ .

أقبر ، فيها سبعة أبدان صحيحة ، والقبور فى شبه الحوض من حجر ، فى لون المسن ، عليه كتاب لا يدري ما هو ، وعليهم أكفان جدد ويفرح منها رائحة المسك ، أحدهم شاب له جمّة ، وعلى شفّتيه بلل كأنه شرب ماء وكأنه قد كحل ، وبه ضربة فى خاصره ، (١) .

وأمام كثير من الأحداث الكبرى مثار الجدل فى التاريخ يتأرجح المؤلف ككثير من المؤرخين - بين الحسم والتردد ، فلا يطل علينا فيها بوجه سافر ورأى واضح حازم ، ولعل مرد ذلك أن تعليل هذه الأحداث والإدلاء برأى واضح فيها يحتمل غالباً وجوهاً عدة بالفعل لا سبيل إلى المفاضلة بينها على سبيل الحسم والتوكيد (٢) .

وفى بعض الأحيان يبدو أن هم المؤلف هو جمع المعلومات وتكديسه دون التوقف والتمحيص واستنباط العلل والأسباب واستخلاص العبر ، فبعد حديث طويل يمتد لأكثر من مجلد ضخيم من الكتاب عن الدولة الأموية وما بلغت من شأو عظيم ، وما تخللها من أحداث جسام ، يقول فى سهولة ويسر وخلسة : « وفيها - سنة ١٣٢ هـ ... ، انقضت الدولة الأموية » (٣) .

وفى الصفحة التالية مباشرة يقول : « ذكر ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبى العباس » (٤) .

هكذا دون أى توقف أو تعليل لأسباب السقوط الهائل لدولة كبرى ممتدة عاشت حوالى قرن من الزمان ، ودون محاولة تلمس العلل الكامنة وراء هذا

(١) الكامل ٧ : ٤٣٧ ، وانظر كذلك حديث عن فتح الأندلس ٤ : ٥٥٦ ، ٥٦٧ ، والمسّن : كل ما يسن به أو عليه جمعه مسان . والجمّة : مجتمع شعر الناصيتين وما ترامى من شعر الرأس على المنكبين ، الوسيط سنن ، ج ١ .

(٢) انظر مثلاً حديثه عن مقتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ودواعى تلك الفتنة وعلى عاتق من تقع المسؤولية فيها ٣ : ١٥٠ - ١٧٩ وحديثه عن قتل الحسين بن الحلاج ، سنة ٣٠٩ هـ ٨ : ١٢٦ - ١٢٩ .

(٣) الكامل ٥ : ٤٠٧ .

(٤) السابق ٤٠٥ .

الانقلاب الهائل في العالم الإسلامي ، والتحول بين طرفي نقيض من خليفة أموي إلى آخر عباسي ، وإن كان استخلاص ذلك يبدو ممكناً من خلال ما يعرضه الكتاب من أحداث .

ولا يبرز بوضوح - أحياناً - مقياس ابن الأثير الذي يميز به بين عظيم الأمور من هينها ، فيفرد لكل ترجمة على قدر خطرها - كما ذكر في المقدمة - فهو أحياناً يقف طويلاً عند بعض الأحداث العادية كفتح مدينة أروجه ليست ذات خطر كحديثه مثلاً عن فتح « الباب » ، « موقان » من بلاد فارس وأرمينية - فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب^(١) - رضی الله عنه - ، بينما يمر أحياناً - في المقابل - مروراً عابراً على أمر ذي خطر ، ومثال ذلك قوله في فتح معاوية بن أبي سفيان « مدينة عسقلان » بالشام سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، وقد أورد هذا الخبر تحت عنوان « ذكر عدة حوادث » وهو العنوان الذي يجمع تحته عادة صغار الحوادث في العام المنصرم ، يقول : « وفيها فتح معاوية عسقلان على صلح » ، بينما عسقلان هذه مدينة كبيرة لها شأنها بين مدن الشام وقد برز دورها بوضوح زمن الحروب الصليبية ، وربما اختصر الحديث عنها لأنها فتحت صلحاً ولم تحتج إلى مجهود .

ويأخذ أحد الباحثين^(٢) على ابن الأثير عدم اهتمامه بإبراز الدور التاريخي للعنصر العربي في مواجهة الصليبيين ، وتعبيره عنه دوماً بكلمة المسلمين ورغم أنه صاحب الأرض والمتعرض للعدوان ، المصطلح بناره في حين أنه أبرز بوضوح دور عناصر أخرى كالغزو التركمان ربما تملقاً للحكام المنتسبين لهذه الطوائف غالباً - آنذاك . وأنصوّر أنه ربما نص ابن الأثير على العناصر الأخرى كالغزو والتركمان والأكراد لأنهم عناصر طارئة على منطقة الشرق الأوسط تمييزاً لها عن عامة المسلمين الأصليين في المنطقة كالعرب والفرس ، وأيضاً لأن هذه العناصر كان لها دور فاعل وبأيديها زمام الأمور - كحكام وقواد - في ذلك الوقت .

(١) الكامل ٣ : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) انظر : تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج ، الدار العربية للكتاب بدون تاريخ ، توطئة الكتاب .

(د) بين « الكامل » والمصادر المعاصرة له :

في نقله عن المصادر يعلق المؤلف أحياناً على الاقتباس بطريقة توحى أن التعليق من صنعه هو بينما الواقع غير ذلك ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٥١٣ هـ - ظهر قبر إبراهيم الخليل وقبرا ولديه إسحق ويعقوب ، عليهم السلام ، بالقرب من البيت المقدس ، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسامهم ، وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة ، هكذا ذكره حمزة بن أسد التميمي في تاريخه والله أعلم » (١) .

فأسلوب ابن الأثير وعبارته توحيان بأن ابن القلانسي لما روى هذا الخبر دون توقف أو تمحيص وتدقيق ، وأنه هو الذي توقف عن قبول الخبر دون تعليق ، وإطلاقه على عواهنه ، بقوله : « والله أعلم » ، بينما نص كلام ابن القلانسي هو : « وفي هذه السنة - سنة ٥١٣ هـ - حكى من ورد من بيت المقدس ظهور قبور الخليل وولديه إسحق ويعقوب الأنبياء عليهم السلام والصلاة من الله وهم مجتمعون في مغارة بأرض بيت المقدس . وكأنهم كالأحياء لم يبل لهم جسد ولا رم عظم ، وعليهم في المغارة قناديل معلقة من الذهب والفضة وأعيدت القبور إلى حالها التي كانت عليه ، هذه صورة ما حكاها الحاكي ، والله أعلم بالصحيح من غيره » (٢) .

(ج) الأهمية والتأثير :

حاز هذا الكتاب أهمية وشهرة فائقة - كما سبق الذكر - وأشاد به كثيرون في القديم والحديث ، يقول أحد الباحثين : « لكن أعظم جميع المؤرخين العرب في تلك الفترة - فترة الحروب الصليبية ١٢ ، ١٣ م - وهو بلا منازع ابن الأثير وكتاب « الكامل » مشار دهشتنا باتساع معارفه اتساعاً عجبياً وبقيمة تحقيقاته في كل أرجاء العالم العربي ، مع وضوح فائق وفطنة رائعة في عرض الموضوعات التي

(١) الكامل ١٠ : ٥٦٠ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م ص ٢٠٢ وستأتي دراسته .

يمكننا دائماً أن نطالعها في سهولة ويسر ، وابن الاثير هو أحد اثنين أو ثلاثة من أعظم المؤرخين المسلمين قاطبة ، (١) .

وقد تأثر بالكتاب ونقل عنه كثير من المؤرخين اللاحقين مثل : أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) فضلاً عن ذلك : أبو شامة (ت ٦٦٥هـ) وابن واصل (ت ٦٩٧هـ) ، وعلق وذيل عليه مؤرخون مثل : ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ) والوطواط (محمد بن إبراهيم المصري) (ت ٧١٨هـ) (٢) .

كما ترجم الكتاب إلى الفارسية (٣) ، وللأوزبكية ترجمه محمد شريف آخوند ونور الله مفتي وآخرون (٤) ، وترجم أجزاء منه عدة مستشرقين (٥) ، وقد طبع عدة طبعات منها : طبعة تورنبرج (ليدن سنة ١٨٥١ - ١٨٧٦ م) ، وطبعة بولاق سنة ١٨٧٣ م ، والطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٨ م (٦) ، كما طبع في بيروت عدة مرات محققاً .

(١) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ترجمة د. بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة بيروت ط ٣ سنة ١٩٨٣ م ص ٢٦٠ ، وانظر أيضاً : النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣ م ، مطبعة الاعتماد ص ٣٤ ، ٣٥ ، حيدر بامات : مجالى الإسلام ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

(٢) انظر : رايح المقرائى : لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون ، دراسة تاريخية مقارنة ، رسالة ماجستير بدار العلوم سنة ١٩٨٨ م ص ٣٥٠ ، عمر رضا كحالة ، التاريخ والجغرافيا فى العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية ، دمشق سنة ١٩٧٢ م ص ١٠١ .

(٣) انظر : عباس العزاوى : التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركماني سنة ١٩٥٧ م ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) انظر : د. عبد الله نجيب محمد : خزائن المخطوطات بجمهورية أوزبكستان الإسلامية ، مقالة بمجلة الأزهر جمادى الآخرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .

(٥) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، د. رمضان عبد التواب ، ط ٢ دار المعارف ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة وإخراج د. زكى محمد حسن وآخرين ، مطبعة جامعة قواد الأول سنة ١٩٥١ م ص ج من التصدير .

(٦) انظر صلاح الدين محمد عبد القادر نوار : تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، سنة ١٩٨٩ م ص ٦٠ .

٣. التاريخ المنصوري

(١) المؤلف : أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الحموي (ت بعد ٦٣٣هـ) ، مؤرخ من طبقة الكتاب . ولا يطلعنا التاريخ على تاريخ ولادته وظروف نشأته وتكوينه ولا حتى تاريخ وفاته . فلم يترجم له القدماء والمؤرخون ، ولولا الإشارات القليلة للمؤلف عن نفسه في ثنايا كتبه لظل مغموراً ، وتبين من هذه الإشارات أنه شغل منصب كاتب ووزير الملك الحافظ بن العادل الأيوبي صاحب قلعة « جعبر »^(١) (ت ٦٣٩هـ) . ويظهر أن الحافظ قبض عليه لسوء سلوكه وتصرفاته غير اللائقة بشخصه ومكانته ، ثم أطلقه بشفاعة أخيه الأشرف ويبدو أن المؤلف خشي غدر صاحبه الحافظ فهرب إلى الرحبة^(٢) حيث استقبله وأحسن إليه صاحبها « المنصور بن المجاهد شيركوه » صاحب حمص التي كانت تتبعها الرحبة (ت ٦٦٤هـ) ، وهو الذي أهدى إليه المؤلف « التاريخ المنصوري » وسماه باسمه ، اعترافاً بفضله عليه ، ثم استدعاه المجاهد شيركوه (ت ٦٣٧هـ)^(٣) إلى حمص وأكرمه ، ومدح المؤلف المنصور وأباه ببعض شعره ، ويبدو أن أيامه في حمص لم تدم على طيبها ، حيث طوحت به حوادث الأيام مرة أخرى إذ نجده بعد ذلك عند الأمير سيف الدين علي ابن أبي علي الهذباني المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، وزير صاحب حماة ، ويحتمل أن المؤلف قضى نجه بها.

والظاهر أن المؤلف صرف كل عنايته للتاريخ فألف ثلاثة كتب هي في الواقع كتاب تاريخي واحد كبير هو « الكشف والبيان في حوادث الزمان » ، ومختصران له هما : مختصر سير الأوائل والملوك ووسيلة العبد المملوك (وهو مخطوط بالمكتبة

(١) جعبر : « بالفتح ثم السكون وباء موحدة مفتوحة وراء قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقبة قرب صفين ، كانت قديماً تسمى (روس) فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر فتسبت إليه » مراصد الاطلاع ١ : ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) الرحبة : ذكر ابن عبد الحق في مراصد الاطلاع عدة أماكن بالشام منها هذه وكانت تابعة لصاحب حمص في ذلك الوقت ، انظر ١ : ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٣) انظر في نسبة وشجرة النسب الأيوبي عموماً . د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، دار المعارف ج١ ، ص ١٣٩ - ١٥٨

الوطنية بباريس) ، أهداه للأمير الهذباني ، والتاريخ المنصوري ، وهو محل الدراسة هنا وهو ما يزال مخطوطاً ، وقد نشر المستشرق الروسي « بطرس غرياز نيويج » صورة طبق الأصل لهذه المخطوطة بموسكو سنة ١٩٦٠م مع مقدمة بالروسية وفهارس عامة دون تدخل في المتن في مجلد واحد ، ونشر الجزء الأخير منه (سنة ٥٨٩ - ٦٣١هـ) د. أبو العيد دودو محققاً بدمشق سنة ١٩٨١م^(١) . وقد اعتمدت عليهما في دراسة الكتاب .

(ب) مضمون الكتاب :

يبدأ الكتاب بمقدمة يسيرة تشمل الحمد والثناء ، ثم يدخل مباشرة إلى وصف الأرض وتوزع الأمم وابتداء التناسل ، ويمر سريعاً على تاريخ ما قبل الإسلام والأمم الماضية دون التركيز على تاريخ العرب الجاهليين ، إلى أن يصل إلى مولد النبي صلى الله عليه وسلم فيمر على سيرته وأوصافه في إيجاز شديد ، متعللاً بأن كتابه هذا تلخيص لكتابه الكبير المسمى « الكشف والبيان في حوادث الزمان » ، ثم يبدأ في سياقة الخلفاء بعد النبي ، الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين ذاكراً الاسم ومدة الحكم ونبذة يسيرة جداً أحياناً ، إلى أن يصل لملك بني أيوب ، فيعود لتتبع التاريخ من أول سنى الهجرة على الطريقة الحولية في عجلة سريعة إلى سنة ٦٣١هـ تقريباً . وأكثر ما يذكر أخبار الوفيات ممتزجة بالحوادث ، وقد يسقط بعض السنوات أحياناً بقوله « خالية » وقد لا يقولها^(٢) . ويظل على إيجازه إلى أن يبدأ في التوسع شيئاً فشيئاً مع بداية التاريخ الأيوبي إلى أن تتضخم أخبار السنوات التي عاصرها ، خاصة سنوات ما بعد صلاح الدين حيث عاصرها عن قرب وشارك فيها سياسياً وسفيراً بين الملوك ، وتبلغ الفترة من دخول شيركوه مصر سنة ٥٥٩هـ

(١) انظر في ترجمته مقدمة د. دودو للجزء المحقق مطبعة الحجاز بدمشق سنة ١٩٨١م ، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج٦ ص ١٥٩ ، د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) انظر مثلاً : ورقة ٧٣ من النسخة المخطوطة المصورة - وسأعتمدها دوماً في هذه الدراسة - حيث مقطعت متتا ٣٩ ، ٤٠ هـ ، دون إشارة .

إلى نهاية الكتاب سنة ٦٣١ هـ حوالى ثلثي الكتاب . وبالكتاب إشارات كثيرة تحدد زمن كتابته ، يقول مثلاً : « ... إلى هذه السنة وهي سنة إحدى وثلاثين وستمائة »^(١) . ويقول « ... إلى أول السنة إحدى وثلاثون وستمائة »^(٢) . ويبدو أنه استغرق فترة وجيزة في تلخيصه واختصاره من الكتاب الكبير (حوالى شهرين) حيث يقول قرب نهاية الكتاب : « فهذا جميع ما وقع في الاختصار من المتجددات إلى آخر هذا التاريخ وهو في ثلثي عشرين صفر من سنة إحدى وثلاثين وستمائة »^(٣) ثم يضيف ثلاث صفحات أخرى من متجددات هذه السنة .

(ج) مصادر الكتاب :

تنوع مصادر المؤلف باعتباره موظفًا كبيرًا وسياسيًا مشاركًا من رجال البلاط ، وهو قد يشير لبعض مصادره بإبهام كقوله : « وذكر أصحاب التواريخ »^(٤) ،

وبعضها الآخر يمكن استخلاصه بسهولة حيث إنه يشير لنهاية كل تاريخ من التواريخ السابقة عليه ، يقول مثلاً : « وهذه - سنة ٤٥٨ هـ - آخر تاريخ الانطاكي »^(٥) ، وعن طريق ذلك نعرف أن من مصادره ، تاريخ الطبري^(٦) ، وتجارب الأمم لمسكويه^(٧) (ت ٤٢١ هـ) ، وتاريخ هلال الصابئ^(٨) (ت ٤٤٨ هـ) ، وتاريخ حلب للعظيمي (ت بعد ٥٥٨ هـ) ، وتاريخ سعيد ابن بطريق (ت ٣٢٨ هـ) ، وتاريخ الواقدي والمعارف لابن قتيبة والوزراء للجهمياري (ت ٣٣١ هـ) وتاريخ ثابت ابن سنان بن قرة (ت ٣٦٥ هـ) . أما في الفترة التي عاصرها فيعتمد بالدرجة الأولى

(١) التاريخ المنصوري ق ١٢ .

(٢) السابق ق ١٢ ، ١٣ .

(٣) نفسه ق ٤٥٨ .

(٤) نفسه ق ٤٦ .

(٥) نفسه ق ١٥٥ .

(٦) نفسه ق ١٢٤ .

(٧) نفسه ق ١٤٤ .

(٨) نفسه ق ١٤٤ .

على معارفه الأصيلة ومشاركته وصلاته والوثائق الخاصة في الدواوين مثل المراسلات بين أصحاب البيت الأيوبي وجلال الدين منكوبرتي السلطان والخوارزمي (٦١٧ - ٦٢٨ هـ) ^(١) ومراسلاتهم مع الإمبراطور الألماني ، فريدريك الثاني Frederick II (١١٩٤ - ١٢٥٠ م) قائد الحملة الصليبية السادسة على بيت المقدس ^(٢) .. حيث يورد المؤلف تقريباً النسخ الكاملة لهذه الكتب التي تصور جو العلاقات السياسية في تلك الفترة التي ينفرد المؤلف بإيراد تفاصيل دقيقة لها رغم إيجاز كتابه ، حتى أنه كثيراً ما ينسى ويطنيل ثم يعود ويعتذر مشيراً إلى أن التفاصيل متضمنة في كتابه الكبير ، لكن يلاحظ أن مصادره في الفترة التي عاصرها مجهولة غالباً وربما يكون قد أشار إليها في كتابه الكبير .

(د) منهج الكتاب :

يبدو الكتاب - خصوصاً في فترة التاريخ الأيوبي موجز سياسي عسكري تفصيلي سريع لا يخرج عن نطاق مصر والشام والجزيرة الفراتية إلا نادراً ولا يتناول أية جوانب أخرى إلا نادراً أيضاً ، ومن أمثلة ذلك حديثه عن جوانب حضارية كإجراء المياه وعمل القنوات ^(٣) ، والظواهر الطبيعية كزيادة النيل والصواعق والرياح المحرقة والكوارث ^(٤) ، وظواهر اجتماعية كظاهرة أولاد السلطان الملك المجاهد ^(٥) ، وهو كثير الإشارة للظواهر الفلكية : « واتفق اجتماع المشتري والمريخ والزهرة

(١) التاريخ المنصوري ق ٣٥٦ - ٣٦٠ .

(٢) السابق ق ٣٨٢ ، وعن الإمبراطور فريدريك الثاني وهذا الأمر . انظر مثلاً : د. قاسم عبده : ماهية الحروب الصليبية ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، د. محمود محمد الحويري : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ص ١٣٤ - ٢٣٦ ،

The new encyclopadia britannica 15 TH edition Volume 4 - pp. 952 - 954,

Louise and Jonathan Riley - smith : the Crusades idea and reality 1. 95 -

1274 , First published 1981, pp. 2, - 27 .

(٣) التاريخ المنصوري ٤١٨ .

(٤) السابق ٦٢ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٣٦ .

(٥) نفه ٣٣٥ .

وعطارده والشمس والقمر في برج واحد هو السرطان ، (١) . وهو أيضاً كثير الإشارة للعلماء ومؤلفاتهم بصورة خاصة تجمله مصدراً ثرياً لتواريخ العلوم ، يقول مثلاً : « توفي أبو القسم بن سلام القاضي بطرسوس مؤلف كتاب غريب الحديث » (٢) ، ويقول : « ... ولد محمد بن إدريس الأصفهاني مؤلف كتاب الزهرة » (٣) . والمؤلف نادر الحديث عن نفسه في الكتاب ولم يورخ أو يترجم لأى من أفراد أسرته . وهو صريح حين يتحدث عن نفسه ، فيذكر عن محنته مع الملك الحافظ أنها كانت بسبب تهتكه شخصياً وسوء سلوكه (٤) .

ويحمل الكتاب الروح السائدة لدى المؤرخين المسلمين تجاه الصليبيين والتي تعبر عنها عبارات اللعن والتقييح (٥) .

ويتميز الكتاب بوجه عام - رغم إيجازه - بالدقة المكانية والزمنية : « وجاءت زلزلة بمصر يوم الأحد ، آخر الساعة الثانية لست خلون من صفر ، ثم عادت في ثلث الليل » (٦) ، ويستخدم أحياناً تقاويم أخرى غير الهجرية أحياناً بشكل متكرر : « ... ثامن تشرين الأول سنة ألف وإحدى وستين ومائة » (٧) .

ويحمل الكتاب روحاً نقدية خفيفة لاذعة للخلفاء والحكام وغيرهم ، يقول بمناسبة وصول رسل الخليفة العباسي « الناصر » للكامل الأيوبي لأجل الرومي بالبندق (العاب) ، في حين أن الفرنج يحيطون بخناق دمياط : « فتعجب الناس من إمام العصر وهمته » (٨) .

(١) التاريخ المنصوري ١١٢ ، ١١٥ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٧٦ .

(٢) السابق ١٠٦ .

(٣) نفسه ١١٠ ، وانظر أمثلة أخرى ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٤ .

(٤) نفسه ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، وما بعدها ، وعن مهمة رسمية له ٣٦٧ .

(٥) نفسه ١٩٨ ، ٢٠٢ .

(٦) نفسه ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٧) نفسه ٨٨ ، وأمثلة أخرى ٨٩ ، ٩١ .

(٨) التاريخ المنصوري ٢٧٧ ، وانظر مثلاً ٣٠٩ .

(هـ) الأسلوب :

بسيط ، غامض فى بعض فقراته ^(١) . وهو نادر الاستشهاد بالشعر ،
وامتشاداته قصيرة جدا ^(٢) .

(و) مآخذ على الكتاب :

الأسلوب الموجز الذى يسير عليه الكتاب كثيراً ما يكون مخلأً ، ونظرة على
نموذج من الكتاب لبعض السنوات يوضح ذلك ، يقول مثلاً عن حوادث سنة :
« تسع وثلاثين وخمسمائة فتحت الرها ، خامس وعشرين جمادى الآخرة ، ودخل
زين العابدين على كوجك الموصل فى العشرين من ذى القعدة ومات تاشفين
على بن تاشفين ومات داود وولى ولده فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن
كيفنا » ^(٣) .

انظر كيف ضغط كل ذلك فى سطور !!

(ز) الأهمية والتأثير :

استفاد من الكتاب ونقل عنه مؤرخون مثل ابن الفرات (ت ٦٨٥هـ) فى
كتابه « تاريخ الدول والملوك » والمقرئى (ت ٨٤٥هـ) وابن العبرى (ت ٦٨٥هـ)
فى كتابه تاريخ مختصر الدول . وقد اهتم المستشرقون بالكتاب ونشر المؤرخ
الإيطالى « ميشيل أمارى » مقتطفات منه بالعربية والإيطالية تتعلق بالحملة
الصليبية الخامسة وتاريخ صقلية ، وترجم منه مختارات أيضاً المستشرق هـ . ل
غوتشالك ^(٤) .

(١) السابق ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(٢) نفسه ١٣٣ ، ١٣٨ .

(٣) نفسه ١٦٩ ، والرها : إحدى مدن الجزيرة شمال العراق ، أسس فيها الصليبيون إحدى إماراتهم
عقب الحملة الأولى ، وحصن كيفنا . بلدة وقلعة عظيمة بين آمد وجزيرة ابن عمر بالجزيرة
أيضاً ، انظر : مرصد الاطلاع ١ : ٣٠٦ .

(٤) انظر مقدمة د . دودو للجزء المطبوع ص 19 , 22 , 25 .

٤. « التاريخ الإسلامى ، المعروف باسم « التاريخ المظفرى » :

(أ) المؤلف : أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم شهاب الدين ابن أبى الدم الهمداني النحوى ، ولد بحماة سنة ٥٨٣ هـ ، ونشأ وترى بها تربية دينية حيث حفظ القرآن ونال قسطاً من العلوم ثم بدأ الرحلة فى طلب العلم إلى بغداد ثم القاهرة إلى أن صار من كبار علماء الشافعية فى عصره ، وعاد للشام حيث تنقل بين مدنها ثم عاد للقاهرة مرة أخرى مدرساً ومحدثاً ، قبل أن يستقر فى حماة بالشام ويعمل بالقضاء ، وقد شارك القاضى شهاب الدين مشاركة فعالة فى النواحي السياسية والعملية بحماة ، وقربه ملوكها وأرسلوه فى عدة سفارات للملوك والحكام المعاصرين ، وتوفى شهاب الدين سنة ٦٤٢ هـ ، على اختلاف فى مكان الوفاة بين بغداد وحلب وحماة وقد ألف فى نواح عدة ، فله مثلاً : أدب القضاء (مطبوع) والفرق الإسلامية ، وله فى التاريخ كتاب « التاريخ المقفى » وهو فى مجلدات عديدة على التراجم ، وكتب تاريخاً للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء ، و « التاريخ المظفرى » الذى ندرسه الآن وهو تاريخ عام موجز كالتاريخ المنصورى وما زال مخطوطاً ومنه نسخة بعنوان « التاريخ الإسلامى » برقمى ٦٠٤ ، ٩٦٦ تاريخ) بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة مصورة عن النسخة الموجودة بمكتبة « خدا بخش بتنه » بتركيا برقم (٣٨٦٩) وقد اعتمدت عليها فى هذه الدراسة ، إلى جانب جزء صغير من أول الكتاب يشمل من البعثة النبوية حتى نهاية الدولة الأموية ، نشره محققاً د. حامد زيان سنة ١٩٨٥ م^(١) .

(١) انظر فى ترجمة المؤلف : مقدمة د. حامد زيان ، للجزء المحقق ، دار الثقافة القاهرة سنة ١٩٨٥ م ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين طهران ط ٣ سنة ١٩٦٧ م مج ١ ص ١١ ، حاج خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ط وكالة المعارف سنة ١٩٤١ م ، مج ١ ص ٤٧ ، د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

(ب) مضمون الكتاب :

يبدأ الكتاب بمقدمة تتحدث عن فائدة التاريخ ، ودافع تأليف الكتاب ، ومنهجه المتبع في تأليف كتابه وهو المنهج الحولى ممتزجاً بالطريقة الموضوعية على أساس عهود الحكام أحياناً ، ولا يلتزم المؤلف دوماً توالى السنوات حيث يتجاوز كثيراً من السنين ^(١) ، وأما عن فائدة التاريخ عنده فهي الموعظة والاعتبار وأما دافع التأليف فهو إهداء الكتاب للملك المظفر الثانى « تقي الدين محمود » صاحب حماة (٦٣٦ - ٦٤٢ هـ) ^(٢) . وعلى غير عادة التواريخ العامة لا يتحدث عن تاريخ ما قبل الإسلام والأم الماضية وجاهلية العرب ^(٣) ، وإنما يبدأ بالحديث عن حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مباشرة ، فالخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين ، بشكل موجز سريع إلى عصره ، فيفصل بعض الشيء فى اختصار سريع محكم غالباً حتى أوائل سنة ٦٢٧ هـ تقريباً ^(٤) .

(ج) مصادر الكتاب :

كثيراً ما يشير المؤلف لمصادره بوضوح غالباً ، كأن يقول : « وقال ابن واضح - اليعقوبى - ... » ^(٥) ، « قال البخارى ... » ^(٦) ، « وقال الطبرى » ^(٧) ، « قال سيف بن عمر - ... » ^(٨) ، « وفى رواية الواقدى ... » ^(٩) ، « ... وجرت بينهم

(١) انظر مثلاً : التاريخ المظفرى ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ من الجزء المطبوع .

(٢) انظر مقدمة المحقق للجزء المطبوع ص ١٢ وكذا مقدمة ص ٥٠ مطبوع .

(٣) يرى الأستاذ عمر رضا كحالة أنه فى انجماهاات التأريخ وجد طريق آخر كان بموجبه تاريخ ما قبل الإسلام غير مهم لعلم الكلام والفقہ وقد أنتج هذا كتباً مثل تاريخ ابن أبى الدم - المظفرى - انظر : كحالة : التاريخ والجغرافيا فى العصور الإسلامية ص ٥٩ .

(٤) ويلاحظ أنه تكثر بالكتاب مواضع السقطات المفاجئة فيضطرب الكلام ، انظر مثلاً : المظفرى فى ٢٢٧ مخطوط سطر ٢ ، ق ٣١١ السطر الأخير ، وربما كان هذا بفعل النساخ .

(٥) التاريخ المظفرى ص ٥٧ مطبوع .

(٦) السابق ص ٨٠ مطبوع .

(٧) نفسه ص ١٠٥ مطبوع .

(٨) نفسه ص ١٠٥ مطبوع .

(٩) نفسه ١٣٢ مطبوع .

ممازعات طويلة يطول شرحها قد أتينا على آخرها في التاريخ الكبير^(١) ، وهو كتاب « الكبير في التاريخ » ، الذي يشير له كثيراً في التاريخ المظفرى ، قال الخطيب البغدادي^(٢) ، « وذكر صاحب الأغاني ... »^(٣) ، « وروى المسعودى ... »^(٤) ، « حكى السمعاني في تاريخه .. »^(٥) ، « قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى ... »^(٦) . وقد يأتي مصدره مجهولاً أحياناً كأن يقول : « وقيل ... »^(٧) ، « وقال بعض المؤرخين ... »^(٨) ، فضلاً عن مشاركته في الأحداث التي عاصرها في الجزء الأخير من كتابه ، يقول مثلاً : « ثم استدعيت إلى القلعة ... »^(٩) .

ورغم مكانة المؤلف السياسية في عصره ، إلا أنه نادراً ما يستعمل الوثائق في كتابه ، وربما يكون قد أكثر منها في تاريخه الكبير الذي لا يفتأ يشير إليه ، ومن الوثائق المهمة في كتابه منشور تولية « أسد الدين شيركوه » - عم صلاح الدين - (ت ٥٦٤هـ) الوزارة بمصر من قبل الخليفة الفاطمي « العاضد » (٥٥٥ - ٥٦٧هـ)^(١٠) ولا أثر للمصادر السماعية (المشافهة) أو أنواع أخرى من المصادر في الكتاب تقريباً .

(د) منهج الكتاب :

زواج المؤلف بين الأحداث والتراجم والوفيات ممتزجة كلها غير منفصلة ، ورغم حولية منهجه ، فإنه يحاول كثيراً - كابن الأثير - استقصاء الحادثة الواحدة

-
- (١) التاريخ المظفرى ١٤٩ مطبوع .
 - (٢) السابق ٢٥٥ مطبوع .
 - (٣) نفسه ٣١٩ مطبوع .
 - (٤) نفسه ٣٣١ مطبوع .
 - (٥) نفسه ٤٣٣ مخطوط .
 - (٦) نفسه ٤٩١ مخطوط .
 - (٧) نفسه ٨٩ مطبوع ، ٤٥٧ مخطوط .
 - (٨) نفسه ٣٧٨ ، ٤١٨ مخطوط .
 - (٩) نفسه ٥٤٤ مخطوط .
 - (١٠) نفسه ٤٨٦ ، ٤٨٧ مخطوط .

دون تقطيع فى مكان واحد - إن أمكن - كذكره خلافة ابن الزبير جملة واحدة مثلاً ، ويتفرد الكتاب - دون المصادر المدروسة هنا - بإيراد بعض التفاصيل فى بعض الموضوعات أكثر من غيره ، يذكر مثلاً بالتفصيل أسماء الرسول - ﷺ - وزوجاته وكتابه وعتقائه وكراعه وسلاحه وملابسه وشمائله وأخلاقه^(١) . ويتحدث المؤلف عن بعض الظواهر الطبيعية والاجتماعية كوقوع الطاعون^(٢) ، والزلازل^(٣) ، والغلاء^(٤) والغرائب^(٥) . ويقول مثلاً : « ودخلت سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ، فيها ولد بصنعا مولود عن عشرين شهراً كأطول ما يكون الرجال وعينه كبيران كالسكرجتين ، وولد لوالد هذا الولد فى هذا اليوم الذى ولد فيه هذا المولود مهر من فرس كأعظم ما يكون من الخيل العتاق ثم ماتا ومات أمهاتهما - والصواب أماهما - فى ذلك اليوم بعينه » .

وثقافة المؤلف الفقهية - باعتباره من علماء الشافعية الكبار - تبدو فى بعض تعليقاته على مسائل فقهية فى ثنايا الكلام^(٦) ، وهو كثير الإشارة للمؤلفين ومؤلفاتهم : « توفى يعقوب بن السكيت صاحب إصلاح المنطق فى اللغة^(٧) ، وذكر الشيخ أبو إسحق الشيرازى فى الطبقات التى له »^(٨) .

ولم يترجم المؤلف لأحد من أفراد أسرته فى كتابه ، وهو قليلاً ، بل نادراً ، ما يذكر أحداً من شيوخه^(٩) ، ونشيع لديه الروح العدائية نفسها تجاه الصليبيين مثل

(١) التاريخ المظفرى ٩٦ - ١١٦ مطبوع .

(٢) السابق ٢٣٥ مطبوع .

(٣) نفسه ٢٤٤ ، ٢٨٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ مخطوط .

(٤) نفسه ٣٧٩ مخطوط .

(٥) نفسه ٤١٥ ، ٤١٦ مخطوط .

(٦) نفسه ٢٤٣ مخطوط .

(٧) نفسه ٧٧٧ مخطوط .

(٨) نفسه ٣٦٦ مخطوط .

(٩) نفسه ٥٤١ مخطوط ، وربما يكون قد استوفى ذلك فى تاريخه الكبير .

وملائه ، تعبر عنها عبارات مثل : « خذلهم الله تعالى »^(١) ، « طاغية الفرنجية »^(٢) .
ونلاحظ دقة المؤلف التاريخية في أنه كثيراً ما يورد في الخبر الواحد عدة روايات ،
ويرجع أحدها ، كقوله في وفاة والد الرسول - ﷺ - : « أما عبد الله فتوفى
ومحمد ، ﷺ ، حمل ، على أصح الأقوال ، وقيل توفى وله شهران ، وقيل سبعة
أشهر وقيل سنتان وأربعة أشهر »^(٣) .

ومن مظاهر دقته وتحريه ، قوله أيضاً : « وقيل كانت سبابته اليمنى أطول
أصابع يده اليمنى لأنها هي التي ترفع عند الشهادة ، ولم أر هذا في كتاب ولا
نقلته عن شيخ يوثق به »^(٤) ، وهو هنا يتحدث عن الرسول - ﷺ - ، وكذا رده
الرواية القائلة بأن « عمر بن عبد العزيز » - رضى الله عنه - دفن الخليفة الأموي
« سليمان بن عبد الملك » حياً اعتماداً على سيرة عمر الحسنة ، وأنه ولي الخلافة
على كراهة علمها الناس عنه^(٥) .

وتبدو الروح النقدية للمؤلف في تعليقه على كثير من الروايات ، - إلى جانب
ما سبق - يقول عن إحداها : « وهذا لم يصح عندنا ، والعلم عند الله تعالى »^(٦) ،
ويقول : « وروى صاحب الحلية أن الشافعي رضى الله عنه ولي القضاء ، بنجران
من بلاد اليمن ، ثم عزل عنه وهذا غريب »^(٧) ، وفي مرات يسيرة يتعرض المؤلف

(١) التاريخ المظفرى ٥٤٨ مخطوط .

(٢) السابق ٥٤٨ مخطوط .

(٣) التاريخ المظفرى ص ٥٩ مطبوع ، وانظر أمثلة أخرى ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٩٥ مطبوع ،
والراجع ما رجحه المؤلف هنا ، انظر : ابن حزم جوامع السيرة تحقيق د. إحسان عباس ، د. ناصر
الدين الأسد . دار المعارف ص ٥ من المتن الهامش) ، محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ،
تصحیح وطبع إدوارد سخاو ، ط ليدن ١٣٢٢ هـ ، نشر مؤسسة النصر طهران ، ج ١ ص ٦١ ،
٦٢ .

(٤) المظفرى ١١٢ مطبوع .

(٥) السابق ٢٦٨ مطبوع .

(٦) نفسه ٣٢٥ مخطوط .

(٧) نفسه ٢٨٨ مخطوط . والحلية هو حلية الأولياء لابي نعيم الاصفهاني (ت ٤٣٠ هـ) .

بالنقد للحكام وولاة الأمور ، فهو يتتقد مثلاً عدم الأمانة والتفريط للذين وقعا في فداء أسرى الصليبيين بيت المقدس عندما فتحها صلاح الدين ،^(١) .

(هـ) الأسلوب :

لغة المؤلف سهلة كمعاصريه من المؤرخين - وإن كثرت بالجزء المخطوط الأخطاء اللغوية ، - وربما من النساخ - ، ويكثر في الكتاب بدرجة كبيرة الاستشهاد بالشعر ما بين أبيات ومقتطعات صغيرة وقصائد كاملة^(٢) . كما يستشهد بالحديث النبوي^(٣) .

(و) ما أخذ على الكتاب :

يسترسل المؤلف أحياناً في حكايات جانبية ، رغم طابع الإيجاز في الكتاب وكونه تاريخياً عاماً ملخصاً ، كما يتوسع في أمور أخرى تأتي على حساب الأحداث الكبرى ، فينما يروي حكايات الشاعر « أبو دلالة » الظريف مع الخليفة العباس المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) في ثلاث صفحات^(٤) ، يأتي خبر « المقنع الخراساني » (هلك سنة ١٦٣ هـ) رغم خطورة ثورته ضد العباسيين في خراسان في أربعة سطور^(٥) .

ورغم أن حدة اتساع مساحة تراجم الوفيات تخف في أواخر الكتاب مع

(١) المظفرى ٥١٤ مخطوط .

(٢) انظر : المظفرى ص ٥١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٩ من الجزء المطبوع ، ق ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٣٥ ، ٣٩٨ ، ٤٧٠ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، من الجزء المخطوط .

(٣) السابق ١٩٧ مخطوط .

(٤) نفسه ٢٠٧ - ٢٠٩ مخطوط .

(٥) نفسه ٢٢٩ مخطوط .

حتمام صراع الحروب الصليبية وبخاصة في ذروة الصراع أيام صلاح الدين وخلفائه ، فإن المؤلف يسهب قبل ذلك في بعض التراجم بما يخل بالتوازن بين جوانب المادة من تراجم وأحداث ، وتطفي مساحة تراجم الأدباء والشعراء بدرجة ملحوظة فبينما يترجم لبشار بن برد (ت ١٦٦ هـ) ، ومنافسة الشاعر حماد عجرد في صفحات^(١) ، يترجم للإمام الفقيه الليث بن سعد (ت ١٧٢ هـ) في سطر^(٢) ، وبينما يترجم لأبي نواس (ت ١٩٥ هـ) في نحو ثمانى صفحات^(٣) ، ولأبي العتاهية (ت ٢١٣ هـ) في مثلها^(٤) ، نجد يترجم للسلطان نور الدين محمود بن زنكى (ت ٥٦٩ هـ) في سطور أيضا^(٥) ، وهو يجمع أخبار دولة الاغالبة في شمال أفريقيا في موضع واحد من كتابه ، فيقول : « وفيها - سنة ٢٦٩ هـ - كان القضاء على ملك بنى الأغلب من أفريقيا ، بعد أن ملكوها مائة سنة وخمس وعشرين سنة ودخل زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب مصر بعد انقضاء ملكه ثم خرج من مصر إلى العراق^(٦) كذلك فإن أخبار الأندلس لديه ليست أكثر حظاً فهي نادرة أيضاً ، وهو إزاء ذلك يتوسع في بعض تراجم رجال الدين^(٧) ويركز بصفة خاصة على علماء الشافعية في تراجمه لأهل العلم ، نظراً لمذهبه .

ورغم خلفية المؤلف ، الدينية القوية ، ومع تدخله في بعض الروايات بالنقد والتصويب ، فإنه كثيراً ما يفض الطرف عن بعض الأخبار التي تبدو غريبة كنتلك

(١) نفه ٢٣٢ - ٢٣٦ مخطوط .

(٢) نفه ٢٣٩ مخطوط .

(٣) نفه ٢٧٠ - ٢٧٧ مخطوط .

(٤) نفه ٣٠١ - ٣٠٨ مخطوط .

(٥) نفه ٤٩٣ مخطوط .

(٦) المظفرى ٣٦٢ مخطوط .

(٧) يرى المحقق د. حامد زيان أنه بهذا أراد التركيز على الدور الذى قام به العلماء والفقهاء والقضاة داخل الدولة الإسلامية عبر التاريخ واهتمام الخلفاء والملوك بهم ليؤكد للمليكة المهدي إليه الكتاب بطريقة عملية أن الاهتمام بالعلم والعلماء من أهم أسباب تقدم الدول ، وربما كان ذلك سبباً بالفعل في هذا التوسع في التراجم ، انظر ص ١٥ من مقدمة الجزء المطبوع .

التي تتعلق بالغيبيات فيوردها دون تحييص أو تعليق ، يقول مثلاً : « قد ذكرنا في ترجمة الوليد بن يزيد بن عبد الملك قدوم أبي مسلم الخراساني وقحطبة بن سيب وسليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وهم دعاة بني العباس على بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأنه قال لهم ليس نلقونى بعد عامى هذا ، فإنى ميت فى سنة - هكذا فى النص - هذه ، وصاحبكم ابنى إبراهيم على أنه مقتول أيضاً ، فإذا قتل فصاحبكم ابن الحارثية عبد الله يعنى السفاح فهو القائم بهذا الأمر ويكون هلاك بنى أمية على يديه »^(١) ، وقد حدث كل ذلك فعلاً ، فهل كان يقرأ الغيب ؟ ! لا تعليق من المؤلف !! وهو أيضاً لا يعلق أحياناً على بعض المعتقدات الفاسدة - ربما لظهور بطلانها خاصة وأنه يرويها بلفظ « زعموا » - كما فى الرواية التالية مثلاً : « سنة ثمان وأربعون - ومائة - توفى أبو عبد الله جعفر الصادق بن على زين العابدين رضى الله عنهم أجمعين وإليه تنسب طائفة من الإمامية يدعون الجعفرية ساقوا الإمامة إليه وزعموا أنه المهدي المنتظر ، وأنه لم يمت وسيخرج إلى الأرض ويملكها ويملاها عدلاً »^(٢) ، كما أنه يروى بعض الكرامات ولكن دون توسع على عكس سبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان » كما سيأتى .

وتبدو روح المغالاة الشديدة لدى المؤلف تجاه ولى نعمته الملك المظفر الثانى صاحب حماة فى ثنايا الكتاب ، وتجاه خاله السلطان الكامل بن العادل الأيوبي (٦١٥ - ٦٣٥ هـ) ، وتتجلى هذه الروح فى حديثه عن تسليم الكامل بيت المقدس للإمبراطور الألماني Frederick 11 فى هدنة بينهما سنة ٦٢٦ هـ وذلك بسبب نزاع بين الكامل وإخوته ، فبينما يصف ابن الأثير هذا الصنيع وآثاره بقوله : « وتسلم الفرخ البيت المقدس ، واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه ، يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه ،

(١) المظفرى ١٩٧ ، ١٩٨ مخطوط .

(٢) المظفرى ٢١٢ مخطوط .

آمين»^(١) ، ويقول سبط ابن الجوزي ، وقد كان في خدمة الأيوبيين كابن أبي الدم : « ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج ، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظائم بحيث أن أقيمت المآتم»^(٢) ، بينما الأمر على هذه الحال ، نجد صاحب المظفرى في محاباة فجة يقول : « فاجتهد المولى السلطان الملك الكامل برأيه وصالحهم صلحاً تاماً رأى فيه صلاحاً للمسلمين وغبطة ، وهو إن شاء الله تعالى راعى هذه الأمة المحمدية وسلطان الملة الإسلامية ومن أعز الله به الدين والمأمون عليهم والناصح المشفق لهم وعليهم ، ففعل ما رآه مصلحة»^(٣) .

ومن المؤرخين المحدثين من يؤكد موقف الرفض الشعبي المنكر لهذا التخاذل ، يقول أحدهم : « أما العالم العربي الإسلامى فقد رأى - بحق - أن الهدنة التي عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقية ، وكان رد الفعل الشعبي عنيفاً ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته»^(٤) .

ويقول آخر : « أما الكامل في مصر فقد أرسل إلى الإمبراطور فريدريك الثانى فى صقلية مبعوثاً خاصاً هو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ليطلب من الإمبراطور أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل»^(٥) .

ويرد هذا الباحث هذا التساهل من جانب « الكامل » إلى التوافق بينه وبين الإمبراطور الألماني فى الطباع والميول والعقلية والصفات من حب العلم وتشجيع

(١) الكامل ١٢ : ٤٨٣ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، الهند حيدرآباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، سنة ١٩٥١ م ، ١٩٥٢ ج ٨ : ٦٥٤ وستأى دراسته .

(٣) المظفرى ٥٤٨ ، ٥٤٩ مخطوط .

(٤) د. قاسم عبده ، ماهية الحروب الصليبية ص ١٥٥ ، وانظر أيضاً موقف الاستنكار الشعبى لهذا التنازل فى : أنور الجندى ، الإسلام وحركة التاريخ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ط ٨ سنة ١٩٨٦ م ص ٢١٣ . د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٠١٢ .

(٥) د. سعيد عاشور ، الإمبراطور فريدريك الثانى والشرق العربى ، بحث منشور بالمجلة التاريخية المصرية ، مج ١١ سنة ١٩٦٣ م ص ٢٠١ .

العلماء والتسامح^(١). ويروى باحث آخر أن الكامل عرض تسليم مملكة بيت المقدس للإمبراطور بالحال التي كانت عليها عندما تقدم صلاح الدين لتحريرها مقابل أن يكفى الإمبراطور الكامل شر تدخل الفرنجة في النزاع القائم بينه وبين أخيه المعظم الذى أراد الكامل أن يحرمه من دمشق ليستولى عليها لنفسه ولم تحوله وفاة المعظم سنة ٦٢٤ هـ عن غايته ، فسلم القدس للإمبراطور وفرسانه الذين لا يتجاوزون ستمائة فارس هم كل الحملة الصليبية السادسة على الشام وحاصر هو دمشق وملكها^(٢). والمعروف أن الكامل نفسه كان قد عرض على الصليبيين تسليمهم بيت المقدس وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل مقابل رفعهم الحصار عن دمياط والجلاء عن مصر أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ١٢١٩ م^(٣)، ومن المؤرخين الغربيين من يؤكد قيام الكامل بتكرار العرض الذى قدمه سنة ١٢١٩ م ، والذى بناء عليه يسترد الإمبراطور ما أخذه صلاح الدين وذلك لما أدرك الكامل صعوبة الموقف وأراد أن يؤمن مؤخره جيشه^(٤).

وأخيراً ... تقع فى الكتاب بعض الأخطاء ، ربما كانت سهواً من المؤلف أو خطأ من الناسخ ، يقول مثلاً : « ولما دخلت سنة ثمان وتسعين جهر سليمان - ابن عبد الملك الخليفة الأموى - أخاه مسلمة فى جيش إلى القسطنطينية فتوجه إليها وفتحها »^(٥). فلم يفتحها وقتها حقاً ، إذ المعروف أن القسطنطينية لم تفتح إلا على يد السلطان محمد الفاتح ، أحد السلاطين العثمانيين سنة ١٤٥٣ م^(٦).

(١) السابق ٢١١ .

(٢) انظر : د. محمد حلمى محمد أحمد : مصر والشام والصليبيون ، ط ٢ سنة ١٩٨٢ م ص ١٩٩ وما بعدها .

(٣) انظر : ابن الأثير ، الكامل ج ١٢ ص ٣٢٩ ، د. محمد حلمى أحمد : مصر والشام والصليبيون ص ١٨٩ .

(٤) Mayer, Hans Eberhard, the Crusades, transled by John Gillingham . Oxford University Press 1972, PP. 227 - 228 .

(٥) المظفرى ٢٦٥ مطبوع ، وانظر أيضاً ٢٤٧ مطبوع .

(٦) انظر : د. إبراهيم أحمد العنودى : نهر التاريخ الإسلامى ، دار الفكر العربى ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام : ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين ، النهضة المصرية ط ٣ ، سنة ١٩٧٠ م ص ١٧٠ .

٥. مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان

(ا) المؤلف : أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قز أوغلى بن عبد الله التركى ، الشهير بسبط ابن الجوزى ، يحتمل أن تكون ولادته سنة ٥٨١ هـ أو ٥٨٢ هـ فى بغداد ونشأ بها حيث تكفل جده الحافظ ابن الجوزى بتعليمه وتثقيفه ، ثم رحل إلى الموصل وإلى دمشق حيث استقر بها ، - وإن زار مصر أيضاً - وانتهت إليه رئاسة الوعظ ، وقد تبحر لأجل ذلك فى علوم كثيرة كالفقه والحديث والتفسير والتاريخ ، وحظى بالمكانة والرعاية لدى الملوك الأيوبيين - خاصة المعظم والأشرف أبناء العادل الأيوبي - ولدى العلماء لقوة تأثيره فى النفوس ، وشارك فى الجهاد ضد الصليبيين ، وتوفى السبط بدمشق سنة ٦٥٤ هـ . وله إنتاج علمى غزير فى فروع عدة مثل : الانتصار لإمام أئمة الأمصار (يعنى أبا حنيفة) ، وإيثار الإنصاف فى مسائل الخلاف ، وتذكرة خواص الأمة (فى مناقب الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مطبوع) ، وكنز الملوك ... إلخ ، وله مؤلفات تاريخية المنحى كخصائص الأئمة والجليس الصالح (مخطوطان) ، وله فى التاريخ « مرآة الزمان » ، الذى نعرض له ، وكان السبط أول أمره حنبلياً كجده ابن الجوزى ثم صار حنفيّاً كما قيل بتأثير صاحبه الملك المعظم ابن العادل الأيوبي صاحب دمشق ، وكان السبط يميل للتصوف ومجالسة المتصوفة كما اشتهر بحبه لآل البيت مما جعل البعض ينسبه للتشيع ولم يكن كذلك فى الواقع^(١) .

(ب) مضمون الكتاب وجهود نشره :

الكتاب من أكبر التواريخ العامة الإسلامية يمتد من أول الزمان حتى سنة ٦٥٤ هـ ، على أساس حولى ، ومعظم الكتاب لا يزال مخطوطاً فى مكتبات العالم

(١) انظر فى ترجمته مثلاً : مقدمة د. إحسان عباس ، الطويلة للجزء الأول من « مرآة الزمان » دار الشرق ، ط ١ سنة ١٩٨٥ م ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ص ١٩٥ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٦ ط ٢ ص ١٤٠ - ١٤٤ . د. شاكى مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٣ .

مختلطاً بأحد مختصرات الكتاب لليونيني - سيأتي ذكره - فقد قام المستشرق الأمريكي جيوت « Jewett » بتصوير نسخة خطية للكتاب ، محفوظة في جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية تحت رقم ١٣٦ من مجموعة لانبرج العربية ، بالفوتوغراف ، ونشرها في شيكاغو سنة ١٩٠٧ م ، مع مقدمة للتعريف بها . ، وفي حيدرآباد بالهند طبع سنة ١٩٥١ م ، ١٩٥٢ م قسم محدود من آخر إحدى نسخ الكتاب المختصرة ويشمل حوادث الفترة من سنة ٤٩٥ هـ إلى سنة ٦٥٤ هـ في قسمين ، أطلق عليهما مع الجزء الثامن ، كما قام د. إحسان عباس بتحقيق ونشر جزء من أول الكتاب مع مقدمة مستفيضة عن المؤلف في مجلد صدر عن دار الشروق سنة ١٩٨٥ م ، وقام الأستاذ التركي « علي سويم » بنشر وتحقيق الحوادث الخاصة بالسلاجقة في الفترة من ٤٤٨ إلى ٤٨٠ هـ .

وأخيراً قام الباحث « مسفر بن سالم » بتحقيق ونشر الفترة من ٤٨١ إلى ٥١٧ هـ مع مقدمة طويلة عن المؤلف والكتاب في مجلدين سنة ١٩٨٧ م^(١) .

ونظراً لتفرق أجزاء الكتاب المخطوطة في مكتبات العالم وصعوبة الحصول عليها ، واختلاطها بمختصرات الكتاب ، ولكوني قد تناولت بالدراسة من قبل تاريخاً عاماً مطولاً هو الكامل لابن الأثير ، والممتد إلى سنة ٦٢٨ هـ - كما سبق ذكره - والذي قد تكون معلومات السبط في المرأة مكررة عنه غالباً ، خاصة وأنه اعتمد عليه كمصدر له ، فقد اكتفيت بدراسة القسمين المطبوعين بالهند ، لأنهما يبدآن بحوادث سنة ٤٩٥ هـ ، وهي بداية تتوأكب مع بداية أهم حدث تاريخي في تلك الفترة وهي الحروب الصليبية سنة ٤٩١ هـ ويمتدان حتى نهاية الكتاب سنة ٦٥٤ م وهي سنة وفاة المؤلف^(٢) . وبذلك فهما يشملان الفترة القرية

(١) انظر : مسفر بن سالم بن عويج الغامدي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق ودراسة الفترة من ٤٨١ - ٥١٧ هـ ، رسالة دكتوراه منشورة في جزئين سنة ١٩٨٧ م ج١ ص ١٠ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، من المقدمة ، وانظر أيضاً د. شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ج٢ ص ٢٧١ ، ٢٦٢ .

(٢) ويلاحظ على هذه النسخة وجود بعض السقطات فيها لا أدري هل سقطت من النسخ أم من المخطوطات بسبب التهالك لم أهملها المؤلف ، وإن كنت لا أرجح هذا السبب الأخير لأنه لا وجه لإهمال هذه المواضع بعينها ، كما أن سياق الكلام ينقطع فجأة ، مما يدل على وجود سقطات ، وانظر أمثلة - لذلك سقوط أخبار ٥٧٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ هـ .

منه والفترة التي عاصرها ، وهما الجزء المهم عادة في أي مؤلف تاريخي ، الذي يتضمن الإضافة والجديد بحكم القرب والمعاصرة ، ومن خلال هذين القسمين سأحاول قدر الإمكان التعرف على سمات منهج المؤلف في كتابه .

(ج) مصادر الكتاب :

أولاً : المصادر المكتوبة :

١ - المؤلفات السابقة : يمكن إحصاء كثير من مصادره المكتوبة وفي مقدمتها كتب جده ابن الجوزي كالمنتظم وزاد المسير وأعمار الأعيان ، وكتب ابن الأثير وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وسيرة ابن شداد وكتب العماد الأصفهاني كالبرق الشامي وخريدة القصر ، وفي اللغة اعتمد على صحاح الجوهري ، والمغرب لابن الجواليقي وغيرها ، يقول مثلاً : « وكان للمستعلي - الخليفة الفاطمي (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) - ولدان ، أبو علي منصور وجعفر ، فولى الأفضل منصور ويوم له يوم مات أبوه وعمره خمس سنين لأنه ولد في سنة ٤٩٠ ولقبوه الأمر بأحكام الله وقام بأمره الأفضل ، وقد ذكره أبو يعلى ابن القلانسي ، فقال^(١)»

وتجدر الإشارة إلى أن بعض مصادره قد ضاعت الآن أو ضاع معظمها ، فلم تصل إلينا كذيل تاريخ بغداد لابن السمعاني ، الذي نقل عنه السبط كثيراً ونقده مرات عديدة . مما يزيد من قيمة المرأة . ، وقد لا يحدد مصدره المكتوب بدقة أحياناً ، فيقول : « ورأيت في بعض تواريخ الموصل أن سيف الدين غازي لم يكن مع أبيه لما قتل »^(٢) .

٢ - الوثائق : يلاحظ قلة الوثائق المدونة بالمرأة رغم مكانة المؤلف كشخصية عامة في عصره ، ربما لأنه لم يتول مناصب رسمية إدارية كبيرة ، ولكن الوثائق

(١) مرآة الزمان ٨ : ٣ .

(٢) المرآة ٨ : ١٩١ .

تبدأ في التواجد في أواخر الكتاب في الفترة التي عاصرها أو قبيل ذلك ، ومن أمثلة الوثائق لديه : « الكتابان المتبادلان بين « زين الدين ابن نجية » الواعظ وصلاح الدين الأيوبي » في فضل مصر والشام والمقارنة بينهما^(١) . وكتابا العماد الأصفهاني على لسان صلاح الدين إلى بغداد بمناسبة فتح عكا سنة ٥٨٣هـ^(٢) . وبمناسبة فتح بيت المقدس سنة ٥٨٢هـ^(٣) . وكتاب المعظم تورانشاه الأيوبي المبشر بهزيمة الفرنج على المنصورة سنة ٦٤٨هـ^(٤) .

ثانياً : المصادر السماعية (المشافهة) :

هذا النوع من المصادر يعتمد فيه المؤلف غالباً على كبار الشخصيات الاجتماعية والرسمية لصلاته ومكاته ، وهو أحياناً يذكرها لنا :

« وحكى لي الملك المعظم عيسى رحمه الله تعالى »^(٥) ، « وحكى إسماعيل بن أبي سعيد الصوفي قال »^(٦) . وأحياناً يسوق الكلام مجهلاً مصدره : « وحكى أن »^(٧) ، « وذكر لي جماعة »^(٨) .

ثالثاً : المعاصرة والإطلاع الشخصي :

اعتمد عليه في الفترة التي عاصرها وروى لنا أخبار أعماله وبعض أنشطته ، وأعمال من اتصل بهم من الملوك والأمراء عن قرب ، يقول مثلاً : « وقد شاهدته وأنا صغير في هذه السنة »^(٩) .

(١) المرأة ٨ : ٣٨٠ - ٣٨٢ .

(٢) السابق ٨ : ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٣) نفسه ٨ : ٣٩٨ - ٤٠٠ .

(٤) نفسه ٨ : ٧٧٨ - ٧٧٩ .

(٥) نفسه ٨ : ٤٧٣ .

(٦) نفسه ٨ : ٥ .

(٧) نفسه ٨ : ٦٥٩ .

(٨) نفسه ٨ : ٦٦٧ .

(٩) المرأة ٨ : ٤٥٣ .

اولا : السمات العامة :

تتسع في الكتاب مساحة الحديث عن الوفيات ، وخاصة وفيات الشخصيات الدينية من أهل التصوف والزهد والورع ربما لكون المؤلف يتسبب لهذه الطوائف ويميل نحوها ، وربما أيضا يتابع في ذلك جده ابن الجوزي في « المنتظم حيث طغت تراجم الوفيات فأورد حوالي أربعة آلاف ترجمة ^(١) ، وترد هذه التراجم لدى السبط في ثنايا الأحداث ممتزجة بها دون فاصل عكس ما صنع جده في المنتظم وابن الأثير في الكامل ، وقد ركز على وفيات الحنابلة ربما لكونه حنبلياً شطراً كبيراً من حياته ، وفي تراجمه غالباً ما يحكم على المترجم من حيث الثقة وعدمها والعدالة وما إلى ذلك من الناحية العلمية ، ويبدو أنه تابع أسلوب جده كثيراً في التراجم ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٥١٥هـ - توفى محمد بن محمد بن عبد العزيز أبو علي بن المهتدي الخطيب ، ولد في جمادى الأولى سنة ٤٣٢ . وشهد عند ابن عبد الله الدامعاني وهو أحد من بقى من شهود القائم وكان ظريفاً صالحاً ديناً توفى في شوال ودفن بباب حرب ، وحضر جنازته النقيبان والأعيان وعاش ثلاثاً وثمانين سنة ، سمع ابن غيلان وابن القزويني والجوهري وغيرهم ، وانفقوا على عدالته وفضله » ^(٢) .

ولا يغفل المؤلف الإشارة إلى الظواهر الطبيعية وبعض الأوضاع الحضارية الاجتماعية والعمرانية ، فهو يتحدث عن الزلازل والبراكين والكوارث والأمطار والمناسبات والوقائع الاجتماعية والأعمال العمرانية من بناء المدارس والمساجد والمدن وغير ذلك ^(٣) . بل إنه قد يتعرض بالحديث للأحوال الاجتماعية والدينية للجانب

(١) المرأة ٨ : ٤٥٣ .

(٢) انظر : ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والأمم تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١ سنة ١٩٩٢ م .

(٣) المرأة ٨ : ١٠٠ .

الآخر وهو الفرنجة ، يقول : « وفيها - سنة ٥٨٨ هـ - توفي المركيس صاحب صور ، قدم عليه راهبان فلزما الكنيسة وتعبدا عبادة زائدة وبلغه خبرهما فقربهما ولم يكن يصبر عنهما فأغفلاه ليلة وذبحاه ، فأخذ وقررا ، فقالا نحن من الإسماعيلية فقتلا ، وسر الإنكلتار - يقصد ريتشارد Richard ملك الإنجليز - بقتله لأنه كان يضاهيه ويضاده ويراسل السلطان - يقصد صلاح الدين - في الإعانة عليه ، فلما قتل استقل الإنكلتار بالأمر وزوج الإنكلتار زوجة المركيس بكندهرى ابن أخت ملك الإنكلتار من أبيه وابن أخت ملك الإفرنسيس من أبيه وأقام الإنكلتار كندهرى موضع المركيس وكانت امرأة المركيس حاملا منه فدخل بها كندهرى وهى حامل وما ذاك عيب عندهم فى دين النصرانية ويكون الولد منسوباً لأمه ، وكان الملك فى المملكة فأقام كندهرى ملك الإفرنج سبع سنين » (١) .

ويساعد المرأة فى عملية التاريخ للعلوم ، فكثيراً ما يشير فى حديثه عن العلماء إلى بعض مؤلفاتهم وأسمائها ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٥٠٧ هـ - توفي محمد بن أحمد بن محمد أبو المظفر الأبيوردى ... صنف تاريخ أبيورد ، والمختلف والمؤتلف فى العرب وغير ذلك » (٢) ويقدم ثبوتاً مطولاً بأسماء مؤلفات جده ابن الجوزى فى مختلف العلوم والفنون بمناسبة وفاته (٣) .

وتنوع ثقافة المؤلف وبخاصة الدينية والفقهية كثيراً ما تدعوه إلى الحديث فى مسائل فقهية يستدعيها سياق الكلام (٤) ، بل إننا نعثر فى الكتاب على نقدان أدبية وأحكام فقهية (٥) .

(١) المرأة : ٨ : ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ويرى ابن الأثير أن الكندهرى ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك انكلتار من أمه . انظر : الكامل ١٢ : ٧٩ ويدو أنه على صواب .
(٢) المرأة ٨ : ٤٨ ، ٤٩ ، وانظر أيضاً ٤٤ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ١٠٦ ، أبيورد بفتح أوله وكسر ثانيه وباء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء ودال مهملة مدينة بخراسان بين سرخس ونسا ، المراصد ٢٠ : ١ .

(٣) السابق ٨ : ٤٨٣ - ٤٨٩ .

(٤) نفسه ٨ : ٢٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٥) نفسه ٨ : ١٦٦ ، ٢٠٢ .

وترجم المؤلف لأسرته بصورة خفيفة في كتابه ، فهو يترجم لجدّه وأخواله عبد العزيز وعلى ويوسف ترجمة طويلة سنة ٥٩٧ هـ وهي سنة وفاة جدّه^(١) ، وغير هذا يتناثر الحديث عن أسرته حيث يتحدث عن مولد جدّه^(٢) ووفاته زوجته^(٣) ، وحديثه عما تولاه بعض أخواله من أعمال متناثرة في الكتاب ، ومرة وحيدة يروي المؤلف عن والده كمصدر له يذكره فيها^(٤) . وهو يترجم كثيراً لشيخه كتاج الدين الكندي وابن الأخضر وست الكتبة شيخته ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٥٩٧ هـ - توفي عمر بن علي بن عمر الواعظ الحربي شيخنا ولد سنة ٥١٤ وسمع الحديث الكثير وتوفي في شوال بالحربية ودفن بباب حرب وكان بين وفاته وبين وفاة جدي شهر ، سمع ابن الحصين وقاضي المارستان وابن السمرقندي وغيرهم »^(٥) . بل إنه يتحدث عن شيوخ شيخه ، يقول : « وفيها ، توفي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد أبو منصور القزاز ويعرف بابن زيق كان من أولاد المحدثين وسمع الكثير وكان صالحاً خيراً كثير السكوت صبوراً على العزلة عن الناس وكانت وفاته في شوال ، ودفن بباب حرب ، سمع ابن المهدي وأبا الغنائم بن الدجاجي والخطيب وأبا جعفر بن مسلمة ، خلقاً كثيراً وهو شيخ جدي أبي الفرج وشيخ شيخنا تاج الدين الكندي ، ومن رواياته تاريخ الخطيب عن الخطيب رواه عنه جدي والكندي ، وقد ذكره وذكره جدي في مشيخته وأثنى عليه »^(٦) ، ويلاحظ أن شيوخه الذين ذكرهم كثرة نظراً لتنوع معارفه ودأبه وكثرة رحلاته .

وقرب المؤلف اللصيق من الشخصيات المهمة في عصره قرب يمكنه من حضور أدق اللحظات مثل لحظة الموت وما يجري فيها وتسجيله كما في وفاة الملك

(١) نفسه ٨ : ٤٨١ - ٥٠٣ ، وقد سبق التعريف بجدّه في هوامش الدراسة .

(٢) نفسه ٨ : ٦٢ .

(٣) نفسه ٨ : ٧٦٥ .

(٤) نفسه ٨ : ٣٤٨ .

(٥) نفسه ٨ : ٥٠٣ ، وانظر كذلك ٤٥٣ - ٤٥٦ .

(٦) المرأة ٨ : ١٧٨ ، وانظر كذلك ١٧ ، ٤٣ ، ١٠٩ .

المعظم ابن العادل الأيوبي سنة ٦٢٤ هـ وأخيه الملك الأشرف سنة ٦٣٥ هـ ، يقول بمناسبة وفاة الأخير : « مرض في رجب مرضين مختلفين في الأعلى والأسفل وكنت كل يوم أعوده أنا والأمثال ، وكان الجراحى يخرج العظام من رأسه وهو يسبح الله ويحمده ويوحده ويقده ثم اشتد به الدرب ، فكان يتحامل إلى أن غلب ، فلما أيس من نفسه قال لوزيره جمال الدين بن جرير : يا جمال الدين فى أى شىء تكفنونى ، فقال : حاشاك من ذلك ، فقال : دعنى من ذلك ، فما بقى فى قوة تحملنى أكثر من نهار غد وتوارونى ، فقال عندنا فى الخزانة نصابى ، فقال : حاشا الله أن تكفنونى من هذه الخزانة التى لا تخلو من الخيانة وكان عماد الدين بن موسى حاضراً فقال : قم احضر الوديعه التى هى إلى الله ذريعه ، فقام عماد الدين ومضى وعلى رأسه مئزر صوف أبيض يلوح منه أنوار الرضى ففتحته ، وإذا فيه خرق الفقراء الشيوخ ، وكان فى الثياب إزار عتيق ما يساوى خمسة قراطيس ، فقال هذا يكون على جسدى أتقى به حر الوطيس ، فإن صاحبه كان من الأبدال وسادات الرجال وكان حبشياً ، أقام بجبل الرها ، يزرع قطعة زعفران يتقوت بها برهة من الزمان ، وكنت أصعد إلى زيارته وأعرض عليه المال فيمتنع ، فقلت له يوماً : أنا أعرض عليك الدنيا فلا تقبل ، فأريد من أترك ما أجعل فى كفى ، فقال : افعل ، وأعطانى هذا الإزار ، وقال : قد أجرت فيه عشرين حجة ، وكان آخر كلامه ، لا إله إلا الله ، ثم مات يوم الخميس رابع المحرم ودفن بالقلعة ، ثم نقل إلى تربته بالكلامه فى جمادى الأولى ،^(١) .

ويتفرد المؤلف أحياناً ببعض الروايات عن معاصره - فى الغالب - كمنه على عدد وأسماء أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأمهاتهم^(٢) .

(١) المرآة ٨ : ٧١٥ ، وانظر كذلك ٦٤٨ ، والدرب دار يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه ، والدرب داء يكون فى الكبد بطيء البرء الوسيط (ذرب) ، والأبدال جمع بدل وهم الزهاد ، وعند الصوفية ، لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم ، الوسيط (بدل) .

(٢) المرآة ٨ : ٤٣٤ .

وتبدو من السبب أحياناً بعض النظرات التاريخية الجامعة واللفتات اللمحة^(١) وبعض الآراء الحاسمة في بعض مواطن الخلاف في التاريخ ، وإن كان ينقل أحياناً عن جده في ذلك ، يقول مثلاً في حق الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : « قلت : قد ذكر جدى في بعض مصنفاته ، وقال ما وقع الخلاف بين أحد الصحابة وبين علي عليه السلام إلا والحق مع علي لقوله عليه السلام « وأدر الحق معه كيفما دار » ، فإن جرت من غيره هفوة فهو مسكوت عنه ، لقوله عليه الصلاة والسلام ، لا تسبوا »^(٢) .

وتلح عليه فكرة الاتعاض والاعتبار من مجريات الأحداث ، يقول مثلاً : « وقع حريق في دار الخليفة لم يجر في الدنيا مثله ، فتحت أبواب الدار في الليل وركب الوزير ابن مهدي وأرباب الدولة إلى خزانة فرأوا النار قد لعبت فيها واجتمع جميع من يبغداد من السقائين والفراشين بالقرب والروايا والصناع والفعلة وأقاموا يوماً وليلة يقلبون الماء ، على النار وهي تزداد ، فاحترق جميع ما كان في الخزانة من الأسلحة والأمتعة والقسي والنشاب والرماح والدروع والسيوف والجواشن والزرديات وقدر النفط والخوذ المرصعة بالجواهر والبقايت ، وعملت النار وساعدها الهواء ودبت إلى الدور والدار البيضاء فخرج الخليفة منها إلى دجلة واحترقت خزانة الرؤوس ، ورأس البساسيري ورأس ابن منكا ورأس طغريل ، وغيرها ، ويقال إن قيمة ما ذهب ثلاثمائة ألف وستمائة ألف دينار ، وكان ذلك عبرة لمن اعتبر وفكرة لمن افكر »^(٣) .

(١) السابق ٨ : ٩٩ .

(٢) المرأة ٨ : ٣٥١ .

(٣) السابق ٨ : ٥٢٣ ، والجواشن : الدروع الوسيط (جوشن) .

ثانياً : النقد التاريخي :

١ - نقد المصادر : ينتقد المؤلف مصادره في بعض الأحيان ويصوب ما يراه خطأ ، يقول : « وفيها - سنة ٥١٠ هـ - قتل لؤلؤ الذي قتل ألب أرسلان بن رضوان بحلب ، كان قد استولى وشرع في قتل غلمان أستاذه وانفقوا على قتله فقتلوه ، وهذا قول ابن القلانسي ، والصحيح أنه قتل في السنة التالية »^(١) . بل إنه يتعرض بالنقد لجده الإمام أبي الفرج بن الجوزي ، يقول : « وفيها - سنة ٥٣٠ هـ - توفي علي بن أحمد بن الحسن أبو الحسن الموحد ويعرف بابن البقشلائي ويقال بقشلام بالميم ، وذكره جدي في مشيخته ولو تركه كان أولى لثلاثة أوجه أحدها ، أنه قال إنما سمي البقشلام لأن أباه بات ليلة بقرية من قرى بغداد يقال لها شلام كثيرة البق ، فكان يقول طول الليل بق شلام ، وهذا كلام لا فائدة فيه ، والثاني أن جدي ذكره في المشيخة وقال : كان شيخنا ابن ناصر يغمزه بشيئين : أحدهما الميل إلى الأشاعرة والثاني بخدمة السلطان الذي ظلم جماعة من أهل السواد ، والثالث أن جدي حكى في المنتظم عن ابن ناصر أنه قال كان في أيام الفتن مع أهل البدع ولم يكن من أهل السنة ولا العارفين بالحديث ، قلت هذا حاله كيف تجوز الرواية عنه ، ثم عاد جدي في المنتظم وقال : ولد ابن البقشلام في شعبان سنة ٤٤٣ وسمع أبا الحسين ابن المهتدي ومن أبي يعلى ابن الفراء وأبي جعفر بن المسلمة وأبي الحسين بن النقور وغيرهم وحدثنا عنهم وكان سماعه صحيحاً ، وظاهره التفقه ، ثم ذكر عن ابن ناصر له بما ذكرناه وتوفى في رمضان ودفن بباب أبرز »^(٢) .

٢ - نقد عام : باعتبار المؤلف خطيباً وواعظاً ومصلحاً اجتماعياً فإن لديه روحاً نقدية ملحة تشمل مختلف الطوائف من شيوخ ومتصوفة وعلماء وأمراء وحكام

(١) المرأة ٨ : ٦٣ .

(٢) المرأة ٨ : ١٥٩ ، ١٦٠ ، وانظره في نقده لمصادره ، أمثلة أخرى ٢١٨ ، ٣٩٨ .

كما تشمل الأحوال الاجتماعية والسياسية^(١)، ينتقد مثلاً ، صلاح الدين الأيوبي حين تساهل مع أسرى الصليبيين وأرسلهم إلى مدينة « صور » التي استعصت بعد ذلك^(٢).

ويتعرض بالنقد الشديد لنور الدين صاحب الموصل (ت ٦٠٧ هـ) وفيها توفي أتابك نور الدين صاحب الموصل واسمه أرسلان بن عز الدين فمات وكان متكبراً جباراً بخيلاً فاتكاً سفاكاً للدماء ، حبس أخاه علاء الدين فمات في حبسه ، وولى الموصل رجلاً ظالماً يقال له السراج فأهلك الحرث والنسل وكان نور الدين يسيء التدبير وهو الذي كسره الأشرف على يوسرى وعرض لنور الدين مرض السل فأقام يذوب ذوباناً ومات في صفر^(٣) . وينتقد أيضاً معاصريه كالمعظم والأشرف والكامل أبناء العادل الأيوبي ، رغم أنه يعيش في كنفهم ، ومثال ذلك حملته الشديدة على الأشرف والكامل ، حين سلم الأخير القدس للإمبراطور الألماني سنة ٦٢٦ هـ^(٤) - كما سبق الذكر - ، وينتقد سلوك المعظم القاسى مع أحد القضاة بقوله : « ثم إن القاضى مرض ورمى كبده قطعاً وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجر فى الإسلام أقبح منها وكانت من غلطات المعظم ولقد قلت له ما فعلت إلا بصاحب الشرع ، ولقد وجبت عليك دية القاضى ، فقال : هو الذى أحوجنى ولقد ندمت^(٥) .

(هـ) الأسلوب :

لغة المؤلف قريبة التناول لا تخوى كثيراً من المفردات والتراكيب عسيرة الفهم ،

(١) انظر مثلاً : المرأة ٨ : ٦ ، ٧ ، ٤٤ ، ٦٥ ، ١٥٧ .

(٢) انظر : المرأة ٨ : ٣٩٨ .

(٣) السابق ٨ : ٥٤٦ ، فإرن هذا بحديث ابن الأنير الحسن عنه فى الكامل والباهر بمناسبة وفاته سنة ٦٠٧ هـ .

(٤) نفسه ٨ : ٦٥٤ .

(٥) نفسه ٨ : ٦٠٥ .

ويكثر لديه إيراد الأشعار بين مقتطفات وقصائد طويلة وشعره منسوب غالباً لقائله :
 • وفيها - سنة ٦١٨ هـ - توفي محمد بن محمد النحوى ويعرف بالتركيتى أقام
 ببغداد وقرأ الأدب بها وبرع فيه وأجاد ومن شعره هذه الأبيات^(١) ، • وفيها -
 سنة ٦٥٠ هـ - توفي جمال الدين بن مطروح فى شعبان وكانت له جنازة عظيمة
 ودفن بشارية فى القرافة وكان فاضلاً كيباً شاعراً ومن شعره هذه الأبيات^(٢)
 وهو فى كثير من الأحيان يورد مقطعات من شعر الشخصية بمناسبة حديثه عن
 وفاتها ولذا فالغالب على استشهاداته روح الزهد والتقوى لكون معظم وفياته من
 أهل الدين والورع والتصوف ، يقول مثلاً : • وفيها - سنة ٤٩٨ هـ - توفي محمد
 ابن على بن الحسن بن أبى الصقر الواسطى وكنيته أبو الحسن ، تفقه على أبى
 إسحاق الشيرازى وسمع الحديث الكثير وروى عنه أبو الفضل بن ناصر وغيره وولد
 فى سنة ٤٠٩ ومات بواسط وأنشد وقال :

إذا ما مر يوم بعد يوم . . . ووجهى مأؤه فيه مصون
 وقوتى قرصتان إلى ثلاث . . . بها ملح يكون ولا يكون
 وسرى آمن وأنا معافى . . . وليس على من الدنيا ديون
 فما أشكو الزمان فإن شكوت الز . . . مان فإنه منى جنون^(٣) .

ويقول : • وفيها - سنة ٥٢٥ هـ - توفي أحمد بن محمد بن عبد القاهر أبو
 نصر الطوسى ، وكان يصلى ببغداد فى مسجد درب الشاكرية ثم انتقل إلى الموصل
 فتوفى بها يوم السبت ، حادى عشرين ربيع الأول ، سمع ابن المهتدى وابن
 المسلمة وغيرهم ، ذكره جدى فى مشيخته ، وقال : كان سماعه صحيحاً وتفقه
 على أبى إسحاق الشيرازى ، وكان شيخاً لطيفاً على وجهه نور ، قال جدى :
 وأنشدنى أشعاراً حسنة منها وقال أيضاً :

(١) المرأة ٨ : ٦٢٣ .

(٢) السابق ٨ : ٧٨٨ ، وانظر أيضاً ٢ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ١٦٨ ، ٢٢٦ ، ٢٦١ ، ٥٤٠ ، ٥٥٩ .

(٣) نفسه ٨ : ١٤ ، ١٥ .

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا .: . وقت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا عدتي من كان نائبه .: . ومن عليه لكشف الضر اعتمد
وقد مدت يدي والضر مشتمل .: . إليك يا خير من مدت إليه يد
فلا تردنها يارب خائبة .: . فبحر جودك يروي كل من يرد^(١) .

(و) مآخذ على الكتاب :

يلاحظ - كمادة معظم التواريخ العامة - عدم توازن أخبار الكتاب بين أقاليم
ديار الإسلام ، ذلك التوازن الذي تحقق إلى حد كبير في كتاب « الكامل » مثلاً ،
ومجارة لجده في كتاب « المنتظم » ، باعتباره مصدراً أساسياً له فصلب أخباره عن
إقليم العراق والمشرق الإسلامي (خراسان وبلاد فارس ومجاوراتها) ، ثم الشام
ومصر باعتبار تحوله إليهما شطراً كبيراً من حياته ، ومعاناتهما لأخطر عدوان
استيطاني تعرض له العالم الإسلامي إبان ذلك العهد وهو العدوان الصليبي ، وفي
مقابل ذلك فإنه مثلاً يجعل سيرة ابن تومرت « مؤسس دولة الموحدين في شمال
أفريقيا (٥١٥ - ٥٢٢هـ) فيما لا يزيد عن نصف صفحة ويعلق بقوله : « هذا
هو المشهور من سيرة ابن تومرت »^(٢) ، وعن معارك السلطان السلجوقي « سنجر
بن ملكشاه » صاحب خراسان (٥١١ - ٥٥٢هـ) المريرة من الترك ، يجمع
الحديث بقوله : « وفي المحرم - سنة ٥٣٦هـ - كانت وقعة عظيمة بين سنجر وبن
كافرتك »^(٣) ، في حين أن هذه المعارك تستغرق صفحات واسعة في الكامل ،
ويبدو هذا الإيجاز المخجل أيضاً في أخبار الخوازميين^(٤) ، وهو يهمل أيضاً أخبار دولة
الغوريين بغزنة تماماً .

(١) المرأة ٨ : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) السابق ٨ : ١٥١ .

(٣) المرأة ٨ : ١٨٠ .

(٤) السابق ٨ : ٤٧١ .

ويلاحظ هذا غالباً في جانب الأحداث مقابل التوسع المفرط في تراجم الوفيات ، وكأن المرأة تراجم للوفيات مغلف ببعض الأخبار ، وربما قام له عذرا في هذا أنه نص في عنوان كتابه على أنه « ... في تاريخ الأعيان » .

وغالباً ما تقترن الوفيات في المرأة بذكر كرامات - يرد كثير منها عند جده في المنتظم - ، لا أدري في كثير من الأحيان مدى واقعيته ، بل إن الزهد والزهاد والكرامات عامل فعال بصورة ملحوظة في مجريات التاريخ لدى السبط وذلك شائع في الكتاب بدرجة لا تحصى^(١) . ويلاحظ أن ابن الأثير في الكامل يترجم لبعض هذه الشخصيات ذات الكرامات والخوارق لدى السبط ، فلا يورد ما أورده لها من كرامات ومعجزات ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٥٥٥ هـ - توفي محمد بن يحيى ابن علي أبو عبد الله الزبيدي شيخ الوزير بن هبيرة ولد بزبيد اليمن سنة ٤٨٠ ، وقدم بغداد سنة ٥١٩ ، صحبه ابن هبيرة ، وانتفع به وكان يعرف النحو والأدب وكان عابداً زاهداً يركب الجمل في بغداد وهو مخضوب بالحناء ، ويعظ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصبر على الفقر ولا تأخذه في الله لومة لائم ، حكى أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وقد خلع الخليفة عليه خلعة حرير والناس يهنونه ، فقال الزبيدي هذا يوم عزاء لا يوم هناء ، أيهني الوزير على لبس الحرير ، فبكى الوزير ابن هبيرة وقال : صدق ، وكانت له سياحات باليمن ورياضات ، قال : خرجت من زبيد أريد المدينة على الوحدة ، فأواني الليل إلى جبل وصعدت عليه وناديت ، اللهم إني الليلة ضيفك فنودي مرحباً بك يا ضيف الله ، الضيافة عند طلوع الشمس ، فلما صليت الصبح مشيت ، فأتيت وقت طلوع الشمس على بئر وعندها قوم يستقون الماء وقد جلسوا يأكلون خبزاً وتمراً فقالوا ، هلم إلى الضيافة فأكلت معهم وتعجبت ، وفي رواية أنه قال : نوديت في الليل أنك تمر على قوم

(١) نفسه ، انظر على سبيل المثال : حكاية أحد المشايخ مع السلطان السلجوقي مسعود وأثرها الفعال في تصور المؤلف ، من حوادث سنة ٥٤٨ هـ - ٨ : ٢١٦ ، ٢٧ ، ولعل هذا ما يسميه الذهبي بحناكير الحكايات عند السبط . انظر : د. شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ٢٦٢ .

عند طلوع الشمس على بشر يأكلون خبزاً وتمرًا ، فإذا دعوك فكل ^(١) ، بينما يقول ابن الأثير في وفاة هذه الشخصية : « وفيها سنة ٥٥٥ هـ - في ربيع الأول توفي محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي ، من أهل زيد مدينة باليمن مشهورة ، وقدم بغداد واعظاً ، وصحبه ابن هبيرة مدة ، وكان موته ببغداد ^(٢) .

وأعجب من ذلك قوله : « وفيها - سنة ٥٥٣ هـ - توفي نصر بن منصور بن الحسين بحران سنة ٤٨٤ هـ ، وكان ماجداً كثير المال غزير النوال قارئاً للقرآن محافظاً على الجماعات يكسو العراة ويفك الأسارى وير العلماء والفقراء ويتفقد أرباب البيوت ويسمع الحديث ، ويزور الصالحين وكان خصيصاً بجدي رحمه الله ويحسن إليه ، مات ببغداد وله وقائع ذكر جدي في المنتظم منها واقعة ، قال : حدثني أبو محمد العكبري ، قال : رأيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله امسح بيدك على عيني ، فقال : أما سمعت الحديث أن الصداقة تقع بيد الله قبل أن تقع بيد السائل وهذا نصر قد صافحت يده يد الله سبحانه وتعالى فأمض إليه ، فانتبهت ومضيت إليه ، فلما رأني قام حافياً ، وقال : الذي رأته في المنام قد تقدم في حقلك شيء ، وقرأ على عيني الفاتحة والمعوذتين فسكن الألم ، قلت : وحكى لى عنه جماعة من مشايخنا أن إحدى عيني نصر ذهبت قال : فخرجت يوماً إلى جامع السلطان لأصلي الجمعة فجلست على جانب دجلة لا تروضاً وإذا بفقير عليه أطمار رثة وهو جالس على دجلة فتقدمت إليه وقلت امسح على عيني فمسح على عيني الذهبية ، فعادت صحيحة كما كانت ، قال : وفي كمي منديل فيه دنانير ، فأخرجت المنديل ودفعته إليه فقال : مالي به حاجة ، إن كان معك رغيف من خبز فنع ، قال : ففقت واشتريت له خبزاً ورجعت فلم أره ^(٣) ، وفي وفاة هذه

(١) المرأة ٨ : ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) السابق ١١ : ٢٦٤ .

(٣) المرأة ٨ : ٢٣٠ - ٢٣١ ، وأطمار جمع طمر وهو الثوب الخلق البالي ، الرسيط (طمر) .

الشخصية ، يقول ابن الأثير : « وفيها - سنة ٥٥٣ هـ - توفى الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني ، ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقائه أيضا ، وكان يقرأ القرآن ، وهو والد ظهير الدين الذي حكم في دولة المستضيء بأمر الله على ما نذكره إن شاء الله » (١) .

بل إن مسألة الكرامات تتعدى لديه الزهاد إلى الزعماء ، فهو يذكر كرامات غريبة للسلطان « نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي » ، لم يذكرها أحد ممن ترجم له - فيما أعلم - يقول : « قلت : وقد نقل ذكره علماء السير مما وقع لهم من سيرته وما يستدل به على صالح سيرته ، وقد وقع لي مآثر لم يذكرها ومفاخر لم يسطروها ، لم تكن لغيره من ملوك الجاهلية ولا الإسلام ولا أروها ولو في احتلام » (٢) .

ويمضي في ذكر بعض سيرته وأعماله إلى أن يقول : « ومنها ما حكاه لي رجل صالح من أهل حران فقيه الشيخ حياة ! في سنة ٦٥٠ ، قال : لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر وملك نور الدين قلعة حلب تصدق وأزال المكوس ورد المظالم وأنا حديث عهد بعرس ، وقد ركبنى دين ، فقالت لي زوجتي ، قد سمعت أوصاف نور الدين وإحسانه للناس ، فلو قصدته وأنهيت إليه حالك ، لقضى دينك ، قال : فخرجت من حران وليس معي سوى درهمين ، فتركت عندها درهما وتزودت بدرهم ، وأتيت الفرات وقت القائلة ، فعبرت جسر منيخ وأبعدت عن أعين الناس وخلعت ثيابي ونزلت وتوضأت للصلاة وصليت ركعتين ، وإذا جانبي شخص ملفوف في عباءة ، فقال لي : يا فقير من أين أنت ؟ قلت : من حران ، قال وإلى أين ؟ قلت : إلى حلب ، قال : فما تصنع فيها ؟ فقلت : أنا فقير مديون ، وقد بلغني إحسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضى ديني ،

(١) الكامل ١١ : ٢٣٩ .

(٢) السابق ٨ : ٣١٣ .

فقال : فأين أنت من نور الدين ؟ ومن يوصلك إليه ؟ وكم عليك دين ؟ ، فقلت خمسون ديناراً ، فأخرج يده من العباءة وبحث في الرمل وأخرج قرطاساً وألقاه إلى ، وقال : خذ هذا واقض به دينك وارجع إلى أهلِكَ ، قال : فأخذته فعدده ، وإذا به خمسون ديناراً ، والتفت فلم أره ، فبهت ، وبث في مكاني أتفكر ، هل أرجع إلى حران أم أمضى إلى حلب ؟ وترجع عندي المضى إلى حلب ، وقلت في نفسي ، فهذه أوفى بها ديني ، فمن أين أتقوت ؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب ، فبت بباب بزاعة ونمت في الليل ، فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح فصليت وقعدت تحت القلعة ، وإذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء إلى ميدان ، فلما أراد أن يدخل نظر إلى ، فرمقني طويلاً ، فأشار إلى خادم بين يديه ، فجاء الخادم إلى وقال : قم ، فأخذني وصعدني القلعة ، قال فندمت على مجيئي إلى حلب ، وقلت : يا ليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح ، ولعل نور الدين توهم أني إسماعيلي ، قال : فلما كان بعد ساعة ، عاد نور الدين إلى القلعة وجلس في الديوان ومد سماطاً عظيم ، ولم يمد يده إليه وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير خرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل ، فوضعه بين يديه وفيه عصارة عليها رغيف فتأملتها من بعيد وهي نزهة ! فتناول منها شيئاً وأكل الناس وأكلت معهم وصرف الناس وبقيت قاعداً خائفاً ، فأوما إلى فقامت وأتيت إلى بين يديه ، وأنا خائف أرعد ، فقال : من أين أنت ؟ قلت : من حران ، قال : وما الذي أقدمك ؟ قلت : على دين وبلغني إحسانك فقصدتك لتقضي ديني ، قال : وكم دينك ؟ قلت : خمسون ديناراً ، قال : فما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات ؟ قلت : خمسون ديناراً ، قال : هلا رجعت إلى أهلِكَ ، وأنت عليك خرقة الفقر ، وإذا حصل القوت للفقير فما يطلب شيئاً آخر ، ما يضيع تعبك ، ورفع سجاده وكان زرقاء وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة ، قلت : فبكيت بكاء كثيراً وقلت : لا آخذ شيئاً حتى تخبرني بصاحب العباءة ، قال : هو أمر لا مفر منه ، فقلت : يا مولانا أنا غريب وضيع ولي حرمة ، فبالله عليك ، فقال : احلف أنك لا تخدث

بهذا فى حال حياتى فحلفت له ، فكشف القباء ، وإذا بتلك العباءة على جسده ، وقال : أنا ذاك الفقير ، فقلت : ما الذى أعطاك هذه المنزلة ؟ بأى شىء وصلت إلى هذا ؟ فقال : بقوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ . ولا بد من السبب ، لما التقينا بالإفرنج على حارم ، ونصرنا الله عليهم وعدت إلى حلب ، والتقانى فى الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة ، فسلم على ، وقال : يا محمود أنت من الأبدال وقد أعطاك الله الدنيا ، فاشتر بها الآخرة ، وسله مهما شئت ثم علمنى كلمات وقال إذا طلبت أمراً فاذكرها ، فقلت له : بالله من أنت ؟ فقال : أنا أخوك الخضر ثم غاب عنى ، فإذا عزمتم على أمر وأردت أذهب إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى أى بلد شئت ، لبست العباءة وتكلمت بتلك الكلمات وأغمض عيني ، فما افتحها إلا وأنا فى تلك البقعة ^(١) .

ويفتقد الكتاب الدقة فى انتقاء وإيراد الأخبار أحياناً ، وتعد حوادث سنة ٥٣٩هـ مثلاً صارخاً لذلك حيث فتح عماد الدين زنكى (المقتول ٥٤١هـ) الرها من يد الصليبيين ، فلم يذكر السبب ذلك بل إن مجمل حوادث هذا العام لا تتعدى حجم صفحة معظمها ترجمة لشخص متوفى . وبمقارنة ذلك بحوادث العام نفسه فى « الكامل » تبين ذلك بوضوح .

وكذلك حوادث عام ٥٤٧هـ حيث يقدم السبب فى صدارتها خبراً تافهاً (ديك يبيض بيضة) ^(٢) ، بينما يهمل أو يوجز أحداثاً عظيماً ذكرها « الكامل » ومنها : ذكر ملك عبد المؤمن (الموحدى) بجاية ^(٣) ، وملك بنى حماد ، ذكر

(١) المرأة ٨ : ٣١٤ - ٣١٦ ، منيح : بفتح فسكون بلد قديم واسع بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ ، مراصد الاطلاع ٣ : ١٥٣ . والفرسخ حوالى ٥٥٤٤ متراً ، بزاعة : بضم الباء ، أو كسرهما بلدة من أعمال حلب ، المرصد ١ : ١٥٠ ، وحارم : بكسر الراء حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية من أعمال حلب ، المرصد ١ : ٢٨١ . ونعام الآية بالنص : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ الأنبياء ١٠١ .

(٢) المرأة ٨ : ٢١٢ .

(٣) بجاية : بكسر الباء مدينة على ساحل البحر (المتوسط) بين إفريقية ، (تونس) والمغرب ، المرصد ١ : ١٢٧ ، وبنو حماد أسرة حكمت الجزائر (٢٩٨ - ٥٤٧هـ) .

الحرب بين نور الدين والفرنج ، وذكر الحرب بين سنجر والغورية ، ذكر ملك غياث الدين (الغورى) غزنة^(١) ، وما جاورها من البلاد ، ذكر انقراض دولة سبكتكين (الغزنوية) ، ذكر ظفر الهند بالمسلمين وذكر ظفر المسلمين بالهند ... إلخ .

ونجد في المرأة نسباً غريباً لصلاح الدين الأيوبي حيث ينسبه للأمويين فيقول : « وفيها - سنة ٥٨٩ هـ - توفي الملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان من أولاد خلفاء بنى أمية »^(٢) ، بينما المعروف أنه من نسب كردى وربما كان هذا تزلفاً منه لبني أيوب الذين عاش في كنفهم^(٣) .

(ز) بين المرأة « والمصادر المعاصرة له :

عند محاولة توثيق بعض روايات الكتاب من مصادرها الأصلية نجده يضيف بعض الزيادات التي لم ترد في مصدره الذى يشير إليه مثل روايته لخبر وفاة « دقاق ابن قتش » صاحب دمشق سنة ٤٩٧ هـ ، وهو ما لم يرد في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي^(٤) ، وكذا خبر تسليم الأتابك « طفتكين » صاحب دمشق مدينة « بانياس » للباطنية سنة ٥٢٠ هـ ، حيث ذيل السبط الخبر بعبارة « وكان تسليم طفتكين بانياس من أكبر سيعاته ، وأورد ذلك على لسان ابن القلانسي ولا توجد هذه العبارة بالفعل لدى ابن القلانسي^(٥) ، وهي بالفعل مستبعدة من مثل ابن

(١) غزنة : بالفتح والسكون فى أوله ولثانيه مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان خاسان وهى الحد بينها وبين الهند ، المرصد ٢ : ٣١١ .

(٢) المرأة ٨ : ٤٢٥ .

(٣) انظر د. عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين يوسف ، الأجلو المصرية سنة ١٩٥٨ م ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، وفى نسب صلاح الدين انظر مثلاً : ابن الأثير : الباهر فى الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، سنة ١٩٦٣ م ، ص ١١٩ ، د. أحمد بيلي : حياة صلاح الدين الأيوبي ، رسالة دكتوراه منشورة ، مطبعة السعادة ص ٢٩ وما بعدها .

(٤) المرأة ٨ : ١١ ، وقارن ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٠٨ م ص ١٤٤ ، وستأتى دراسته .

(٥) السابق ٨ : ١١٩ ، وقارن ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ وربما يكون السبط قد اعتمد على كتاب آخر لابن القلانسي غير الذيل ، وإن كان هذا مستبعداً ، فلم يشتهر له غيره تقريباً .

القلايسى الذى كان يعمل فى ظل أسرة رأسها طفتكين وهو أحد رجالاتها .
 كما يُحَوَّرُ بعض الأخبار ، كخبر الرجل الأثنى الذى نقله محوراً بصورة
 واصحة عن جده ابن الجوزى ، إذ يقول : « حكى جدى رحمه الله فى هذه
 السنة ، تعرض رجل لإمرأة فامتعت إلا أن يدع من ينكحه ، فغلب حبه لها ، فكان
 يدع من ينكحه ، ويأتيها فقال لها فى بعض الأيام ، قد حبلت فاعملى لى دواء
 للإسقاط فعملت له ، فولد ولداً وحضر مجلس بعض الوعاظ ، وكتب إليه رقعة
 بصورة الحال فقال : هذا النكاح ما صح لأنه تبين أنه خنثى فى حكم امرأة لأنه
 يأتى ويؤتى وعجب الناس من هذا » (١) ، بينما نص الخبر لدى ابن الجوزى كما
 يلى : « وكتب إلى بعض الوعاظ أن امرأة تقول : كان رجل إذا رآنى فى الطريق
 مشى إلى جانبى وتعرض لى ، فقلت له أنا لا أوافق إلا على الحلال ، فتزوج بى
 عند الحاكم ، وقضيت معه مديدة يأتينى كما يأتى الرجل المرأة ، ثم عظمت بطنه
 وقال لى : قد حبلت ، فاعملى لى دواء الإسقاط فعملت له فولد ، وقد حضرت
 المجلس أنا وهو فما حكمنا ؟ فقال الواعظ : هذا النكاح ما صح لأنه بالولادة
 انكشف أنه امرأة وتعجب الناس من حال هذا الخنثى الذى كان يأتى ويؤتى » (٢) .

(ج) الأهمية والتأثير :

نال الكتاب حظاً من الأهمية والاشتهار ، ونقل عنه ومدحه وانتقده أيضاً كثير
 من القدماء والمحدثين ، يقول أحدهم « ومع أنه يمكن أن يعتبر أكبر التواريخ
 الإسلامية حجماً وقد يوازى أو يزيد على تاريخ الإسلام للذهبي - (٧٤٨هـ) إلا
 أن قيمته العلمية متفاوتة ، فإذا كانت أقسامه الأولى وحتى القرن الرابع لا تأتى
 بجديد ، فإن اعتماده على مصادر مفقودة فى بعض أخبار القرن الرابع وفى الخامس
 خاصة يجعل للكتاب قيمة هامة فى هذين القرنين ، ثم يفقد هذه القيمة فى القرن

(١) المرأة ٨ : ٣٣٧ .

(٢) المتظم ١٨ : ٢٣١ : ٢٣٢ .

السادس لتوفر المصادر التي أخذ عنها ، ثم يعود في أخبار عصره فيأخذ شأنه كشاهد على العصر وخاصة في أحداث الشام^(١) ، ونظراً لهذه الأهمية فقد ترجمه إلى التركية محمد بن عبد العزيز اليوناني (ت ١٠٢١هـ) ، واختصره وذيل عليه المؤرخ قطب الدين محمد بن موسى البعلبكي اليوناني (ت ٧٢٦هـ) وذيل عليه سعد الدين ابن العربي ، واختصره ابن أبي الرجال ومحمد بن شادشاه^(٢) .

(١) د. شاکر مصطفى : التاريخ العربی والمؤرخون ٢ : ٢٦١ ، وانظر أيضاً : د. السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ص ١٠٣ ، ١٢٥ ، كحالة التاريخ والجغرافية في المصور الإسلامية ص ٥٨ .

(٢) انظر : د. شاکر مصطفى : التاريخ العربی والمؤرخون ٢ : ٢٦٢ ، عباس العزاوی ، التعريف بالمؤرخين ... ص ٧٣ ، ٧٤ ، مسفر بن سالم مرآة الزمان ١ : ١٠٣ .

الفصل الثانی
التاریخ الإقليمي
تاریخ الدول أو الأوسر ، تاریخ المدن

أولاً : ظهور هذا الانجاء وتطور حركة التأليف فيه :

يعنى مفهوم « الدولة » فى الاصطلاح العصرى الحديث ، جماعة من الناس تقطن منطقة معينة من الأرض وتتعايش معاً ، محاولة تحقيق أهداف مشتركة ، تقودها فى ذلك سلطة عليا ذات سيادة (١) .

وقد شهد التاريخ قيام مجموعات من الدول ، بشكل أو بآخر ، قريباً أو بعداً من هذا المفهوم . وقد تأسست الدولة الإسلامية فى حياة الرسول - ﷺ - واستمرت موحدة آخذة فى الاتساع على عهد خلفائه الراشدين ، وكان الخليفة رمزاً للمسلمين أجمعين ، وليس له صفة استثنائية ينعت بها غير أنه خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، ولا اعتبار لبيته أو عشيرته ، فأفضليته وقرشيته تقدمانه (٢) . واستمرت الدولة موحدة نامية الأطراف على عهد الأمويين غير أن الحكم اكتسب صفة جديدة خاصة ، وهى أنه أصبح متوارثاً فى فرع معين من قريش هو الفرع الأموى ، ومن ثم اكتسب خلفاء المسلمين من الأمويين صفة خاصة فى التاريخ وفى نظر الناس إلى جانب كونهم خلفاء للمسلمين ، هذه الصفة هى أنهم أمويون ، مقابل غيرهم من الأسر التى تولت خلافة المسلمين فيما بعد كالعباسيين والفاطميين وبعثت دولتهم بالأموية مقابل العباسية والفاطمية ، وألفت فى تاريخهم كتب تحمل هذه الأسماء .

ويبدو أن أول ما ألفت فى التاريخ للدول أو الأسر الحاكمة ، كتاب لعوانة بن الحكم المتوفى سنة ١٤٧ أو ١٥٨ هـ بعنوان : سيرة معاوية وبنى أمية ، وألف على ابن مجاهد بن مسلم الرازى ت ١٨٢ هـ كتاب « أخبار الأمويين » ، وللهيثم بن

(١) فى مفهوم الدولة انظر : د. عبد الله محمد جمال الدين ، نظام الدولة فى الإسلام ، دار الثقافة

للنشر والتوزيع ١٩٩٠م ، ص ٧ وما بعدها .

(٢) المرجع أن اشتراط القرشية فى خليفة المسلمين جاء مقصوراً على الفترة التالية للرسول لأن المسلمين كان من الصعب أن يجتمعوا إلا على رجل من قريش لمكانة قريش الدينية والدينية بينهم فى ذلك الوقت . انظر فى ذلك د. محمد ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٢٥٤ وما بعدها ، د. عبد الله محمد جمال الدين : نظام الدولة فى الإسلام ص ١٣٩ وما بعدها .

عدى ت ٢٠٧ ، كتاب « الدولة » أى الدولة العباسية ، ومثله أيضا للمدائنى ت ٢٢٥هـ ولمحمد بن صالح بن مهران النطاح ت ٢٥٢هـ ، وهو تهذيب لكتاب « الدولة » لأستاذة الحسن بن ميمون النصرى . وكتب أبو الفضل محمد بن أحمد ابن عبد الحميد الكاتب ت ٢٨٧هـ كتاب « أخبار خلفاء بني العباس ، كما كتب الصولى أبو بكر محمد بن يحيى ت ٣٣٥هـ كتاب « الأوراق فى أخبار آل عباس وأشعارهم » .

وفى العصر العباسى تفككت وحدة الدولة الإسلامية وظهرت دول مستقلة كان لها مؤرخوها الذين دونوا أخبارها ، وهكذا كتب أبو بكر بن على الصنهاجى البيذق ، من أتباع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدىن ، كتاب « تاريخ الموحدىن » ، كما دون فى تاريخهم أيضا كتاب « المن بالإمامة » لمحمد بن أحمد بن إبراهيم ابن صاحب الصلاة ت ٥٧٨هـ . ودون جمال الدين أبو الحسن بن ظافر الأردى المصرى ت ٦١٣هـ كتاب « أخبار الدول المنقطعة » ، أورد فيه أخبار عدد من الدول الإسلامية المستقلة كالتولونية والأخشيدية والفاطمية فى مصر والحمدانية والسلجوقية فى الشام والعراق وفارس وغيرها . وفى بلاد الشام - محل الدراسة - وخلال فترة الدراسة (٥٢١ - ٦٦٠هـ) كتب العماد الأصفهانى تاريخاً للسلاجقة ، كما كتب ابن الأثير كتاباً أرخ فيه لأيام الأسرة الزنكية - نسبة لعماد الدين زنكى ، قتل ٥٤١هـ بالموصل^(١) .

ومن ناحية أخرى مثل التاريخ الإقليمى نوع آخر هو : تاريخ المدن ، يعنى مفهوم تاريخ المدن باختصار أن يقتصر المؤرخ فى كتابه على أخبار مدينة بعينها ، وإن كان هذا الاقتصار لم يلتزم حرفياً على الدوام ، بل غالباً ما ألم المؤرخون المحليون بتواريخ مناطق ومدن أخرى وبخاصة القرية من مدنهم ومناطقهم ، بل إن

(١) فى تطور حركة التأليف فى هذا الفرع من التاريخ الإقليمى ، انظر : بروكلمان تاريخ الأدب العربى ، الترجمة العربية ٦ : ٢٦ وما بعدها ، مزكين : تاريخ التراث العربى ، الترجمة العربية ، مج ١ ج ٢ ، ص ١٢٧ وما بعدها ، فراتر روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، الترجمة العربية ، ص ١٢٥ وما بعدها .

بعض تواريخ المدن كان يتحول إلى تاريخ عام للعالم الإسلامي منظوراً إليه من المدينة أو القطر صاحب التاريخ وربما كان هذا دليلاً على عدم وجود تناقض بين الإحساس بوحدة دار الإسلام من جهة والانتماء لقطر معين من جهة أخرى لدى المؤرخ المسلم .

ويعزو الباحثون ظهور هذا الاتجاه في التأليف إلى أسباب كثيرة تبدو وكلها معتبرة ، منها أن دخول الشعوب القديمة ذات الحضارات العريقة تحت راية الإسلام ، كما كان من عوامل ظهور التواريخ العامة ، كان أيضاً من عوامل ظهور التواريخ المحلية التي تهتم بتاريخ كل بلد من بلدان العالم الإسلامي على حدة^(١) . ويربط أحد الباحثين بين تاريخ المدن والأقاليم من جهة وعلم الجغرافية وتاريخ الرحلة عند المسلمين من جهة أخرى ويضيف إلى ذلك أن ديوان البريد وديوان الخراج استدعيا التاريخ للمدن والأقاليم^(٢) . فقد كانت أحكام الخراج ومعاملاته تتوقف على ما إذا كانت البلاد قد فتحت عنوة أم صلحاً ، ولكل حكمه .

ويرى باحث آخر أن هذا النوع من الكتابة هو وليد الشعور بالقومية ، وتعبير صادق عن ارتباط المؤرخ بإقليمه - ربما كان هذا صواباً ، وإن كان لا ينبغي أن نتعسف في إضفاء الشعارات الحديثة بمدلولاتها الحالية كالقومية وغيرها على مفاهيم القدامى - وإن كان عدد كبير من كتب التاريخ الإسلامي المحلي صنفت لاعتبارات دينية بالنظر لتاريخ المدن الديني المقدس ودورها التاريخي في خدمة الإسلام والإشعاع بنوره ، أي باختصار منزلة المدينة في تاريخ الإسلام . وقد عبر المؤرخون عن ضرورة اهتمام المؤرخ بالكتابة عن إقليمه ، وينقل هذا الباحث السابق عن المؤرخ « أبو علي الحسين السلامي ت ٣٧٤ هـ » في كتابه « أخبار ولاية خراسان » ، قوله : « الواجب على صاحب المعرفة من أبنائها أن يعلم جمل أبنائها ويحفظ أيام أمرائها ، ولا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه ، ولعله يتطلب

(١) د. قاسم عبده ، الرؤية الحضارية ، ص ٩٧ .

(٢) د. أحمد رمضان ، تطور علم التاريخ ، ص ١٧٠ .

أخبار غيرها ، ويكون كمن ترك الواجب وتبع النوافل ،^(١) وأخيراً ، يركز باحث على الاعتبارات الدينية والباعث الشعوري بقداسة المدن لدى أهلها وعطائها الإسلامي كدافع لنشأة التواريخ المحلية أكثر من غيره^(٢) .

وربما كان أول المؤلفات في هذا الاتجاه ظهوراً كتاب « وصف البصرة » الذي ألفه زياد بن أبيه (ت ٥٣هـ) ، وكتاب عن فتوح مصر لأبي قبيل المصري (ت ١٢٨هـ) وكتاب عن تاريخ مصر ليزيد بن أي حبيب (ت ١٢٨هـ) . ويمكن أن تنسب كتب الفضائل لهذا الاتجاه ، ففيها حديث عن أمجاد المدن التاريخية وما فيها من مقامات وقبور للصحابة ، وهكذا ، ولعل أقدم مؤلف وصل إلينا من هذه الكتب هو كتب « فضائل مكة » المنسوب للحسن البصري (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م) . فضلاً عن هذا فإن أقدم كتب الحديث ذات التبويب الموضوعي تضم كذلك أبواباً في فضائل المدن المختلفة ، ولعل أقدمها هو كتاب الفرائض لسفيان الثوري (ت ١٦١هـ / ٧٧٨م) وبه باب في فضل المدينة^(٣) .

وتوالى بعد ذلك تواريخ المدن والأقاليم وتعددت ، فمثلاً كتب ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) تاريخاً عن فتوح مصر ، وكتب الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) تاريخاً لبغداد وكتب ابن عساكر (ت ٥٧٢هـ) تاريخاً لدمشق ، وكتب ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) « بغية الطلب في تاريخ حلب » ، « زبدة الحلب من تاريخ حلب » .

ثانياً : دراسة تطبيقية لمؤلفات تمثل هذا الاتجاه :

(١) د. السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) Sami Dahan The origin and development of the local histories of Syria PP.(٢)

108 - 109 ,in : Historians of the Middle east .

(٣) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، مج ١ ج ٢ - ١٩٢ - ١٩٧ .

١. تاريخ دولة آل سلجوق :

(أ) المؤلف : محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله بن علي بن محمود ابن هبة الله عماد الدين الكاتب الأصفهاني ، ولد بأصفهان عام ٥١٩ هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ، وبينهما امتدت حياته حافلة بالدراسة والرحلة وتولى المناصب والتأليف ، بصورة جعلت منه واحداً من كبار المؤلفين في تاريخ التراث العربي الإسلامي . وأصفهان أو أصفهان التي ينتسب إليها العماد ، وهي بفتح الهمزة وهو الأشهر وقد تكسر ، مدينة عظيمة مشهورة بفارس^(١) . وقد اشتهر العماد بألقاب أخرى مثل : ابن أله بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء ، وهو اسم أعجمي معناه بالعربية العقاب وهو الطائر المعروف ، كما عرف بابن أخى العزيز نسبة لعمه العزيز وهو من رجال الخلافة العباسية والسلاجقة . وأكثر ما عرف به لقب العماد الأصفهاني أو العماد الكاتب . نشأ العماد بأصفهان في بيت علم ورئاسة ، ثم غادرها في سن مبكرة إلى بغداد بعد أن انقلب وجه الدهر لأبيه ، حيث التحق العماد بالمدرسة النظامية وتعلم بها ، وتدرج في المناصب حتى شغل منصب نائب الوزير ابن هبيرة في البصرة ثم في واسط^(٢) ، وعندما توفي الوزير المذكور سنة ٥٦٠ هـ ، واعتقل العماد ثم أخلى سبيله ، وكان قد عاد إلى أصفهان سنة ٥٤٣ هـ ، ليغادرها نهائياً بعد خمس سنوات إلى بغداد ، ثم ما لبث تألق دولة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي أن اجتذبه إلى الشام ، حيث وصل إلى دمشق سنة ٥٦٢ هـ ، وهناك استقبله قاضي المدينة كمال الدين الشهرزوري ، وقدمه إلى نور الدين الذي أحسن إليه ، وعينه مدرساً بالمدرسة النورية التي عرفت فيما بعد بالمدرسة العمادية ، وظل يعمل بها إلى أن توفي نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، وشغل العماد أيضاً وظيفة كاتب الإنشاء ، واستطاع خلال فترة قصيرة أن يصبح مشرفاً على الديوان واتصل العماد بصلاح الدين الأيوبي بعد وفاة نور الدين في دمشق ، وأعانه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه علي توطيد علاقته بصلاح الدين ، وسرعان ما أصبح العماد بمثابة السكرتير الخاص لصلاح الدين مما مكنه من

(١) مراصد الاطلاع ، ١ : ٧١ .

(٢) واسط : عدة مواضع واحدة منها بين البصرة والكوفة وأخرى قرب بغداد ، ولا أدري أيها يقصد هنا ، ولعل المقصود تلك التي بين البصرة والكوفة وهي التي بناها الحجاج فهي أشهرها .
انظر: مراصد الاطلاع ٣ : ٢٦٩ ، ٢٧١ .

الإطلاع على كثير من الوثائق والمكاتب الرسمية للدولة، الشيء الذي يضيف على مؤلفاته أهمية خاصة . ورافق العماد صلاح الدين في حله وترحاله وسلمه وحره ، حيث كان بمثابة المراسل الحربي ، يقول أحد الباحثين : « والمراسل الحربي اليوم الذي يغذي صحف العالم كلها ووكالات الأنباء بالأخبار الحربية ، أشبه ما يكون بالعماد الأصفهاني في تتبعه عساكر صلاح الدين في ميادين القتال ، وإحصاء الأسرى والقتلى والجرحى ، وهو حجة تاريخية فيما يقول وفيما يكتب»^(١) ، وقد زار العماد مصر ولكنه استقر في دمشق وفيها كتب معظم إنتاجه بعد أن انسحب من الحياة العامة عقب وفاة صلاح الدين وتقصير أولاده عن الإحسان إليه ، وينتسب العماد للمذهب الشافعي وله العديد من المؤلفات ، منها : البرق الشامى والفتح القسّى - ستأني دراستهما - ونصرة الفطرة وعصرة القطرة ، وهو في تاريخ الدولة السلجوقية ووزرائها - وهو ما تعرض له الدراسة في هذه الصفحات - وعتبي الزمان في عتبي الحدثنان ، وهو في تاريخ الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين حتى نهاية سنة ٥٩٢هـ ، ذيل به على البرق الشامى ، وقد ضاع ، ولدى أبي شامة (ت ٦٦٥هـ) ، في كتابه : الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية ، مقتطفات منه . وخطفة البارق وعطفة الشارق ، وهو يتمم العتبي بذكر تاريخ الأيوبيين منذ مطلع سنة ٥٩٣هـ إلى سنة وفاته ٥٩٧هـ ، وهو مفقود أيضا ، ونحله الرحلة وحلية العطلة ، عاد فيه العماد مرة أخرى إلى الحديث عن اختلال الأمور بعد صلاح الدين ، وما وقع من اختلاف الأمراء الأيوبيين من بعده ما بين سنتي ٥٨٩ و ٥٩٣هـ ، وخريدة القصر وجريدة العصر ، أرخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية ، وأراده ذيلاً على دمية القصر للباخرزي ، وهو مطبوع في مجلدات عديدة ، وذيل الخريدة وسيل الجريدة ، أراد أن يتم به عمله في الخريدة وهو مفقود ، وجعله الزركلي في الأعلام ذيلاً على ابن السمعاني ، فقال : «السييل على الذيل ثلاث مجلدات في تاريخ بغداد جعله ذيلاً على ذيل ابن السمعاني» ، بينما يقول ابن خلكان : « وصنف كتاب السيل على الذيل جعله ذيلاً على الذيل لابن السمعاني المقدم ذكره الذي ذيل به تاريخ بغداد تأليف

(١) د. نظير سعادوى ، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، رسالة دكتوراه منشورة ،

مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٧م ، ص ٦٤ .

الخطيب البغدادي الحافظ ، هكذا كنت قد سمعت ، ثم إنني وقفت عليه فوجدته ذيلاً على كتاب خريدة القصر المذكور . هذا إلى جانب كتاب لم يتم عن حياة القاضي الفاضل ، وترجمة كيمياء السعادة للغزالي ، وديوان شعر في أربعة مجلدات وديوان رسائل في ثلاثة مجلدات^(١) .

(ب) مضمون الكتاب :

الكتاب في الأصل للعماد الأصفهاني ألفه في تاريخ السلاجقة ووزرائهم ، بعنوان « نصره الفطرة وعصرة القطرة »^(٢) ، وهو ما يزال مخطوطاً بالخارج^(٣) ، وقد اختصره « الفتح بن علي البنداري » (ت ٦٤٣ هـ) ، وهو من رجال بلاط المعظم عيسى بن العادل الأيوبي بدمشق ، وسُمي المختصر « زبدة النصره ونخبة العصرة » ، وقد طبع المختصر بالخارج وطبع في مصر بعنوان « تاريخ دولة آل سلجوق » في

(١) انظر في ترجمة العماد : ابن الأثير الكامل ١٢ : ١٧١ ، ابن خلكان الوفيات ٥ ص ١٤٧ - ١٥٣ ، أبو شامة ذيل الروضتين ص ٢٧ ، ٢٨ ، عبد الوهاب السبكي طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ياقوت الحموي معجم الأديباء ١٩ : ١١ - ٢٨ ، د. أحمد أحمد بدوي الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، نهضة مصر ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، الزركلي الأعلام ط ٣ ج ٧ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، د. شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ ، د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ، دار الفكر العربي ط ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٩ ، محمد كرد علي خطط الشام مطبعة الترقى دمشق سنة ١٩٢٦ ، ج ٤ ص ٤١ ، مظفر سلطان العماد الأصفهاني حياته وأدبه ، رسالة ماجستير منشورة ، مطبعة الجمهورية السورية سنة ١٩٥١ م ، وذلك إلى جانب حديثه المتناثر عن نفسه وأسرته في كتبه .

(٢) هذا الاسم هو ما أثبتته للكتاب كل من : بروكلمان ، تاريخ الأدب ج ٦ ص ٧ ، ٢٩ ، د. شاکر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ١٣٥ ، ٢٤٦ ، أما الاسم الوارد في مقدمة المختصر للكتاب نفسه فهو « نصره الفترة وعصرة الفطرة » ، في أخبار الوزراء السلجوقية ، انظر : تاريخ دولة آل سلجوق تأليف العماد الأصفهاني ، اختصار أبو الفتح البنداري ، تحقيق ونشر دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٣ سنة ١٩٨٠ م .

(٣) انظر : د. شاکر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ٢٤٦ ، وبذكر بروكلمان أنه طبع بمصر سنة ١٣١٨ هـ ، تاريخ الأدب ج ٦ ص ٧ ، ولم أره ، ويبدو أنه سهر منه ، فلعله يقصد المختصر لأنه يعود فيذكر أن المختصر أيضاً طبع بمصر سنة ١٣١٨ هـ . تاريخ الأدب ج ٦ ص ٢٩ .

مجلد واحد^(١). وقد اعتبرتُ هذا المختصر المطبوع كتاباً للعماد نفسه ودرسته على أنه من مؤلفاته ، ذلك لأن المختصر لم يتصرف في الكتاب بشيء إلا بحذف الأسجاع المطولة ولم يتدخل فيه إلا مرات محدودة جداً واضحة الحدود والمعالم أشار إليها المختصر بنفسه ، وسأزيد ذلك وضوحاً فيما بعد . ويبدأ الكتاب بمقدمة للمختصر أشار فيها لسبب إقدامه على اختصار الكتاب وهو غلبة الصنعة البيانية والزخرفة البلاغية والإكثار من الأسجاع والتجنيس في أسلوب العماد بحيث يصير المضمون مغموراً ويصعب استنباط الحقائق التاريخية ، ويشير لدافع الاختصار وهو أنه خدم بهذا المختصر مولاه الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي صاحب دمشق ، وقد ابتدأ في الاختصار في ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ ، وقد التزم البنداري بأسلوب العماد فلم يحاول تغييره ولم يتدخل إلا بالحذف كأن يقتصر من القصيدة على بعض أبياتها ، أو من الوثيقة على جزء منها ، وهكذا ، ولم يتدخل في النص إلا مرات محدودة يشير إليها دوماً بقوله : « قال الفتح بن علي البنداري الأصفهاني منتخب الكتاب ... »^(٢) ، ولذا فإن نص الكلام للعماد ، يؤيد ذلك قول المختصر : « فانتخبت منه هذا المختصر الذي هو بعد اشتماله على جميع مقاصد الكتاب محتو على عيون قرائته البديعة ، وزواهر ألفاظه الفصيحة »^(٣) ، ويربط المختصر بين الفقرات بقوله : قال أو قال رحمه الله أو قال عماد الدين رحمه الله ، ثم يرد بعد مقدمة المختصر مباشرة متن الكتاب دون مقدمة للعماد على عكس عادته في كتبه ، وربما يكون العماد قد كتب مقدمة لكتابه ولكن أصابها الحذف على يد المختصر - رغم أنه أورد مقدمة للعماد في سنا البرق وهو عنوان مختصر للبرق الشامي ، وستأتي دراسته - .

ويبدأ الكتاب بداية منهجية بذكر خلفية تاريخية عن السلاجقة تحت عنوان « ذكر نبذة من بداية حال السلجوقية »^(٤) ، وذلك في إيجاز إلى أن يصل إلى

(١) انظر : بروكلمان تاريخ الأدب ، ج٢ ص ٢٩ ، د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، ج٢ ص ٢٤٧ .

(٢) العماد ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٠٢ ، وانظر كذلك ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) السابق ص ٥ .

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧ .

الحديث عن دخول السلطان السلجوقي « طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق » بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، فيبدأ في تفصيل الحال مركزاً على أخبار الوزراء ومهامهم والمناصب المتصلة بهم ورجالاتها إلى أن يصل إلى بداية حكم السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، نجده يقول : « ولما كان الكتاب الذي صنفه أنوشروان الوزير عربته وهذبتة وقد انتهت في هذا الموضوع إلى مفتحه ، وصلت هذه الجملة التي ذكرتها - يقصد حديثه من أول الكتاب إلى هذا الموضوع - به ، وجعلتها طريقاً إلى دخول بابه ، لكنني عند انقضاء أيام كل سلطان أوردت حوادث تجددت في عصره وأخل أنوشروان بنشر حديثها وذكره ، ومن هاهنا يقع بما بدأ به البداية ، وتكمل بتعريبه والإعراب عنه العناية »^(١) ، فهو هنا يخبرنا أنه من هذا الموضوع فطالماً سوف يعتمد على كتاب في تاريخ السلاجقة ووزرائهم ألفه بالفارسية الوزير « شرف الدين أنوشروان بن خالد » أحد وزراء السلاجقة والعباسيين ، ت سنة ٥٢٣ هـ^(٢) . وعربه العماد واعتمد عليه ، ورغم أن مدى وحدود اعتماد العماد على هذا الكتاب غير واضحة لأنه يشير فقط لكلام أنوشروان أحياناً بقوله « قال أنوشروان » ثم يخلط كلامه بكلامه ، ولكن يبدو أنه استعان منه بمقتطفات قليلة في ثنايا كلامه ، وتنتهي هذه الاقتباسات تماماً بوفاة أنوشروان سنة ٥٢٣ هـ ويتابع العماد تاريخه إلى نهاية دولة السلاجقة في خراسان والعراق بمقتل آخر سلاطينهم وهو « طغرل ابن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان » على يد الخوارزميين سنة ٥٩٠ هـ . إذن فجعل الكتاب تأليف أصيل من إنشاء العماد ، ولهذا لا أستطيع أن أتفق مع قول « بروكلمان » عن الكتاب الأصلي للعماد - والذي اختصر بنصه مع بعض الحذف كما سبق - إنه : « ترجمة مختصرة بأسلوب إنشائي فخم للكتاب الفارسي المفصل الذي صنفه شرف الدين أنوشروان »^(٣) ، وأليق منه قول أحد الباحثين : « وهو في تاريخ الدولة السلجوقية ووزرائها أخذ بعضه من كتاب كتبه بالفارسية الوزير أنوشروان بن خالد فهذبته العماد وأضاف إليه ما

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ١١ : ٧٠ ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

(٣) تاريخ الأدب : ٦ : ٧ .

عرفه لعهدده فى زىادات هامة فى مطلع الدولة السلجوقية وأواخرها ،^(١) .

ويلاحظ أن المؤلف أجمل فى آخر الكتاب حوادث حوالى عشرين عاما ، فى ثلاث صفحات واحتج بابتعاده إلى الشام وأسباب أخرى ، وتلك لفظة منهجية طيبة منه ، إذ إنه يضع فى اعتباره ضرورة القرب من مواقع الأحداث ومعاصرتها للتمكن من التعبير الصائب والمستفيض عنها ، وقد عبر هو عن ذلك بعبارة دقيقة ختم بها كتابه ، فقال : « وقد كنت أؤثر أن أنهى هذا الكتاب إلى آخره بشرح حادثة كل عام والانتهاء فيها إلى كل مرام ، ولكنه بغيبتي إلى الشام ، وتباعدي عن معرفة صروف تلك الأيام ، اقتصرت على ما عرفته من الجمل واستغنيت بها عن ذكر المفصل ، ولأن السلطنة فى تلك الأيام وهنت وهانت ، وبانت أسباب اختلالها ، وظهرت أسرار وهائها وهانت ، وما تمكن وزير من سيرة سارة ، ومبرة بارزة ، حتى أنه بذكره وأنه ، وفيما أنشأته من محاسن الأيام الناصرية - يقصد أيام السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، فقد ألف فيها البرق الشامى والفتح القسى وغيرهما كما سبق - لغاية ولكل موفق إلى هداه هداية »^(٢) .

(ج) مصادر الكتاب :

لم ينص المؤلف على مصادر من المؤلفات السابقة ، وربما يكون قد ذكرها أو ذكر بعضها وأصابها الحذف على يد المنتخب ، ولكن يمكن العثور على بعض المصادر الأخرى فى الكتاب ، ففوق اعتماده على كتاب أنوشروان المترجم ، نجد لديه مثلا :

أولاً : المصادر السماعية :

ويلاحظ أن مصادرنا هنا شخصيات مهمة مطلعة بحكم صلاته ومكانة أسرته وبخاصة والده وعمه ، يقول مثلاً : « سمعت من والدى - رضى الله عنه - »^(٣) ، « قال والدى ... »^(٤) ، « وحكى نجم الدين رشيد الخادم

(١) د. شاکر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، ٢ : ٢٤٦ .

(٢) تاريخ آل سلجوق : ص ٢٧٨ .

(٣) السابق ١٢٣ .

(٤) نفسه ١٢٤ .

الغياثي أنه ... (١) ، « وحكى زين الدين المظفر ابن سيدي الزنجاني ... » (٢) ،
« سمعت والدي صفى الدين يشكره ويشني عليه ويقول ... » (٣) ، وعن وزير أحد
سلاطين السلاجقة يقول : « وحكى عن وزيره ولي الدين المخلص محمد الميايحي
أنه قال ... » (٤) ، « حدثني المشرف بن حكيم قال ... » (٥) ، « حكى عن ظهير
الدين عبد العزيز خازنه - يقصد خازن السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي - أنه
قال ... » (٦) .

ثانياً : المعاصرة والاطلاع الشخصى :

ولمعاصرة المؤلف للأحداث ومشاركته فيها دور كبير فى روايات الكتاب ، يقول
مثلاً عن أحد الشخصيات البارزة فى عصره ، « وهو إلى اليوم من سنة ٥٧٩ هـ -
حسن السيرة صافى السريرة ، خشن العيشة ، قال للمعيشة ، يلبس السمل البالى
ويألف المنزل الخالى ويأمر بالمعروف ويأخذ بيد الملهوف ، ينظر إلى الدنيا بعين
العيافة ، مقبل على الآخرة والتقوى قد ألبسته شعار المخافة » (٧) ، ويقول عن حادث
مقتل الخليفة العباسى « الراشد بالله » سنة ٥٣٢ هـ : « وأنا اذكر فى صغرى هذا
الحادث الكبير وحديثه وتأثيره فى القلوب وتأثيره .. » (٨) ، « ورحل داود - أحد
سلاطين السلاجقة - آخذاً طريق الرى وسار معه والدى واستصحبنى وأخى أبا
بكر » (٩) ، « وأنا أذكر وقد وصل قراسنقر - أحد أمراء السلاجقة - ووزيره عز الملك
أبو العز البروجرودى ، وكان من الشياطين الذين استبعمهم فى عصره الدر كزىنى -

(١) تاريخ آل سلجوق ١٤٤ .

(٢) السابق ١٤٥ .

(٣) نفسه ١٥٩ .

(٤) نفسه ١٦١ .

(٥) نفسه ١٨١ .

(٦) نفسه ٢٤٨ .

(٧) نفسه ، ١٢٨ .

(٨) نفسه ١٦٨ .

(٩) نفسه ١٦٨ ، والرى بفتح الراء وتشديد الباء مدينة كبيرة مشهورة ببلاد الجبال بخراسان ، انظر :

مراصد الاطلاع ١ : ٤٩٩ .

من وزراء السلاجقة - فقبض بقايا أملاكنا التي أسارتها المصادرات ، وعمد إلى شمل جماعتنا ليسرع فيه الشتات ،^(١) ، « وكنت أنا في ذلك العهد ببغداد متفقها ، واتفق حضوري بالموصل في ذي القعدة سنة ٥٤٢ هـ ، فحضرت عند جمال الدين - يقصد جمال الدين محمد بن علي وزير سيف الدين غازي بن زنكي بالموصل - بالجامع في جمعيتين ، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين^(٢) ، « ولما قدموا - يقصد السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه وبعض أمرائه - بغداد في خريف هذه السنة - ٥٤١ هـ - خرجت مع الفقهاء لتلقيهم والناس مشتتلون - ربما ، مشتملون - علي تخوفهم منهم وتوقيهم^(٣) ، « وفي هذه السنة - ٥٤١ هـ - قدم الأمير العالم قطب الدين أبو منصور المظفر بن أردشير العبادي الواعظ ، فأعجز بالفصاحة وأعجب ، وشرق بأنوار البلاغة وغرب ، وأنا أذكر وقد حضرت مجلسه ، وقد وضع له منبر على شاطئ دجلة والسلطان مظل عليه من أعلى مكان ...^(٤) ، « وكنت حينئذ ببغداد ، فوصل الخبر بأن سليمان - السلطان السلجوقي سليمان بن محمد بن ملكشاه - قد دنا ودان ، فقابلوا بوفور القبول وفوده وأكرموا وروده^(٥) ، « وكنت في ذلك العهد - سنة ٥٤٩ هـ بهمدان ، وقد عدت من الحج صحبة جمال الدين محمود ابن عبد اللطيف الخجندی . فشاهدت السلطان قد أس بأخيه وسر به ، وامتزج به في مطعمه ومشربه ، ولاطفه بعطفه وعطف عليه بلطفه ، ثم أمر باعتقاله ووكل به الأمير عز الدين متماز ابن قايماز الحرامي يرصده ليلا ونهارا ويرعاه سرا وجهارا ، ومازال الأمر على ذلك حتى فارقتنا المسكر ، فما أدري أين أقبل به القضاء بعد ما أدبر ، ومن حين نقل ما سمع له خبر ، ولا رثي له أثر^(٦) ، ويقصد هنا السلطان

(١) تاريخ آل سلجوق ١٧٠ .

(٢) السابق ١٩٤ .

(٣) نفسه ١٩٧ .

(٤) نفسه ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٥) نفسه ٢٢٢ .

(٦) نفسه ٢٢٤ .

محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه وأخاه الملك جفرى شاه . ، وفي هذه السنة توفيت حليلة السلطان محمد بن محمود بنت السلطان مسعود ، فجلس للعزاء وامترى در البكاء وكنت حاضراً في زمرة العلماء ، ووصل إلى خدمته أتاك إيلد كز في عساكر آذربيجان والأمير^(١) ، واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسطة ، فنقلني من المدرسة إلى العمل ، وعطلني عن الاشتغال بالعلم ، وظن أنه حلاني بشغله من العطل^(٢) ، ووصل إلى واسط - يقصد الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) - ، في أواخر صفر سنة ٥٥٤ هـ ، وأنا نائب الوزير بن هبيرة بها ، وخرجت في أصحابي للتلقى ، وكنت من زحمة اللقاء في غاية التوقى^(٣) ، وحضرت بميدان واسط ، والمقتفي - رضى الله عنه - حاضر ومعه أولاده ...^(٤) .

ثالثاً: الوثائق : يعرف عن العماد لكونه من أرباب الدواوين ورجالات الحكم أنه يستعين كثيراً بالوثائق في مؤلفاته لتيسر ذلك له ، ومستناول هذه الدراسة ثلاثة مؤلفات للعماد هذا أولها . ثم سنا البرق ، والفتح القسى - فيما بعد - والثالث هو الذي وردت فيه نصوص الوثائق بكثافة ، ومعظمها من إنشائه هو ، أما الأولان فلا يشتملان على كثير من الوثائق ، فربما قلت في تاريخ آل سلجوق لأن العماد لم يكن من رجال السلطة المقدمين في دولة السلاجقة . أما البرق فقد كتبه كالفتح عن فترة كان من صفوة المقدمين فيها ، فيترجح الاحتمال الثاني وهو أن العماد جرى في كل كتبه أو معظمها على عادته من الاكثار من الوثائق ولكن أصابها أو أصاب معظمها الحذف على يد المنتخب ، أما ما وصلنا بنصه دون اختصار كالفتح فقد برزت فيه الوثائق بشكل واضح كما سنرى في دراسته .

ويرد في الكتاب أحيانا الحديث عن بعض الوثائق دون ذكر نصها ، كقوله عند تقليد الخليفة العباسي « القائم بأمر الله ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ » للسلطان السلجوقي

(١) تاريخ آل سلجوق ٢٢٥ .

(٢) السابق ٢٣٥ .

(٣) نفسه ٢٦٤ .

(٤) نفسه ٢٦٥ .

طغرليك (٤٣٢ - ٤٥٥ هـ) بالسلطنة : « فخطبه بملك المشرق والمغرب ، وأحضر عهده وقال ، هذا عهدنا يقرأ عليك ، محمد بن منصور بن محمد ، صاحبنا ووديعتنا عندك ، فاحفظه واحرسه ، فإنه الثقة المأمون ، وانهض في دعة الله محفوظاً ، وبعين الكلائة ملحوظاً »^(١) ، ويمضى المؤلف في حديثه دون ذكر نص العهد ، وكفوله عن الوزير « ابن جهير » وزير الخليفة العباسي « القائم بالله » بمناسبة تقليده الوزارة : « وخرج إليه توقيع إنشاء من ابن الموصلايا ، وتسنت له المراتب والسنايا »^(٢) ، وقوله عن آخر : « وقرئ له توقيع من إنشاء ابن الموصلايا »^(٣) . ولكننا لا نعدم وجود نص أو مضمون بعض هذه الوثائق في الكتاب كرسالة بعض الأمراء لأحد السلاطين السلاجقة بخصوص وزيره^(٤) . ومراسلة بين أميرين من أمراء السلاجقة اسمهما : بوزابة ، وجاولي^(٥) .

رابعاً : الآثار :

ويعتمد المؤلف في كتابه أيضاً على ملاحظة ومشاهدة بقايا الآثار ومخلفات الماضي ، يبدو ذلك من قوله : « وتقدم طغرليك ببناء مدينة على دجلة ، وهي التي جامعها اليوم باق »^(٦) ، ويقول عن السلطان السلجوقي « ملكشاه بن ألب أرسلان » (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) : « وبنى هنالك منارة ، ترك في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحمر الوحشية التي اصطادها في طريقه ، والمنارة باقية الآن تعرف بمنارة القرون »^(٧) .

(د) منهج الكتاب : أولاً : السمات العامة :

تلاحظ دقة المؤلف المنهجية في التزامه التورخ لآل سلجوق وما يتصل بهم

(١) تاريخ آل سلجوق ، ١٧ .

(٢) السابق ١٧ .

(٣) نفسه ٣٧ .

(٤) نفسه ١٧٣ .

(٥) نفسه ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٦) تاريخ آل سلجوق ، ١٣ .

(٧) السابق ٧٠ ، ٧١ .

فقط كما ينص العنوان ، حتى أنه نادراً ما يتعرض لأخبار غيرهم وبشكل موجز ، وإن كان قد ركز على سلاجقة العراق وخراسان حيث مركز السلاجقة الرئيسي ، في حين أهمل تقريباً شأن سلاجقة كرمان وسلاجقة الروم ، وسلاجقة الشام ، فلم يتفق مضمون الكتاب مع عنوانه بصورة كاملة ، ونظراً لاقتصاره على تواريخ السلاجقة فقط ، نراه يجمل أحياناً عدة أحداث مهمة خارج النطاق السلجوقي في سطور قليلة كقوله مثلاً : « وفي هذه السنة - ٥٤٨هـ استولى الفرنج على عسقلان ، وفي هذه السنة قتل العادل بن السلار سلطان مصر - يقصد وزيرها وصاحب النفوذ فيها ، حيث كان وزيراً للفاطميين - قتله ابن امرأته ، وفي هذه السنة توفي ابن منير الشاعر بحلب ، في جمادى الآخرة ، وتوفي ابن القيسراني الشاعر بدمشق في الحادي والعشرين من شعبان ، وتوفي أبو الفتوح بن الصلاح الفيلسوف البغدادي بدمشق ، في الخامس والعشرين منه ، وفي سنة ٥٤٩هـ ، وتوفي تمرناش صاحب ماردين في أول المحرم ، وفتح نور الدين محمود بن زنكي دمشق يوم الأحد ثالث صفر سنة ٥٤٩هـ ، وقتل الظافر متولى مصر ليلة الخميس لانسلاخ صفر^(١) .

كما يركز الكتاب على أخبار الوزراء ودورهم تمشياً مع عنوانه الأصلي . ولا يخلو الكتاب رغم اهتماماته السياسية والعسكرية التفصيلية من لفتات عن الأوضاع الحضارية والاجتماعية ، فعند حديثه مثلاً عن الوزير نظام الملك (قتل ٤٨٥هـ) وزير السلطان السلجوقي « ألب أرسلان » وابنه « ملكشاه » من بعده يفصل القول في اهتماماته العلمية وأعماله الخيرية من بناء للمدارس واهتمام بالعلماء ووقف الأوقاف على دور العلم وإنشاء المكتبات ، وذلك في مواضع متفرقة من الكتاب^(٢) . والدارس للجانب السياسي والإداري في دولة السلاجقة يستطيع أن يجد كثيراً من بغيته وتفصيلاً لمادته في الكتاب ، حيث اهتم المؤلف عند الحديث

(١) تاريخ آل سلجوق ص ٢٢٥ ، و١ ماردين ، بكر الرء والذال قلعة مشهورة على قنة جبل

بالجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين . مرصد الاطلاع ٣ : ٢٩ .

(٢) انظر : تاريخ آل سلجوق ، ص ٥٩ - ٦١ .

عن كل وزير بذكر المناصب المصاحبة له ومن يتولاها كدواوين الإنشاء والاستيفاء (المالية) والجيش وغيرها ، يقول مثلاً : « وتولى الوزارة كمال الدين وكانت وزارته في سنة ٥٣٣هـ ، ببغداد ، وفي ديوان الاستيفاء كمال الدين ثابت ، وفي منصب الإشراف المهذب بن أبي البدر الأصفهاني ، وفي كتابه الإنشاء ولي الدين المعروف بسياه كاسه ، وفي منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الأصفهاني ،^(١) .

ويتميز حديث العماد - باعتباره معاصراً للأحداث أو قريب عهد بها - بالتفصيل والإسهاب عند الكلام عن المناسبات كاستقبالات الخلفاء والسلاطين وحفلات الزواج وغيرها ورسومها وطقوسها ، يقول مثلاً عن مناسبة استقبال الخليفة العباسي للسلطان طغرلبيك : « ولما قرب طغرلبيك من المقر الأشرف والمرقى المسجف ، ورفعت ستارة البهو ، وأثار وجه الخليفة ، كالقمر في سدة السدة الشريفة ، أدى الغرض وقبل الأرض ، ثم مثل قائماً للقائم ، ووقف لترقب ما يقف عليه من المراسم ، وصعد ريس الرؤساء إلى سرير لطيف ، فقال له الخليفة : أصعد ركن الدولة إليك ، ومعه محمد بن المنصور الكندري مفسراً و مترجماً ومعرباً عنه ما كان معجماً ، ثم وضع لطرلبيك كرسي جلس عليه . وفسر عميد الملك له تفويض الخليفة إليه . ثم قام طغرلبيك إلى مقام الرفعة ، ومكان الخلعة ، واحتبى بعز الاحتباء ، واجتنب خلع الاجتباء وتوج وطوق وسور ، وأبيضت عليه سبع خلع سود في زيق واحد ، واتخذت له مملكة الأقاليم السبعة ، وشرف بعمامة مسكية مذهبة ، فجمع له بين تاجي العرب والعجم وسما بهما وتسمى بالمتوج والمعجم ، وقلد سيفاً محلي بالذهب ، فخرج في أحلى وأهيب الأهب ، وعاد وجلس على الكرسي ، ورام تقبيل الأرض ولم يتمكن لموضع التاج الخسروي . وسأل مصافحة الخليفة فأعطاه يده دفعتين . فقبلها ووضعها على العين ، وقلده سيفاً آخر كان بين يديه ، فتم له بتقليد السيوفين تقلد ولاية الدولتين ، فخاطبه بملك المشرق والمغرب ، وأحضر عهده ، وقال^(٢) ، وعن زواج ابنة القائم العباسي من

(١) تاريخ آل سلجوق ، ١٧٢ .

(٢) تاريخ آل سلجوق ، ١٦ ، ١٧ .

« طغرل بك يقول : « وعقد العقد في ظاهر تبريز بالمخيم ، وكان رئيس العراقيين بالمعسكر فأعيد إلى بغداد في صحبة ابن الملقبان ، وسيرت على يده الهدايا ، وأصبحه يرسم الخليفة ثلاثين غلاماً وجارية أتراكاً ، على ثلاثين فرساً وخادمين ، وفرساً بمركب ذهب وسرج مرصع بالجواهر الثمينة ، وعشرة آلاف دينار ، ويرسم السيدة عشرة آلاف دينار ، وتوقيعاً ببعقوبا وما كان لخاتون المتوفاة - يقصد زوجة طغرل بك السابقة بالعراق ، وعقداً فيه ثلاثون حبة ، كل لؤلؤة مثقال ، ويرسم عدة الدين خمسة آلاف دينار ، ويرسم السيدة والدة المخطوبة ثلاثة آلاف دينار ، وذلك في شوال من السنة ، فلما قرب رئيس العراقيين من بغداد ، تلقاه الناس واستبشروا بانتظام الألفة بين الإمامة والسلطنة ، فلما وصل إلى باب النوبى نزل وقبل الأرض ، ثم وصل إلى باب أرسلان خاتون زوجة الخليفة وأدى من خدمتها الفرض ، وأوصل إليها ما حمله فتولت تسليمه ، وبشرت عرضه بالمقام النبوي وتقديمه»^(١).

وفي الكتاب إشارات قليلة للظواهر والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية ، يقول مثلاً : « وفي سنة ٤٥١ احتُرقت ببغداد دار الكتب التي وقفها الوزير شابور بن أردشين - لعلها : أردشير - بين السورين »^(٢) ، « وفي النصف من شعبان هذه السنة - سنة ٤٦١ هـ - احترق جامع دمشق ففجع الإسلام بمصابه ، وصلت النيران في محرابه . واشتعل رأس القبة شيئاً بما شبت ، وأكلت أم الليالى منها ما ربت ، وطار النسربجناح الغرام ، وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام »^(٣) ، « وفي جمادى الأولى من هذه السنة - سنة ٥٤٨ هـ - كانت زلزلة بأرض فلسطين أهلكت الديار وأتلفتها ، وخربت مبانيها ونسفتها »^(٤) ، وفي هذه السنة - سنة

(١) تاريخ آل سلجوق ٢٣ ، ونبريز : « بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وياء ساكنه وزاي ، أشهر مدن آذربيجان مدينة عامرة حسنة ذات أسوار وأهلها أبسر أهل البلاد وأكثرهم مالاً وهي مشهورة »
مراصد الإطلاع ١ : ١٩٧ ، بعقوبا : « بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون اللول والباء موحدة ، ويقال لها باعقوبا أيضاً مدينة هي قصة طريق خراسان بينها وبين بغداد عشرة فراسخ كثيرة البساتين »
مراصد الإطلاع ١ : ١٦٢ .

(٢) تاريخ آل سلجوق ، ٢٠ .

(٣) السابق ٣٧ ،

(٤) نفسه ٣٥ .

٤٦٦ هـ - غرقت بغداد ، ولم يسلم سوى دار الخليفة ، وما في جوار سديتها الشريفة ، وغرق مشهد باب التبن وأنهدم سورته ، وخرّب معمره ^(١) .

وفي مرات قليلة يشير المؤلف في حديثه عن العلماء إلى مؤلفاتهم ، كقوله : « في آخر سنة ٤٦٣ توفي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المحدث الخطيب ، مؤلف تاريخ بغداد ^(٢) ، وجعل التدريس للشيخ الإمام أبي نصر الصباغ صاحب الشامل ^(٣) ، وصنف له عمر بن سهلان كتاب البصائر النصرية ^(٤) .

ويقل الحديث عن الوفيات في الكتاب ويأتي موجزاً غالباً ، يقول مثلاً : « وفي هذه السنة - ٤٤٧ هـ - مات أبو العلاء المعري ^(٥) ، وفي آخر هذه السنة - ٤٦٦ هـ - توفي زعيم الملك أبو الحسن بن عبد الرحيم في الحلة الزيدية ، وكان مرشحاً للمناصب السامية السنية ^(٦) ، وهو يشير في حديثه عن المتوفى إلى مذهبه الفقهي أحياناً ، كقوله : « وتوفي في شهر ربيع الأولى من سنة ٤٧٠ ، وكان فاضلاً على مذهب الشافعي ذكياً زكياً ^(٧) ، ووفياته ممتزجة بالأحداث غير منفصلة جانباً .

والمؤلف كثير الحديث عن نفسه وعن أفراد أسرته وما قاموا به من رحلات وما تولوه من مناصب وما أصابهم من نواصب ، يقول مثلاً : « وكان جدي لأمي أمين الدين علي المستوفى - رحمه الله - كاتباً له - يقصد لأحد رجال السلطة - ^(٨) ، وأكثر ما يتحدث عن عمه العزيز ومكانته ، « وكان عمي العزيز في ذلك الوقت ، ينوب في الوزارة والاستيفاء ^(٩) ، فقبض علي والدي صفي الدين

(١) تاريخ آل سلجوق ٥١ .

(٢) السابق ٤٥ .

(٣) نفه ٧٥ .

(٤) نفه ٢٤٦ .

(٥) نفه ١٥ ، ويجعلها الكامل في ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ ، انظر ١١ : ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

(٦) نفه ٥٢ .

(٧) نفه ، ٥٤ .

(٨) السابق ٣٤ .

(٩) نفه ١٢٣ .

وعلى عمى ضياء الدين^(١) ، « وسار معه والدى واستصحبني وأخي أبا بكر^(٢) ،
وقد يذكر شيوخه : « وأنشدني بأصفهان شيخنا جمال الدين عبد الرحيم بن
الأخوة الشيباني البغدادي من مدائحه^(٣) ، وترد لدى المؤلف نفس عبارات زملائه
المؤرخين التي تحمل روح العداوة للروم والصليبيين باعتبارهم أعداء : « وفي سنة
٤٦٢ هـ أقبل كلب الروم - يقصد إمبراطور الروم - في جموعه^(٤) ، « وكتب
الروم نازل بين خلاط ومناز كرد^(٥) .

وهو يبدع في تصوير أثر الإسماعيلية (الباطنية)^(٦) ، وما أثارته من قلق
اجتماعي وأمني بسبب ما كانت تقوم به من اغتيالات للحكام والزعماء والعلماء
المخالفين لها الداعين لمناهضتها ، فيقول : « فصار الناس فيهم فريقين ، فمنهم من
جاهرهم بالعداوة والمقارعة ، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة . فمن
عاداهم خاف من فتكهم ، ومن سالمهم ، نسب إلى شركهم في شركهم . وكان
الناس منهم على خطر عظيم من الجبهتين . فأول ما بدأ بقتل نظام الملك ، ثم
اتسع الخرق وتفاقم الفتق ، ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف ، وتطرقت إلى
جميع أصناف الناس التهم ، ودب إلى البرى السقم وتوفرت على التوقي الهمم ،
وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً ، لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى
الإلحاد وفساد الاعتقاد كما جرى على ملك كرمان ، فإن الرعية اتهموه بالميل إلى

(١) تاريخ آل سلجوق ١٤٣ .

(٢) نفسه ١٦٨ .

(٣) نفسه ٢٤٦ .

(٤) نفسه ٣٧ .

(٥) نفسه ٤١ ، وخلاط بكسر أوله بلدة عامرة مشهورة بأرمينية الوسطى . المراصد ١ : ٣٦٠
ومناز كرد أو مناز جرد بكسر الكاف أو الجيم بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم من أرمينية
وأهله أرمن وروم ، المراصد ١ : ١٥١ ، وفيها كانت الموقعة المشهورة بين السلاجقة تحت إمرة
السلطان ألب أرسلان والروم بقيادة الإمبراطور رومانوس سنة ٤٦٣ هـ وانتصر فيها المسلمون
انتصاراً ساحقاً يقال إنه هو الذي حرك الغرب للقيام بالحملات الصليبية نحو الشرق بعد استنجاد
الروم بهم .

(٦) سبق التعريف بهذه الطائفة في التمهيد .

القوم ، فبطشوا به وقتلوه ، وأقاموا ملكاً آخر مقامه ، وسيأتى ذكر بعض الأحوال فى أيام السلاطين الذين ولو . وما كان سلطان يلى يثق بخواصه ، وسعى ذور الأغراض فى ذوى اختصاصه ، ولما عرفوا جد السلطان فى إيادة للقوم ، سعى بعض الناس بيعص . وأحب وصمه بالإلحاد السابق عداوة وبغض . ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف ، ولم يجد محيداً عن التزام الحيف ، ويبقى فى هذه الاصطكاكات والاصطدامات خلق كثير وجم غفير ، ولم يبق للأكابر فى دفع ماعرا رأى ولا تدبير ،^(١) .

ويحاول المؤلف أحياناً تلمس أسباب كامنة وراء الأحداث والحركات الكبرى ، يقول مثلاً عن فرقة الباطنية ، وتنامى نفوذها وعظم خطرهما : « فنابت النوائب وظهرت المعائب ، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا وكالوا بصاعنا ، وكانوا معنا فى المكتب وأخذوا خطأ وافرأ من الفقه والأدب وكان منهم رجل من أهل الرى ، وساح فى العالم وكانت صناعته الكتابة ، فخفى أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى فى مدة قرية على حصون وقلاع منيعة ، وبدأ من القتل والفتك بأمر شنيعة وخفيت عن الناس أحوالهم ، ودامت حتى استتبت على استار ، بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار ، وكان الرسم فى أيام الديلم - يقصد البويهيين - ومن قبلهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر وبريد فلم يخف عندهم أخبار الأذاني والأقاصى ، وحال الطائع والعاصى ، حتى ولى فى الدولة السلجوقية ألب أرسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك فى هذا الأمر فأجابته ، إنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ، فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء ، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر ، وكان له غرض ، أخرج الصديق فى صورة العدو ، والعدو فى صورة الصديق ، فأسقط السلطان هذا الرسم لأجل ما وقع له من الوهم ، فلم يشعر إلا بظهور القوم ، وقد استحكمت قواعدهم ، واستوثقت معادهم ، وأخافوا السبيل وأجالوا على الأكابر الأجل . وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة . ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة .^(٢) .

(١) تاريخ آل سلجوق ، ٦٩ .

(٢) تاريخ آل سلجوق ، ٦٨ .

ويتوقف المؤلف أحياناً متأملاً مستخلصاً العظة والعبرة من ماجريات الأحداث ، يقول مثلاً في مقتل أحد الأمراء : « ومما يعتبر به المستبصر ويستبصر به المعتبر ، أن خاصبك خلف أموالاً لا تأكلها النيران ، ولا يحويها الحسبان . ومن جملة ما وجد له ، ألف ثوب وسبعمائة ثوب أطلس عتابي ، فكيف غيره من الألوان ، وطلب له كفن في ذلك اليوم فلم يوجد ، وبقي على حاله ولم يلحد . وما ألقى عليه رداء ولم يذل له فداء ، حتى جبي له من سوق العسكر الكفن والقطن ، وتهدياً لمن تولى أمره حسبة لله الفسل والدفن ، فيا بعداً للدنيا ما أكدر صفاءها ، وأغدر وفاءها ، تخيف من أمنها ، وتزعج من سكنها ، وتقتل من أحيائها ، ولا ترعى من رعاها»^(١). ويقول بمناسبة مقتل السلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠ هـ : « وختمت الدولة السلجوقية بطغرل ، وكان افتتاحها بطغرل . وكانت مدة ملكها ، منذ وصل طغرل بك إلى بغداد إلى هذه السنة الغاية ١٤٠ سنة ، وكأنها أشبهت سنة . فسبحان الذي ملكه لا يزول وحكمه لا يحول»^(٢).

ويشيع في الكتاب التحديد الزمني والمكاني للأحداث - وإن افتقد أيضاً في عديد من الرويات - ، يقول مثلاً : « وفي هذه السنة - ٤٤٨ هـ - كانت ولادة المقتدى سحره الأربعاء ، ثامن جمادى الأولى»^(٣) ، « وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥ توفي طغرل بك بالرى»^(٤) ، « ولما وصل خبر وفاته - يقصد طغرل بك - إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء به في صحن الإسلام في السادس والعشرين من شهر رمضان»^(٥) ، « وكانت وفاته - أي القائم بأمر الله - ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ هـ»^(٦) ، « وكانت وفاته بهمدان ودفنه بها في مدرسة بناها لبعض خدمه»^(٧) . « ودفن الراشد في مدينة

(١) تاريخ آل سلجوق ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) السابق ٢٧٦ .

(٣) نفسه ، ١٤٠ .

(٤) نفسه ٢٧ .

(٥) نفسه ٢٩ .

(٦) نفسه ٥٣ .

(٧) نفسه ١٦٠ .

جى ، وأفردت له تربة فى جامعها ، وصار إلى اليوم موضع قبره من أشرف مواضعها^(١) ، وانظر كذلك حديثه التفصيلى عن معركة منا زكرد سنة ٤٦٣ هـ بين السلاجقة والبيزنطيين^(٢) .

ثانياً : النقد التاريخى :

١ - نقد الروايات : يتعرض المؤلف أحياناً بالنقد والترجيح لبعض الروايات ، يقول مثلاً : « وقيل : إن الليلة التى توفى فيها جاولى الجاندار ، قتل زكى بن أقسنقر بالشام ، وكان كلاهما قطباً يدور عليه فلك الإسلام ... والصحيح أن زكى بن أقسنقر قتل فى شهر ربيع الآخر من السنة - ٥٤١ هـ - على قلعة جعبر ، قبل موت جاولى بأيام »^(٣) .

٢ - نقد المصادر : بناء على قلة ذكره لمصادره وبخاصة المكتوبة فى الكتاب الذى بين أيدينا ، فإنه نادراً ما نلمس لديه نقداً لهذه المصادر ، نجد ذلك مثلاً فى إيراده إحدى الروايات وتعليقه عليها ناقداً لها ، كقوله : « قال أنوشروان : فشرع الوزير فى المصادر وسمى ديوانها ديوان المفردات ، قال عماد الدين : ولم يكن كما ذكر ولا على وفق ما أنكر ، وإنما »^(٤) .

٣ - نقد الأحكام : تتسع مساحة النقد فى الكتاب وتشتد أحياناً تجاه الأحكام ومنهم المعاصرون للمؤلف ، يقول مثلاً عن دخول طغرل بك السلجوقى إلى بغداد بجنوده سنة ٤٤٧ هـ : « وكان عند طغرل بك رسول الخليفة ، وهو أبو محمد هبة الله ابن محمد بن الحسن بن المأمون مقيماً يدعو إلى بغداد ولا يدعه يقيم ، ويروم منه صدق القصد ولا يريم ، وطال بالحضرة حضوره ، حتى تحرك عزمه ، فعزم على

(١) تاريخ آل سلجوق ١٦٨ .

(٢) السابق ٤٠ - ٤٤ .

(٣) نفسه ١٨٦ ، وكان العماد قد ذكر فى الصفحة نفسها أن وفاة جاولى كانت فى جمادى الأولى سنة ٥٤١ هـ ، ويؤيد نقد العماد للرواية المثبتة أعلاه ، ويتفق مع الرواية التى ارتضاها هو رواية ابن الأثير الذى يذكر أن مقتل زكى كان لخمس مضمين من ربيع الآخر ، انظر : الكامل ١٠ : ١١ .

(٤) نفسه ، ١٢٥ .

الحركة واندفع كالسيل ، وكسا العلق عجاج فيلقه صبغة الليل ، ولم يترك الترك
ورداً إلا شفوه ، ولا حسناً إلا شوهوه ولا ناراً إلا أرشوها ولا داراً إلا شعثوها ، ولا
عصمة إلا رفعوها ، ولا وصمة إلا وضعوها ، وأجفل الملوك من خوف أقدامهم ،
وتنحوا من طريق خدامهم ، فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوها مالكمها وملأوا
مسالكها ، وأرعبوا ساكنيها وأسكنوها الرعب ، وغلبوا ولا تهاوولوها الغلب ، وازوروا
إلى الزوراء ، وأشاعوا مد اليد بالغايرة الشعواء ^(١) .

وعن أحد سلاطين السلاجقة يقول : « فأما السلطان مسعود فإنه بعد حادثة
الخليفة بالمراغة - يقصد مقتل الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة ٥٢٩ هـ ، وكان
في حرب هذا السلطان ، فاغتاله الباطنية ونسب ذلك للسلاجقة - قبحت سمعته
فذكرته الألسن ، ونكرته الأعين ، فصار يفكر في شيء ينفي عنه الظنة ويستل به
من القلوب السخيمة المستكنة ، حتى سولت له نفسه قتل الأمير ديبس بن صدقة ،
وكان في القرب منه بمنزلة إنسان عينه الذي بواه الحدقة ، فرأى أنه إذا قتله نسب
الناس إليه قتل الخليفة ، وأن السلطان لذلك لم يبق عليه ، وكان الأمير ديبس
المزیدی حضر باركاه السلطان ، وهو جالس ينتظر الإذن ، فجاءه من ورائه وهو لا
يراه بختيار الوشاق ، وأبان بسيفه رأسه وأسال على البساط دمه المهرق . وكان بين
استشهاد الخليفة وقتل ديبس شهر واحد ، وكانت هذه النوبة أيضاً شنيعة والفضيحة
فظيعة وشفعت الكبيرة بالكبيرة ، واتبعت الجريرة بالجريرة . فتقرحت القلوب
وتحرقت ، وأسفت النفوس وأشفت . فلم يكثر السلطان بما كرت ، ولم يحدث
غماً لما حدث ، وطما عباب طماعيته ، ولفح شرر شرته وخنشيه الأكابر والأمائل ،
وغشيه الأصاغر والأراذل ، فرفع قوانين السلطنة وأبطلها ، ومحاسنا محاسنها
وعطلها ^(٢) . وفي نقد إجمالی تعليقا على قتل أحد السلاطين السلاجقة أخاه ،

(١) تاريخ آل سلجوق ١٠ ، ١١ ، وأرشوها أي أججوها وزادوها اشتعالا ، ففي « اللسان » : أرش
بينهم . حمل بعضهم على بعض وحرش ، والتأريش التحريش والإفساد ، وأرش بين القوم :
أفسد لسان العرب (أرش) ، وكذا الفيومي : المصباح المنير ، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة

١٩٢٦ م ، ط ٦

(٢) السابق ، ١٦٦ ، ١٦٧

يقول : « فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء ، وجلبت جبلتهم على الإغفال والإغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة والرحمة ممنوعة ، والعزة في خدمتهم بالذل مشفوعة ، والاعتزاز بهم غرر وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ويرمون وينكثون »^(١) ، ويقول عن أحد الوزراء ، وهم أكثر طائفة أصابها النقد المرير في الكتاب : « وكان يأنف الكلب من لؤمه ، والبوم من شؤمه ، ومعاييه لا تعد ومخازيه لا تحد وعن له أن يشتغل بعلم الأوائل ، فبلغ منه إلى حد التعطيل ، ووقف عند محار الدليل ، وقد صنف أبو طاهر الخاتوني فيه كتاباً سماه تنزير الوزير الزير الخنزير »^(٢) ، ويقول عن آخر : « وكان خالياً من أدنى فهم جاهلاً بكل علم »^(٣) ، وعن آخر : « لما وضع عليه اسم الوزارة تبدلت الفزارة بالنزارة ، وهو أول فلاح ترك العمل بالفدان ، فدان له عمل الترك وحل البقر عن الملك ، فحل في دست الملك ففتك وهتك واستباح الدماء وسفك وشرع النكرات وأنكر المشروعات وعادى الكرام وبدد النظام وظاهر الباطنة وأظهر السنة الجاهلية وشرع في الفتك بالأحرار واليهتك للأستار »^(٤) ، وفي نقد إجمالى لسوء اختيار الوزراء ورجال الدولة يقول : « وقد كثر تعجبي من السلطان ، يتأثق في تخير كلاب الصيد وفهوده ، وإنما يقتنى منها ما يراه موافقاً لمقصوده ، فيسأل عن فروعه وأصوله ، وانقطاعه ووصوله ، فما باله لا يتخير لديوانه ، ومراتب سلطانه من الكفاءة الأفاضل والصدور الأوائل من عرفه ذاك وعرفه كريم ومجده قديم وطريقه في الكفاية مستقيم ، لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار ، وأجدر بالاختبار ، فإنهم أمناؤه على مملكته ، ووكلاؤه على دولته ، وسفراؤه في خدمته »^(٥) .

وتبدو روح الإنصاف في نقد المؤلف لبعض الشخصيات بذكره ما لها وما عليها من محاسن وعيوب ، يقول عن أحد الوزراء : « فلا بس هذا الصدر الأمور بصدر واسع ورأى رائع وتدير لشمل السداد جامع ، فاستقلت الوزارة باجتهاده عن

(١) نفه ٢٢٤ .

(٢) نفه ٨٧ .

(٣) نفه ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) تاريخ آل سلجوق ، ١٣٥ .

(٥) السابق ٩٩ .

كبريتها وزالت نبوة نبوتها ، وبقي سنين وقد انتقم من خصومه بأخذ الثأر ، وشفا غل الأوتار ، وحاز مال مجد الملك وسعى في قتل زبيدة خاتون ، فلا جرم عاد مرتين بجرمه ، وعثرت قدمه في ظلمة ظلمه ^(١) ، ويقول عن أحد سلاطين السلاجقة : « وكان جامعاً للخلال التي تفتقر إليها السلطنة من الحزم والتحفظ والعزم والتيقظ ، إلا أنه كان مستبدًا بآرائه ، معجبًا بأهوائه . لا يستشير في أموره ، ولا يسترشد في تدبيره ، وكان مصطنعًا لأراذل صحبوه في أول عهده ، فصاروا مقدمي جنده والمختصومين برفده ، فكانت دناءتهم تغض من جليل قدره ، وتغضض على ذكره » ^(٢) ، ويقول عن عماد الدين زنكي مؤسس حكم الزنكيين في الشام والموصل : « كان جباراً عسوقاً بنكباء النكبات عسوقاً . نمرى الخلق ، أسدى الحق ، لا ينكر العنف ولا يعرف العرف . قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ إلى أن قتل في سنة ٥٤١ ، وهو موهوب لسطوه ، مجفو لجفوه ، عاد عات حتف عداة ورعاة ، لكنما ختم الله له في آخر عمره بالسعادة والشهادة ووقفه للجهاد الذي هو أفضل أركان العبادة ، وهو الذي فتح الرها عنوة واحتل بها من السعادة ذروة » ^(٣) ، ويلاحظ أنه لم يتعرض بالنقد لأى من خلفاء بنى العباس تقريباً لأنه وأسرته كانوا على صلة حسنة بهم دوماً ولحرصه على دوام ذلك ، ولأنه يعمل في ظل بنى أيوب الموالين لهم ربما .

بل إن المؤلف لا يبخل بالإشادة والتقريظ على كثيرين في كتابه لحسن فعالهم ، يقول عن الخليفة العباسي « المقتفى لأمر الله » (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) بمناسبة وفاته : « وانتقل إلى جوار الرب ، طاهر الذيل نقى الجيب ، أمين الغيب برياً من العيب » ^(٤) . وعن السلطان السلجوقي « محمد بن ملكشاه » (٤٩٨ - ٥١١ هـ) : « وقد كانت أيامه أيام للأيام ومراجع لليتامى ، ورسومه جائزة غير جائزة وأحكامه راضية غير ضائرة ، وحصاه رصيناً وحجاه رزيناً ودينه متيناً وشرع علمه في العمل بالشرع مبيناً ، وكان رجل السلجقية الكامل وفحلهم البازل . وله

(١) تاريخ آل سلجوق ٨ .

(٢) السابق ١٦٠ .

(٣) نفسه ، ١٨٧ .

(٤) نفسه ٢٦٦ .

الأثار الحميدة والآراء السديدة ولما حسنت سيرته وكملت دولته ، وأصحت سماؤه وطاب هوائه وصفها ماؤه . وآلت آآوه أن يغنى الفقير ويجبر الكسير ، ويفك قلاع الأسير ، ويكف العسير ، وينصر الإسلام ويكشف الإظلام . ويقلع الملحدين ويعلى أعلام الموحدين ، قبض القضاء يده ، وقصر أمله وأمدته ، وغيض بحره ، وغيب بدره :

بين الصفائح والسنا ريحانة .: قد كان لى من قربها مستمتع^(١)

وإذا تذكرت الذى فعل البلى .: بجمال وجهك جاء مالا يدفع ،

وعن ابنه السلطان محمود (٥١ - ٥٢٥هـ) يقول : « وكان السلطان محمود الخليفة مودود الطريقة . إن ترك وطبعه ، ولكنه بلى بأنواع من البلاء من أعوانه ونقصوا عليه مشروع سلطانه »^(٢) ، وعن أحد الوزراء يقول : « ولقد كان من أوسع الصدور صدراً ، وأرفعهم قدراً وأحسنهم تدبراً ، وأجملهم تأثيراً »^(٣) . وعن أحد أرباب المناصب زمن السلاجقة يقول : « وكان شهماً ناقداً وسهماً نافذاً ، فأنس السلطان بروائه ، وركن إلى رأيه ، واستغنى به عن وزرائه »^(٤) .

(هـ) الأسلوب : أدبى مزخرف بالصنعة اللفظية ، لكنه غير ثقيل عمومًا ، ويطنى فيه أحيانًا كثرة الاهتمام بالسجع والمحسنات على حساب الحقائق التاريخية ، مما يؤدي إلى غموض يصعب معه استخلاص هذه الحقائق ، واستنباط الوقائع والأحداث^(٥) ، ويعتمد أحيانًا على التضمين ، كأن يضمن كلامه نصًا دينيًا كآية أو حديث شريف نصًا أو معنى . كأن يقول : « ورعى له السلطان حق ما رعى ، وتلا : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »^(٦) .

(١) نفسه ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) تاريخ آل سلجوق ، ١٤٤ .

(٣) وقد علل أحد الباحثين لطريقة السجع لدى العماد بانتمائه للطريقة الأرستقراطية التي تميل إلى الزخرف . انظر : د . أحمد أمين مقدمة خريدة القصر وجريدة القصر للعماد قسم شعراء مصر نشر د . أحمد أمين وآخرين سنة ١٩٥١م ج١ ص ١ د ، وربما قبل بجانب ذلك أن هذا كان ضربًا من ضرور الكتابة فى ذلك الوقت . انظر : جب : علم التاريخ ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية .

(٤) تاريخ آل سلجوق ، ١٠٣ .

(٥) السابق ١٦٩ .

(٦) تاريخ آل سلجوق ٢٠٠ .

كما تكثر لديه الاستشهادات الشعرية المعبرة عن الوقائع ولكن في متقطعات صغيرة غالباً ، ولعل ذلك من فعل المختصر^(١) ، وشعره منسوب لأصحابه في الغالب ، بل إنه يستشهد بشعره^(٢) . وتكثر لديه الألفاظ الدخيلة خاصة في مجال الرسوم السلطانية والطقوس والمجال العسكري ، مثل : « جتر » فارسية بمعنى المظلة أو الشمسية ، « خركاه » فارسية أيضاً بمعنى الخيمة الكبيرة المنصوبة أو المخيم الواسع^(٣) .

(و) بين الكتاب والمصادر المعاصرة له : تقع بين الكتاب وبين المصادر الأخرى المعاصرة له أو القريبة منه ، بعض الاختلافات في رواية الأحداث ، فمثلاً بينما ينص العماد على أن « الكندري » هو أول وزراء السلاجقة في قوله : « ذكر دخول السلطان ركن الدين طغرلبيك أبي شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجق إلى بغداد في ٢٥ من رمضان سنة ٤٤٧ ومعه الوزير عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندري وهو أول وزراء السلجقية »^(٤) نجد ابن الأثير يقول : « وفيها - سنة ٤٣٦ هـ - استوزر السلطان طغرلبيك وزيره أبا القاسم علي بن عبد الله الجويني وهو أول وزير وزير له ، ثم وزير له بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي ابن ميكائيل ، ثم وزير له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الوهستاني ، وهو أول من لقب نظام الملك ، ثم وزير له بعده عميد الملك الكندري ، وهو أشهرهم ، وإنما اشتهر لأن طغرلبيك في أيامه عظمت دولته ووصل إلى العراق وخطب له بالسلطنة وسيرد في أخباره ما فيه كفاية فلا حاجة إلى ذكرها هاهنا^(٥) . ولعل العماد يقصد أنه أول من اشتهر منهم . وإلا فالراجح أن طغرلبيك قد استوزر قبل الكندي ، لأنه ساد مدة طويلة قبل أن يجيء إلى بغداد ويتسلطن .

(١) السابق ، انظر مثلاً : ١٧ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ .

(٢) نفسه ، انظر مثلاً : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٦٤ .

(٣) نفسه ١٢٥ ، ١٤٣ ، ٢٠١ ، وانظر كذلك : د. عبد النعيم حسنين ، قاموس الفارسية فارسي / عربي ، دار الكتاب المصري واللبناني ط ١ ، سنة ١٩٨٢م ص ١٩٣ ، ٢١٧ .

(٤) نفسه ١٢ .

(٥) الكامل ٩ : ٥٢٦ .

٢. التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية^(١)

(أ) المؤلف : ابن الأثير^(٢).

(ب) مضمون الكتاب : قدم المؤلف هذا الكتاب للملك « القاهر مسعود » صاحب الموصل (٦٠٧ - ٦١٥ هـ) مسطراً فيه تاريخ وأمجاد أسرته الأتابكية ، وقد بدأه - على عادته فى كتبه - بمقدمة ، ذكر فيها - بعد الحمد والثناء - سبب التأليف ، والمصادر التى رجع إليها فى كتابه ومحتواه فى إيجاز ، ثم بدأ فى سرد تاريخ الأسرة الزنكية بدءاً بقسيم الدولة أقسنقر (المقتول سنة ٤٨٧ هـ) ، والد « عماد الدين زنكى » رأس هذه الأسرة ، وانتهاء بتملك الملك القاهر ، وهو الذى أهدى إليه الكتاب ، وقد رتب حديثه على أساس موضوعى حسب عهود الحكام . وبعد حديث مسهب فى المقدمة عن رجالات الأسرة السابقين وأمجادهم وجهادهم وذبهم عن الإسلام والمسلمين ، يقول المؤلف مفصلاً عن دافعه لتأليف الكتاب : « ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنده أولاً وآخراً . ويقتدى بأفعالهم وارداً وصادراً وليتيقن أنه لم يكن لأحد من الملوك المتقدمين والخلفاء الراشدين منقبة دينية ودينية وتجربة فى حفظ الممالك والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفى بيته الشريف ، ثبت الله تعالى قواعده وشد من عزه معاقده ، ما يضاهاها ، وظهر عنهم ما يماثلها ويناوئها ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، لا بل والله من قاس غيرهم ، قاس الشمد إلى البحر والمخشب إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ،

(١) النسخة الخطية الوحيدة للباهر فى المكتبة الأهلية بباريس (رقم ٨١٨) من المجموعة العربية تحمل عنوان : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » ويذكر عبد القادر طليحات أن ذلك من وضع المكتبة المذكورة ، لأن النسخة لا تحمل فى الأصل عنواناً وقد طبعها المستشرق الفرنسى De Slane بالعنوان نفسه سنة ١٨٧٩م فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين ، غير أن طليحات حين حقق الكتاب وضع له عنوان : « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » اعتماداً على وروده بالنص فى الكامل حوادث سنة ٥٤١ هـ ، انظر فى ذلك : عبد القادر طليحات المؤرخ ابن الأثير ص ١٢٧ . وقد حقق طليحات الكتاب وطبعه وهو فى الأصل رسالته للماجستير وصدر عن دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٣م فى مجلد واحد .

(٢) سبق التعريف به .

والأرض الجزر بنضرة الروض المريع^(١).

وتاريخ الزنكيين معروض في كتاب «الكامل» ، ولكنه هنا أكثر تفصيلاً في الترجمات والجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وقد ألمح المؤلف لذلك في حديثه عن مناقب السلطان نور الدين محمود بن زنكى بمناسبة وفاته سنة ٥٦٩هـ ، فقد أورد بعضاً منها ثم قال : « وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم ، ولنذكرها هنا نبذة مختصرة ، لعل يقف عليها من له حكم فيقتدى به »^(٢) وهذا أمر طبيعي ، فالباهر كتاب مقصور على سيرة الأسرة الزنكية ، أما الكامل فعام شامل . وطول الترجمات في الباهر لرجال الأسرة أتاح للمؤلف - إلى جانب الاسهاب في التفاصيل السياسية في صفحات الكتاب - فرصة لتسجيل بعض جوانب التاريخ الحضارى لهذه الأسرة والبلاد التي حكمتها ، إلى حد ما ، والمقارنة بين الباهر والكامل في هذا الجانب تكشف ذلك ، فعلى سبيل المثال ، يتحدث عن وفاة صاحب الموصل « عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى » سنة ٥٨٩ في الكامل ، باختصار ، فيوجز بعض صفاته الشخصية من البر والكرم والحلم ، في حوالى صفحة . بينما نجد أن ترجمة الشخص نفسه في الباهر جاءت في عدة صفحات ، ورغم أنها ركزت على الإسهاب في ذكر الجوانب والصفات الشخصية - كما هي عادة الكتاب غالباً - إلا أننا نجد حديثاً عن بعض الجوانب الحضارية في عهد هذا الحاكم ، إذ يقول : « وهو الذى ابنتى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهى مدرسة حسنة ، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ما ليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والأعياد ، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالى المباركة شيئاً كثيراً ، وهو الذى فتح الباب الغربى في الموصل ، وهو بين باب كندة وباب العراق ، ولم يكن هناك باب فجاء حسناً

(١) الباهر ٢ ، ٣ متن ، والماء الشمد : القليل ، الوسيط ثمند ، الخشب : الزجاج المكسر أو الخزف المنكسر ، والأرض الجزر : التى أكل نباتها الوسيط جزر .

(٢) الكامل ١١ : ٤٠٣ .

وانتفع به أهل ذلك الصقع»^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في نهاية حديث «ابن الأثير» عن فتح قلعة «حارم» على يد نور الدين محمود بن زنكى «من الفرنج سنة ٥٥٩هـ، يرد نص أشك في نسبه لابن الأثير مع أنه داخل في سياق كلامه، إذ يقول: «... وهذه الجراكسة التي هي اليوم ملوك مصر والشام ومحامى الحرمين الشريفين، مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل أبى المعالى ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب أبو المثلوك الأيوبية»^(٢)، فابن الأثير لم يدرك دولة المماليك وهي التي يسميها النص السابق «الجراكسة»، وهو لقب عرفت به في التاريخ دولة المماليك الثانية في مصر والشام (٧٨٤ - ٩٢٣هـ) (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) إذ إن ابن الأثير توفى سنة ٦٣٠هـ، بينما قامت دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ، وفي الشام بعد إجلائها للمغول عنه سنة ٦٥٨هـ، فلا بد أن هذا النص زيادة متأخرة، ولعلها من ناسخ، خاصة وأن هذا الكلام يأتي في سياق اقتباس من ابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠هـ، ولكن الاقتباس جرى في «الباهر» على لسان ابن الأثير، فلعل الناسخ اقتبسه من ابن العديم، ولم يشر إلى أن ذلك من صنعه هو، فبدأ الكلام منسوباً لابن الأثير أو لعل ابن الأثير قد اقتبس من ابن العديم بالفعل - وقد عاصره فترة واقتبس منه في مواضع أخرى كما سنرى في مصادر الكتاب - ثم أضاف الناسخ هذا التعقيب عن دولة المماليك دون إشارة لذلك، خاصة وأن حدود الاقتباس من ابن العديم ليست واضحة النهاية^(٣). مع العلم مؤخراً أن «الباهر» قدم برمته إهداء للملك القاهر صاحب الموصل (٦٠٧ - ٦١٥هـ) - كما سبقت الإشارة - بل أكثر من ذلك، فقد وردت في الباهر عبارة تحدد تاريخ تأليف الكتاب تقريباً إذ يقول ابن الأثير: «بلغنى من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة - كل شهر تسعة ألف دينار صورية»^(٤).

(١) الباهر ١٨٩.

(٢) السابق ١٢٦.

(٣) انظر النص بكامله في الباهر ص ١٢٦.

(٤) الباهر ١٧٢.

أولاً : المصادر السماعية : يعتمد عليها المؤلف في كتابه بدرجة غالبية خصوصاً عن والده ، يقول في ذلك : « ونقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى ، فإنه كان راوية حسنتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتني كثير مما سمعته منه ، لأنني جمعت هذا القدر ، من حفظي بعد وفاته ولم أثبتته بقلمى في حياته ، ومع هذا فإنني تعمدت ترك الإكثار ، لميل الناس في زماننا إلى الاختصار »^(١).

وقد نقل المؤلف عن الده وحكى في كتابه حوالي ٢٦ مرة تقريباً ، وهو يروى عنه بألفاظ متعددة ، يقول مثلاً : « حكى لى والدي رحمه الله » أو « حدثني والدي ، رحمه الله » أو « فحدثني والدي ، رضى الله عنه » أو « قال والدي » أو « وقال » ويسكت وهو يقصد والده تقريباً . وكانت آخر مرة حكى عنه تقريباً في موضوع : « وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين مسعود ، ورضى الله عنه » وهو ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى »^(٢) . وعلة ذلك أن والده - كما ذكر - كان لصيقاً بهم ، ملازماً لخدمتهم مطلعاً على بواطن الأمور في دولتهم . ثم يحل محل الوالد الأخ الأكبر « مجد الدين أبو السعادات المبارك » وكان بدوره من رجالات الزنكيين الكبار ذوى الرأى والمشورة عندهم ، فيروى عنه المؤلف جملة صالحة من الأخبار ودقائق الأحوال ، يقول مثلاً : « حكى لى أخى مجد الدين رحمه الله تعالى »^(٣) ، « سمعت أخى مجد الدين رحمه الله غير مرة »^(٤) . ثم تنوع مصادر السماعية بعد ذلك ، وهو قد يذكر اسم المصدر أحياناً أو يغفله ، يقول مثلاً : « ولقد سمعت من يحكى »^(٥) ، « وحكى لى أيضاً غير واحد ممن أتق به »^(٦) ، « فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج »^(٧) « وسمعت من

(١) الباهر ٣ .

(٢) السابق ١٨٦ ، وانظر امثلة لرواية عن والده ص ١٠ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٧٤ ، ١١٣ .

(٣) نفه ١٩٩ .

(٤) نفه ٢٠١ .

(٥) نفه ٤٢ .

(٦) نفه ٧٠ .

(٧) نفه ١٢٢ .

متولى ديوان صدقاته ،^(١) « وحكى لى بعض الصوفية »^(٢) ، « هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال »^(٣) ، « بلغنى أنه »^(٤) « حكى لى طبيب دمشقى يعرف بالرحبى »^(٥) .

ثانياً : المعاصرة والاطلاع الشخصى : عاصر المؤلف فترة طويلة من المدة التى أرخ فيها للزنكيين بالموصل ، وقد ظهر أثر المعاصرة فى كتابه ، يقول مثلاً عن « جمال الدين محمد » أحد وزراءهم بمناسبة وفاته سنة ٥٥٩ هـ : « ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعاً ، أنه بنى سوراً على مدينة النبى ﷺ ، فإنها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضنك وضرر معهم . رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة . فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا فى ضرر وضيق ، ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يوارى عورته ، ولا ما يشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنيا فكيف لا ندعو له ، وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن على بن أبى منصور ، فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها »^(٦) ، ويقول عنه أيضاً : « ومن أبنيتة العجيبة التى لم ير الناس مثلها ، الجسر الذى بناه على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه ، وبنى أيضاً جسراً على نهر الأربار عند الجزيرة أيضاً »^(٧) . ويقول عن أحد ملوك الزنكيين بالموصل « نور الدين ت ٦٠٧ هـ : وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق مماليكه فى حياته ، فأنا اذكر ما رأيت ،

(١) الباهر ١٢٩ .

(٢) السابق ١٢٩ .

(٣) نفسه ١٥١ .

(٤) نفسه ١٥٢ .

(٥) نفسه ١٦١ .

(٦) نفسه ١٢٨ .

(٧) نفسه ١٢٩ ، والكلس : ما طلى به حائط أو باطن قصر . اللسان كلس .

فحين ذلك أن أخى مجد الدين رحمة الله عليه توفى سلخ ذى الحجة من سنة ست وستمائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين رضى الله عنه إلى ذلك اليوم عدة مرات يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتى أقول لك ، فإنتى أريد أصلى عليه ، وكان الزمان صيفاً ، وكان رضى الله عنه ، ذلك اليوم غير طيب النفس وهو موعوك البدن ، فلما كان العصر وقر الحر ، أرسل إلى يأمرنى بحمله إلى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنائزة بلغنى عنه أنه بكى كثيراً وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسببه شيئاً كثيراً ، وحملنا له ما جرت العادة وفيه سجادة للصلاة ، فردده وسألنى عن شىء كان بلاه بنفسه ، فأومأت إلى السجادة فمد يده وأخذها . حدث هذا جميعه وهو شديد الروعك ، ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضاً إلى أن توفى بعده بسبعة أشهر ، رضى الله عنه ،^(١) .

ثالثاً : المصادر المكتوبة :

١ - المصادر السابقة : اعتمد على بعضها ، وحددها أحياناً وتركها معممة أحياناً ، يقول : يذكر أهل التاريخ ،^(٢) ، « قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف »^(٣) ، « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ... »^(٤) ، « ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق .. »^(٥) ، « ومن عجائب الاتفاق ما حكاه كمال الدين بن العديم فى كتاب أخبار حلب ... »^(٦) ، « قال العماد محمد بن حامد الكاتب وقد ذكر نور الدين فى بعض مصنفاته ... »^(٧) .

٢ - الوثائق : قليلة للغاية فى الكتاب ، ولا ترد بنصها ، يقول أحد الباحثين فى ذلك : « وإذا اعتمد ابن الأثير على المؤرخين الآخرين وعلى المعاصرين له فى

(١) الباهر ٢٠١ .

(٢) السابق ٨ .

(٣) نفسه ٩٤ .

(٤) نفسه ١٦٣ .

(٥) نفسه ٨٩ .

(٦) نفسه ١٢٦ .

(٧) نفسه ١٧٤ .

التقاط أخبار الأتابكة ، فإن بعده عن الوظائف العامة وعدم اطلاعه على وثائق البلاط وديوان الرسائل حرمه وحرمانا معه من فرصة الالتقاء في الكتاب مع مجموعة من الوثائق المعاصرة ،^(١) ومثال الاعتماد على الوثائق قول المؤلف : « ثم إن السلطان محمود أقام بالسلطنة ، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر حرب انهزم فيها السلطان محمود وعاد إلى عمه بغير عهد ، فأكرمه وأقطعته من البلاد من حد خوارزم إلى الداروم بأقصى الشام ، وهي من الممالك : همذان وأصفهان وبلد الجبال جميعه ، وبلاد كرمان وفارس وخوزستان ، والعراق وأذربيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مضر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد أولاد قلع أرسلان ، وما بين هذه الممالك من البلاد ، ورأيت منشوره بذلك ،^(٢) .

(د) منهج الكتاب :

أولاً : السمات العامة :

يلتزم المؤلف بالتأريخ للأسرة الزنكية فقط تقريباً ، فلا يخرج عنه إلا نادراً - وإن ركز على أصحاب الموصل وأهمل أصحاب سنجار وجزيرة ابن عمر الزنكيين ، لحد كبير - كما سبق الذكر بالنسبة لتاريخ آل سلجوق للعماد وهذا ما يعبر عنه هو مقدمة الكتاب بقوله : « وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه ، لأنه أول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين زنكى قدس الله روحه ، ولم أذكر أحداً غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة خليفة واستخلاف آخر وموت سلطان سلجقى وولاية غيره ، إذ الضرورة تدعو إليه ،^(٣) .

ولكن « الباهر » لم يخل من الالتفات إلى جوانب الحياة الأخرى الاقتصادية والاجتماعية وظواهر البيئة الطبيعية وأحداثها التي لا تخلو أحياناً من طاقة وعجائب ، يقول مثلاً : « وفيها - سنة ٥١١هـ - غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها

(١) د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ٢ : ١١٤ .

(٢) الباهر ٢١ .

(٣) السابق ، ٣ .

خلق كثير ، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة ، وفيها أيضاً زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة ،^(١) وفي موضع آخر يتحدث بإسهاب تحت عنوان : « ذكر الغلاء والوباء »^(٢) ، وفي ثالث يتحدث عن زلازل جرت بالشام^(٣) .

ولم تطرد الوفيات في الباهر كما في الكامل ، وإن كان الأول لا ينتهج النظام الحولى ، ولكن المؤلف ترجم ترجمات طويلة للأمراء الأتابكة بمناسبة وفياتهم بعيداً عن الجانب السياسى فى حياتهم قدر الإمكان بما يصلح أن يعطى صورة ما لحياة المجتمع وبخاصة الجانب المدنى منها ، وخير مثال لذلك ترجمته الطويلة للسلطان نور الدين محمود بن زنكى^(٤) . كما ترجم ترجمات متفاوتة للخلفاء^(٥) ، وكذلك ترجم لبعض كبار رجال الزنكيين وغيرهم من الوزراء والقواد والأمراء مبرزاً آثارهم سلباً وإيجاباً^(٦) .

وعلى عكس كتاب « الكامل » ، يكثر ابن الأثير فى الباهر من الحديث عن أسرته وبخاصة أبوه وأخوه مجد الدين أبو السعادات بما يبرز ثراء مكانة هذه الأسرة لدى الزنكيين وما تولته لهم من أعمال مهمة ، يقول مثلاً : « حكى لى والدى قال : استدعانى جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه - أحد سلاطين السلاجقة - وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعود إلى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضى أشغالك ، فإننى أريد أن أجعلك نائبى بالعراق . قال : فرنى ذلك من وجه وساءنى من آخر ، إلا أننى لم أر من طاعته بدأ . قال : ثم استدعانى بعد ذلك . وقال لى : عد إلى بلدك ، فإن سليمان شاه لم ينتظم حاله فقارقتة

(١) الباهر ٢٠ .

(٢) السابق ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣) نفسه ١٤٥ .

(٤) نفسه ١٦٣ - ١٧٥ .

(٥) نفسه ١٣ ، ٥٠ مثلاً .

(٦) نفسه ٩ ، ١٠ ، ١٢٨ .

وعدت^(١). ويقول عن أحد الملوك الزنكيين بالموصل : « كان رضى الله عنه لين الجانب كريم الأخلاق ، كثير الإحسان إلى الناس ... ومن ذلك أيضاً ، أنه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل هو في المغرقة في الكشك الذى بالميدان ، ونزل الناس متفرقين ، وكان في جملة الواصلين معه ، أخى مجد الدين رحمهما الله تعالى ، وكان يتزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة أخرى بزاوية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضى الله عنه - وهو الملك مدار الحديث - فرأى الخيمة فاستدعى أخى وقال له : أرى خيمتك ها هنا ، قال : لأنك رسمت ألا يدخل أحد . قال : إلا أنت ، فإن والدك أثير الدين له مدة ما رآك ، ولا شك أنه قد اشتاقتك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتساله الدعاء ، ولا تجيء إلينا إلى ثلاثة أيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص له ذلك ، وألزمه بقصد والده والإقامة عنده . فانظر إلى هذا الفرق واللطف الذى لا يفعله الإنسان إلا مع أهله ، لا سيما الملوك^(٢) .

ويبدو في هذا الكتاب ميل ابن الأثير للزنكيين وحبه لهذه الأسرة - لا سيما والكتاب مقدم لأحد ملوكها - فيما يعقده من مقارنات كثيرة بين أفراد البيت الزنكى وأيامهم وبين الأيوبيين وعهودهم ، وبخاصة بين « نور الدين محمود » و« صلاح الدين الأيوبي » ، لإبراز تفوق الطرف الأول خصوصاً في الجانب الأخلاقي والعدل في الرعية . وربما كانت الأخبار الواردة في هذه المقارنات أو بعضها صحيحة ، ولكنها لم ترد تقريباً عند غير المؤلف من المعاصرين - فيما أعرف - ، يقول مثلاً : « ومن عدله - يقصد نور الدين محمود - أيضاً بعد موته ، وهو من أعجب ما يحكى عنه ، أن إنساناً كان بدمشق غريباً قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي ملكها صلاح الدين كان أجناده وأمرأؤه يفعلون ما يريدون ولا يمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصفه صلاح الدين فنزل من القلعة ، وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه ،

(١) الباهر ١١٥ .

(٢) السابق ١٨٧ ، وانظر أيضاً : ١١٨ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

وهو يقول : « يا نور الدين ، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه فطيب قلبه ، ووهبه شيئاً وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكى ؟ فقال أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين : وهذا هو الحق ، وكل ما يرى فينا من عدل فمنه تعلمناه »^(١) ، ويقول عنه أيضاً : « وكان مجلسه كما روى في صفة مجلس رسول الله - ﷺ - مجلس حلم وحياء ، لا تؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ولا يتعدى هذا ، بلغني أن الحافظ أبا القاسم بن عساكر الدمشقي رضى الله عنه ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق ، فرأى فيه من اللفظ ، وسوء أدب الجلوس فيه ما لا حد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم . فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر . فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فإنني رأيتك كبعض مجالس السوق ، لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنما على رؤوسنا الطير تعلقنا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه ، أنه لا يكون منهم ما جرت به عاداتهم إذا حضر الحافظ ، فهكذا كانت أحواله جميعاً ، رحمه الله ، مضبوطة محفوظة »^(٢) .

وفي سعة أفقه المعروفة كمؤرخ يربط ابن الأثير بين اتجاهات الحركة الصليبية مما يوحى بتوحد الدافع وإن تعددت الأمكنة والأزمنة ، يقول مثلاً عن أحد أمراء

(١) الباهر ، ١٦٧ .

(٢) السابق ١٧٣ .

الفرنجية بالشام : « وجد هذا الذي ملك العزيمة ، وهو الذي غزا أفريقيا »^(١) .

ويربط أحيانا بين متشابهات التاريخ ، فيترجم في الباهر لـ « فاطمة بنت عبد الملك بن مروان » ، ويبين قرابتها لخلفاء عديدين من الأمويين بين جد وأب وزوج وأخ ... إلخ ، ثم يربط بينها وبين من تشبهها حالاً في ذلك وهي زوجة « قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى » صاحب الموصل ، فيقول : « ... ولم يبق من بنى أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها أن تضع خمارها عنده ، إلا مروان بن محمد المعروف بالحمار لا غير ، وهذه الخاتون - يقصد زوجة قطب الدين - كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا »^(٢) . ولعل التشابه بين الحالتين هو ما يبرر إيراد ترجمة « فاطمة بنت عبد الملك » في الباهر رغم طبيعة موضوعه ، وهذا خلاف ما يراه محقق الباهر ، حيث يقول في مقدمته للكتاب : « وهناك بعض ملاحظات على ابن الأثير في كتابه الباهر ، فقد ترجم لبعض الشخصيات التي لا تمس موضوع الكتاب إلا مساً خفيفاً مثل ... وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان »^(٣) .

ويستغل المؤلف ورود خبر عن أسرة أو دولة لم يذكر تاريخها من قبل مسلسلاً ، نظراً لطبيعة كتابه ، فيرتد إلى الورا ليلم في إيجاز بهذا التاريخ أو بأهم معالمه ، كما فعل بتاريخ « آل منقذ » في شيزر^(٤) ، بمناسبة الحديث عن ملك « نور الدين محمود بن زنكى » لحصن شيزر سنة ٥٥٢هـ^(٥) ، ومن ذلك أيضاً حديثه عن

(١) الباهر ٩٠ ، العزيمة حصن بالشام ويسميه المؤلف في الكامل العربية بالراء المهملة . انظر الكامل ١١ : ١٣١ .

(٢) السابق ٩٤ . مع ملاحظة احتمال المحاباة هنا ، حيث قرن المؤلف بين سليمة خلفاء المسلمين الكبار وبين سليمة حكام المدن والمقاطعات .

(٣) نفسه ١٧ من المقدمة .

(٤) شيزر : بفتح الشين ومكون الباء وفتح الزاى قلعة بالشام قرب المعرة وحماة ، مرصد الاطلاع ٢ : ١٤٠ ، وسرد الحديث عن آل منقذ أصحابها عند الحديث عن كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ فيما بعد .

(٥) الباهر ١١٠ - ١١٢ .

ابتداءً أمر البيت الأيوبي بمناسبة مسير شيركوه لمصر^(١)، وعن ابتداء الدولة الفاطمية بالمغرب بمناسبة انقراضها بمصر^(٢)، وربما كان ذلك لاستقصائه هذه الأمور في «الكامل»، كما يشير هو كثيراً.

ثانياً : النقد التاريخي :

على أن الباهر لم يخل من مظاهر الإلماح لمثالب الزنكيين ، ها هو المؤلف يبين تارة في صراحة عن الأغراض الدنيوية التي تستعلى على المصلحة العامة ، يقول : « كان السلطان مسعود - السلجوقي - لما أفضت السلطنة إليه ، لا يزال الأمراء والأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته . تارة مجتمعين وتارة متفرقين ، وقد تقدم ذكر بعض ذلك . وكان كلما انفتق عليه فتق نسيه إلى الشهيد - يقصد عماد الدين زنكي - وظن أنه هو أشار به وسعى فيه . لعلمه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر ، وكان ظن السلطان فيه صادقاً ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك »^(٣).

بل إن ابن الأثير يوازن أحياناً في موالاته ويعتدل شيئاً ما بأن يذكر بجانب إطرائه للزنكيين بعض المآخذ عليهم ، يقول مثلاً في شأن حادثة وقعت أيام سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل (٥٦٦ - ٥٧٦ هـ) « ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسة للغلاء الحادث في البلاد وخرج سيف الدين في مركبه ، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخرّبوا أبوابها ودخلوها ونهبوها ، وأراقوا الخمرور وكسروا الأواني وعملوا ما لا يحل فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان ، وخصوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له

(١) السابق ١١٩ .

(٢) نفي ١٥٧ .

(٣) نفي ٦٥ .

أبو الفرج الدقاق ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو أراق
الخمور ولما رأى فعل العامة نهاهم عنه فلم يسمعوا منه ، فلما شكى الخمارون
منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق لينزل من
القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله لا غطيته
حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني ، فلم يمض قليل حتى توفي الدزدار المباشر لأذاه
له ، ثم يعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي ^(١) ، ويقول عن نفس
الملك في الصفحة نفسها بمناسبة وفاته : « وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ
الأموال مع شح فيه » .

ثالثاً : نظرات تاريخية في الباهر :

تتلخص في إخلاص المؤلف لفكرة الاتعاض والاعتبار - كما في الكامل -
وهي الغرض من دراسة التاريخ عنده - إجمالاً - ، تراه مثلاً عند حديثه عن مقتل
الشهيد « عماد الدين زنكي » سنة ٥٤١هـ ، يضرب على هذا الوتر ، رغم أن المقام
مقام تعزية وتفريج ، وهذه مهارة تحسب له ، وإخلاص لمبدأ يحمده عليه خاصة وأن
الكتاب برمته مقدم لحاكم يرجى أن يتعظ بما فيه في سلوكه تجاه رعيته وأمته ،
يقول في المقام سالف الذكر : « وفاضت منه نفسه وسكن رسمه وأصبح معدوماً
كأن لم يكن بالأمس وزال عنه الملك واستولى عليه الهلك ، ولم يكن عنه أصحابه
وعساكره ، ولا حماه أمواله ودساكره ، ولا آخر الأجل مماليكه وأجناده ، ولا زحزح
عنه الفناء حصونه وبلادته » ^(٢) .

(هـ) الأسلوب : على عكس كتاب الكامل ، حيث يبدو ابن الأثير مؤرخاً
بسيط العبارة ، جمع المؤلف في الباهر بين صفتي المؤرخ والأديب وظهر لديه
السجع المقصود كثيراً ، يقول مثلاً : « وكنت عازماً على أن أدون أخبارهم -
يقصد الزنكيين - وأجمع آثارهم ، واذكر مامن الله سبحانه على الإسلام
والمسلمين وما حفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب على الفرج من العذاب

(١) الباهر ١٨٠ ، والدزدار : بضم الدال ومكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء ، لفظ
أعجمي معناه حافظ القلعة وهو الوالي : انظر : الباهر ص ٣٥ هامش رقم ١٣ .

(٢) السابق ٧٤ .

بأيديهم واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخذ محاسن أعمالهم على ممر الدهور ،
وتعاقب السنين والشهور جزاء لإحسانهم المستمر وطولهم الثابت المستقر ، وكانت
الأعداء تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغرض والعوائق تحيل جواهر مكاني إلى
العرض ،^(١) . ويتصاعد مستوى الأسلوب الفني لدى المؤلف ، فيقدم لنا صوراً أدبية
حماسية رائعة لساحات المعارك ، حيث صليل السيوف وصهيل الخيول وزمجرة
الرعود ، انظر في ذلك حديثه عن : « فتح حصن الأثارب من الفرنج »^(٢) ، « وفتح
حصن بارين »^(٣) ، « وفتح الرها على يد عماد الدين زنكي »^(٤) يقول مثلاً في
حديثه عن فتح زنكي لحصن الأثارب من الفرنج : « فلما تعذرت عليهم - أي
على الفرنجية - الهزيمة ، حموا أنفسهم اللثيمة ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ،
والجلاد عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات والإخوان والأخوات ، فحينئذ صدقوا
القراع ، وأحسنوا المصاع ، وصال ملوكهم وقمامصتهم وفرسانهم ودوابهم ،
وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالإنهزام ، فطلبهم زنكي بصدق القتال والإقدام
ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للآخرة :

فأثبت في مستنقع الموت رجله . . . وقال لها من تحت أخمصك الحشر

ففلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام وأجلت الوقعة عن رؤوس بلا غلاصم ،
وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغماداً ، وأدركت خيله
منهم ثاراً وأحسن جلاداً ، وأمر الشهيد فيهم بالإثخان ، ومنع من الأسر وإعطاء
الأمان ، فملأت جثث القتلى تلك الصحراء في الطول والعرض ، وتأول قوله
تعالى « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، وقصد أن يملأ
قلوبهم رعباً ، ويدعهم عن البلاد سرباً سرباً ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ
من الليل جملأً أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موثلاً ، فلما استقر النصر ، وآل به

(١) الباهر ١ ، ٢ .

(٢) نفسه ٣٩ - ٤٢ .

(٣) نفسه ٥٩ - ٦١ .

(٤) نفسه ٦٦ - ٧٠ .

إلى الظفر الصبر ، رجع إلى الحصن فملكه عنوه وفهراً ، وعم كل من فيه قتلاً وسبياً وأسراً ،^(١) .

ويكثر بالكتاب الاستشهاد بالشعر ويطول حتى أنه يصل إلى قصائد كاملة ، وينسب هذا الشعر لشعراء معاصرين للزنكيين كالقيسراني والحبص بيص ، ولقد اُمي كأبي تمام^(٢) ، بل إنه أورد لنفسه شعراً في مديح زنكي حين فتح الرها سنة ٥٣٩هـ^(٣) .

ويعلق المؤلف كعادته على الحوادث والأخبار التاريخية - كثيراً - بما يناسبها من آيات مثل : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم »^(٤) ، والأمثال مثل : « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين » كاليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم ، « أردت عمراً وأراد الله خارجة »^(٥) وترد في الباهر ألفاظ كثيرة دخيلة ومعربة ، تمثل لغة ذلك العصر العسكرية ، استعمالها المؤلف مثل : الجاندارية ، تركبلى ، تركش ، بيكار^(٦) .

(و) مآخذ على الكتاب : تبدو في الكتاب في أحيان كثيرة روح المبالغة

(١) الباهر ٤١ ، ٤٢ ، ونمام الآية الواردة في النص : « ما كان لنى أن يكون له أسرى حتى يشخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » سورة الانفال ، الآية ٦٧ .

(٢) انظر مثلاً : الباهر ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ٢٠٤ .
(٣) السابق ٦٨ .

(٤) البقرة ٢١٦ ، والآية كاملة : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(٥) انظر مثلاً : الباهر ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧٦ .

(٦) الجاندارية : فارسى بمعنى ممسك السلاح . من مقطعين جان بمعنى سلاح ، ودار بمعنى ممسك . الباهر ٨٢ ، وانظر هامش ٢ من نفس الصفحة .

تركبلى : معرب بمعنى جند فى خدمة الفرنج أبائهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان . الباهر ١٤٤ وهامش ٤ من نفس الصفحة .

تركش : فارسى معناه جعبة وكنانة للنبال . انظر : الباهر ١٦٩ وهامش ١ ، من نفس الصفحة .

بيكار : فارسى من معانيه الحرب . انظر : الباهر ١٩٦ وهامش ٤ من نفس الصفحة .

الشديدة لآل زنكى ، يقول مثلاً فى حديثه عن أحدهم فى إطراء مبالغ فيه : « فإنه - يقصد نور الدين أرسلان شاه أحد ملوك الموصل (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ) - طال ما أنعم علينا - يقصد المؤلف بذلك نفسه وأسرته - وأعطانا ووصلنا وحبانا وقربنا واصطفانا وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلانا ، مازال يوالينا الجميل ويولينا الجليل ، ويقربنا إلى حضرته العلية ويدنينا من سدته السنية ، وبأسراره يخصنا ولمشورته يستخلصنا ، لم يخل يوماً من بر رغب وإنعام لتفاسته غريب ، وكان يمدنا به من طوله بحراً يقذف بالفنى ويجود بما لا يبلغه المنى . فلهذا كانت حياتنا من سبب أنعمه غدق الحياض ، مونة الرياض ولم نزل نقابل قديم أنعمهم وحديثه بإخلاص الدعاء وصدق العبودية والولاء وإظهار الشكر والثناء ، ونصحته بمحضه ، ونؤدى مسنونه ومفترضه . كل ذلك صادر عن نيات فى العبودية صادقة وطويات فى الولاء غير مماذقة » (١) .

ويضغظ المؤلف فى الباهر كثيراً من تفاصيل الأخبار ويجملها فى تكثيف شديد ربما بغرض المداراة وعدم إحراج الملك الزنكى المقدم إليه الكتاب وأسرته إذا كان فى التفصيل ما يؤدى لذلك ، يقول مثلاً : « فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة سار - أى عماد الدين زنكى - إلى حماة فملكها » (٢) بينما نص الخبر نفسه فى كتاب « الكامل » كما يلى : « فى هذه السنة - سنة ٥٢٣ هـ - ملك عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، صاحب الموصل ، مدينة حماة وسبب ذلك : أنه عبر الفرات إلى الشام ، وأظهر أنه يريد جهاد الفرنج ، وأرسل إلى تاج الملوك بورى بن طغتكين ، صاحب دمشق يستنجده ويطلب منه المعونة على جهادهم ، فأجاب إلى المراد ، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق ، فلما وصلت التوثيقة جرد عسكرياً من دمشق ، مع جماعة من الأمراء ، وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماة ، يأمره بالنزول إلى العسكر والمسير معهم إلى زنكى ، ففعل ذلك فساروا بمدينة حماة ، فوصلوا إليه فأكرمهم وأحسن لقاءهم ، وتركهم أياماً ثم إنه غدر بهم ، فقبض على سونج ولد تاج الملوك ، وعلى جماعة الأمراء المقدمين ونهب

(١) الباهر ١ .

(٢) الباهر ٢٨ .

خيامهم وما فيها من الكراع واعتقلهم بحلب وهرب من سواهم وسار من يومه إلى حماة ، فوصل إليها وهي خالية من الجند الحماة الذابيين فملكها واستولى عليها^(١) ، ويقول أيضاً : « فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتاك الشهيد عنه - عن قفجاق بن أرسلان تاس التركماني - ما اقتضى أن يقصد بلاده^(٢) ، وهكذا دون إفصاح عن كنه ما أبلغ به ، ولكن السبب يرويه ابن الأثير « نفسه في « الكامل » أن هذا الأمير كان مطاعاً في التركمان ، قاصيهم ودانيهم وأنه جمع وعظم شأنه وتخامته الملوك^(٣) ، وهذا بالطبع ما لا يحتمله « عماد الدين زنكي » لجأ إليه حتى وإن كانوا مسلمين ، ويقول بعد ذلك : « ثم إن الشهيد - يقصد زنكي - عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام ، بل لازلنا ظاعنا أما لرد عدو يقصده ، وأما لقصده بلاد عدو ، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت السروج آثر عنده من وثير المهاد ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد ، وأصوات السلاح ألد في سمعه من غناء القينات ولقاء القرن أشهى إليه من اضجاع الغانيات وفيما ذكرته وأذكره دليل على صحة ذلك^(٤) . ويبدو أن هذا مدح فيه شيء من التجاوز والمحاباة لاعتبار المؤلف قصد زنكي لجيرانه المسلمين قصداً لأعداء يستحق عليه الثناء ، وإن احتج معترض بأن عماد الدين كان يمهد بذلك لوحدة في وجه الصليبيين ، فإن للسبيل إلى الوحدة بدائل كثيرة غير طرق التحايل على المسلمين وقهرهم وهو ما يفسد أكثر مما يصلح وفي مسيرة ولده السلطان العادل نور الدين ونموذج علاقته بأمراء المسلمين وحد به على المصلحة العامة خير مثال لذلك ، وكذا كما في الأسلوب الذي حقق به صلاح الدين الأيوبي الوحدة الإسلامية بين مصر والشام والجزيرة ، حيث ترك الحكام يحكمون بلادهم شريطة الطاعة والدخول في الوحدة^(٥) . إذن فليس هناك سبيل

(١) الكامل ١٠ : ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

(٢) الباهر ٥٧ .

(٣) انظر : الكامل ١١ : ٧٥ .

(٤) الباهر ٥٨ ، والمياتر جمع ميثرة هنة كهنة المرفقة تتخذ للسرّج كالصفة ، الوسيط « وتر » .

(٥) عن سياسة صلاح الدين في إعادة الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة بحسن السياسة والتدبير واستغلال الظروف ، لا بالفدر والخيانة والإيقاع بالخصوم من المسلمين كما فعل زنكي . انظر :

دريد نوري ، سياسة صلاح الدين ص ٢٤٤ - ٢٤٩ .

لإطلاق القول بأنه : « يمكن أن نجمل سياسة زنكى فى عبارة واحدة وهى أنه لمحاربة الصليبيين لا بد من وحدة صفوف المسلمين ، ولتحقيق هذه الوحدة لا بد من الاصطدام بقوى الشام المتباينة والخارجة عن طاعة السلطان » (١).

ويبدو أنه كان فى المسألة قدر غير يسير من الغرض الدنيوى لدى زنكى وأمثاله ينقص من صفاء هذا التبجيل له ، والثناء عليه ، وخاصة وأن هذا التفريط متلو فى الصفحة نفسها بعنوان « ذكر حصار دمشق وبعثك » على يد زنكى بالطبع وهما للمسلمين .

ويروى المؤلف خبراً عن « حصار الروم والإفرنج مدينة حلب » وأن « عماد الدين زنكى » قد أرسل القاضى « كمال الدين بن الشهرزورى » إلى السلطان السلجوقى مسعود يستنجده فأمر هذا بتسيير العساكر إليه وبلغت عشرين ألف فارس منتخب ، ثم انجلى الروم والفرنج عن المدينة ، فأرسل زنكى إلى رسوله يأمره بتعطيل مسير العساكر السلطانية إلى الشام خوفاً من تملك السلطان للبلاد ، فتحايل هذا الرسول بكل الوسائل حتى عطلها عن المسير ، بينما الفرنج مازالوا قابعين فى ديار الإسلام ، ويعلق ابن الأثير على ذلك مادحاً مهارة الرسول وحكمه مرسله بقوله : « فانظر إلى هذا الرجل - يقصد الرسول - الذى هو خير من عشرة آلاف فارس . رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة فى الرجال ذوى الرأى والعقل » (٢) . بل إن الأمر يتصاعد لدى المؤلف فهو لا يفتأ يذكر أحداً من الزنكيين حتى يتلوا اسمه بقوله : « رضى الله عنه » أو « قدس الله روحه » أو ما شابه ذلك ، مع أنهم وغيرهم ممن نعتهم بذلك فى كتابه ، ليسوا - فى الغالب - من الأولياء الصالحين المجاهدين جهاداً خالصاً لوجه الله ، وإنما كان يدفعهم قدر كبير من حب الملك والتسلط وتاريخهم بدسائسه شاهد على ذلك .

ولعل فى طريقة رواية أخبار الصراع بين البيتين الزنكى والأيوبي فى « الباهر » وما التزمه المؤلف حيالها من ضغط وتكثيف وحذف وإضراب عن ذكر الكثير منها

(١) حامد زيان ، حلب فى العصر الزنكى ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الباهر ٦٣ .

مفصلاً ، وتأويل بعضها على غير وجهه حتى الذى ذكره هو نفسه فى الكامل^(١) .
لعل ذلك مثال حتى على ما شاب أسلوب المؤلف فى الباهر ، وهو ما يناقض إلى
حد كبير منهجه فى الكامل ، وإن لم يخل الكامل نفسه من مثل هذه الهنات وإن
كانت بسيطة .

وتعصيماً لبعض الأفكار السابقة حول زكى ودوافعه وبواعثه الحقيقية أورد
النص التالى لأحد الباحثين الغربيين ، يقول : « يقال إن قيام المسلمين للأخذ
بالتأثر من الإفريج يبدأ بعماد الدين زكى بن آقسنقر ، ولكن زكى يجب ألا يعتبر ،
بأى حال من الأحوال بطل الجهاد ، فإن عماد الدين زكى وإن كان يطمح إلى
استرجاع الرها منذ وقت طويل كما يقول كمال الدين ، لم يقم بهذا العمل ،
كما يبين كمال الدين بوضوح إلا متأخراً ، وإلا بعد أن حثه على ذلك أمير حران
الذى بين له سهولة احتلال المدينة ، يقول ر . ب ستيفنسون فى معرض كلامه
عن زكى : كانت معظم البلاد التى قرر احتلالها تحت حكم منافسه من الأمراء
المسلمين . ويجب أن يستنتج بأنه قد ترك عن عمد ، مهاجمة الدول اللاتينية ،
وفى الوقت الذى كان فيه يقوى جيشه ويوسع سلطانه ، كان يرغب بتجنب مخاطر
حرب كبيرة معهم ، ولم يكن هجومه على الرها عام ١١٤٤ ، الصفة المميزة لعهد
إطلاقاً . والظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً على سياسته ، وعملاً
قام به بناء على تحريض الآخرين . إن سجل حروب زكى وهى حروب عديدة ،
يثبت صحة هذه القضية . كان زكى أبعد ما يكون عن البطل الدينى الكامل .
فقد تحالف عام ١١٣٢ مع المتمرّد الخطير المعتدى على الخلافة ، ديبس بن
صدقة ، الذى كان متحالفاً مع الإفريج كما مر معنا فى هجوم على شخص الخليفة
المسترشد ، وتورط زكى فى صراع متواصل مع دمشق ، وكان استيلائه على
حماة وحمص وحلب ، وحروبه ضد الأرتقيين ، أعظم أهمية عنده من حرب
النصارى . وما كان يكره التحالف مع اللاتين إذا لاءم ذلك حاجاته . ولم يتابع
زكى بعد استيلائه على الرها عام ١١٤٤ ، انتصاراته باحتلاله منطقة الرها التى

(١) انظر مثلاً لذلك : الباهر ١٧٦ ، ١٧٧ .

كانت ما تزال تقاوم ، وإنما ترك هذه المنطقة ، ووجه اهتمامه إلى الشرق حيث قام بحملة في منطقة خلاط وأعلى الفرات . أما أن احتلال زنكي الرهء كان نقطة تحول في تاريخ الإمارات اللاتينية في سوريا ، فأمر لا شك فيه . لقد عجل احتلال زنكي الرها بقيام الحملة الصليبية الثانية ، وقد عملت هذه الحملة ، بما منيت به من فشل ذريع ، على تهدئة مخاوف المسلمين من الغزاة الغربيين ، وكان احتلال الرهء زيادة على ما تقدم ، بداية الحروب الإسلامية ، لاسترجاع البلاد الداخلة في حوزة الصليبيين . ولكن هذه الحادثة لم تأت بشيء جديد في السياسة الإسلامية . لقد احتل زنكي الرهء لأنها تكمل دولته ولأن احتلالها كان يبدو أمراً سهلاً ، وعقد اللاتينيون حلفاً مع أتر صاحب دمشق لأن الفريقين كانا يعتبران زنكي خطراً يهدد جيرانه . وقد أفاد الفريقان من هذا الحلف ، ولم يعتبر احتلال الرهء متوجهاً لأمجاد زنكي الحربية إلا في عهد متأخرة . أما في عهد زنكي وبراى زنكي نفسه ، فقد كان احتلال الرهء أقل أهمية من احتلال حلب وحمص . على أن المؤرخين المتأخرين الذين جهدوا في تضخيم أمجاد مؤسس الأسرة الزنكية ، بالفوا في أهمية احتلال الرهء حتى يظهروا زنكي بطل المسلمين جميعاً في الحرب ضد الكفار^(١) . وبمراجعة تاريخ زنكي يبدو لي أن هذا الكلام يحالفه الصواب إلى حد كبير^(٢) .

(١) جون لامونت الحروب الصليبية والجهاد ضمن كتاب دراسات إسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ من الترجمة العربية . وفي النص . ربما قصد الباحث بكمال الدين ، المؤرخ كمال الدين ابن العديم صاحب زبدة الحلب - متأني دراسته - الذي يقول فيه : « وكان أمناك زنكي لا يزال يفكر في فتح الرها ، ونفسه في كل حين تطالب بذلك » ج ٢ ص ٦٤٢ . ويقول أيضاً : « وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان ، رئيس حران هو الذي بحث أمناك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهل عليه أمرها » ج ٢ ص ٦٤٣ . وفي النص أيضاً : الأرتقيون ، إحدى الأسر التركمانية ، كان لبعض أفرادها نفوذ بالشام والجزيرة في ذلك الوقت وتنسب لأرتق بن أكب . انظر : د. عماد الدين خليل ، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام .

(٢) دافع د. عماد الدين خليل عن مواقف زنكي دفاعاً مهزوزاً - من وجهة نظري - محججاً بما سبق ذكره من أنه كان يسعى لوحدة إسلامية في وجه الصليبيين ، كما يبرر أعدامه بعض أمراء بعلبك إثر استيلائه عليها سنة ٥٣٤هـ بنقصهم بعض الشروط المتفق عليها ! انظر : د. عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي رسالة ماجستير منشورة ، الدار العلمية بيروت ط ١ ، سنة ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م ، ص ١٧٧ - ١٨٠ . حقا إن مكائد الأمراء الصغار وتفرقهم تحتاج لبعض الشدة حين تراد الوحدة في وجه عدو دخیل لكنها لا تقتضى الغدر والخيانة واتباع هوى النفس .

(ز) بين الباهر والمصادر المعاصرة له :

تقع بين الكتاب وهذه المصادر بعض الخلافات ، فمثلاً عن مصير خزائن العاضد الفاطمي حين وفاته سنة ٥٦٧هـ ، يقول ابن شداد : « وهو - يقصد صلاح الدين - كلما استولى على خزانة من المال وهبها ، وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه شيئاً »^(١) . بينما يقول ابن الأثير : « ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منها ما أراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه شيئاً كثيراً . وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وممر الدهور ، فمنه القضيبي الزمرد وطوله نحو قبضة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد »^(٢) ، ويقول العماد الأصفهاني : « وأخذ - أي صلاح الدين - كل ما صلح له ولأهله وأمرائه وخواص مماليكه وأوليائه من أخاير الذخائر وزواهر الجواهر والعقود والنقود والمنظوم والمنضود وما لا يعد إحصاء ولا يعد - ربما بعد ذلك في كل رخيص وغال ... »^(٣) .

ودلالات النصوص والخلاف بينهما واضح في مصير الأموال والذخائر . والباحث يحار في الترجيح بين هذه الآراء ولكني أميل لقول ابن الأثير إذ يعضده العماد بينما ينفرد ابن شداد ، والمعروف أن ابن شداد لم يكن بصحبة صلاح الدين في هذه الفترة ، فلم يتصل به إلا عام ٥٨٤هـ ، فهو بعيد عن مسرح الأحداث في ذلك الوقت ، بينما كان العماد أقرب للأحداث ، وإن لم يكن بصحبة صلاح الدين في هذه الفترة فقد كان كاتب نور الدين بالشام .

ويختلف مضمون بعض الروايات لنفس الأخبار عند ابن الأثير نفسه بين الكامل والباهر ، ربما بفرض المداراة في الأخير ، مثال ذلك حديثه عن حصر

(١) ابن شداد النوادر السلطانية ، مطبعة الآداب سنة ١٣١٧هـ ، ص ٢٥ . وستأتي دراسة هذا الكتاب .

(٢) الياهر ١٥٧ .

(٣) منا البرق ٥٩ .

السلطان العادل الأيوبي لـ « سنجار » سنة ٦٠٦ هـ ، يقول في الكامل : « في هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين وحصر مدينة سنجار والجميع من أعمال الجزيرة ، وهو بيد قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود . وسبب ذلك أن قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه ابن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل ، فإن ولدًا للعادل تزوج بابنة لنور الدين ، وكان لنور الدين وزراء يحبون أن يشتغل عنهم ، فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يفتسما البلاد التي لقطب الدين ، والولاية التي لولد سنجر شاه بن غازي بن مودود وهي جزيرة ابن عمر وأعمالها ، فيكون ملك قطب الدين للعادل ، وتكون الجزيرة لنور الدين . فوافق هذا القول هوى نور الدين ، فأرسل إلى العادل في المعنى ، فأجابه إلى ذلك مستبشراً ، وجاءه ما لم يكن يرجوه لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها ، وأطمع نور الدين أيضاً في أن يعطى هذه البلاد ، إذا ملكها لولده ، الذي هو زوج ابنة نور الدين ، ويكون مقامه في خدمته بالموصل ، واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها ، فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات في عساكره ، وقصد الخابور فأخذه ... »^(١) ، وتمضى رواية الكامل فتذكر أن نور الدين صاحب الموصل لما علم بقدم العادل في جيوشه خاف واستشعر واستشار أهل الرأي فخطأوا رأيه ذلك إذ جاءه رسول من « مظفر الدين كوكبرى » صاحب أربل يذلل من نفسه المساعدة ضد العادل وكان قد غاظه منه أنه لم يشفعه في أمر شفع عنده فيه ، ولما وصل مظفر الدين للموصل واجتمع بنور الدين أرسلان إلى الملك « الظاهر غازي ابن صلاح الدين » وهو صاحب حلب وإلى « كيخسرو بن قلع أرسلان » السلجوقي صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فأجابا إلى ذلك ، ثم أرسل إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا إلى العادل في الصلح فحضرت الرسل وتم الصلح ورحل العادل . ونستخلص من هذه الرواية أن سر مجيء العادل الأيوبي لحصر سنجار هو الخلاف بين أفراد الأسرة الزنكية أنفسهم ومحاولة بعضهم تدمير المكائد للبعض الآخر، بينما الأمر على ذلك في الكامل ، نجد ابن الأثير يسوق هذا

(١) الكامل ١٢ : ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

الخبر في الباهر على نحو مغاير ، على النحو التالي : « في سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل أبو بكر ابن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر فحاصروها وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين وهو ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه ، فأرسل قطب الدين ولده ولده إلى الخدمة النورية مستجيراً ومستنصراً ، ثم سار إلى إربل إلى الملك المعظم مظفر الدين كوكبرى في المعنى فأرسل إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان إبقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها ، فاعتذر عن الإجابة وذكر لصاحبها ذنوباً تقتضى قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهرزور وأعمالها واجتمعوا بالموصل بعد طول افتراق واتفقا بعد اختلاف ووثق كل واحد منهما بصاحبه وثوقاً لا مزيد عليه إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت في قلعة الموصل ونور الدين سنجار بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير إلى سنجار ولقاء العادل ومحاربتة ، وإنما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أعز الله سلطانه ، أرسل رسولاً وهو بهاء الدين بن الضحاك أستاذ الدار العزيزة في إصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرقاً وجلالة وقدرًا لنور الدين عند أمير المؤمنين ، إذا ينفذ مثل أستاذ داره العزيزة ليسعى في أغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : أى الطائفتين انهزمت كان وهنا عظيماً في الإسلام لا يجبر وخرقاً لا يرقع ، فسمعا وأطاعا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصلح وإبقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها^(١) ، والفرق بين الروایتين في الكتابين واضح ، إذ يفهم من الثانية أن العادل الأيوبي قد بادر بالاعتداء بدون داع على عكس الرواية الأولى ، وهذه هي المداراة .

وأخيراً .. تقع بين الكامل والباهر اختلافات طفيفة في تواريخ الأحداث ، يأتي مثلاً خبر حصر حصن « فنك »^(٢) على يد عماد الدين زنكى في الكامل سنة ٥٤١ هـ ، وفي الباهر سنة ٥٤٠ هـ ، وكذلك فتح نور الدين ابنه « بانياس »^(٣) في الكامل سنة ٥٥٩ هـ ، وفي الباهر سنة ٥٦٠ هـ .

(١) الباهر ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) فنك : قلعة حصينة منيعة للأكراد البشوية قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو فرسخين المرصد ٢ : ٣٦٦ .

(٣) بانياس : بلدة قرب دمشق تحت الجبل الذي في غربيها . المرصد ١ : ١٢٣ .

٣ . الكتاب المعروف بـ « ذيل تاريخ دمشق »

(أ) المؤلف : أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) عن عمر يناهز بضعا وثمانين سنة ، وهو من أسرة دمشقية موسرة ، ولى بعض أفرادها رئاسة دمشق ومنهم ابن القلانسي . ونشأ ابن القلانسي على ثقافة دينية أدبية وصار من أبرز كتاب دمشق في دولة الأتابكة (طفتكين وأولاده) (١) ، وولى رئاسة ديوان دمشق مرتين ، وجمع بين ديوان الإنشاء وديوان الخراج ، وبذا أتيح له أن يطلع على محفوظات الدولة ، خلال تلك الفترات الحرجة التي شهدت دخول الصليبيين للشام (٢) .

(ب) مضمون الكتاب : اشتهر هذا الكتاب باسم « ذيل تاريخ دمشق » تجاوزا وكان الأولى أن يعرف بـ « المذيل في تاريخ دمشق » لأن مؤلفه أكمل به تاريخ هلال الصابى المنتهى إلى سنة ٤٤٨ هـ ، وليس كتاب الصابى تاريخاً لدمشق حتى يكون هذا ذيلاً له ، وإنما هو تاريخ عام أكمله ابن القلانسي بأخبار تخص

(١) أتابك لفظ تركى مركب من مقطعين : أتا أو أطا ومعناه « أب » ، بك ومعناه « أمير » فاللقب معناه الأب الأمير الذى يقوم على تربية أبناء الملوك . انظر : ابن الأثير الباهر تحقيق طلبات ص ١٨ هامش ٨ وقد عرفت هذه الدولة في التاريخ باسم الدولة البورية ، ويرى د. شاكر مصطفى - وهو على حساب - أن هذا الاسم لا مبرر له ، فيقول : « تعرف هذه الدولة خطأ باسم الدولة البورية وهو اسم لا مبرر له فإن مؤسسها الذى حكم دمشق فترة قد تصل إلى أربعين سنة هو طفتكين أحد مماليك تش الذى أسس أول دولة سلجوقية فى الشام ، فلما ورثه ابنه دقاق فى دمشق أعانة طفتكين فى الحكم لأنه أتابك ثم استأثر بالحكم حين توفى دقاق سنة ١١٠٤/٤٩٧ وظل يحكم حتى سنة ٥٢٢ ، فلما توفى أعقبه ابنه بورى أربع سنوات ثم أولاد بورى من بعده . وقد نسلم نور الدين دمشق من آخرهم المسمى أبى بن محمد بن بورى سنة ٥٤٩ وأخرجه منها ليموت فى بغداد . « التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ ، ص ٢٣٧ هامش ١ .

(٢) انظر فى ترجمته مثلاً : اليافعى مرآة الجنان ٣ : ٣٠٨ ، باقوت معجم الأدباء ١٠ : ٢٧٨ - ٢٨٠ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربى ٦ : ٦٨ ، ٦٩ ، د. شاكر مصطفى التاريخ العربى والمؤرخون ٣ : ٢٣٦ - ٢٣٩ .

دمشق ، أو أكمله فيما يخص تاريخ دمشق ، حيث يقول ابن القلانسي : « واستمرت عليه الأيام في الولاية إلى سنة ٤٤٨ التي بنى هذا المذيل عليها وعادت سياقة الحوادث منها وإيراد ما فيها وتجدد بعدها »^(١) .

غير أن سنة ٤٤٨ هـ ليست هي البداية الحقيقية للكتاب إذ إن المؤلف وجد فيما يخص السنوات السابقة على تلك السنة وفيما يخص تاريخ دمشق أشياء تستحق التسجيل فبدأ بها بداية من عام ٣٦٣ هـ ، وربما قبل ذلك لأن بداية الكتاب المنشور - نشره المستشرق أمدروز Amedroz ، وطبع في بيروت سنة ١٩٠٨ في مجلد - تبدو مبتورة حيث يبدأ هكذا : « ... وتحصنوا بالسور وعظم الأمر على المعز » تحت عنوان « ذكر الحرب بين المعز لدين الله صاحب مصر والقرامطة ، في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وهذا أول ما وجد من تاريخ ابن القلانسي »^(٢) ، ثم يتابع المؤلف أخباره في سنوات غير متتالية - وهي في جلها ان لم تكن كلها حول دمشق وما يتصل بتاريخها - بل إنه لا يرتب بينها تصاعدياً إذ يذكر مثلاً سنة ٣٨١ هـ قبل سنة ٣٧٨ هـ^(٣) . ولعل مرد ذلك إلى أنه يكتب أحداثه في هذه الفترة حسب الموضوعات غالباً ، لا حسب السنين ، ومثال ذلك : « ولاية القائد منير الخادم ومنجوتكين دمشق والسبب في ذلك ، وما آلت إليه أحوالها في سنة ٣٧٨ وما بعدها »^(٤) . حتى إذا ما وصل إلى سنة ٤٤٨ هـ التزم الترتيب الحولي وأورد الحوادث على السنين^(٥) حيث يتسع مجال تاريخه شيئاً ما ليشمل أخباراً عن بقية بلاد الشام ومصر والعراق وإيران ولكن عينه على محوره الرئيسي وهو تاريخ دمشق حتى يصل لنهاية الكتاب سنة ٥٥٥ هـ وهي سنة وفاته . ولذا فلا نستطيع

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٨٦ ، وانظر د. شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ٢٣٨ ،

Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades London, 1932, P. 9 .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٣ ، ٤٠ .

(٤) السابق ٤٠ .

(٥) سقطت لديه سنة ٤٧٣ ، فلم يورد أخبارها .

أن تعدده تاريخاً عاماً في هذه الفترة إذ إن ما أورده عن غير دمشق قليل ويرتبط في أكثره بدمشق من قريب أو بعيد ، وهو لم يقدم لنا تاريخاً عاماً متوازناً لأقاليم العالم الإسلامي حتى أنه يجمل تاريخ المغرب في ثلاث صفحات بطريقة مبتورة شديدة الإيجاز حيث يقول : « وأما أخبار المغرب والحوادث فيه فلم تسكن النفس إلى إثبات شيء من طوائج أخباره وما يؤخذ من أفواه تجارِهِ . وقد أفردت من أحوال الخوارج فيه والفتن المتصلة بين أهليه من الحروب المتصلة وسفك الدماء ما لا تثق النفس به لاختلاف الروايات وتباين الحكايات . وكان قد ورد من فقهاء المغاربة من وثقت النفس بما أورده وسكنت إلى ما شرحه وعدده وحضرت كتب من أهل المغرب إلى أقاربهم ببعض الشرح ، ووافق ورود ذلك في سنة ٥٤١ بالتواريخ المتقدمة والحكايات المختلفة فرأيت ذكر ذلك وشرحه في هذا المكان . فمن ذلك ... »^(١) . وتتفاوت في الكتاب أحجام أخبار السنوات تبعاً لوفرة المصادر والمادة . ويضرب المؤلف أحياناً عن إكمال خبر أورده كذكر مضمون وثيقة مثلاً ، يذكر أنه سيثبته ثم يعدل عن ذلك ، ربما نسياناً أو عجزاً عن الوصول لهذا النص أو ربما سقط ذلك أيضاً من النسخ ، يقول مثلاً عن إحدى الشخصيات : « وورد بشرح قصته السجل من سلطان مصر إلى ثغر عسقلان وقرئ على منبرها ومضمونه :

بسم الله الرحمن الرحيم »^(٢) ، ولا يستكمل المؤلف روايته بذكر مضمون السجل بعد البسملة ، بل يبدأ في سرد خبر جديد .

ويبدو أن المؤلف الذي انتهى بكتابه بالفعل إلى سنة ٥٥٥ هـ ، قد نوى أن ينهيه قبل ذلك نهاية مبكرة ، ثم استأنف الكتاب مرة أخرى ، إذ نجد في الكتاب نصاً يقول : « قال الرئيس الأجل مجد الرؤساء أبو يعلى حمزة بن أسد على بن محمد التميمي : قد انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ ورتبته وتحفظت من الخطأ والخلل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات ، ونقلته وأكدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث إلى أن صححته إلى هذه السنة المباركة وهي سنة ٥٤٠ هـ

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٩١ .

(٢) السابق ٢٩٦ .

وكنت قد منيت منذ سنة ٥٣٥ هـ إلى هذه الغاية بما شغل خاطر عن الاستقصاء عما يجب إثباته في هذا الكتاب من الحوادث المتجددة من الأعمال والبحث عن الصحيح منها وجميع الأحوال ، فتركت بين كل متين من السنين بياضاً في الأوراق ليثبت فيه ما يعرف صحته من الأخبار وتعلم حقيقته من الحوادث والآثار^(١).

(ب) مصادر الكتاب :

أولاً : المصادر المكتوبة :

١ - الوثائق : أتاحت للمؤلف مكاتبه في الدولة وتمكنه في دواوينها يسر الاطلاع على محفوظاتها مما أمده بكثير من المنشورات والرسائل التي دعم بها مؤلفه ، ويظهر ذلك جلياً في إirاده لنصوص وثائقية طويلة تمتد لصفحات أحياناً ، من ذلك مثلاً : رسالة طويلة من الحضرة الفاطمية بالقاهرة إلى القائد الفاطمي بالشام أنوشتكين الدزبري^(٢) ، ورد الدزبري عليها^(٣) . وسجل تقليد أبو القاسم الجرجرائي^(٤) الوزارة من قبل الخليفة الفاطمي « الظاهر »^(٤) ، وكتاب فتح قلعة « شاه ذر » وكانت في حوة الباطنية والذي أرسله إلى سائر الأعمال كبشارة السلطان السلجوقي « محمد بن ملكشاه »^(٥) ، ومنشور كتبه الطغرائي كاتب السلطان محمد بن ملكشاه بأمر منه بولاية أتاك « ظهير الدين طغتكين الشام حرباً وخراجاً^(٦) . ومن الوثائق أيضاً مضمون كتاب ورد من قلعة شيزر بالشام مبشراً بظفر للمسلمين على الفرنجة سنة ٥٣٠ هـ^(٧) وكتاب من عبد المؤمن الموحدى

(١) فيل تاريخ دمشق ٢٨٣ .

(٢) السابق ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) نفسه ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) نفسه ٨٠ - ٨٣ .

(٥) نفسه ١٥٢ - ١٥٦ .

(٦) نفسه : ١٩٣ - ١٩٧ .

(٧) نفسه : ٢٢٥ - ٢٥٦ .

يدعو فيه لمذهبه (١).

ومن أمثلة استعمال الوثائق لدى ابن القلانسي قوله متحدثاً عن قتل الخليفة الفاطمي « الحاكم بأمر الله » للوصي « برجوان » : « فلما رأى الحاكم زيادة الاختلاط ظهر من منظره على الباب وسلم على الناس فترجلوا عن دوابهم إلى الأرض وقبلوها بين يديه ، وضربت البوقات والطبول وفتح باب القصر واستدعى أصحاب الرسائل وسلمت إليهم رقعة قد كتبها الحاكم بيده إلى أكابر القواد يقول فيها : إنني أنكرت على برجوان أموراً أوجبت قتله فقتلته فالزموا الطاعة وحافظوا على ما فيها في رقابكم من البيعة المأخوذة ، وتقدم - يقصد الحاكم بأمر الله - بأنه يكتب إلى سائر ولاة البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان . فكتب بما نسخته بعد التصدير وما جرت العادة بمثله في الخطاب : أما بعد فإن برجوان أرضى أمير المؤمنين حيناً فاستعمله ثم أسخطه فقتله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتعلمه ، وتجري على سننك الحميد في خدمته ومذهبك الرشيد في طاعته ومناصحته وتسديد ما قبلك من الأمور وطالعه بما يتجدد لديك من أحوال الجمهور إن شاء الله (٢) ، وفي حديثه عن قوت « منجوتكين » القادمة من الشام لردع الحسن بن عمار شيخ كتامة وهو المستولي القابض على السلطة أوائل عهد « الحاكم بأمر الله الفاطمي ، يقول : « وقد اشتملت جريدة الإثبات على ستة آلاف من الأجناد السائرين معه خيلاً ورجلاً » (٣) .

ويسجل المؤلف في كتابه بعض الوثائق النادرة ، منها تلك التي يقول عنها : « روى عنه - أي عن الخليفة العباسي القائم بأمر الله - أنه لما اعتقل في الحديثه - موضع بالعراق اعتقله فيه البساسيري في حركته - كتب رقعة وأنفذها إلى مكة حرسها الله تعالى مستعدياً إلى الله تعالى على البساسيري وعلقت على الكعبة ولم تحط عنها إلى أن ورد الخبر بخروجه من الاعتقال من الحديثه وعودة إلى داره

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٣ .

(٥) السابق ٥٦ ، ٥٧ .

(٦) نفسه : ٤٦ .

وهلاك عدوه الفساسيرى وعنوانها : إلى الله العظيم من المسكين عبده ، ونسخة الاستغاثة : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنك العالم بالسرائر والمطلع على مكنون الضمائر ، اللهم إنك بعلمك واطلاعتك على خلقك غنى عن أعلامى هذا، عبد من عبيدك قد كفر نعمتك ، وما شكرها ، وألغى العواقب وما ذكرها أطفاه حكمك وتجبى بأناتك حتى تعدى علينا بغياً وأساء إلينا عتواً وعدواً ، اللهم قل الناصر واغتر الظالم فأنت المطلع العالم والمنصف الحاكم بك نغتر عليه وإليك نهرب من يديه فقد تعزز علينا بالمخلوقين ونحن نعتر بك يا رب العالمين ، اللهم إنا حاكمناه إليك وتوكلنا فى انصافنا عليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ووثقنا فى كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين ، وأظهر اللهم قدرتك فيه وأرنا ما نرتجيه ، فقد أخذته العزة بالإثم ، اللهم فاسلبه عزه وملكنا بقدرتك ناصيته يا أرحم الراحمين ، وصل يا رب على محمد وسلم وكرم ،^(١) .

ويعتمد المؤلف أحياناً فى رواية الحوادث البعيدة عنه مكاناً المعاصرة له زماناً على المصادر المكتوبة كالمسائل ، يقول مثلاً : « ووردت الأخبار إلى بغداد بأن السلطان لما كثف جمعه وقويت نفسه وقصد المذكورين وقصدوه وترتب المصاف بينهم والتقت المصافات ومنح الله السلطان النصر عليهم وكسرهم ... وحكى الحاكي المشاهد لهذه الواقعة فى كتابه بشرحها ... »^(٢) ، وكان ذلك ضمن رواية أحداث عام ٥٤٢هـ ، والسلطان المذكور فى النص هو السلجوقى « مسعود بن محمد بن ملكشاه » (٥٢٦هـ ، ٥٢٩هـ - ولعل هذا العرض السريع لاستعمال الوثائق لدى المؤلف ، يوضح أن استعماله لها لم يكن نادراً ، كما ذكر أحد الباحثين^(٣) .

٢ - المؤلفات السابقة : اعتمد عليها بقلة ، يقول مثلاً : « وقد شرح الخطيب أبو بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى ، رحمه الله ، فى أخبار أهل بغداد ما قال فيه ... »^(٤) .

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٠٧ .

(٢) السابق : ٢٩٤ .

(٣) M. Hilmy, M. Ahmae somd notes on arabic historiography during the Zen-gid and Ayybid periods, p. 85, In Historians of the Middle east .

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٨٧ .

اعتمد عليها بكثرة وهي مجهولة غالباً لديه لا يذكرها لنا أو يذكرها بشكل معمم ، ويقول مثلاً : « ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر »^(١) ، « وحكى بعض من حضر هذه الكائنة القبيحة »^(٢) « وكان عدد المفقودين من أهل صور أربعمائة نفس ومن الإفرنج في الحرب أيضاً على ما حكى الحاكي العارف تقدير ألفى نفس »^(٣) ، « ولقد حكى جماعة من المشاهدين لهذه الواقعة أنهم طافوا في مكان هذه المعركة لينظروا آية الله تعالى الباهرة وأنهم شاهدوا بعض الخيول مصرعه كالقنفاذ من كثرة النشاب الواقع فيها »^(٤) ، « وفي يوم الثلاثاء الرابع من صفر - سنة ٥٣٣هـ - جاءت في دمشق زلزلة هائلة ، ويقول المكثرون من الحاكي أن الزلزلة جاءت تقدير مائة مرة وقوم يحققون أنها ثمانون مرة ، والله أعلم بالغيب والصواب »^(٥) ثم جاء مع ذلك مطر شديد الوقع وبرد هائل ، وحكى بعض الثقات أنه وزن واحد من كبار البرد فكان وزنها في ناحية الغوطة والمرج ثمانية دراهم »^(٦) . وهو يكثر من السماع عن الشيوخ ، يقول مثلاً : « وذكر الشيوخ أنهم لم يشاهدوا مثل ذلك في السنين الخالية »^(٧) .

ثالثاً : المشاهدة الشخصية : اعتمد عليها المؤلف كذلك فيما عاصره من أحداث يقول مثلاً : « فقلت ما ينبغي أن يهمل إثبات اسم هذا الأمير في هذا التاريخ المصنف لأنني ما رأيت ولا شاهدت شبيهاً له »^(٨) . والحديث هنا عن شيخ ورد إلى دمشق من بلخ سنة ٥٥٢هـ .

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١ .

(٢) السابق : ١٢٢ .

(٣) نفسه : ١٨١ .

(٤) نفسه : ٢٠١ .

(٥) نفسه : ٢٦٨ .

(٦) نفسه : ٢٦٨ .

(٧) نفسه : ٣٥٤ .

(٨) نفسه : ٣٤٧ .

(د) منهج الكتاب :

أولاً : السمات العامة :

لا يقتصر ابن القلانسي في حديثه ، كغيره من المؤرخين - غالباً - على مظاهر الحياة السياسية وإنما يفسح المجال للحديث عن الظواهر الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها في حياة المجتمع الذي يؤرخ له ، يقول مثلاً : « وفي يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الأولى من السنة جاءت زلزلة عظيمة بفلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعض جامعها ومات أكثر أهلها تحت الردم . وحكى أن معلماً كان في مكتب به تقدير مائتي صبي وقع المكتب عليهم ، فما سأل أحد عنهم لهلاك أهلهم وأن الماء طلع من أفواه الآبار لعظم الزلزلة وهلك في بانياس تحت الردم نحو من مائة نفس وكذلك في بيت المقدس . وسمع في أيار من هذه السنة رعدة هائلة ما سمع بأعظم منها ولا بأهوال من صوتها فغشى على جماعة من الرجال والنسوان والصبيان وطلع في أثرها سحب هائل ووقع منه برد شديد الوقع أهلك كثيراً من الشجر وجاء معه سيل عظيم في بلد الشام قلع ما مر به من الشجر والصخر ، حكى أن ارتفاعه بوادي بنى عليم نحو من ثلاثين ذراعاً وأنه سحب صخرة عظيمة لا يقلها خمسون رجلاً ذهب بها فلم يعرف مستقرها »^(١) .

« وفيها وردت الأخبار من مصر بغلاء الأسعار فيها وقلة الأقوات في أعمالها واشتداد الحال في ذلك واضطرارهم إلى أكل الميتة وأكل الناس بعضهم بعضاً من شدة الجوع وقتل من يظفر به وأخذ ماله واستغراق حالة ومن سلم هلك واحتاج الأمير والوزير الكبير إلى المسألة »^(٢) « وفيها - سنة ٤٦٦ هـ - وردت الأخبار من بغداد بزيارة مدد جلة حتى غرق بها عدة أماكن وهدم عدة مساكن »^(٣) ، وانظر أيضاً حديثه الدقيق المفصل عن سلسلة الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنتي ٥٥١ ، ٥٥٢ هـ ، وذلك باعتباره معاصراً لها^(٤) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) السابق : ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) نفسه : ١٠٦ ، وانظر كذلك ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٤) نفسه ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

ولا يفرد المؤلف جانباً خاصاً للوفيات - وهي لديه شحيحة متناثرة - والحوادث الصغار كما عند ابن الأثير في الكامل مثلاً . وإنما ترد لديه أخبار الحوادث والوفيات مختلطة ببعضها كما عند ابن شداد في « النوادر » وابن العديم في « زبدة الحلب » ، وهاك نموذج لأخبار إحدى السنوات عنده : « في هذه السنة ٤٥٣ هـ - وصل الأمير حسام الدين ابن البجناكي إلى دمشق والياً عليها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الأولى منها ونزل في المزة وأقام مدة وورد الكتاب . بعزله فأنصرف عن الولاية وتوجه نحو حلب في شهر رمضان من السنة ثم وصل بعد ذلك عدة الدين والدولة ابن ناصر الدولة بن حمدان إلى دمشق والياً عليها في يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان من السنة وحصل بها وقرئ سجل ولايته وأمر فيها ونهى . وفي هذه السنة استقر الصلح والموادعة بين معز الدولة صاحب حلب وابن أخيه محمود ابن شبل الدولة . وفيها ندب أبو محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر للمسير من حلب إلى القسطنطينية رسولاً في المحرم منها ، وفيها توفي الأمير معز الدولة بحلب في يوم الجمعة لسبع بقين من ذى القعدة ودفن في المسجد بالقلعة وملكها أخوه عطية . وفي هذه السنة وصل الأمير المؤيد معتز الدولة حيدرة بن عضب الدولة إلى دمشق والياً عليها دفعة ثانية بعد أولى في يوم الاثنين الثامن عشر من ذى القعدة منها ، ونزل في أرض المزة ، وفي هذا اليوم سار عدة الدولة بن حمدان عن الولاية منصرفاً إلى مصر وأقام المؤيد بها في الولاية ما أقام وأنصرف عنها معزولاً في شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٥ هـ^(١) ، ولا تتواتر لدى المؤلف أخبار الحاج ، فهو يشير إليها في بعض السنوات ويضرب عن ذكرها في أخرى .

ولم يترجم المؤلف لنفسه ولا لأحد من أسرته إلا مرة واحدة على غير عادته حين يترجم لأخيه بمناسبة وفاته ، فيقول : « وفي يوم السبت الثالث عشر من رجب من السنة - سنة ٥٣٩ هـ - توفي الأخ الأمين أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي بن محمد التميمي عن ٨٤ سنة بعلة الذرْب ودفن بتربة اقترحها خارج باب الصغير من دمشق وكان علي الطريقة المرضية من حسن الأمانة والتصون والديانة

(١) فيل تاريخ دمشق : ٩١ .

ولزوم داره والتنزّه عن كل من يوتغ الدين ويكره بين خيار المسلمين غير مكاتر للناس ولا معاشر لهم ولا مختلط بهم ،^(١) .

وفي أحيان قليلة تحدد المؤلف الرغبة في عدم تقطيع الحادثة الواحدة بين السنين ، وهو ما نجده بكثرة واتساق لدى ابن الأثير في الكامل - كما سبق - يقول ابن القلانسي في أحد المواطن : « قد ذكرنا ما ذكرناه من الحوادث في سنة ٥٠٦ وسياقه الأمر إلى أوائل سنة ٥٠٧ رغبة في صلة الحديث ورغبة عن قطعه »^(٢) .

وقد رصد المؤلف إرهابات العدوان الصليبي على جبهات مختلفة من العالم الإسلامي ، وإن لم يربط بينها كابن الأثير ، يقول : « وفيها - سنة ٤٧٨ هـ - وردت الأخبار من ناحية المغرب بأن الإفرنج استولوا على بلاد الأندلس وتملكوها وفتكوا بأهلها وأن صاحب طليطلة استصرخ بالملثمين واستنجد بهم على الإفرنج فأجابوه »^(٣) .

ويقول : « وفيها - سنة ٤٧٩ هـ - وردت الأخبار من ناحية المغرب بوصول الأنبرت ابن ملك الإفرنج في عسكره إلى مدينة المهديّة ونزوله عليها ، ومضايقته لها إلى أن - ملكها بالسيف وقتل رجالها وسبى كافة من كان بها من أهلها »^(٤) . « وفي هذه السنة - سنة ٤٩٠ هـ - كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك ، فقلق الناس بسماعها وانزعجوا لاشتهارها »^(٥) .

وإذا ترجح لدى المؤلف رأى ما من عدة آراء واردة في رواية تاريخية ، فإنه يؤكد على هذا الرأى وينفى ما عداه ، يقول مثلاً : « في هذه السنة - سنة ٥١٥ هـ »

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ويوتغ : يهلك ونفس الرسيط وتغ .

(٢) السابق ١٨٧ .

(٣) نفسه : ١١٨ .

(٤) نفسه : ١١٨ .

(٥) نفسه : ١٣٤ .

هـ - وردت الأخبار بقتل الأفضل ابن أمير الجيوش صاحب الأمر بمصر ، رحمه الله ، ثانی عید الفطر بأمر رتب له ، وعمل فيه عليه إلى حين أمكنت الفرصة فيه ، فانتهزت وصدوف راكباً في موكبه ، مجتازاً في بعض أسواق القاهرة ، وقد كان على غاية من التحرز والتحفظ واستعمال الاحتراس والتيقظ لا سيما من الطائفة الباطنية والاحتياط منهم بأنواع السلاح ووافر الغلمان والخدم والعبيد والعدد المختلفة والسيوف الماضية وكان المرتب لقتله والمرصد له جماعة فوثب عليه رجل من بعض الشوارع بحيث شغل أصحاب الركاب ووثب الآخر من بين يديه فضربه ضربات سقط بها عن ظهر جواده إلى الأرض وقتلا في الحال وحمل إلى داره وبه رمق ، وتوفي رحمه الله من يومه وأدعى أن الباطنية تولوا قتله وليس ذلك صحيحاً بل ذلك إدعاء باطل ومحال زائل وإنما السبب الذي اجتمعت عليه الروايات الصحيحة التي لا تشك في هذا الأمر ، فساد ما بينه وبين مولاه الأمر بأحكام الله ، أمير المؤمنين ، لتضييقه عليه ومنعه مما تميل نفسه إليه ومنافرتة إياه في بعض الأوقات^(١) .

ويدو المؤلف عميق الإيمان ، حامداً راضياً في السراء والضراء ، يظهر ذلك بوضوح في تعليقه على ما أصاب بلاد الشام من زلازل وكوارث ومحن ، يقول مثلاً : « وفي ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ذي القعدة التالي لما تقدم بعد مضى ساعة منها وافت زلزلة روعت القلوب وهزت المنازل والمساكن ، ثم سكنها محرکها بقدرته القاهرة ورحمته الواسعة ، فله الحمد والشكر رب العالمين »^(٢) ، وعن أمير اسمه عباس قتله السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٤١هـ ، يقول : « وكان له الذكر الحسن والفعل المستحسن والأجر الوافر والمدح السائر بما كان له في مجاهرة أحزاب الباطنية والفتك بهم والقمع لهم والحصر في معاقلهم والكف لشركهم . ولكن الأقدار لا تغالب والأقدار لا تدافع »^(٣) .

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٢ .

(٢) السابق : ٣٤٧ .

(٣) نفسه : ٢٩١ ، وانظر كذلك ٢٥٧ ، ٢٨٥ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ .

ومن سمات الكتاب دقة المؤلف في النص على تواريخ وأزمان الأحداث ، يقول مثلاً : « وورد الخبر بوفاة أبي تميم معد المعز لدين الله صاحب مصر في يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ وكان مولده بالمهدية على أربع ساعات وأربعة أحماس ساعة من يوم الاثنين الحادى عشر شهر رمضان سنة ٣١٩ وعمره خمس وأربعون سنة وتقلد الأمر بعد أبيه في يوم الجمعة التاسع عشر من شوال سنة ٣٤١ ، ومدة أيامه بمصر ثلاث سنين »^(١) . فإذا تعذر عليه تحديد التاريخ ذكره بشكل تقريبي يقول مثلاً : « ... فلما كان في بعض أيام شهر سنة ٣٨٩ ... »^(٢) .

ويستخدم المؤلف تقاويم أخرى أحياناً إلى جانب التقويم الهجرى المشهور ، يقول مثلاً : « في هذه السنة - سنة ٤٨٥ هـ - اقترن المريخ وزحل في برج السرطان وقت الظهر من يوم الاثنين النصف من شهر ربيع الأول وهو السادس والعشرون من نيسان »^(٣) ويستخدم أحياناً بعض المصطلحات الفلكية فيقول : « وقد كان مولده - يقصد شمس الملوك بن بوري صاحب دمشق ٥٢٦ - ٥٢٩ هـ - ليلة الخميس السابع بالعدد من جمادى الآخرة سنة ٥٠٦ في الساعة الثانية منها والطاقع برج السرطان أو المشتري فيه كصح مع والمريخ في السنبلة والزهرة في الخامس ، والعقرب والشمس في السادس من القوس والقمر وزحل في التاسع وسهم السعادة في العاشر »^(٤) .

ويشير ابن القلانسي كثيراً إلى معلومات وأخبار فلكية ، وإن ثبت خطأها علمياً بعد ذلك من الزمن ، كاعتبار الشمس كوكباً والقمر كذلك ، يقول مثلاً : « في هذه السنة اقترن المريخ وزحل في برج السرطان وقت الظهر من يوم الاثنين النصف من شهر ربيع الأول وهو السادس والعشرون من نيسان وذكر أهل المعرفة

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٤ .

(٢) السابق : ٥٥ .

(٣) نفسه : ١٢١ .

(٤) نفسه ٢٤٦ .

من أهل صناعة النجوم أن - هذا القرآن لم يحدث مثله في هذا البرج منذ مبعث النبي (ﷺ) وإلى هذه الغاية (١) ، في مستهل شهر ربيع الأول منها اجتمع ستة كواكب في برج الحوت وهي الشمس والقمر والمشتري والزهرة والمريخ وعطارد وذكر أهل صناعة النجوم أنهم لم يعرفوا اجتماع هذه الكواكب في برج في قديم الزمان وحديثه ولا سمعوا ذلك (٢) .

ثانياً : النقد التاريخي في الكتاب :-

لم يمنع المؤلف نفسه من نقد إساءات أحد أفراد الأسرة الحاكمة في دمشق - والتي عاش في ظلها - في بعض الأحيان ، يقول مثلاً « وفي شعبان منها - سنة ٤٩٤ هـ - أرسل القاضي ابن صليحة المتغلب على ثغر جبلة إلى الأمير ظهير الدين أتابك يلتمس منه إنقاذ من يراه من ثقافته ليسلم إليه ثغر جبلة ويصل إلى دمشق بماله وحاله ويسيره إلى بغداد تحت الحوطة والأمان والحماية وجميل الرعاية فأجاب إلى ما اقترحه ووعده بتحقيق أمله وندب لولاية الثغر المذكور ولده الأمير تاج الملوك بوري ... وأما تاج الملوك فإنه لما ملك ثغر جبلة وتمكن هو وأصحابه فيها أساءوا إلى أهله وقبحوا السيرة فيهم وجروا على غير العادة المرضية من العدل والإنصاف (٣) .

ويتحدث ابن القلانسي في كثير من الأحيان حديثاً صريحاً دون مواربة عن أفاعيل أفراد أسرة الأتابكة التي عاش في ظلها ، يقول مثلاً : « وفي يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة قتل الرئيس محيي الدين أبو الذواد المفرج ابن الحسن بن الحسين الصوفي رئيس دمشق بظاهر المسجد الجديد قبلى المصلى في اليوم المذكور والسبب في ذلك أن الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك صاحب دمشق والأمير بزراج والحاجب سنقر كانوا قد أنكروا عليه أموراً بلغتهم عنه وأحوالاً استوحشوا بسببها منه فشرعوا في إفساد حاله وتحدثوا في أخذ ماله

(١) فتل تاريخ دمشق : ١٢١ .

(٢) السابق : ١٣٣ وهذا أمر شائع في تلك المهود ، انظر مثلاً الكامل : ١٠ : ٢٥٩ .

(٣) نفسه : ١٣٩ .

وتقررت الحال فيما بينهم على هذه الصورة في المخيم بحوران ، وكان الرئيس المذكور قد فارقهم من حوران وعاد إلى البلد لمداواة مرض عرض له ، فلما استقر الأمر بينهم على هذه القضية وعاد إلى البلد وخرج الرئيس المذكور في جماعة لتلقيهم ، فحين سلم عليهم وافق ذلك حديث جرى بينهم في معنى المعاملات أجاب عنه جواباً غلظ عليهم وأنكروه منه فعادوا لذلك عن القبض عليه إلى القتل له . وقد كان بلغة واعتزامهم على إفساد حاله بأخذ ماله وأشير عليه بالاحتياط على نفسه والتحويل في دفع الضرر عنها ، فلم يقبل للأمر المقضى والقدر النازل فقتل مظلوماً رحمه الله ، بغير استحقاق للقتل مضى شهيداً واعتقل باقي أقاربه والتمسوا الأذن لهم بعد أيام في التوجه إلى صرخد دفعاً للشر وإخماداً لنار الفتنة ، فأذن لهم في ذلك فتوجه من توجه منهم إليها^(١) .

ويتحدث المؤلف كذلك عن رأس الأسرة التي يعمل في ظلها - أتابك طفتكين - في صراحة أحياناً ، فيقول عن إحدى هزائمه : « فيها - سنة ٥٠٢ هـ - أنفذ صاحب عرقة إلى ظهير الدين أتابك رسوله ، يلتمس منه المعونة على دفع الإفرنج عنها وإنفاذ من يتسلمها فندب بعض ثقاته فتسلمها وأقام وآليا بها منتظراً وصول العسكر إليها والوفاء بما وعد به من الخلع والإحسان إليه ، فحدث في الوقت من الأمطار والثلوج ما عاق المسير إليها وقل القوت بها وانقطعت الميرة عنها فبادر الإفرنج بالنزول عليها وتوجه ظهير الدين عند ذلك إليها ، فصادفهم قد أحاطوا بها ولم يتمكن من دفعهم عنها ، وعاد إلى حصن الأكمة ونزل عليه وقائله ، فلما عرف الإفرنج ذلك نهضوا إليه في تقدير ثلثمائة فارس لإنجاد من بالأكمة فوصلوا إليهم ليلاً فقويت نفوسهم ، واقتضى رأى أتابك الرحيل عنها بحكم من صار فيها منهم فرحل كالمهزم وطمع فيه وتبع العسكر فغزم من الخيل والكراع غنيمة كبيرة وتفرق العسكر في الشجر والجبال ووصلوا إلى حمص على أقبح صفة وأشنع صورة من غير لقاء ولا محاربة وعاد الإفرنج إلى عرقة وعدم القوت

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٥٧ ، وصرخد : بالفتح ثم السكون قلعة ملاصقة لبلد حوران وولاية واسعة

حنة . المراد : ٢ : ١٥٢ .

فيها ، فملكوها بالأمان^(١) ، ويقول عن شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن أتابك طفتكين ، دون مداراة : « ولم يكفه قتل من قتل ظلما حتى اتهم أخاه سونج بن تاج الملوك فقتله وهو كبيره أشنع قتلة بالجوع في بيت وبالغ في هذه الأفعال القبيحة والظلم ولم يقف عند حد^(٢) ، ويقول عنه أيضاً : « وفي هذه السنة - سنة ٥٢٩ هـ - شاعت الأخبار في دمشق بين خاصتها وعامتها عن صاحبها الأمير شمس الملوك أبي الفتح إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك بتناهيه في ارتكاب القبائح المنكرات وإيغاله في اكتساب المآثر المحظورات الدالة على فساد التصور والعقل وصداء الحس وظهور الجهل وتبلد الفهم وحب الظلم وعدوله عما عرف فيه من مضاء العزيمة في مصالح الدين والمسارة إلى الجهاد في الأعداء الملحدين وشرع في مصادرات المتصرفين والعمال وتأول المحال على المستخدمين من الأعمال^(٣) . لكن المؤلف على النقيض من هذا التقيد اللاذع يزكى نفس هذا الشخص حينما يستحق ذلك ، فيقول بعد حديث بعين الرضا عن جهاده وانتزاعه بعض البلاد والمعازل من أيدي الفرنجة : « ومن اقتراحات شمس الملوك الدالة على قوة عزمته ومضاء همته ومستحسن ابتدائه ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق^(٤) .

ومن نماذج النقد لدى المؤلف حملته على الحكام الظلمة واعتباره ما يحل بهم نقمة من الله جزاء أفعالهم الشنيعة ، يقول مثلاً عن وفاة القائد الفاطمي والي دمشق « جيش بن الصمصامة » بعد أفاعيله الفظيعة بالدمشقيين : « وجاءه أمر الله تعالى الذي لا يدفع نازله ولا يرد راصله ، فهلك وكان سبب هلاكه ناسور خرج في سفله ولم يزل يستغيث من الألم ويتمنى الموت ويطلب أن يقتل نفسه فلا يتمكن ولا يمكن ويسئل في قتله فلا يقتل إلى أن هلك على هذه الحال ،

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢ ، وعرقه بكسر أوله وسكون ثانيه مؤنث ، بلدة في شرق طرابلس بينهما

أربعة فراسخ المرصد : ٢ : ٢٥٠ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢٤٢ .

(٣) السابق : ٢٤٥ .

(٤) نفسه : ٢٣٩ .

وكانت مدة هذه الولاية والفتنة تسعة شهور وقيل إن عدة من قتل من الأحداث ثلاثة ألف رجل^(١) وعادة ما يعقب المؤلف عند حديثه عن وفاة أحد الحكام أو الخلفاء بعبارة تصف شخصه وعهده وطريقة حكمه وسلوكه وما إلى ذلك مدحاً أو قدحاً ، يقول مثلاً : عن الخليفة الفاطمي « الحاكم بأمر الله » : « وكان غليظ الطبع قاسى القلب سفاكاً للدماء قبيح السيرة ، مذموم السياسة شديد التعجرف والإقدام على القتل غير محافظ على حرمة خادم ناصح ولا صاحب مناصح »^(٢) بينما يقول عن ابنه « الظاهر » : « وفى سنة ٤٢٧ وردت الأخبار من ناحية مصر بوفاة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله بالاستقساء فى ليلة الأحد ، النصف من شعبان سنة ٤٢٧ عمره اثنتان وثلاثون سنة ومولده بالقاهرة فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ ومدة أيامه خمس عشر سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ونقش خانمه ، بنص ذى الجود والمن يتنصر الإمام أبو الحسن ، وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية إلا أنه متشاغل باللذة محب للذة والراحة معتمد فى إصلاح الأعمال وتدير العمال وحفظ الأموال وسياسة الأجناد وعمارة البلاد على الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجرجرائى لسكونه إلى كفايته وثقته بغناؤه ونهضته »^(٣) .

وهو يزكى من يستحق التزكية حين يستحسن أفعاله ، يقول : « وقلد الأمر أبى على أحمد بن الأفضل أمير الجيوش وزارة الدولة وتدير المملكة فساس الكافة أعدل سياسة ودبر الأعمال أجمل تدير وجرى على منهاج أيه الأفضل رحمه الله فى حب العدل وإيثاره واحتواء الجور وإخماد ناره وأعاد على التواء والتجار ما اغتصب من أموالهم وقبض من أملاكهم وأمن البر التقى وأخاف المفسد الشقى وبالغ فى ذلك مبالغة أحرز بها شكر القريب والبعيد وحاز بها أجر الموفق السعيد »^(٤) .

(١) فيل تاريخ دمشق : ٥٤ ، وانظر كذلك : ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ .

(٢) السابق : ٨٠ .

(٣) نفسه : ٨٣ .

(٤) نفسه : ٢٢٩ .

يجرى ابن القلانسي في كتابه على سنن الأسلوب العادي المسترسل الفصيح ، غير المتكلف للترصيع ، والسجع لا يرد لديه إلا نادراً وعفويًا ، يقول مثلاً في حديثه عن هزيمة القائد التركماني « أتسر » حين أراد دخول مصر : « فسرت نفوس الناس بمصابه وتحكم السيوف في أتباعه وأصحابه فأملوا مع هذه الحادثة سرعة هلاكه وذهابه »^(١) ، ويقول في موضع : « وكان هذا الوزير موصوفًا بجميل الأفعال وحميد الفعال ومتانة الدين وانتقل إلى ربه مرضياً حميداً ، عند نفاذ المدة وانقضاء العدة ولله عاقبة الأمر ويده محتوم النفع والضرر »^(٢) . جرى هذا الكلام بمناسبة مقتل « المعين » وزير السلطان « سنجر » ابن السلطان « ملكشاه » السلجوقي سنة ٥٢١ هـ ، ويقول في كلام آخر : فر بمقالهم وشكر ما بدا منهم من الحوادث الدالة على حميد خلالهم ثم نص في الأمر عليه وأشار في ولاية العهد من بعده إليه وقرر معهم العمل بطاعته والانتهاى إلى إشارته »^(٣) .

وأسلوب المؤلف بوجه عام أسلوب ديواني أدبي جيد ، ولكنه في بعض الفقرات يتألق ليصل إلى درجة رفيعة من الجودة والبلاغة ، مثال ذلك حديثه عن : « ما حدث من الباطنية بدمشق وأعمالها وما آلت إليه أحوالهم من البوار وتعفية الآثار في بقية سنة ٥٢٢ هـ » يقول في قطعة من هذا الحديث : « فلما أحسوا بقربه منهم - يقصد بعض العرب المتورين من الباطنية أحسوا بقرب بهرام زعيم الباطنية بالشام وجماعته منهم - نهضوا بأجمعهم إليه نهوض الليوث من غابها للمحامة على أشبالها وطار وانحروهم مطار صقور الجبال إلى يعاقبها وأحجالها ، فحين دنوا من حزبه المغلول وحشده المخدول هجموا عليهم وهم في مخيم غارون وبهم مغترون وصاح صائحهم وهم غافلون وبما نزل بهم من البلاد ذاهلون إلى أن يتمكن فارسهم من امتطاء جواده وراجلهم من تناول عدته وعتاده أتى القتل على أكثرهم

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١١١ ، ١١٢ .

(٢) السابق : ٢١٦ .

(٣) نفسه : ٢٣٢ .

ضرباً بالسيوف ووجياً بخناجر الحتوف ورشقا بسهام البلاء ورجماً بأحجار الأقدار والقضاء^(١).

كما سبق يبدو أن الحكم المطلق على أسلوب ابن القلانسي بأنه يتميز بكثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل في نفس القارئ^(٢) حكم غير دقيق .

وتكثر لدى المؤلف الاستشهادات الشعرية طويلة وقصيرة^(٣) ، ويرز الجانب الأدبي في شخصية المؤلف من خلال روايته لكثير من الأشعار المناسبة لورود الحوادث لديه ، يقول مثلاً بعد حديثه عن مقتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ ، وما أحدثه ذلك من فتن وقلاقل : « على أن الأعمال كانت قد اضطربت والمسالك قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والأمنة المشكورة وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في الإفساد في الأطراف والعبث في سائر النواحي والأكناف ، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات » من الشعر تنطق بذكرها وتعرب بالاختصار عن جلية أمرها منها من جملة قصيدة يطول شرحها بتشبيها :

كذاك عماد الدين زنكي تنافت .: سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر .: وأنواع دياج حوتها مخاتمه
إلى أن يقول :

وزاد على الأملاك بأسا وسطوة .: ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله .: وراعت ولاية الأرض منه لوائمه
أناه قضاء لا يرد سهامه .: فلم ينجه أمواله ومغانمه
واذكره للحين منها حمامه .: وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلاً .: صريعاً تولى ذبحه فيه خادمه

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٢٢ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ص ٥٥٢ .

(٣) انظر مثلاً : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٢٣ ، ٣٣٤ .

وقد كان فى الجيش اللهم مبيته . . . ومن حوله أبطاله وصوارمه
وسمر العوالى حوله بأكفهم . . . تذود الردى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عصبه قد ترتبت . . . بأسهمها يردى من الطير حائمه
وكم رام فى الأيام راحة سره . . . وهمته تعلو وتفسى شكائمه
فأودى ولم ينفعه مال وقدره . . . ولا عنه رامت للقضاء مخاذمه
وأضحت بيوت المال نهى لغيره . . . يمزقها أبناؤه ومظالمه (١).
بل إله يثبت أحياناً بعض أشعاره هو ، حيث يقول فى رثاء أحد أصحابه ، شعر
منه :

فجعت بخل كان يؤنس وحشتى ... تذكره فى غيبة وحضور
فتى كان ذا فضل يعول بفضله ... وليس له من مثبه ونظير (٢).

(و) ماخذ على الكتاب :

باعتبار المؤلف من كبار رجال دولة الأتابكة فى دمشق فإنه يدارى أحياناً فى
بعض الأمور التى قد تخرج الحاكم فى صراحتها - رغم ما سبق إيرادها من نقد
للأمراء والحكام من الأتابكة وغيرهم - يقول فى حكاية مخامرة طفتكين رأس
الأسرة وأتابك الملك « دقاق بن تتش » حاكم دمشق مع الملك على قتل الأمير
« ساوتكين » : « واقتضت الحال فيما بينه - يقصد طفتكين - وبين الملك وأمراء
الدولة العمل على الأمير ساوتكين والإيقاع به ونعم عليه الأمر وقتل » (٣).

ونلمح أيضاً هذه الدبلوماسية والمواربة وعدم الانتقاد لمهادنة حاكم دمشق
للسليبيين ضد عماد الدين زنكى « حين قصد الأخير دمشق ، يقول : « وقد كان
تقرر الأمر مع الأفرنج على الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والإسعاد والامتزاج فى دفعه

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) السابق : ٣٤٥ .

(٣) نفسه : ١٣١ .

والاختلاط في صده عن مراده ومنعه وقعت المعاهدة على ذلك بالأيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه والتمسوا على ذلك مالا معيناً يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولون وقوة ورهاناً تسكن بها نفوسهم وأجيبوا إلى ذلك وحمل إليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين وشرعوا في التأهب للاتحاد والاستعداد للمؤازرة والإسعاد وكاتب بعضهم بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعامل والبلاد على إبعاد أتاك وصده عن نيل الأرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره وإعضال خطبه وقوة شوكته واستظهاره على غصب الإفرنج وقصد بلادهم^(١).

بل إن ابن القلانسي لا يحرك قلماً بالنقد واللوم ، حين يحاصر الدمشقيون «بانياس» - إحدى مدن الساحل الشامي - ويفتحونها ويسلمونها إلى الإفرنج طعمة سائغة كجزء مما تقرر في المهادنة ، ولا يزيد المؤلف على أن يقول : « ولم تنزل بانياس على حالها في المضايقة والمحاصرة إلى أن نفذت منها الميرة وقل قوت المقاتلة فسلمت إلى معين الدين وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما أرضاه من الإقطاع والإحسان وسلمها إلى الإفرنج ووفى لهم بالشرط ورحل عنها منكفئاً إلى دمشق ظافراً بأمله حامداً لعمله في أواخر شهر شوال^(٢) ، ومن ملامح مداراته أيضاً عدم إيراد الرأي الذي يتهم « طفتكين » بالتسبب في مقتل « مودود » القائد الذي أنزل الهزيمة بالفرنج بالتعاون مع « طفتكين » ، عند كلامه عن هذا الحادث ، إذ يقول : « ولما كان يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ ، دخل الأمير مودود من مخيمه بمرج باب الحديد إلى الجامع على رسمه ومعه أتاك ، فلما قضيت الصلاة وتنفل بعضها - ربما بعدها - مودود ، وعادا جميعاً وأتابك أمامه على سبيل الإكرام له ، وحولها من الديلم والأتراك والخراسانية والأحداث والسلاحية بأنواع السلاح من الصوامر المرهفة والصحمامات الماضية والنواحل المختلفة والخناجر المجردة ما شاكل الأجمة المشتبكة والغيضة الأثبة والناس حولهما لمشاهدة زيهما ، وكبر شأنهما ، فلما حصل في صحن الجامع وئب

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٢ ، وقد يلمس العذر للدمشقيين هنا نظراً لما عرف عن زنكي من غلظة وشراسة في معاملة الخصوم مسلمين أو غير مسلمين ، خاصة إذا استظهر عليهم . وقد سبق الحديث عن حقيقة درافع زنكي في أعماله العسكرية ، عند الحديث عن كتاب الباهر .

(٢) السابق : ٢٧٣ .

رجل من بين الناس لا يؤبه له ولا يحفل به فقرب من الأمير مودود كأنه يدعو له ويتصدق منه ، فقبض بيند قبائه بسرعة وضربه بخنجره أسفل سرته ضربتين ، أحدهما نفذت إلى خاصرته والأخرى إلى فخذه ، هذا والسيوف تأخذه من كل جهة وضرب بكل سلاح وقطع رأسه ليعرف شخصه فما عرف وأضرمت له نار فألقى فيها ، وعدا أتاك خطوات وقت الكائنة وأحاط به أصحابه ومودود متماسك يمشى إلى أن قرب من الباب الشمالي من الجامع ووقع فحمل إلى الدار الأتابكية وأتابك معه ماش ، واضطرب الناس اضطراباً شديداً وماجوا واختلّفوا ثم سكنوا بمشاهدتهم له يمشى وظنوا به السلامة وأحضر الجرائحي فخاط البعض وتوفى رحمه الله بعد ساعات يسيرة في اليوم المذكور ، فقلق أتاك لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه وكذلك سائر الأجناد والرعية وتألّموا لمصابه وزاد التأسف والتلهف عليه وكفن ودفن وقت صلاة العصر من اليوم في مشهد داخل باب الفراديس من دمشق وكل عين تشاهده باكية والمدامع على الوجنات جارية^(١) بينما يقول «العماد الأصفهاني» في شأن هذا الحادث : «وحضر - يقصد مودود - في الجامع في آخر جمعة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ ، وخرج ويده في يد طفتكين صاحب البلد ، وهو محفوف من جنده بدوى العدو والعدد ، فجاء إليه رجل وضربه بضربتين فنفذت إحدهما إلى خاصرته ، وحمل إلى دار طفتكين ، وعزفيه عزاء المسلمين ، وقيل إنه - يقصد طفتكين - خاف منه على دمشق فدمس إليه . ولولا ذلك لكان لما اهريق منه الدم شق عليه^(٢) ، ويقول ابن الأثير «وأذن الأمير مودود للعساكر في العود والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة ، وبقي في خواصه ، ودخل دمشق في الحادى والعشرين من ربيع الأول ليقيم عند طفتكين إلى الربيع . فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول ليصلى فيه وطفتكين ، فلما فرغوا من الصلاة ، وخرج إلى صحن الجامع ، ويده في يد طفتكين وثب عليه باطنى فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطنى وأخذ رأسه ، فلم يعرفه أحد فاحترق . وكان صائماً - أى مودود - فحمل إلى دار

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) تاريخ آل سلجوق ١٦١ .

طغتكين واجتهد به ليفطر ، فلم يفعل وقال : لا لقيت الله إلا صائماً ، فمات من يومه رحمه الله فقيل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله ،^(١) وربما لم يتردد هذا الرأي على مسامع ابن القلانسي في الأوساط الدمشقية حيث النفوذ الأتابكي .

ونظراً لطريقة « ابن القلانسي » الموجزة وعجلته في إيراد الأحداث في اقتضاب وسرعة أحياناً كثيرة ، فإن الغموض يصيب عباراته أحياناً ، يقول مثلاً : « وفي هذه السنة - سنة ٤٥٢ هـ - قصد الأمير عطية فيمن جمعه وحشده مدينة الرحبة ولم يزل نازلاً عليها ومضايقاً لأهلها ومراسلاً لهم إلى أن تسهل الأمر فيها وسلمت إليه وحصل بها في صفر من السنة »^(٢) .

وهكذا !! « عطية فقط !! » ، دون أن يعرف بعطية هذا من قبل في كتابه ولو بإشارات موجزة ، والمقصود « الأمير أسد الدولة عطية بن صالح بن مرداس »^(٣) ويقول أيضاً : « وفي ثالث جمادى الأولى منها - من سنة ٥٣٨ هـ - قبض على الأمير الحاجب أسد الدين أكرز وأخذ ما له وسلمت عيناه واعتقل وتفرق عنه أصحابه »^(٤) فأنت لا تدري من السياق السابق لهذا الكلام من هو أكرز « هذا ولا من فعل به ذلك ، ولا يوضح المؤلف ذلك ، بل ينخرط إلى خبر جديد عقب هذا مباشرة . وتقع في الكتاب أحياناً بعض الأغلط التاريخية ربما سهواً منه وربما من النساخ ، يقول : « وفيها - سنة ٤٥٤ هـ - وردت الأخبار من ناحية العراق بوفاة السلطان طغرلبيك وقيام ولده ألب أرسلان في المملكة بعده في مدينة الري »^(٥) ، والثابت تاريخياً أن السلطان ألب أرسلان ابن أخي طغرلبيك وليس ولده . وهو يكرر الخطأ أحياناً ، فعلى سبيل المثال يعتبر السلطان السلجوقي « مسعود بن محمد بن ملكشاه حفيداً للسلطان محمد وليس ابناً له وأنه ابن ابنه » محمود بن محمد بن ملكشاه « وأخوه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه » ، يقول مثلاً : « ووردت

(١) الكامل : ١٠ : ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٩٠ .

(٣) انظر في ذلك : ابن العديم زبدة الحلب ١ : ٢٩١ وما بعدها .

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٧ .

(٥) السابق : ٩١ .

الأخبار من ناحية العراق بالتقاء عسكري السلطان مسعود وأخيه داود^(١)، ويتكرر ذلك منه^(٢).

ومن الأخطاء الحسابية لديه ، قوله مثلاً : « ودخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة ، وأولها يوم الجمعة مستهل المحرم . وفي يوم الأربعاء العاشر من المحرم من هذه السنة^(٣) » فلا يكون عاشر يوم من شهر أوله الجمعة هو الأربعاء بالطبع ، كما لا نعدم في الكتاب بعض الأخطاء اللغوية^(٤).

(ز) الأهمية والتأثير :

ورغم ذلك فإن مؤرخنا يعتبر مصدراً أصيلاً وحجة في الفترة التي عاصرها خاصة ، يقول عنه أحد الباحثين : « وبالرغم من أن روايات ابن القلانسي تتميز بالإيجاز إلا أنها بتفردا وأسبقيتها الزمنية وتركيزها ، تعد ذات أهمية كبيرة ، خاصة وأن المؤرخ تولى منصباً رسمياً في دمشق وعاصر معظم الأحداث التي دونها في الأقسام الأخيرة من كتابه^(٥) ، ويقول آخر : « أمضى حياته في ديوان الإنشاء بالبلاط الدمشقي ، وارتقى فيه حتى صار رئيساً له ، ولذا يعتبر ثبناً وحجة فيما كتب . إذ حرص على أن يكون دقيقاً وموضوعياً في كل ما تناوله إلا إذا تعرضت سمعة سيده للخطر^(٦) ومن خلال العرض السابق يبدو أن هذا الكلام يحالفه الصواب كثيراً . وتعظم أهمية الكتاب أيضاً لكونه مصدراً أساسياً لتاريخ الحملة الصليبية الأولى^(٧) .

-
- (١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٦١ .
 - (٢) انظر مثلاً : ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ولاحظ هوامش الصفحات المذكورة ، وفي تصحيح هذه الأخطاء يمكن الرجوع إلى الكامل لابن الأثير ، وكذلك شجرة النسب السلجوقية في تاريخ الدول الإسلامية للدكتور / أحمد السعيد سليمان ، على سبيل المثال .
 - (٣) ذيل تاريخ دمشق : ٣١٢ ، وانظر كذلك ص ٣٣١ من ٢٠ .
 - (٤) السابق : ص ٢٩٩ .
 - (٥) د. عماد الدين خليل ، الإمارات الأرتقية : ٤١ .
 - (٦) راتسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١ : ٤٧٦ .
 - (٧) انظر في ذلك :

Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusader PP. 10 - 11 .

٤. زبدة الحلب من تاريخ حلب

(أ) المؤلف : أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله من بنى أبي جرادة العقيلي ، ولد سنة ٥٨٨ هـ / سنة ١١٩٢ م وتوفي سنة ٦٦٠ هـ / سنة ١٢٦٢ م وهو من أسرة واسعة الثراء ، صاحبة منزلة عالية في العلم والفقہ والقضاء والأدب في حلب نشأ مؤرخاً وتعلم في حلب على يد والده وعمه وعديد من العلماء وتعلم الخط وأحسنه . وترحل برفقة أبيه وهو فتى يافع إلى دمشق والقدس والعراق والحجاز ، وجالس منذ شبابه الأمراء والعلماء وعمل بالتدريس شطراً كبيراً من حياته ، ورحل لمصر وبغداد مرات ، كان في بعضها سفيراً لملوك حلب ، ووصل إلى مصر قبل وصول المد المغولي إلى مدينة حلب سنة ٦٥٧ هـ ، فلما هزم المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، عاد إلى بلده ولكنه فجع بما حل به من دمار فبكاه بقصيدة دامة ولم يقو على المقام به فرحل عنه إلى مصر ليموت بها بعد سنتين ، ويدفن بسفح المقطم .

وقد بلغ منزلة عالية لدى الملوك والأمراء ، ويذكر بروكلمان أنه وزير لبعضهم ، كما يذكر أن هولاء كو عينه قاضياً للشام ، ولكن د. سامي الدهان محقق الكتاب الذي بين أيدينا ينفي ذلك معللاً له بأن ابن العديم رفض أن يجعل نفسه في خدمة الأعداء . كما بلغ مكانة عظيمة في العلم والفقہ - وفق المذهب الحنفي - والأدب والتأليف ، وماله إلى جانب شعره كتب منها : الدراري في ذكر الدراري ، والأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة وضوء المصباح في البحث على السماح ، وكتاب في الخط وعلومه ووصف آدابه وأقلامه وطروسه ، وكتاب الإنصاف والتحرى في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري وتذكرة ابن العديم ، وكتابه الشهير « بغية الطلب في تاريخ حلب » وهو على التراجم وأخيراً « زبدة الحلب من تاريخ حلب »^(١) .

(١) انظر في ترجمته مثلاً : أبو شامة : ذيل الروضتين ٢١٧ ، ياقوت معجم الأدياء ١٦ : ٥ - ٥٧ ، بروكلمان تاريخ الأدب ٦ : ٧٥ - ٧٨ ، د. سامي الدهان مقدمته لزبدة الحلب ، د. شاکر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ٢٦٣ - ٢٦٦ . ولم أقف في تراجمه الكثيرة التي طالعناها على ما ذكره بروكلمان من أنه ولي القضاء لهولاكو إلا لدى عباس المزراوي في التعريف بالمؤرخين ... ص ٧٨ ، حيث يقول : « ولما جاء هولاء ففرض إليه قضاء الشام » ولم يذكر د. الدهان المصادر التي استند إليها في نفي ذلك .

(ب) مضمون الكتاب :

نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق الكتاب بتحقيق د. سامي الدهان ، في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ م . وقدم بفاتحة مسهبة عن المؤلف وعلمه وأدبه ومكانته ، أما عن الكتاب نفسه ، فيبدأ بفاتحة قصيرة يتحدث فيها المؤلف بعد الحمد والثناء عن دافع التأليف ، وعلى غير عادة الكتاب والعلماء في تلك العصور والذين كانوا غالباً يقومون بإهداء مؤلفاتهم للأمراء والملوك في عبارات تودد وتزلف صريحة ، على غير هذه العادة ، يبين ابن العديم دافعه لتأليف الكتاب وهو طلب ربما جاء من قبل الملك « العزيز ابن الظاهر ابن الناصر صلاح الدين الأيوبي » وأتابكه ، وذلك في إهداء عادي غير متكلف إلى حد ما مقارنة بغيره ، حيث يقول : « وبعد ، فإن بعض من يتعين على امثال أمره ويجب على الانقياد إلى مولاته وبره التمس مني تعليق ما وقع إلى من ذكر أمراء حلب وولائها وملوكها ورعاتها فسارعت إلى تحصيل غرضه ، وقمت من تلبيته بمفترضه »^(١) ، وواضح من النص أنه لم يذكر بصراحة اسم المهدي إليه وهو الملك « العزيز »^(٢) . ثم يبين المؤلف بعد ذلك سر تسمية الكتاب فيقول : « ورسمته : بزبدة الحلب من تاريخ حلب ، لأنه منتزع من تاريخي الكبير للشهباء المرتب على الحروف والأسماء »^(٣) وهو يقصد هنا كتابه « بغية الطلب » ، ثم يبدأ بقسم يذكر فيه أخبار حلب في قديم الزمان ، فيتحدث عن تسميتها واشتقاقها وأول من بناها وأحوالها ومن ملكها قديماً ، ثم يدلف إلى تاريخها في أول الإسلام حيث فتحت في حركة الفتوح الأولى أيام الراشدين ثم تاريخها في أيام بني أمية ثم بني العباس والمتغلبين عليها في أيامهم حتى سنة ٦٤١ هـ ، في شكل موجز غالباً ، ويبدو أنه كان ينوي إكمال الكتاب إلى ما بعد ذلك ، حيث توفي سنة ٦٦٠ هـ ، فهو يفصح عن هذه النية بقوله : « ... على ما نذكره في سنة اثنتين وأربعين وستمائة »^(٤) . ولكن يبدو أن مشاغله ومهامه السياسية قد أخذته بعيداً عن إكماله . وقد تضخمت أخبار الفترة التي عاصرها المؤلف في الكتاب إلى حد ما عما سبقها

(١) زبدة الحلب : ص ٥ ، من المتن .

(٢) انظر مقدمة د. الدهان لزبدة الحلب ج١ ص ٦١ ، ٦٢ من المقدمة .

(٣) زبدة الحلب : ١ : ٦ .

(٤) السابق : ٣ : ١٦٧ .

حيث تبلغ حوالي ٥٤ عاما شغلت حوالي سدس حجم الكتاب بينما هي زمنيا تمثل جزءا من ١٢ جزءا - غير قسم ما قبل الإسلام حتى الهجرة - من الفترة الزمنية التي عالجهما الكتاب . ويسير الكتاب على الطريقة الموضوعية حسب الحكام في سياق مرتب زمنيا .

(ج) مصادر الكتاب :

سبقت الإشارة إلى أن « الزبدة » مستخلص من البغية ، وقد ذكر المؤلف مصادره بصورة وافية في البغية ، ولهذا فقد أغفل كثيرا النص على مصادره في الزبدة^(١) ، ولكن المتصفح للكتاب يستطيع استخلاص بعض مصادره ، كما يلي :

أولاً : المصادر السماعية : ينوع المؤلف في طريقة إشارته إليها ، ويقول مبهماً إياها ، « قيل : إن بيت لاها ، كان يقيم به أيضاً ... »^(٢) ، « وقيل إن إبراهيم - ~~عليه السلام~~ - ... »^(٣) ، « وذكر بعضهم أنها ... »^(٤) ، « وبلغني أن ... »^(٥) ، « قيل إن الذي ... »^(٦) ، « وقيل إنه ... »^(٧) ، « وقد يفصح عنها أحياناً فيقول : « قال القاضي أبو غنائم قاضي حلب ... »^(٨) ، « وأخبرني فلك الدين ابن المسيري أنه ... »^(٩) ، « وأخبرني والدي - رحمه الله - أن ... »^(١٠) ، « وأخبرني القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ... »^(١١) ، « هذا ما حكاه أهل حران عنه - يقصد عماد الدين زنكي - وأما فلاحو حلب فإنهم يذكرون ضد ذلك »^(١٢) .

(١) الزبدة ١ : ٦٥ من مقدمة المحقق .

(٢) السابق ١ : ١٠ .

(٣) نفسه ١ : ١١ .

(٤) نفسه ١ : ١٢ .

(٥) نفسه ٢ : ٢١ ، ١٣٩ .

(٦) نفسه ١ : ١٣ .

(٧) نفسه ٢ : ٢٣ .

(٨) نفسه ٢ : ٢٢٨ .

(٩) نفسه ٣ : ٢٢٩ .

(١٠) نفسه ٢ : ٢٨٣ ، وروى أيضاً عن والده في ٢ : ١٠٤ ، ٣ : ٤١ .

(١١) نفسه ٣ : ١٢٣ .

(١٢) نفسه ٢ : ٢٨٤ .

ثانياً : المصادر المكتوبة :

١ - المؤلفات السابقة : أشار إليها أيضاً مبهمه أحياناً ، كقوله : « وشاهدت على ظهر كتاب عتيق من كتب الحلبيين بخط بعضهم ... »^(١) أو « وقال بعض المؤرخين من المسيحية ... »^(٢) ، وقد يحدد مصدره إلى حد كبير فيقول : « وذكر أبو الريحان البيروني في كتاب القانون المسعودي ... »^(٣) ، « وذكر يحيى بن جرير التكريتي في كتاب له ضمنه أوقات بناء المدن ... »^(٤) .

٢ - الوثائق : لا يكتر المؤلف من إيرادها على الرغم من صلاحته ومكانته مما يتيح له يسر الاطلاع عليها ، ولعله أورد كثيراً منها في البغية ، ومن أمثلة استخدامه لها نصاً قوله : « وكتب الإخشيد في هذه السفارة إلى عبده كافر الخادم إلى مصر وقال له : وما يجب أن تقف عليه - أطال الله بقاءك - أنى لقيت أمير المؤمنين - يقصد المتقى العباسي - بشاطئ الفرات فأكرمني وحباني ، وقال : كيف أنت يا أبا بكر أعزك الله ، فرحاً بأنه كناه ، والخليفة لا يكنى أحداً »^(٥) ، ويقول أيضاً في حديثه عن توقيع الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى أهل حلب : « وكتب لأهل حلب توقيعاً بإطلاق المكوس والمظالم ، والصفح عن الخراج ، وهو عندي متوج بعلامة الحاكم عليه « الحمد لله رب العالمين » ونسخته : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا من أمر الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لجميع أهل حلب وأعمالها ، أنه لما انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنتم فيه من الظلمة المدلهمة ، وقبيح ظفر من يتولى أموركم في المعاملات وزيادتهم عليكم في الخراج والجبايات أضعافاً لكم وعدولا عن سنن الحق بكم ، أمر - زاد الله أمره علواً ونفاذاً - بإطلاق المؤن من دار كوره ونظائرها ، والصفح عن الواجب عليكم من مال الخراج لاستقبال سنة سبع وأربعمائة ، لتعلموا أن ضياء الدولة النبوية قد لمع وظهر ، وأن حنوس الظلام قد

(١) الزبدة : ١ : ١٤ من مقدمة المحقق .

(٢) السابق : ١ : ١٧ .

(٣) نفسه : ١ : ١٤ .

(٤) نفسه : ١ : ١٥ .

(٥) نفسه : ١ : ١٨ .

انجذاب ودثر . وذكر تمامه ،^(١) .

وأحياناً يفهم من كلام المؤلف أنه اعتمد على وثائق ولكن دون إيراد النص ، كقوله : « وقلت المغلات في بلد حلب قباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب إلى يومنا هذا ، غير ما باعه في غير ذلك اليوم من الأملاك »^(٢) وقوله أيضاً : « وكتب - أى أقسنقر البرسقى أحد القادة السلاجقة - لأهل حلب توقيماً بإطلاق المظالم والمكوس نسخته موجودة »^(٣) .

ثالثاً : المعاصرة والمشاهدة :

عاصر المؤلف كثيراً من الأحداث أواخر كتابه ، فضلاً عن أنه شارك في حياته في كثير من الأحداث وقام بمهام كبيرة لدى الملوك والسلاطين والأمراء مما يجعله هو نفسه مصدراً أساسياً حياً فريداً خاصة في الأقسام الأخيرة من كتابه يقول مثلاً وهو يتحدث عن أثر حرب كانت بين « صالح المرديسى » ، و « مرتضى الدولة » صاحب حلب سنة ٤٠٥ هـ : « وقتل جمع كثير من العسكر ومقدار ألفى راجل من العوام وآثار عظامهم إلى اليوم مدفونة في أرجام حجارة شبيهة بالتلال ، فيما بين تل حاصد وبوشلا »^(٤) .

ولا شك أن المعاصرة والاطلاع الشخصى يضيفان قوة على الخبر التاريخى المروى ، يقول المؤلف مثلاً في حديثه عن قاض دفنه « صالح بن مرداس » حياً بقلعة حلب حين دخلها سنة ٤١٦ هـ : « وأما القاضى أبو الفضل بن أبى أسامة فدفنه حياً فى القلعة ، ولما جدد الملك العزيز أبو المطفر محمد بن غازى - رحمه

(١) نفه : ١ : ٢١٤ .

(٢) الزبدة : ٢ : ١٥٧ .

(٣) السابق : ٢ : ٢٣٠ .

(٤) نفه : ١ : ٢٠٥ .

الله - الدار الكبيرة التي ابتناها بقلعة حلب ، وحفر أساسها ، وجدوا مطمورة فيها رجل في ساقيه لبنة حديد ، وهو جالس فيها دفن حياً ، ولم يبق إلا عظامه ، وهو على هيئة القاعد فيها ولا شك في أنه ابن أبي أسامة المذكور ، والله أعلم ،^(١) .

رابعاً : الآثار :

عابن المؤلف ما خلفته يد التاريخ من آثار في « حلب » ووقف عليها ، وشاهدها بنفسه ، يقول مثلاً : « ثم عاد - يقصد منجوتكين أحد أمراء الجيوش الفواطم بالشام - إلى حصار حلب - فبنى مدينة بإزائها وشتى بها ، وآثار العمارة التي تظهر حول نهر قويق هي آثار تلك العمائر »^(٢) .

خاصة : النقود :

يدور المؤلف منهجياً مدققاً على طريقة المؤرخين المحدثين في أيامنا حين يعتمد على السكة والعملات ، يقول مثلاً : « ورأيت فلوساً عتيقة ، فتتبع ما عليها مكتوب فإذا أحد الجانبين مكتوب عليه : ضرب هذا الفلوس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة ، وعلى الجانب الآخر : مما أمر به الأمير صالح بن علي أكرمه الله »^(٣) ، ويقول : « ورأيت فلوساً عتيقة فقرأت عليها : ضرب هذا الفلوس بقنسرين سنة سبع وخمسين ومائة ، وعلى الجانب الآخر : مما أمر به الأمير موسى مولى أمير المؤمنين »^(٤) .

(د) منهج الكتاب :

بحكم اهتمامات ابن العديم التفصيلية بأخبار حلب ومجاوراتها فإنه كثيراً ما

(١) نفسه : ١ : ٢٣٠ .

(٢) الزبدة : ١ : ١٩٠ .

(٣) السابق : ١ : ٦٠ .

(٤) نفسه : ١ : ٦٠ ، وقنسرين بكسر أوله وفتح أو كسر ثانيه وتشديده مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، كانت عامرة أهلة ، فلما غلب الروم على حلب في سنة ٣٥١ هـ خاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد ولم يبق بها إلا خان تنزله القوافل . المرصد ٢ : ٤٥٣ .

ينفرد بروايات لم ترد في غيره من المصادر المعاصرة له أو في أكثرها على الأقل - حسبما أعرف - ، من أمثلة ذلك : خبر المَجَنِّ الفسوعي^(١) وأبى حرب الخُجَنْدِي^(٢) ، وسنان والإسماعيلية^(٣) ، وإشارة وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين عليه بالقبض على عمه الملك العادل بن أيوب سنة ٥٩٠ هـ في حلب^(٤) ، وأخبار المهام السياسية التي قام بها المؤلف نفسه وتفرّد برواية أخبارها وتفاصيلها ، فقد روى أخبار حوالى سبع مهمات وسفريات قام بها للصلح والتوفيق بين الملوك والأمراء^(٥) ، ويفصل ابن العديم كثيراً فيما أوجزه مؤرخ كابن الأثير من خبر الخلاف بين الإخوة أبناء صلاح الدين بعد وفاته^(٦) .

ولا يخلو الكتاب من الالتفات إلى الجوانب الحضارية العمرانية^(٧) والبيئية في حلب وسوريا الشمالية في غمرة اهتماماته السياسية السريعة المتوالية ، يقول مثلاً : « ووقع الوباء العظيم بحلب ، حتى أنه مات في رجب من هذه السنة - سنة ٤٥٩ هـ - زهاء عن أربعة آلاف فضلاً عن سائر الشهور »^(٨) ، كما لا يهمل الإشارة إلى الظواهر الطبيعية ، يقول مثلاً : « وانقطع المطر في كاتونين ونصف شباط ، ثم تدارك فأخصب الزرع واستغل الناس ، وكان بحلب غلاء شديد »^(٩) ، ويسهب في الحديث عن الزلازل - التي أصابت حلب وغيرها سنة ٥٣٣ هـ ، يقول : « وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر حدثت زلزلة شديدة ثم اتبعتها أخرى ، وتواصلت الزلازل فهرب الناس من حلب إلى ظاهر البلد وخرجت الأحجار من

(١) نفسه : ٢ : ١٢٩ - ١٤١ .

(٢) نفسه : ٢ : ١٦١ - ١٦٣ .

(٣) نفسه : ٣ : ٢٢ ، ٣٤ .

(٤) نفسه : ٣ : ١٣١ .

(٥) الزبدة : ٣ : ٢٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ .

(٦) السابق : ٣ : ١٣٢ وما بعدها .

(٧) نفسه : مثلاً : ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٨) نفسه : ٢ : ١٠ .

(٩) نفسه : ٢٠ : ٢١٧ - ٢١٨ .

الحيطان إلى الطريق ، وسمع الناس دويًا عظيمًا ، وانقلبت الأثارب فهلك ستمائة من المسلمين ، وسلم الوالى ومعه نفر يسير وهلك أكثر البلاد من شبح وتل عمار وتل خالد وزردنا وشوهدت الأرض تموج والأحجار عليها تضطرب كالغريبال . وانهدم فى حلب دور كثيرة وتشعث السور واضطربت جدران القلعة وسار أتاك - يقصد عماد الدين زنكى - مشرقًا فنزل القلعة فأخذها وسار منها إلى القلعة - لا أدري أى القلاع يقصد فى هذا التكرار - ثم إلى الموصل . وتواترت الزلازل إلى شوال ، قيل أن عدتها كانت ثمانين زلزلة . وكان فى سنة اثنتين وثلاثين قد عول أتاك على قبض أملاك الحلبيين التى استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام يلغازى ، ثم قرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فأدوا من ذلك ألف دينار ، وجاءت هذه الزلازل ، فهرب أتاك من القلعة إلى ميدانها حافيًا ، وأطلق القطيعة ^(١) ويتحدث أيضا عن غلاء الأسعار ورخصها فيقول مثلا عنها سنة مقتل عماد الدين زنكى ، سنة ٥٤١ هـ : « وكانت الأسعار فى السنة التى توفى فيها رعية جدا ، والحنطة ست مكاكيك بدينار ، والشعير اثنا عشر مكوكا بدينار ، والعدس أربع مكاكيك بدينار ، والجلبان خمسة مكاكيك بدينار ، والقطن ستون رطلا بدينار ، والدينار هو الذى جعله أتاك دينار الغلة ، وقدره خمسون قرطيسا برسا . وذلك لقلّة العالم ^(٢) . بينما يقول عنها سنة وفاة ولده « نور الدين محمود » سنة ٥٦٩ هـ : « وارتفعت الأسعار مع كثرة المغلات لكثرة العالم ، حتى كانت الأسعار فى السنة التى مات فيها بعد ذلك الرخص فى السنة التى مات فيها والده الحنطة مكوك ونصف بدينار ، والشعير مكوكان ونصف بدينار ، والعدس مكوك ومصع - هكذا فى النص وربما هى : ونصف بدينار ، والجلبان كذلك والقطن ستة أرطال جوز بدينار ^(٣) .

(١) الزبدة : ٢ : ٢٧٠ ، ٢٨٠ .

(٢) السابق ٢ : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، والبُرّس القطن ، والجلبان عشب حولى من الفصيلة القرنية بعضها تؤكل بذوره وبعضها يزرع لأزهاره الوسيط برس ، جلب .

(٣) نفسه : ٢ : ٣٤١ .

كما يبدى المؤلف اهتماماً واسعاً بالحياة الثقافية والمدارس وجهود نور الدين بن زنكى فى بنائها وتجديدها واستقدام شيوخها^(١). ويتحدث كذلك عن المدائح والإنشاد ومجالسه^(٢) وعن مشاركاته هو الاجتماعية ووكالته فى عقود زواج عن أمراء حلب وعن أرقام الصداق^(٣)، وعن الاحتفال بميلاد أحد الأمراء وحفلات الختان، وتلك الاجتماعيات الحية بحكم مشاركته ومعاصرته، ويقول مثلاً: «وولد للسلطان الملك الظاهر ولده الملك العزيز من ابنة عمه الخاتون « ضيفة خاتون» فى يوم الخميس خامس ذى الحجة من سنة عشر وستمائة، فضربت البشائر وزينت مدينة حلب وعقدت القباب، وفى اليوم السابع من ميلاده ختن السلطان أخاه الملك الصالح، واحتفل بختانه ونصب الزورق من قلعة حلب إلى المدينة، ونزل فيه الرجال، وعملوا من الآلات والتماثيل التى ركبوها حالة النزول أنواعاً وطهر أولاد الأكابر من أهل المدينة، شرفهم وخلع عليهم»^(٤).

وحدث المؤلف عن الوفيات قليل موجز ربما لطابع الإيجاز فى كتابه ككل، ومن المرات القليلة - التى يثبت فيها إحدى الوفيات فى كتابه ويشير إلى أشياء عنها، قوله: «وتوفى قاضى حلب أبو طاهر صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن أحمد الصالحى الهاشمى، مؤلف كتاب الحنين إلى الأوطان، فى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وكان فاضلاً، وأظن أن ولايته القضاء كانت بعد أيام سعيد الدولة بعد القاضى أبى محمد عبيد الله بن محمد بن أحمد»^(٥).

ومن خلال رواية الأحداث يتحدث المؤلف عن أفراد أسرته بما يبين مكاتبتها الواضحة فى مدينة حلب وعراقها، فهو يتحدث - ولو بصورة عارضة ضمن رواياته - عن مناصبهم وبخاصة فى القضاء، وصلاتهم بالأمراء وأرباب الأمور وقيامهم بالرسالة بين الملوك^(٦)، يقول مثلاً: «وولى قضاء حلب أبى الوليد سليمان بن

(١) الزبدة: ٢: ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) السابق: ٢: ٤٠ - ٤٢.

(٣) نفسه: ٣: ٢٢٧.

(٤) نفسه: ٣: ١٦٥.

(٥) السابق: ١: ١٩٦، ١٩٧.

(٦) انظر مثلاً: الزبدة: ٢: ٩٢، ١٢٨، ١٧٣، ٢٧٤، ٣١٠، ٣: ٣٨، ٤٨، ١٤٨.

خلف الباجي سنة واحدة ، ثم وليه بعده القاضي أبو الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة ، جد جد أبي ،^(١) ، ومات قاضي حلب أبو الحسن ابن أبي جرادة في سنة خمس وأربعين^(٢) .

وككل مؤرخي الحروب الصليبية المسلمين في عصره تبدو لدى المؤلف الروح العدائية في حديثه عن الصليبيين في ألفاظ وعبارات من مثل : لعنهم الله ، لعنة الله ، اللعين^(٣) .

كما تظهر حميته الدينية في رواية خبر « تادرس النصراني ، الذي كان وزير أسد الدولة صالح بن مرداس » في حلب ، وكان جائراً على المسلمين ، كما يذكر المؤلف ، مستحثاً لابن مرداس على التحامل على كثير من شيوخهم لأشياء كانت في نفسه يقول : « وكان وزير صالح تادرس بن الحسين النصراني ، فأخذ في الوقعة وصلب ، وكان هذا النصراني متمكناً عند صالح ، وكان صاحب السيف والقلم ، وقيل : إنه كان يترجل له - لعنه الله - الولاة والقضاة ، فمن دونهم إلا القاضي أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان قاضي حلب ، والشيخ أبا الحسن المهذب بن علي بن المهذب فإنه أراد أن يترجل له فحلف ألا يفعل . وقيل إن أهل « حارس » قرية بمعرة النعمان - قتلوا حماه ، وكان يقال له الخورى ، وكان من أهل تلمنس لأذيته لهم ، فحين سمع تادرس بقتل حميه الخورى ، خرج في عسكر حلب ، وطلب أهل حارس في الجبال والضياع وهرب القاتلون إلى أفامية ، فلحقهم فسلمهم إليه واليها ، فكتب إلى صالح يستأذنه في قتلهم ، فأذن له فقتلهم وصلبهم فلما أنزلوا عن الخشب ليصلى عليهم ويدفنوا ، صلى عليهم خلق عظيم . وقال الناس حينئذ يكابدون النصارى : قد رأينا عليهم طيوراً أيضاً ، وما هي إلا الملائكة . فبلغت هذه الكلمة تادرس - لعنه الله - فنقمها على أهل المعرة واعتدها ذنباً لهم . فاتفق أن صاحبت امرأة في الجامع ، يوم

(١) الزبدة ١ ٢٥٨ .

(٢) السابق ١ : ٢٦٩ .

(٣) نفسه : مثلاً ٢ : ١٣٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ .

الجمعة ، وذكرت أن - صاحب الماخور أراد أن يقصبتها نفسها ، فنفر كل من فى الجامع إلا القاضى والمشايخ وهدموا الماخور وأخذوا خشبة ، وكان أسد الدولة صالح فى صيدا ، سنة سبع عشرة وأربعمائة ، فلما توجه إلى حلب سنة ثمانى عشرة ، لم يزل به تادرس حتى اعتقل مشايخ المعرة وأمائلها ، فاعتقل منهم سبعين رجلا ، وقطع عليهم ألف دينار . وقال له صالح حين لج عليه : أقتل المهذب أو أبا المجد ، بسبب ماخور ؟ ما أفعل ؟ (١) .

وتتوافر لأحداث الكتاب الدقة الزمنية ، التى بلغت من التحديد أن أرخ المؤلف للأحداث بالساعة من اليوم ، يقول مثلاً : « وسار يوم السبت سلخ المحرم على أربع ساعات » (٢) ، « وصلبه على سبع ساعات من يوم الأحد مستهل صفر » (٣) ويبدو ابن العديم مؤرخاً دقيقاً حين يوضح درجة يقينية ما يرويه فى كثير من الأحيان ، فإن كان واثقاً من صحة روايته جزم بما يقول ، كقوله مثلاً : « وقيل إن المقتدر ولى حلب مولاه نكين الخادم أبا منصور ثم عزله عنها ، والصحيح أنه ولى الشام ومصر مؤنس المظفر الخادم » (٤) ، فإذا لم يكن متأكداً تمام التأكد من صحة روايته خفف من درجة يقينه وجزمه فى الرواية كقوله : « ثم ولى حلب أبو العباس أحمد ابن سعيد بن العباسى الكلابى ، ومدحه أبو بكر الصنوبرى ، وكان بها نائباً عن أبى بكر الإخشيد محمد بن طغج بن جف ، فى غالب ظنى ، فإن الإخشيد استولى على الشام إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة » (٥) ، فإذا ما صارت درجة يقينه إلى مجرد الظن ، نص على ذلك ، كقوله : « وأظن أن قاضى حلب فى هذا

(١) الزبدة ١ : ٢٣٢ - ٢٣٤ . وقطع عليهم أى جعل عليهم قطيعة من المال يؤدونها ، تلمس بفتح الميم ونشديد النون وفتحها حصن قرب معرة الشام ، وتلمس من قرى حمص . المرصد ١ : ٢١٣ .

وأقامية مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص . المرصد ١ : ٧٩ ، والماخور بيت الرية ومجمع أهل الفسق والفساد ، والجمع مواخر ومواخير الوسيط (فخر) .

(٢) السابق ١ : ١٧٨ .

(٣) نفسه ١ : ١٧٩ .

(٤) نفسه ١ : ٩ .

(٥) نفسه ١ : ٩٨ ، ٩٩ .

التاريخ كان أبا طاهر محمد بن مفيان الدباس أو قبل هذا التاريخ^(١)، وتخف في الكتاب روح النقد، ربما لطابعه الإيجازي السريع غالباً، ولكننا مع ذلك نظفر ببعض النقد لديه، كنقده لمصدره في قوله: «وذكر العظمى في تاريخه أنه - يقصد عماد الدين زنكى - حصرها - بقصد دمشق - في هذه السنة - سنة ٥٢٨هـ - مدة ثم رحل إلى حلب، ثم شرق إلى الموصل، والصحيح أنه حصرها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة^(٢)» وهو هنا يتفق مع قول ابن الأثير: «وفي هذه السنة - سنة ٥٢٩هـ - حصر أتابك زنكى دمشق، وكان نزوله عليها أول جمادى الأولى^(٣)».

ومن نساذج النقد لديه أيضاً نقده للحكام وتقييمه لأعمالهم أحياناً، كقوله: «وكان محمود - وهو محمود بن نصر بن صالح بن مرداس - في أول ملكه حسن الأخلاق، لين الجانب، كريم النفس عفيفاً عن الفروج والأموال، ثم تنكرو زاد عليه حب الدنيا، وجمع المال فلحقه من البخل ما لا يوصف^(٤)»، ويقول عن أحد الحكام أيضاً: «وانتقم الله منه ببعض ظلمه في الدنيا^(٥)».

(هـ) الأسلوب: سهل عادي، يستشهد فيه بالشعر قليلاً على شكل قصائد طويلة، كإيراد قصيدة طويلة لأحد الشعراء في مدح «عزيز الدولة» صاحب حلب من قبل «الحاكم بأمر الله» صاحب مصر سنة ٤٠٧هـ^(٦)، ولكنه يستشهد بأبيات قصار كثيراً في مواكبة الأحداث والمناسبات^(٧). وتبدو ثقافة المؤلف الأدبية في مواضع من الكتاب، انظر إليه مثلاً وهو يرهن على خيرة بأحوال الشعر المنحول منه والأصيل حين يقول: «وينسب إلى سيف الدولة - يقصد الحمداني

(١) الزبدة ١: ١٠١.

(٢) السابق ٢: ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) الكامل ١١: ٢١.

(٤) الزبدة ٢: ٤٢.

(٥) السابق ٢: ٢٤٦.

(٦) نفسه ١: ٢١٧، ٢١٨.

(٧) نفسه ٢: ١٥، ١٨، ٢٨٠، ٣، ٦٨، ٧٢، ١٢٥.

- أشعار كثيرة لا يصح له منها غير ييتين ، ذكر أبو القاسم الحسين بن علي المغربي كاتبه - وهو جد الوزير أبي القاسم المغربي - أنها لسيف الدولة . ولم يعرف له غيرها ، وكتب بهما إلى أخيه ناصر الدولة ، وقد مد يده إلى شيء من بلاده المجاورة له ، من ديار بكر وكانت في يد أخيه :

لست أجفون إن جفيت ولا أب . . . رك حقاً علي في كل حال
إنما أنت والد والأب الجا . . . في يجازي بالصبر والاحتمال (١) .

ونجىء في لغة المؤلف بعض الألفاظ الدخيلة . ولكنها ربما كانت شائعة الاستعمال في أوساط مجتمعة في تلك الأيام مثل كلمة : قطبان وهي يونانية بمعنى حاكم المقاطعة ، (٢) لا لكه وهي فارسية بمعنى : حذاء (٣) .

(ر) مآخذ علي الكتاب : أخذ أحد الباحثين (٤) علي ابن العديم في الزبدة بعض المآخذ ، فقال : « وفي المادة التي قدمها ابن العديم عن عصر صلاح الدين بعض الخلط والخطأ التاريخي الذي فات حتى علي المحقق الدكتور سامي الدهان من ذلك القصة المروية عن حصار صلاح الدين لبلد الإسماعيلية (مصيف) وانسحابه منه بعد توسط خاله شهاب الدين سنة ٥٧١ هـ ، ويقول ابن العديم مباشرة : ثم صالحهم ... وسار بعساكره إلى مصر وكان في شروط الصلح أن يطلق عز الدين جورديك وشمس الدين علي بن الداية وأخوه سابق الدين ويدر الدين . وهذا ليس من شروط الصلح مع الإسماعيلية إنما كان من شروط الصلح مع الموصليين والحلبيين الذين احتجزوا أولئك الرهائن لصدقتهم لصلاح الدين . كذلك يعمد ابن العديم إلى نقل الحوار الذي وقع بين عماد الدين زنكي أمير سنجار مع جنده سنة ٥٧٩ هـ عندما كان صلاح الدين محاصراً لحلب وينسبه لصلاح الدين ليوهم القارئ أن العسكر الأيوبي لم يشأ مقاتلة الحلبيين أو دخول

(١) الزبدة ١ : ١٥٢ .

(٢) السابق ١ : ٢١٠ هامش رقم (١) .

(٣) نفسه ١ : ٢٣٨ هامش رقم (١) .

(٤) دريد نوري : سياسة صلاح الدين ٢٢ ، ٢٣ .

حلب ، فيقول : فجد الملك الناصر على محاصرة حلب ... واجتمع إليه الأجناد من العساكر والرجال وطلبوا منه قرارهم - أى مقرراتهم تقريرا - فمطلبهم فقالوا : ذهبت أخبارنا ونحتاج لغلاء الأسعار إلى ما لا بد منه ، فقال لهم أنتم تعلمون حالى وقلة ما لى ، وهذا الكلام والمحاورة ليس من كلام صلاح الدين كما يظهر من الاسترسال بقراءة النص إنما هو قول عماد الدين الذى ما طله جنده حتى اضطر إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين بعد أن كان قد أخذ رهائن من حلب خوفا أن يسلموا البلد إلى صلاح الدين .

وفى تقديرى أن التدقيق فى قراءة النصوص مع الوضع فى الاعتبار أن طريقة كتابة القدامى كان يشوبها أحيانا بعض التفكك والتداخل أى أنهم لم يكونوا غالبا يدققون كما لدينا الآن حيث الترتيب والترابط والمنهجية من سمات الكتابات الحديثة أقول إنه بعد هذا وذاك يظهر لقارئ نصوص ابن العديم التى أشار إليها الباحث أن ليس هناك خلط أو خطأ يمكن أن يفوت على مؤرخ كبير معاصر للأحداث أو قريب منها كابن العديم أو محقق وباحث كبير كالدكتور سامى الدهان ، فبالنسبة للمأخذ الأول الخاص بشروط الصلح ، فإن سياق الحديث الأساسى فى الكتاب أصلا عن الصلح مع الحلبيين والموصلين ، ثم جاءت هذه العبارة المعارضة عن الإسماعيلية وبعدها أتم المؤلف الحديث عن الصلح وشروطه مع الحلبيين والمواصلة ، وكان من الأفضل أن تتأخر هذه الجملة الواردة عن الإسماعيلية لحين استكمال الحديث عن الصلح مع الحلبيين ، ولكن رغم ذلك ليس هناك خطأ تاريخى وإليك السياق كاملا ، يقول ابن العديم عن الصلح مع الحلبيين والمواصلة : « ثم ترددت الرسل بينهم فى الصلح - أى بين صلاح الدين وأمراء حلب وأقربائهم المواصلة - بين الملك الصالح - ابن نور الدين صاحب حلب - وسيف الدين صاحب الموصل وصاحب الحصن ، وصاحب ماردين ، وبين الملك الناصر وتحالفوا واستقرت على أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر واستقر الصلح ورحل الملك الناصر ، فى السادس عشر من محرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . ولما تقرر الصلح أخرج الملك الصالح إلى الملك الناصر أخته بنت نور الدين وكانت طفلة صغيرة فأكرمها ، وحمل لها شيئا كثيرا وقال لها : ما

تريدين ؟ قالت : أريد قلعة عزاز ، وكانوا قد علموها ذلك فسلمها إليهم ورحلوا إلى بلد الإسماعيلية وحصرهم ثم صالحهم بوساطة خاله محمود بن تكش وسار بعساكره إلى مصر . وكان في شروط الصلح أن يطلق عز الدين جورديك وشمس الدين علي بن الداية وأخوه سابق الدين وبدر الدين فسار أولاد الداية إلى الملك الناصر ، فأكرمهم وأنعم عليهم . وأما جورديك فأقام في خدمة الملك الصالح ، وعلم الجماعة براءته مما ظنوا ،^(١) فحتى هذه العبارة الأخيرة التي تذكر أن جورديك أقام في خدمة الصالح بحلب توحى أنهم كانوا بحلب وأن المؤلف يعي ذلك ، ويقصده وحديثه في هذه النقطة عن الصلح مع الحلبيين ، خاصة وأن المتبع لسياق الكتاب والأحداث يعرف أن هؤلاء الأمراء المطلق سراحهم كانوا بحلب وليس لدى الإسماعيلية ، فربما اعتمد المؤلف على فهم القارئ لذلك وتبعه للسياق .

وأما بالنسبة للمأخذ الثاني . الخاص بتعمد نقل الحوار ونسبته إلى صلاح الدين كما يرى ، فإنني أورد أيضا هنا نص كلام ابن العديم ، إذ يقول : « ولما علم عماد الدين ذلك - صاحب حلب الزنكي في ذلك الوقت وليس صاحب سنجار كما ذكر الباحث ، فقد كان بسنجار قبل ذلك التاريخ - وتحقق قصده - أي صلاح الدين - لحلب ، أخذ رهائن الحلبيين وجد الملك الناصر - صلاح الدين - بسبب أخيه - الذي أصيب في الحصار - على محاصرة أيما . فاجتمع إليه الأجناد من العسكر والرجال ، وطلبوا منه قرارهم فمطلبهم ، فقالوا : قد ذهبت أخبازنا ونحتاج لغلاء الأسعار إلى مالا بد منه وشح بماله ، فقال لهم : أنتم تعلمون حالي وقلة مالي وأنى تسلمت حلب صفراً من الأموال وضياعها في إقطاعكم فقال له بعضهم : من يريد حلب يحتاج إلى أن يخرج الأموال ولو باع حلي نسائه . فأحضر أواني من الذهب والفضة وغيرها وباع ذلك ، وأنفقه فيهم^(٢) . فمن مضمون الحوار يتضح أنه بين عماد الدين وجنده وأن المؤلف لم

(١) الزبدة ٣ : ٣٠ ، ٣١ ، وعزاز : بفتح أوله وتكرير الزاي وربما قيلت بالألف في أوله ، بليدة فيها

قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم . وقيل وعزاز بالركة المراد ٢ : ٢٥٥ .

(٢) الزبدة ٣ : ٦٤ ، ٦٥ .

يقصد غير ذلك ، بدليل عبارة « وأنى تسلمت حلب » فهذا يؤكد أن قصد المؤلف أن الكلام لعماد الدين إذ لم يكن صلاح الدين قد تسلمها بعد . ففي تصوري أنه ليس هناك تعمد تضليل أو إيهام كما ظن الباحث الدكتور ، وإنما الأمر مرده في ظني إلى التداخل في الكلام كما قلت مع وعي ابن العديم وعدم تعمده للخلط أو التضليل ، بقى أن أشير إلى أن الباحث بدأ حديثه عن جملة مآخذه على ابن العديم بقوله : « غير أن ابن العديم كان متحيزاً للحلبيين ضد صلاح الدين ومردداً لمزاعم ابن الأثير التخريبية »^(١) . وقد سبق الحديث عن علاقة ابن الأثير بالزنكيين والأيوبيين ، وقد ورد كلام هذا الباحث ضمن رسالته للماجستير بعنوان : سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة (٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣ م) ، وهي رسالة - حسب مطالعتي لها تأخذ طابع الدفاع عن هذه السياسة على الإطلاق^(٢) . فإذا وضعنا في الاعتبار أن المؤلف كان يعيش في حلب في ظل أسرة أيوبية وأنه أهدى كتابه هذا لأميرها الأيوبي - كما سبق - ، ربما انتفت شبهة تعمد ابن العديم للخلط والتضليل والتحيز للحلبيين في روايته ضد صلاح الدين .

غير أن هناك بالفعل جملة من المآخذ على كتاب « الزبدة » منها أن : استخلاص الكتاب من البغية والاقتصار فيه على أخبار حلب وسورية الشمالية بشكل موجز ، أعطى الكتاب سمة الغموض والإيجاز المخمل أحياناً ، يقول مثلاً : « وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، شرع سليمان بن قطلمش في العمل على أنطاكية والاجتهاد في أخذها إلى أن تم له ما أراد ، فأسرى من نيقية في عسكره وعبر الدروب وأوهم أن الفلاردوس استدعاه »^(٣) ثم يكمل حديثه دون أن يعرف بهذا الفلاردوس ، ويبدو أنه حاكم أنطاكية . ولم يكن قد ذكره قريباً من هذا

(١) دريد نوري سياسة صلاح الدين ٣٢ .

(٢) راجع مثلاً رأى هذا الباحث في مسألة صرد ومثولية صلاح الدين فيها ، عند الحديث عن ذلك في الفصل الأول من دراستي هذه .

(٣) الزبدة ٢ : ٨٦ ، ونيقية بالكسر ثم السكون وكسر القاف وباء خفيفة ، من أعمال استامبول على البر الشرقي . مرصد الإطلاع ٣ : ٢٥٩ .

الموضع . ويظهر هذا الغموض والإيجاز بجلاء أحياناً كثيرة في أخبار الصليبيات بعيداً عن حلب وشمال سوريا كفلسطين مثلاً . وذلك على عكس مؤرخ بلداني آخر كابن القلانسي الذي يتميز كتابه « الذيل » بشيء من التوسع خصوصاً في الأقسام الأولى من كتابه ، وقد يكون هذا - بغض النظر عن غموض الأخبار - إلى حد ما دقة منهجية من ابن العديم حيث اقتصر غالباً على أخبار حلب - وقد يكون السبب في إيجاز ابن العديم مقابل توسع ابن القلانسي ، إلى جانب الاختصار من البغية ، أن الأول عالج تاريخ حلب من قديم الزمان حتى عصره ، وأما الثاني فقد عالج تاريخ دمشق في سنوات محددة سبق تبيانها . ويختصر المؤلف أحياناً بعض الأخبار اختصاراً مخللاً ، يقول عن ملك الروم الذي أسره السلطان ألب أرسلان في موقعة « مناكرد » سنة ٤٦٣ هـ : « فرق له قلب السلطان فمن عليه وأطلقه وأكرمه وخلع عليه بعد أن شرط عليه ألا يتعرض بشيء - ربما : لشيء - من بلاد الإسلام وأن يطلق أسرى المسلمين كلهم ، وسيره إلى بلاده ، ومسير معه قطعة من العسكر توصله^(١) . فليست هذه كل شروط إطلاق الملك ، يقول ابن الأثير في ذلك : « ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله في خيمة وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، فأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد . فقال ملك الروم : أين جهة الخليفة ؟ ، فدل عليها فقام وكشف رأسه وأوماً إلى الأرض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة ، وسيره إلى بلاده وسير معه عسكرياً ، أوصلوه إلى مأمته ، وشيعة السلطان فرسخاً »^(٢) بينما يقول ابن الجوزي في هذا الأمر : « فلم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمر على ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار في كل سنة ، وإطلاق كل أسير في الروم ، وحمل أطفاف وتحف مضافة إلى ذلك وأن يحمل من العساكر المزاحة العلل ما يلتئم أي وقت دعت حاجة إليها^(٣) ، بينما يقول ابن أبي الدم على شاكلة ابن العديم في الاختصار :

(١) الزبدة ٢ : ٣٠ .

(٢) الكامل ١٠ : ٧٠ .

(٣) المنتظم ١٦ : ١٢٦ .

وروى أنه - أي ألب أرسلان - أسرار مانوس ملك الروم وقرر عليه ألف ألف وخمسين ألف دينار - (٢) - وتسلمها منه وأطلقه^(١) .

وشبه ابن العديم في كتابه بعض الأمور التي تشابه الأساطير والخرافات دون أن يعلق على الرواية المثبتة لديه بنقد أو توجيه ، يقول مثلاً : « في سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقع طائر أبيض دون الرخمة وفوق الغراب على دلبه بحلب لسبع مضين من رمضان فصاح : يا معشر الناس ، الله ، الله ، حتى صاح أربعين صوتاً ، وكتب صاحب البريد بذلك وأشهد خمسمائة إنسان سمعوه »^(٢) ويقول : « ووجدت عند بعض المنجمين وهو ابن أخت الصابي على ظهر كتاب عند القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة ، يقول : ذكر ابن أخت الصابي على ظهر كتاب عند القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة ، يقول : ذكر المخبر عن أخذ مدينة أنطاكية أن دخول العدو - يعني الروم - إليها في وقت كذا وكذا من الليل ، فإن صح قول المخبر فإنها تثبت في أيدي الروم مائة وتسع عشرة سنة وكان قد وقف على هذا الخط محمود بن نصر بن صالح ، وقد ذكر في مجلسه ، وأظن ذلك حين نزل الأفيشين التركي على أنطاكية وخاف محمود من أن يملك أنطاكية فلم يتفق فتحها حينئذ ، وكان الأمر كما ذكر المنجم ، ففتحها سليمان بن قطلمش عند تمام المدة »^(٣) .

وتقع في الكتاب أحياناً بعض الأخطاء العارضة ، كقوله : « ثم رحل - أي ملك الروم - فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان ... ورحل يوم الأربعاء ثامن شعبان »^(٤) وبالطبع إذا كان الخامس من شعبان يوم الأربعاء ، فلا يكون الثامن منه في السنة نفسها يوم الأربعاء أيضاً ، ويقول : « ... إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر - الحديث عن عماد الدين زنكي وبعليك - وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه »^(٥) ، فالمفروض رابع وعشرين ...

(١) هنا كلمة غير واضحة في المخطوط .

(٢) الزبدة ١ : ٧٢ ، ٧٣ ، والدُّلب جنس شجر للتريين . الوسيط (دلب) .

(٣) الزبدة ٢ : ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) السابق ٢ : ٢٦٦ .

(٥) الزبدة ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

الفصل الثالث السِّيَرُ وَالْمَذَكِرَاتُ

أول : ظهور هذا الانجاء وتطور حركة التأليف فيه :

في تاريخ كل أمة أعلام بارزون ، أثرت حيواتهم وأعمالهم على مجرى هذا التاريخ فاستحقت التسجيل لتكون عبرة للأجيال ودرسا للأخلاق ، من هنا نشأ في التراث الإسلامي هذا اللون من المؤلفات التي تدور حول حياة وأعمال علم من الأعلام أو حول جانب منها ، كسيرة له ، أو بالأحرى مذكرات عنه ، لأن السير القديمة لم تتمتع بما تحويه السير المعاصرة من سمات فنية كتوافر الحكمة القصصية والغوص في أعماق نفس صاحب السيرة ، وما إلى ذلك ، كما أنها - أي السير القديمة - كانت في الغالب صورة لحياة الشخصية ولعصرها أيضا ، خاصة إذا كانت شخصية عامة سياسية أو عسكرية مثلاً ، يقول أحد الباحثين : « وإذا كان المؤرخ المعاصر للأحداث يشغل منصباً إدارياً رسمياً فإن كتابه يكتب صفة المذكرات ، فبهاء الدين ابن شداد (٦٣٢هـ) في النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية يسجل مذكراته عن صلاح الدين منذ أول جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ ، أي منذ أن قام بخدمته ، ويخصص لها ثلاثة أرباع الكتاب ، ويعتمد في تسجيلها على المشاهدة والمعينة أو على من يثق به من أهل الثقة ، والعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) ، في الفتح القسي في الفتح القدسي ، وهو كتاب سجل لما قام به صلاح الدين من حروب من سنة ٥٨٣ حتى وفاته سنة ٥٨٩هـ ، ومن الكتب التاريخية التي تعتبر مذكرات كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ^(١) .

وهذا المزج بين الجوانب الشخصية وأحوال العصر في السير أو المذكرات القديمة حاد بها عن أن تعتبر ترجمة وسلوكها في نظم تواريخ الحوادث ، ويعبر باحث عن ذلك بقوله : « ويمت أساس آخر للتصنيف للأشخاص الذين كان لهم نصيب في الحوادث والأحرى أن يسمى هذا الفرع ترجمة لا تاريخاً ، ولكن الخط الفاصل بين الاثنين غير بارز في الغالب ، وحيثما يكون الشخص المدونة حياته حاكماً ، يختفي الخط الفاصل ، إذ إن الحاكم هو الدولة وفقاً للقول المشهور للويس الرابع عشر وترجمته تاريخ لعصره^(٢) .

(١) د. السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ١٢٦ .

(٢) مرجليوث ، دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة د. حسين نصار ، دار الثقافة ، بيروت

ويمكن أن يكون ما دونه كعب الأخبار (ت ١٣٢ أو ١٣٤ هـ) عن « سيرة الإسكندر وما فيها من العجائب والغرائب » أقدم سيرة في تراثنا التاريخي ، بعدها دون « أبو مخنف » (ت ١٥٧ هـ) « سيرة الحسين »^(١) . وابن إسحاق (ت ١٥١ أو ١٥٢ هـ) سيرة النبي التي هذبها « ابن هشام » (ت ٢١٨ هـ تقريبا) وكانت بداية لسلسلة من كتب السيرة النبوية مازالت تترى حتى عصرنا هذا ، وإلى جانب ذلك توالى التأليف في سير الآخرين ، وقد تأثر المؤرخون بعد ابن إسحاق بما كتبه في السيرة النبوية ذلك أن الرسول ﷺ ، لم يكن ذاتا مقدسة أو شبه مقدسة وإنما كان بشرا يمشى على الأرض ويقود الأمة في مسيرة حياتها ، وحين كتب المؤرخون سير الحكام من بعده كتبوها والسيرة النبوية في ذهنهم فأبرزوا دورهم القيادي للأمة^(٢) . فكتب مثلا عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ / ٨٣٩ م) والد المؤرخ « عبد الرحمن بن عبد الحكم » (ت ٢٥٨ هـ) سيرة « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه ، كما كتب نفس السيرة ابن الجوزي (ت ٢٥٧ هـ) ، وسيرة أحمد بن طولون لابن الداية (ت ٣٣٤ أو ٣٤٠ هـ) ، وفي عصر الحروب الصليبية في القرنين السادس والسابع الهجريين - وهو يستوعب فترة هذه الدراسة - مارس المؤرخون نشاطهم في ميدان السير والمذكرات ، فدون ابن منقذ مذكراته الشخصية في كتاب « الاعتبار » ، وكتب العماد الأصفهاني سيرة لصلاح الدين الأيوبي وجهوده وعصره في كتابه : البرق الشامي والفتح القسي ، وكتب له سيرة أيضاً ابن شداد في النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

(١) انظر : سزكين تاريخ التراث العربي مج ١ ج ٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٩ .

(٢) د. قاسم عبده ، الرؤية الحضارية للتاريخ ٩٥ ، ١٠٣ - ١٠٥ .

ثانياً : دراسة تطبيقية لمؤلفات نمثل هذا الازجاء :

١. كتاب « الاعتبار »

أ (المؤلف : أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ الكنانى الشيرزى (٤٨٨ - ٥٨٤هـ / ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) من مشاهير فرسان السيف والقلم فى عصر الحروب الصليبية ، وتمثل حياته أوج هذا الصراع إذ ولد مع بداية دخول الصليبيين للشام وتوفى بعد أن استرد صلاح الدين منهم القدس وشدد عليهم الخناق فى الساحل سنة ٥٨٣هـ . نشأ أسامة فى قلعة شيرز على ضفاف نهر العاصى ثم خرج منها فى مرحلة الفتوة خشية عمه حاكم القلعة بعد والد أسامة الذى تنازل عن حقه فى حكم القلعة لأخيه زهداً فى السلطة ، وكان هذا الأخ لا ينجب ذكوراً ثم أنجب مؤخراً فخشى على ابنه من أبناء أخيه الأشداء وبخاصة أسامة ، وعمل أسامة فى بلاط ملوك دمشق من أولاد طغتكين ، ثم قضى فترة متنقلاً بين البلاط الفاطمى بمصر وبلاط نور الدين بن زنكى فى دمشق ، ثم قضى فترة بالموصل وأخرى فى حصن كيفا بالجزيرة ، ثم أعاده صلاح الدين إلى دمشق فى شيخوخته حيث توفى بها ، وكان قد فقد أهله بشيرز فى زلزال ضربها سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م .

وزار أسامة القدس سفيراً لدمشق لدى ملكها الفرنجى وحج الحرمين وتنقل كثيراً وأولع بالصيد وندوات الشعر والأدب ، وترك لنا العديد من المؤلفات ، التى ضاعت ولم يسلم منها تقريباً سوى أربعة كتب أدبية الطابع وإن كانت مفيدة جداً فى الجانب التاريخى حيث دون فيها كثيراً من جوانب حياته الحافلة وحياة عصره القلق ، والكتب الأربعة مطبوعة وهى : المنازل والديار ، ولباب الآداب ، والعصا ، والاعتبار وهو محل الدراسة الآن^(١) .

(١) انظر ترجمته مثلاً فى : ياقوت معجم الأدياء ، دار المستشرق ، بيروت ٥ : ١٨٨ - ٢٤٥ ، ومقدمة د. حتى لكتاب الاعتبار ، الدار المتحدة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان سنة ١٩٨١ ، مقدمة الأستاذ مصطفى حجازى لكتاب المنازل والديار ، القاهرة سنة ١٩٦٨م ، د. شاكى مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ : ٢٤٣ - ٢٤٥ ، د. زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، دار المعارف ٩٤ - ١٠١ ، محمد أحمد حسين ، أسامة بن منقذ ، دار الكتب سنة ١٩٤٦م .

ب (مضمون الكتاب :

نشر د. فيليب حتى الكتاب محققاً عن نسخة وحيدة ناقصة في أولها بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ م وطبع ببلنات سنة ١٩٨١ م في مجلد واحد^(٢).

يأتى الكتاب على شكل تداعيات من الذاكرة ، ربما كتبها المؤلف ودونها بنفسه ، وربما يكون قد أملاها على غيره وهو شيخ طاعن فى السن^(٢) . ولا يفصل بين هذه التداعيات فاصل سوى كلمة « فصل » فى رأس الباب الثانى ، « وقصد الفرنج دمشق عنوان قطعة بالكتاب »^(٣) ، لكن المحقق د. حتى حمل عبء تبويب الكتاب وتقسيمه لفقرات وعنونه^(٤) . ورغم أن هذه الذكريات لا تخضع لمنطق الترتيب الزمنى حسب حدوثها أو ورودها - إلا قليلا - ، كالقطعة من أول الكتاب إلى ص ٣٧ - إلا أنها كثيراً ما تأتى متجانسة اعتماداً على تداعى الأفكار القائم على مبدأ التشابه والمشاركة ، وأحياناً التناقض والمخالفة فى إيراد القصة تلو القصة ، فتحت الحديث مثلاً عن فكرة أن الشجاعة تحمل الواحد الفرد على ركوب الأهوال ، يورد تداعيات بالعناوين التالية متتابعة : « فارس إفرنجى يهزم أربعة مسلمين »^(٥) ، « وآخر يحمل على عسكر »^(٦) ، « واحد يفتز ثمانية »^(٧) ، « إفرنجى يستولى على مغار »^(٨) . هذا على مبدأ التشابه ، أما على مبدأ التناقض فمثاله حديثه عن فكرة أن الإنسان يجب ألا يثق بشجاعته ويعجب بإقدامه ، تجاور

(١) وهى النسخة التى رجعت إليها ، وحققه أيضاً د. قاسم السامرائى ونشرته دار الأصالة للنشر

والإعلام بالرياض بالعربية السعودية ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ / سنة ١٩٨٧م .

(٢) انظر : مقدمة المحقق ص ٣٣ من الاعتبار .

(٣) الاعتبار : ١٤٧ .

(٤) مقدمة المحقق ص ٣٣

(٥) الاعتبار : ص ٨٧ .

(٦) السابق : ص ٨٨ .

(٧) نفسه : ص ٩٠

(٨) نفسه : ص ٩٠ .

هذا الحديث وتتالي العنوانات التاليان : « أسامة وجمعه يهزمان ثمانية فرسان »^(١) ،
« ثم يهزمهما رويجل »^(٢) .

مبدأ التداعي هذا شكل خيطاً رفيعاً أوجد وحدة بين الأفكار المتتالية تشبه الوحدة النفسية في القصيدة الشعرية ، مما أعطى أقسام الكتاب تجانساً بين أفكارها داخل كل قسم ، حتى أنه إذا خرج عن سياق موضوع الحديث قليلاً ، كان هذا الخروج لخدمة الفكرة التي يتحدث عنها ، فمثلاً تحت الفكرة التي يعبر عنها القرآن الكريم بقوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »^(٣) يتحدث تحت العنوان التالي « ضربة سكين تشفى من الاستسقاء »^(٤) ، ثم يردفه بعنوان « شوكة تشفى عين باز » ، ثم يعتذر عن ذكر الباز في هذا الموضع بقوله : « ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكره البزاة »^(٥) ، وجمعه فارس شفى رمد عينيه ضربة سيف في رأسه في الحرب^(٦) . وغنيم ركابي شفى من الاستسقاء بطعنة سكين^(٧) ، ذلك أنه خصص قسمًا كبيراً للحديث عن الصيد والبزاة والجوارح ... إلخ ، بعد ذلك في آخر الكتاب . هذا ربما يدل على أنه قسم ذكرياته تقسيماً ذهنياً منهجياً إلى حد كبير أوجد تآلفاً وإنسجاماً بين الأفكار داخل كل قسم ، ولذا لا أميل إلى تأييد ما ذكره المحقق د. حتى في مقدمته من أن هناك بعض الأجزاء جاءت في غير أماكنها ، حيث يقول : « ولكن الكثير من المادة جاء دون تنظيم منطقي وفي أماكن غير خاصة به ، هنا وهناك يشعر القارئ أن الراوى

(١) الاعتبار ٧٤ ، وأمامة هو المؤلف وجمعة فارس مسلم والفرسان الثمانية فرجة .

(٢) السابق ٧٥ .

(٣) جزء من الآية رقم ٢١٦ من سورة « البقرة » ، وهي كاملة كما يلي : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » صدق الله العظيم .

(٤) الاعتبار : ٧٧ .

(٥) السابق : ٧٩ .

(٦) نفسه : ٧٦ .

(٧) نفسه : ٧٧ .

قد رش شيئاً من البهار على القصة لتحسينها ، أو مط الواقع قليلاً في الحادث لإشباع داعى الغرضية^(١) .

ونظراً لامتداد حياة المؤلف - حوالى ٩٦ سنة قمرية ، و ٩٣ سنة شمسية - وراثتها وتقلبها بين السياسة والثقافة والحرب والسلام والصيد والطرود والسفارات ... إلخ ، فقد تنوعت ذكرياته وتباينت ، ولكن تجانس أقسام كبيرة منها مكن المحقق من أن يطورها في ثلاثة أبواب كبيرة منفصلة تحت العنوانات التالية على الترتيب : « حروب وأسفار » ، « نكت ونوادير » ، « أخبار الصيد » وقد تفاوتت هذه الأبواب الثلاثة في حجمها حيث استأثر الأول بنصيب الأسد - حوالى ٢٢٠ صفحة من أصل ٢٩٠ صفحة هي مجموع صفحات الكتاب - يليه في الحجم ، لا الترتيب ، الفصل الثالث - حوالى ٤٣ صفحة - ، بينما جاء أصغرهما الباب الثانى - حوالى ٢٦ صفحة - ، وحتى هذا الأحجام لهذه الأبواب تتمشى منطقياً مع حياة أسامة واهتماماته ، فالباب الأكبر عن الحروب والأسفار وهى أهم ما شغل حياته يليه فى الحجم باب أخبار الصيد وقد شغل الصيد مساحة واسعة فى حياته أيضاً ثم باب النكت والنوادير وهو عن كرامات الأولياء والشفاء بطرق غريبة ، أصغرهما حجماً . ولكن الذى لا يبدو منطقياً أنه قدم فى ترتيب الحديث هذا الباب الأصغر على باب الصيد وهو الأكبر حجماً وأهم مكاناً فى حياته . فكان طبيعياً أن يلي باب الحروب والأسفار فيأتى ثانياً لا ثالثاً ، ولكن هناك عامل واحد ربما يقوم عذراً له وهو أنه وقد خص والده وأخبار صيده بجزء كبير من هذا الباب ، ربما أراد أن يجعل أخباره تلك ختاماً لكتابه وذكرياته خاصة وأن علاقته الحميمة بوالده وإجلاله له تنضح بها سطور الكتاب ويعبر عنها حجم حديثه عنه .

(ج) مصادر الكتاب : أولاً : المشاهدة والتجربة :

المصدر الأعظم لدى المؤلف ، فمن طريقه شاهد معظم تجاربه وذكرياته التى رواها فى كتابه وبخاصة فى الباب الأخير ، وهو عن أخبار الصيد ، فيكاد يكون كله مشاهدات شخصية، يقول مثلاً : « قلت : كان عمى عز الدين ، رحمه الله ،

(١) الاعتبار : مر ل من المقدمة .

يتفقد منى فكرى فى القتال ، ويمتحنى بالمسألة . فنحن يوماً فى بعض الحرب التى كانت بيننا وبين صاحب حماة ، وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب . فجرد عمى من العسكر نحواً من ستين ، سبعين فارساً ، وقال لى : خذهم وسر إليهم ، فمضينا نترامض والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذى كانوا عليه . ونفذت فارساً من أصحابى إلى عمى وأبى ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقى العسكر وراجل كثير ، أقول لهما : سيرا بالرجالة فقد كسرتهم . فسارا إلى فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم ، ورموا خيلهم فى الشاروف وعبروه سباحة وهو زائد ومضوا ، وعدنا بالنصر . فقال عمى : أى شىء نفذت تقول لى ؟ قلت نفذت أقول لك : تقدم بالرجالة فقد كسرناهم . فقال مع من نفذت إلى ؟ قلت : مع رجب العبد . قال : صدقت ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال . ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعساكر حماه ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص . وكان قد ظهر لهم فى ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح إلى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً أو ثمانية عشر ذراعاً ، فوقف مقابلى موكب منهم ، وأنا فى سرية نحو من خمسة عشر فارساً . فحمل علينا علوان العراقى ، وهو من فرسانهم وشجعانهم . فلما دنا منا وما تزعزعنا رجع ورد رمحه إلى خلفه . فرأيت كالحبل مطروحاً على الأرض لا يقدر يرفعه . فأطلقت حصانى عليه ، فطعنته وقد وصل إلى أصحابه ، وعدت وراياتهم على رأسى . فلقبهم أصحابى وفيهم أخى بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، فردهم وقد انقطع نصف يرقى فى كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمى وهو يرانى . فلما انفصل القتال . قال عمى : أين طعنت علوان العراقى ؟ قلت : أردت ظهره . فمال الهواء باليرق ، فوقع الرمح فى جانبه . قال : صدقت ما كنت إلا حاضر القلب ذلك الوقت^(١) ويقول : « وخرجت معه - يقصد والده - رحمه الله ،

(١) الاعتبار : ١٢٩ - ١٣١ ، وفى النص : صاحب حماه اسمه شهاب الدين محمود بن قراجا ، والشاروف من روافد نهر العاصى ، يرق تركية بمعنى السلاح ، كزاغند فارسية وهى السترة السمكية نقرم مقام الدرع . انظر هوامش الصفحات المذكورة أعلاه وكذلك الحديث عن أسلوب المؤلف وسيأتى .

إلى نحو الجبل لصيد الحجل ، فنزل غلام له اسمه لؤلؤ ، رحمه الله لبعض شغله ، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحت برذون ، فرأى ظل تركشه أجفل منه فرماه وانفلت ، فركضت والله عليه أنا وبعض الغلمان من بكرة إلى بعد العصر إلى أن ألجأناه إلى جشار في بعض الأزوار ، وقام الجشارية مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش ، وأخذته وعدت والوالد ، رحمه الله ، واقف في ظاهر البلد ينتظرني ما يصيد ولا ينزل في داره ، فالبراذين بالوحوش أشبه مما هي بالخيل ^(١) ويقول أيضا : « ومن عجيب ما رأيت من صيد البزاة أننى خرجت مع الوالد ، رحمه الله ، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب أياما . فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء فرأينا طيوراً ممرجة في مرج تحت شرف - فتقدم الوالد أرسل عليها بازا مقرنص بيت . فطلع مع الطيور أصاد - هكذا في النص ولعلها : صاد - زرزوراً وطبق كفه عليه فما جرحه ولا أذاه ، فنزل البازيار خلصه وهو سالم ^(٢) ، هذه نماذج للمشاهدات كمصدر من مصادر ابن منقذ في روايات كتابه . وهناك مصدر آخر لعب دوراً فاعلاً في روايات الكتاب وهو :

ثانياً : السماع :

ومصادره فيه متعددة مهمة مطلعة على خوافى الأمور منها الشيوخ والأمراء والمماليك والشعراء ... إلخ ، فحياته زاخرة ، يقول مثلاً : « ومن ذلك ما حكاه العقاب الشاعر ... ز ^(٣) ، « ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمسمائة ^(٤) ، « وحدثني الرئيس سهرى ، وكان في خدمة الأمير شمس الخواص التونتاش صاحب رغبة ^(٥) ، وهو في معظم

(١) الاعتبار ٢٧٥ ، تركش فارسية معناها الكنانة أو الجعبة ، والجشار الماشية التي ترعى ليلاً . انظر هوامش الصفحة السابقة بالكتاب .

(٢) الاعتبار ٢٧٧ ، والبازيار معلم الباز ، والباز المقرنص : الذي ربي للاصطياد أو الذي ربط ليسقط ريشه . اللسان (قرنص) .

(٣) الاعتبار : ٩٠ .

(٤) السابق ٩٢ .

(٥) نفسه ١٠٠ . وانظر كذلك في سماعه : ٥٦ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٤٣ .

رواياته السماعية ينص على محدثه ، ولا يجهله لدينا كما رأينا من الأمثلة السابقة ، بل إنه في باب النكت والنوادر وقد روى بعض أخبار الصالحين التي ربما أحس في بعضها غرابة قد تتوقف العقول في قبولها بسببها ، يذكر السند الكامل للحكاية كما سمعها على طريقة المحدثين ، يقول مثلاً : « حدثني الشيخ الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم خطيب مدينة اسمرند بها في ذي القعدة سنة اثنين وستين وخمسمائة قال : حدثني أبو الفرج البغدادي ، قال : شهدت مجلس الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت ... »^(١) ، ويقول : « حدثني الشيخ أبو القسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمسمائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا قال : حدثني أبي قال : ... »^(٢) ، ويلاحظ قوة ذاكرة أسامة في ذكر مكان وزمان الرواية بدقة وسندها ، رغم مضي الزمن عليها حتى أنه ينص على اليوم الذي سمع فيه أحياناً ويؤرخه ، يقول : « وحدثني القاضي الإمام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمسمائة عن حدثه أن شيخنا ... »^(٣) . وربما كان المؤلف يدون ذلك السماع في حينه ، ولم يظهر للمؤلفات أو الوثائق أو أنواع المصادر الأخرى أثر في كتابه تقريبا .

د منهج الكتاب :

بعيداً عن جو الحرب ومكايد السياسة وتعدد الأسفار يحفل الاعتبار بالعديد من الإشارات إلى الجوانب الاجتماعية والحضارية ، التي تصور لنا بعض أحوال المجتمع إبان هذا العهد وصور الحياة فيه . فهذه فرقة من العرب لا يأكلون إلا الميتة ويتباهون بأن ليس فيهم مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى^(٤) ، وهو يتحدث عن طبائع

(١) الاعتبار : ٢٢١ .

(٢) السابق : ٢٢٢ .

(٣) نفسه : ٢٢٧ .

(٤) نفسه : ١٤ .

الإفرنج وأخلاقهم فيجملها في قوله : « سبحان الخالق البارئ إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقده ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم »^(١) ، ثم يورد أمثلة لسذاجة طبهم مقابل الطب العربي^(٢) ، وبدائية محاكماتهم^(٣) ، وغلظة أخلاق القادمين الجدد من بلادهم مقابل ليونة في أخلاق من استقروا بالشرق منهم وعاشوا ، يقول : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين »^(٤) ، وأنهم يفتقدون حمية النفس والغيرة على العرض^(٥) . حيث يقول في ذلك مثلاً : « وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة . ويكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى »^(٦) ، ثم هو يفرد باباً كبيراً في أواخر الكتاب يتحدث فيه بالتفصيل الممتع عن المصايد وأنواع الصيد وطرقه والصيادين والبزاة والصقور وكلاب الصيد وخصائص الحيوانات والتنزه في أيام الصيد وكيفية الاستعداد لها ، مما يعطى صورة عن جوانب من الحياة والممارسات الاجتماعية بعيداً عن جو الحرب ومكاييد السياسة . ولا يخلو الكتاب من لفتات عن بعض العادات الاجتماعية التي ربما تكون ما تزال قائمة إلى اليوم في بعض البلاد كعادة استئجار ندابات في المآتم ، يقول : « وأنفذوا رجلاً من أصحابنا يقال له قتيب بن مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها - ربما : فوصل -

(١) الاعتبار : ١٦٩ .

(٢) السابق : ١٧٦ .

(٣) نفسه : ١٧٧ .

(٤) نفسه ١٧٢ ، يقول هـ . أ . ل فشر : « وتدل سيرة الأمير العربي أسامة بن منقذ الذي قلد الداوية - إحدى فرق الصليبيين الدينية في الشرق - منواجه ، على سعة الهوة بين ليونة الصليبي المتوطن وسخريته وحماسة أخيه الصليبي وصرامته غداة قدومه من الغرب » تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ترجمة د. زيادة والعهني ط ٤ ، دار المعارف سنة ١٩٦٦ ج ١ ص ١٨٨ .

(٥) الاعتبار ١٧٤ - ١٧٦ .

(٦) السابق : ١٧٤ .

داؤها ، وعاد وقال : أبشروا بالغنيمة والسلامة . فسار المسلمون إليهم فالتقوا على
مكثير . فنصر الله سبحانه الإسلام وقتلوا الإفرنج جميعهم . وكان قنيب الذي
جر لهم كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالإفرنج
وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده ،
فمضى يركض إلى الخندق ، فرمى عليه رجل من الإفرنج من الحصن حجراً فقتله .
وكانت له عندنا والدة عجوزاً كبيرة تندب في مآتمنا ثم تندب ولدها . فكانت إذا -
دبت على ابنها قنيب تتدفق ثدياها باللبن حتى تفرق ثيابها ، فإذا فرغت من ندبها
عليه وسكنت لوعتها ، عادت ثدياها كالجلدتين ما فيها قطرة لبن . فسبحان من
أشرب القلوب الحنة على الأولاد ، (١) .

ويعرض المؤلف لكثير من طوائف المجتمع - ولو بإشارات سريعة أحياناً ، حتى
للصوص تحدث عنهم ، يقول مثلاً : « كنت قد نفذت مملوكاً لي في شغل مهم
إلى دمشق ، واتفق أن أتاك زكى رحمه الله ، أخذ حماة . ونزل على حمص .
فاستدت الطريق على صاحبي ، فتوجه إلى بعلبك ومنها إلى طرابلس واكترى بغل
رجل نصراني يقال له يونان فحمله إلى حيث اكتراه وودعه ، ورجع وخرج
صاحبي في قافلة يريد يتوصل إلى شيرز من حصون الجبل . فلقبه إنسان فقال
لأرباب الدواب : لا تمضوا ، فإن في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في
ستين سبعين رجلاً يأخذونكم ، قال : فوقفنا لا ندرى ما نعمل ، وما تطيب نفوسنا
بالرجوع ولا نجسر على المسير من الخوف . فنحن كذلك إذا - الرئيس يونان قد
أقبل مسرعاً . فقلنا : مالك يا ريس ، قال : سمعت أن في طريقكم حرامية جئت
لأسيركم ، سيروا . فسرنا معه إلى ذلك الموضع . وإذا قد نزل من الجبل خلق
عظيم من الحرامية يريد أخذنا ، فلقبهم يونان وقال : يا فتيان ، موضعكم . أنا
يونان ، هؤلاء في خفارتى ، والله ما فيكم من يتقرب منهم . فردهم والله جميعهم
عنا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ، ودعنا
وانصرف ، (٢)

(١) الاعتبار : ١٤٨ .

(٢) السابق ١٠٢ ، ١٠٣ ، وانظر كذلك ٥٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

وفى « الاعتبار » تراءى أمامنا جميع مراحل حياة المؤلف بألوانها وظلالها بين ميعة الصبا ومسئوليات الكهولة وألم الشيخوخة ومرارتها ، ولكنه فى كل ذلك مستسلم راض ، معتبر ، : « ولم أدر أن داء الكبر عام ، يعدى كل من أغفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأبلانى من الأيام والسنين صرت كجواد العلاف ، لا الجواد المتلاف ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعضى فى بعض . حتى أنكرت نفسى وتحسرت على أمسى » (١) ، وكنت أظن أن الزمان لا يلى جديده ولا يهى شديد ، وأنى إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامى كعهدى ، ما غيرها الزمان بعدى ، فلما عدت كذبتنى وعود المطامع ، وكان الظن كالسراب اللامع ، اللهم غفراً هذه جملة اعتراضية عرضت - ونفثة هم قضت ثم انقضت » (٢) . بل إنه يختم باب الصيد ، - وبالتالى الكتاب كله إذ إنه فى آخره - بدعاء وتضرع وتوسل يدل على إيمان عميق ونفس طيبة حيث يقول : « وتضييع الأوقات فى الخرافات ، من أعظم عوارض الآفات ، وأنا أستغفر الله تعالى من تضييع الصبابة الباقية من العمر ، فى غير طاعة واكتساب ثواب وأجر . وهو تبارك وتعالى يغفر الخطية ، ويجزل من رحمته العطية . فهو الكريم الذى لا يخيب آمله ولا يرد سائله » (٣) .

ورغم مشاركة ابن منقذ فى كثير من الأحداث السياسية الكبرى فى عصره بحكم صلاته وعلاقاته ، فإنه يحرص دوماً على تبرئة نفسه مما قد يرتكبه أصدقاءه من الحكام من شنيع الفعال ، يقول مثلاً بعد أن وصف مشهد الإجهاز على أسرة الخليفة الفاطمى « الظافر » بعد مقتله على يد الوزير الفاطمى « عباس وابنه نصر » - وهما صديقا المؤلف ، يعيش فى كنفها فى ذلك الوقت - سنة تسع وأربعين وخمسمائة للهجرة : « وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التى مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى ، وجميع الخلق » (٤) ، ويلاحظ أنه أيضاً

(١) الاعتبار : ٢٠٧ .

(٢) السابق : ٢٠٩ .

(٣) نفسه : ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) نفسه : ٢٧ .

لا يشير لأى مشاركة منه فى مقتل الوزير الفاطمى « العادل بن السلار سنة ٥٤٨هـ - (١) . فى حين يتهمه بعض المؤرخين بالتحريض والمشاركة فى الحادثتين السابقتين ، يقول « ابن الأثير » : « فى هذه السنة - سنة ٥٤٨هـ - فى المحرم ، قتل العادل بن السلار وزير الظاهر بالله ، قتله ربيبه - ابن امرأته - عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى ، وأشار عليه ذلك الأمير أسامة بن منقذ ، ووافق عليه الخليفة الظاهر بالله ، فأمر ولده نصرًا ، فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس » (٢) . ويقول أيضًا : « فى هذه السنة - سنة ٥٤٩هـ - فى المحرم ، قتل الظاهر بالله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى ، صاحب مصر . وكان سبب قتله أن وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر ، فأحبه الظاهر وجعله من ندمائه وأحبابه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة ، فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارة ابن السلار ، واتصل بعباس ، فحسن له قتل العادل بين السلار زوج أمه ، فقتله وولاه - الظاهر الوزارة ، فاستبد بالأمر وتم له ذلك ، وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن منقذ ، فعزموا على قتله ، فخلا بعباس وقال له : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ؟ قال : وما ذلك ؟ قال : الناس يزعمون أن الظاهر يفعل بابنك نصر ، وكان نصر خصيصًا بالظاهر ، وكان ملازمًا له ليله ونهاره ، وكان من أجمل الناس صورة ، وكان الظاهر يهتم به ، فانزعج لذلك وعظم عليه ، وقال : كيف الحيلة ؟ قال : تقتله فيذهب عنك العار فذكر الحال لولده نصر ، فانفق على قتله . وقيل إن الظاهر أقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر ، فدخل إليه مؤيد الدولة ابن منقذ ، وهو عند أبيه عباس ، قال له نصر : قد أقطعنى مولانا قرية قليوب ، فقال له مؤيد الدولة : ما هى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه . وأنف من هذه الحال . وشرع فى قتل الظاهر بأمر أبيه ، فحضر نصر عند الظاهر وقال له : أشتهى أن تجىء إلى دارى لدعوة صنعتها . ولا تكثر من

(١) الاعتبار : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) الكامل ١١ : ١٨٤ .

الجمع ، فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلا . فلما دخل الدار قتله وقتل من معه ، وأفلت خادم صغير اختبأ فلم يروه ، ودفن القتلى فى داره ، وأخبر أباه عباسا الخبير ، فبكر إلى القصر ، وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذنا فى الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه . فقالوا : أنه ليس فى القصر فقال : لا بد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله ، وأن يقتل من بالقصر ممن يخاف أن ينزعه فيمن يقيمه فى الخلافة ، فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره . فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر ، إذ وصل إليهم الخادم الصغير الذى شاهده قتله ، وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه ، وأخبرهم بقتل الظافر ، فخرجوا إلى عباس ، وقالوا له : سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لأنهما خرجا جميعاً . فلما سمع ذلك منهم قال : أريد أن اعتبر القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله ، فاستعرض القصر ، فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل ، وأجلس الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله إسماعيل ثانى يوم قتل أبوه ، وله من العمر خمس سنين ، فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك ، وباع له الناس ، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد ، ولم يترك فيه إلا مالا خيرا فيه ^(١) .

ويدور أن التهمة أقرب إلى أن تثبت على ابن منقذ ، إذ إنها تواترت كذلك لدى عدد من المؤرخين الثقات بخلاف ابن الأثير ، يقول ابن خلكان : « وقال غير العماد : إن قدومه - قصد أسامة - مصر كان فى أيام الظافر بن الحافظ والوزير يومئذ العادل بن السلار ، فأحسن إليه وعمل عليه حتى قتل حسبما هو مشروح فى ترجمته . فقلت : ثم وجدت جزءاً كتبه بخطه للرشيد بن الزبير حتى يلحقه بكتاب « الجنان » ، وكتب عليه أنه كتب بمصر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فيكون قد دخل مصر فى أيامه وأقام بها حتى قتل العادل بن السلار ، إذ لا خلاف أنه حضر هنا وقت قتله » ^(٢) . ويقول ابن ميسر فى حوادث سنة ٥٤٨ هـ :

(١) الكامل ١١ : ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٩٦ .

في سادس المحرم قتل أبو الحسن علي بن السلار ، سلطان مصر - يقصد وزيرها -
قتله ربيبه عباس ، وذلك أن العادة كانت جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر مصر
لحفظ عسقلان ، وكان الفرنج قد نزلوا عليها وحاصروها في السنة الماضية ، فلما
قدم البدل في هذه السنة ، وكانت النوبة لعباس ، خرج ومعه من الأمراء جلهم
والضرغام وأسامة بن منقذ وغيره ، وكان لأسامة بعباس خصوصية فلما برزوا من
بليس تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها وما هم خارجون إليه من شدة السفر ولقاء
العدو . فتأوه عباس لذلك وأخذ يلوم العادل ويعتب عليه كونه جرده ، فقال له
أسامة : لو أردت كنت سلطان مصر . فقال : كيف الحيلة ؟ فقال : هذا ولدك
بينه وبين الظافر مودة عظيمة فخاطبه على لسان ولدك أن تكون أنت السلطان
موضع عمك فإنه يختارك ويكره عمك ، فإن أجابك فاقتل عمك . فأحضر عباس
ابنه نصر وأسر إليه ما تقرر مع أسامة وغيره إلى مصر ، فاتفق أنه وجد عند دخوله
غفلة من العادل أمكنه فيها الاجتماع بالظافر فأعلمه الحال ، فوافقه على ذلك .
ومضى نصر إلى دار جدته زوجة العادل وأعلم العادل أن أباه سيره من بليس شفقته
عليه من السفر . فلما أصبح العادل مضى إلى مصر بكرة النهار وجهاز المراكب
الحربية وأنفق في رجالها وعرضها لتلحق عباساً وأقام نهاره ثم عاد آخر النهار إلى
القاهرة وقد لحقته شدة من التعب ، فنام على فراشه ، فقام إليه نصر بن عباس
على حين غفلة واحتز رأسه ومضى بها إلى الظافر بالقصر^(١) . وفي حوادث سنة
٥٤٩ هـ ، يقول ابن ميسر : « في ليلة الخميس سلخ محرم خرج الظافر متنكراً
ومعه خادمان إلى دار نصر بن عباس وهي الدار المعروفة بدار جبر بن القاسم ، ثم
عرفت بدار المأمون بن البطائحى ، وهي الآن المدرسة السيوفية ، فاتفق أن نصرا قتل
الظافر وحفر له تحت لوح رخام ودفنه وقتل معه أحد الخادمين وهرب الآخر وسبب
ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس أن يقتل عمه
العادل ، وهموا بقتله ، فبلغه ذلك فأخذ يقول لعباس :

كيف تصبر على ما تقول الناس في ولدك واتهامهم له بأن الخليفة يفعل به

(١) المقرئى : المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر ، تحقيق : د. أيمن فؤاد سيد المعهد العلمى
الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ / سنة ١٩٨١ م ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

ما يفعل مع النساء ؟ ، فعظم ذلك على عباس ، واتفق أن الظافر أنعم على نصر بقلوب فحضر نصر إلى أبيه وأعلمه بذلك ، فقال أسامة بن منقذ : ما هي بمهرك غالية : فقال عباس لابن منقذ : كيف تكون الحيلة في هذا الأمر ؟ فقال له : الخليفة في كل حين يأتي ولدك في هذه الدار خفيفة ، فإذا أتاه مرة يقتله ، فأحضر عباس ابنه وأمره بذلك ، فلما أتاه الخليفة في ليلة الخميس قتله كما ذكرنا^(١) .

بل إن بعض الباحثين المعاصرين يميل إلى تأييد اتهام ابن منقذ^(٢) ، بل يصفه أحدهم بالبراعة في التآمر ، إذ يقول : « وعلى الرغم من براعته - يقصد ابن منقذ - في تدبير المؤامرات ، التي لم يحفل إزاءها بالولاء الشخصي لمن ينتمى إليه ، كان رجلاً شديد الذكاء ... »^(٣) ، وليس بدليل دامغ ينفي ما سبق ، قول أحد الباحثين مدافعاً عن ابن منقذ : « يتهم بعض المؤرخين أسامة بأنه كان أحد المتآمرين على قتل ابن السلار ثم قتل الظافر أيضاً وقد ردد هذه التهمة ابن الأثير في تاريخه وابن خلكان في الوفيات ... وأبو الفداء في تاريخه ، والذي يدرس سيرة أسامة ومذكراته يستبعد هذا الاتهام لما اتصف به أسامة من النبل والترفع عن درك الأشرار »^(٤) . ولا ننسى أن هذه المذكرات - أي كتاب الاعتبار - التي يعتضد بها هذا الباحث ويدلل على نبل أسامة وترفعه عن الدنيا ، قد كتبها أو أملاها ابن منقذ وهو شيخ طاعن في السن - كما يفهم من إشارات عديدة متناثرة بكتابه - وقد هدته وهدته السنون ، ثم إنه يجب ألا ينتصر بكلامه - أي ابن منقذ - له^(٥) .

(١) المقرئى : المتقى من أخبار مصر ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) انظر : محمد أحمد حسين أسامة بن منقذ ص ٦١ حيث يميل لانتهام أسامة بالمشاركة في قتل ابن السلار .

(٣) رانيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. العرينى ٢ : ٧٨٠ .

(٤) عبد الصاحب عمران الدجيلي أعلام العرب في العلوم والفنون ط ٢ ج ٢ ص ٩ هامش ٢ .

(٥) مجرد الإشارة هنا إلى أن ابن القلانسي ، أقرب المؤرخين زمنًا لهذه الحوادث (ت ٥٥٥ هـ) لم يشر لدر أسامة فيها ، ونسب مقتل الظافر لإخوته وأقاربه . انظر : ذيل تاريخ دمشق حوادث

٥٤٨ ، ٥٤٩ هـ .

ويتحدث المؤلف عن نفسه بما يظهره بطانة صالحة للأمرء والسلاطين ممن صحبهم يحضهم على الخير ، وينهاهم عن الشر ، يقول عن الوزير الفاطمي عباس ، في خبر إحدى الفتن : « وأمر بإحراق البرقية لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطف الأمر معه وقلت : يا مولاي ، إذا وقعت النار أحرق ما تريدو ما لا تريد . وبعثت عن أن تطفئها ، ورددت رأيه عن ذلك » (١) . بل إنه ينتقد عباساً هذا رغم صحبته له وذلك بمناسبة مقتله ، فيقول « ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة ، كان اعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخشى ، رحمه الله » (٢) ، بل إنه يشتد في نقد تصرفات صديقه الأمير « الغسياني » القاسية وطابعه العدواني وتوسيطه لبعض الناس - أى - قطعهم من الوسط نصفين - رغم مناشدة أسامة إياه أن يمتنع عن ذلك (٣) ، ولكن أسامة على عادته السمحة يترحم عليه كما ترحم على غيره ممن عرفهم ومضوا بأعمالهم للقاء ربهم ، سواء اتفق معه أو اختلف ، والحق أنه يبدو في كتابه وقوراً حليماً مهذب الأسلوب لا يسب ولا يجنح .

ويتحدث المؤلف في مواضع عديدة من كتابه عن أسرته وأخوته وأمه وجدته وعمه وأبناء عمومته حديثاً يبرز العلاقات الأسرية الحميمة والروابط القوية ، ولكنه يفرط كثيراً في الحديث عن الوالد وذكرياته معه وحببه الشديد له وإظهاره رجلاً مؤمناً شجاعاً قوياً ، حتى أنه يسخر اللهو في حياته تسخيراً مفيداً ، فهو لهو مباح موظف ، يقول : « فكان الصيد كما جاء في الخبر ، روحوا القلوب تعي الذكر » (٤) وحديثه عن نفسه يوحى بطبيعة تربيته في ظل هذه الأسرة ، فهو إلى جانب النشأة التقليدية من تلقى دروس العلم والدين والحفاظ على الموروثات ، لا يمنع من تجريب الحياة والانغماس في تقلباتها مع الحرص عليه ، يقول مثلاً :

(١) الاعتبار ٢٨ ، وبعثت أى تأبث اللسان (بعل) .

(٢) السابق ٣٧ ، ورضوان الولخشى أحد وزراء الحافظ الفاطمي (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) مات قتيلاً

حوالي سنة ٥٤٣ هـ ، انظر : الكامل ، ١١ : ٤٨ - ٤٩ .

(٣) الاعتبار ٢٠١ - ٢٠٥ .

(٤) السابق : ٢٤٧ .

«وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من إشفاقه وإثاره لي» (١) .

ويكفي للتدليل على عمق الروابط بين أسامة ووالده قوله بعد أن تحدث عن حسن خطه وجهوده في نسخ القرآن : « وما يقتضى الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعى له الرحمة ممن وقف عليه ، رحمه الله » (٢) ، ونزوعاً إلى عادته من القصد والاعتدال ، فإن أسامة عند حديثه عن مهارة والده في الصيد مقارناً بصيد غيره وأنه لم ير مثل صيده يعقب بقوله : « فما أدري كنت أراه بعين المحبة كما قال القائل ، وكل ما يفعل المحبوب ، ما أدري أكان نظرى فيه على التحقيق . وأنا أذكر شيئاً من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه » (٣) .

والغريب أن ابن منقذ ، وهو يروى ذكرياته عن حياته وأسرته وأهله وعشيرته وأترابه لم يتحدث عن الزلازل التي أودت بهؤلاء الأهل في « شيرز » عام ٥٥٢ هـ في زلزال شهير خرب كثيراً من بلدان الشام وخاصة حماة وشيرز وكفر طاب والمعرة وحمص وحصن الأكراد (٤) فلعل المؤلف يود أن يتناسى هذا الحادث المؤلم ويسلو عنه لما يجده ذكره في نفسه من الأشجان والأحزان على أهل حميم الصلة بهم ، وربما يكون قد ألمح لذلك في الجزء المفقود من أول المخطوطة . كذلك لم يورخ المؤلف لوفاة والده سنة ٥٣١ هـ (٥) . رغم طول حديثه عنه .

ويتحدث المؤلف أحياناً عن بعض شيوخه من أهل العلم حديثاً يطول ويقصر ، يقول مثلاً : « وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلى النحوى ، رحمه الله ، ... وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً ، دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه ، فوجدت بين يديه كتب النحو : كتاب سيويه وكتاب الخصائص لابن جنى

(١) الاعتبار ٣٢ ، وانظر أمثلة أخرى لحديثه عن الأسرة ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) السابق ٦٩ .

(٣) نفسه ٢٥٥ .

(٤) انظر : ابن الأثير الكامل ١١ : ٢١٨ - ٢٢١ .

(٥) انظر : سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ٨ : ١٦٢ ، ١٦٣ .

وكتاب الإيضاح لأبي على الفارسي ، وكتاب اللمع وكتاب الجمل ، فقلت يا شيخ أبا عبد الله . قرأت هذه الكتب كلها ؟ ! قال : قرأتها ؟ ! لا والله إلا كتبها في اللوح وحفظتها ، تريد تدرى ، خذ جزءاً وافتحه واقرا من أول الصفحة سطراً واحداً . فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت منه سطراً . فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها . فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر^(١) ، بل إن المؤلف يذكر أحياناً شيوخ الوالد^(٢) .

وتبدو اهتمامات المؤلف الثقافية واتساعها في حديثه عن مكتبته التي وقعت مع أسرته في يد الإفرنج وخلصت الأسرة وضاع المال والكتب ، يقول : « فهون على سلامة أولادى - وأولاد أخى ، وحرماننا ذهب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لى من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة . فإن ذهبها حرازة فى قلبى ما عشت »^(٣) .

وتبرز ثقافة المؤلف الفارس العسكرية فى نصائحه التى يسوقها للفرسان فى ثنايا كتابه يقول مثلاً : « قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمل فى الطعنة . فإنه متى حرك يده بالرمح أو مدها به ، لم يكن لظعنه تأثير ولا نكاية »^(٤) ويبدو كذلك المظهر الدينى لثقافته من خلال كثرة الشاهد القرآنى والحديثى والمأثور فى مواضعه^(٥) . وطول ممارسة المؤلف لهواية الصيد واحتكاكه بعالم الحيوان والطيور أجرى على لسانه آراء عن هذا العالم قد يوافقها العلم الحديث أحياناً وقد يردّها أحياناً أخرى ، يقول مثلاً : « ومن خواص النمر أنه إذا جرح إنسان وبالت عليه فأرة مات . ولا ترد

(١) الاعتبار ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، وانظر كذلك ١٠٩ .

(٢) السابق ٢٧٥ .

(٣) نفسه ٤٥ .

(٤) نفسه ٥٤ .

(٥) نفسه مثلاً : ٢١١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ .

الفأرة عن جريح النمر (١).

وللروح العدائية الشائعة لدى المؤرخين المسلمين بعامة تجاه الصليبيين ، نصيب لدى المؤلف ، تعبير عنه ألفاظ وعبارات تصفهم مثل : « شيطان من الإفرنج » (٢) ، « وهم لعنهم الله جنس ملعون » (٣) ، « الكافرون » (٤) ، ودعاء إلى الله أن : « يظهر الدنيا منهم » (٥) ورغم ذلك فهو ينصفهم في حديثه عنهم يذكر ما فيهم من الشجاعة (٦) ، ويورد أمثلة لهذه الشجاعة في ميدان الحرب (٧) . وللهزيمة منهم (٨) ، بل إنه يتعرف إليهم ويזורهم ويؤاخي بعضهم (٩) . وهو يتحدث عن سذاجة طبهم مقابل الطب العربى ، ولكنه يورد أخباراً تنصفه شيئاً ما ، يقول : « وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك . كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألغن الإفرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان فى ساقه فعملت عليه رجله وفتحت فى أربعة عشر موضعاً . والجراح كلما ختم موضع وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب إفرنجى فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق . فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان » (١٠) ، ولا تقتصر تداعيات الذكريات فى الاعتبار على ما حدث للمؤلف فى حياته ، بل إن بعض الحوادث التى شهدتها تذكره بأخرى مشابهة يجترها من مخزونه الذهنى على شكل ارتداد تاريخى ، فحمية أحد

(١) نفسه ١٤٢ ، ويعلق د. حتى المحقق على هذا الرأى فى الهامش بقوله : « ليس لهذه الملاحظة من أساس علمى » ، وانظر لهذه الآراء أمثلة أخرى ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) الاعتبار : ١٥٢ .

(٣) السابق ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤) نفسه ١٧٣ .

(٥) نفسه ١٦٨ .

(٦) نفسه ١٦٩ .

(٧) نفسه ٦٢ .

(٨) نفسه ٧٩ .

(٩) نفسه ٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ .

(١٠) نفسه ١٧١ ، وعن روح الإنصاف عند ابن منقذ ، انظر : نخبة من الأساتذة : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

الفرسان أصدقائه وأنفته من الهزيمة على يد آخر وإصراره على الانتقام وتحقيق ذلك بالفعل أمام أسامة ، ذكره بحادثه مشابهة في حروب الردة في صدر الإسلام رواها لنا (١) .

ويجمل المؤلف الحديث أحياناً في مداراة ظاهرة حينما يتحدث عن بعض المسائل الحساسة في حياته ، يقول مثلاً عن خروجه من دمشق إلى مصر بسبب خلافات بينه وبين وزيرها « معين الدين أنر » - نائب الأتابك « أبق » صاحب دمشق ، وكان إليه الأمر والنهي ، وكان للأتابك سلطة شكلية ، وتوفى أنر سنة ٥٤٤ هـ (٢) - يقول ابن منقذ : « ثم جرت أسباب أوجبت مسيرى إلى مصر » (٣) ، ولا يفصل هذه الأسباب (٤) . ومن ملامح هذه المداراة أيضاً ، أن ابن منقذ لا يورد أحياناً ما أصاب أسرة بنى منقذ على يد من يعيش في كنفهم من الملوك والكبراء ، فلم يعرض مثلاً لقبض السلطان صلاح الدين الأيوبي على الأمير مبارك بن كامل بن منقذ - « الذى كان نائب شمس الدولة أخى السلطان بزبيد باليمن - بوشاية وتغريمه ، ثم إطلاقه ، ولا لمقتل أخيه حطان بن كامل - الذى استنابه مكانه بزبيد - على يد سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان صلاح الدين باليمن سنة ٥٧٨ هـ (٥) . وربما كان السبب فى عدم ورود إشارات لهذه الأمور فى « الاعتبار » كون الكتاب بعض ذكريات المؤلف المتواردة على ذهنه فى كبره وليست كل ذكرياته .

وتتضح رؤية المؤلف فى كتابه وغرضه من سوق ذكرياته متداعية بعامل التشابه أو التناقض بشكل ظاهر ، إذ إن هدفه من ذلك هو ما يدل عليه عنوان الكتاب بنفسه ، فقد فهم أسامة التاريخ بأفق واسع وابتغى تحقيق أسمى أهدافه وهو الاتعاظ

(١) الاعتبار : ٤٦ - ٤٩ ، وانظر لهذا الارتداد التاريخى أمثلة أخرى فى الصفحات من ٦٢ - ٦٥ .

(٢) انظر : ابن الأثير الكامل ١١ : ١٤٧ .

(٣) الاعتبار : ٤ .

(٤) انظر : التفصيل عن هذه الخلافات فى محمد أحمد حسين أسامة بن منقذ ، ٥١ ، ٥٢ .

(٥) انظر فى ذلك : العماد الاصفهاني سنا البرق ١٨٩ ، ١٩٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٧١ ،

والاعتبار من ماجريات الحياة والأقدار ، وذلك شائع في ثنايا كتابه لا يفتأ يذكر به بين موضع وآخر ، يقول مثلاً في تعليقاته على الأحداث : « فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف يشاء لا يؤخر الأجل الإحجام ولا يقدمه الإقدام » (١) .
« فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه ، فإن أسير الأشياء وأقلها يؤذى ويهلك . كل ذلك مقرون بما يجرى به الأقدار والأقضية » (٢) . ويرز عمق إيمانه واستسلامه لمجريات الأقدار والأقضية ، حينما يقول : « النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفي ولا نصير » (٣) بل إنه يستهل باب أخبار الصيد بيت يوضح في صراحة فلسفته في الحياة ، فيقول « ولله منى جانب لا أضيعه .. ولله منى والبطالة جانب » (٤) ويظهر إيمانه واستسلامه للقدر ، عند حديثه عن أسر الفرخ أسرته وهي في طريقها للشام من مصر ، وخلاصها بصعوبة شديدة بعد النهب ، يقول : « فهذه نكبات تزعزع الجبال وتغنى الأموال والله سبحانه يعوض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجحفت بهلاك المال » (٥) .

ويتوافر لدى مؤلفنا الحسان الزماني والمكاني في تحديد المواقع وأزمنة الأحداث وذلك شائع في كتابه ويصل لدرجة كبيرة من الدقة ، رغم أنها مذكرات لا كتاباً يسرد أحداثاً تاريخية متوالية أو حوليات ، يقول مثلاً : « فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرخ بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد ، لعنهم الله ، في وادي موسى » (٦) ، « وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من

(١) الاعتبار : ٩٠ .

(٢) السابق ١٨٥ .

(٣) نفسه ١٩٠ .

(٤) نفسه ٢٤٥ .

(٥) نفسه ٤٥ .

(٦) الاعتبار ٣٤ ، وروادى موسى منسوب إلى موسى بن عمران ، عليه السلام ، واد في قبلى بيت المقدس بينها وبين أرض الحجاز ، واد حسن كثير الزيتون. مراصد الاطلاع ٣ : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

الإفرنج وبنى فهيد يوم الجمعة ، خامس ربيع الآخر من السنة ^(١) ، فإن افتقدت بعض الحوادث لديه هذا الحس ، كقصة رضوان الولخشي « الوزير الفاطمي وخروجه للشام ورجوعه وقلته » ^(٢) . فلم يذكر لأحداثها تواريخ وإن ذكر أنها جرت في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ . فربما مرد ذلك إلى أن هذه القصة وأشباهها تأتي عن طريق الارتداد الذهني تاريخياً ، الذي سبق الحديث عنه ، كأن يتذكرها عرضاً بمناسبة حديثه عن حادثة أخرى مشابهة كما هو الحال مع قصة رضوان ذكرها عند حديثه عن مقتل « عباس » الوزير الفاطمي ^(٣) .

(هـ) الأسلوب : -

جاءت ذكريات المؤلف في كتابه في أسلوب ساذج دارج عادي متحرر من قيود الصنعة والتزامات الأسلوب الفني الرفيع كما يتميز به ابن منقذ باعتباره شاعراً وأديباً ومصنفاً لكتاب في البديع ^(٤) . إلا ما كان من التزامه الفصاحة والسجع في تأملاته بشأن طول العمر ^(٥) . ومديحه لصلاح الدين ^(٦) . ولعل هذا الأسلوب يناسب المقام ، إذ التأمل والمديح - خاصة إذا كان صادقاً غير متكلف - موقفان شعوريان وغرضان يستدعيان رقياً أسلوبياً وشفافية لغوية . وربما أعان هذا الانفلات من قيود الصنعة المؤلف على توارد أفكاره وتداعى خواطره في خفة واطراد وانسيابية دون تكلف وتعمل .

ويدو أن « ابن منقذ » لم يكن يحسن غير العربية ، ربما يؤيد ذلك أنه لا يفهم كلام الإفرنج : « فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي لا ندرى ما يقولون » ^(٧) ، ولا كلام الترك : « وهم يتكلمون بالتركي ولا أدرى ما يقولون » ^(٨) ، ولكنه مع

(١) الاعتبار ٣٥ ، وانظر أمثلة أخرى لذلك صفحات ٢٣ ، ٢٥ ، ٨٨ .

(٢) السابق ٣٧ - ٤٢ ، .

(٣) نفسه ٣٤ .

(٤) انظر : مقدمة المحقق للكتاب ص ع .

(٥) الاعتبار ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٦) السابق ٢١٣ - ٢١٥ .

(٧) نفسه ٨٥ .

(٨) نفسه ١٩٤ .

ذلك استعمل كثيراً من الكلمات الإفرنجية والفارسية والتركية واليونانية التي ربما تكون قد شاعت في المجتمع وتداولت في ذلك الوقت ، وبخاصة في مصطلحات الحرب مثل : تركش ، كزاغند^(١) كما استعمل بعض الألفاظ والعبارات الدارجة التي تناسب الأسلوب البسيط في الكتاب مثل : العملة بمعنى الحادث^(٢) ، مالك ياريس^(٣) ، وكذلك استعمل الأمثال كقوله « وما انتطح فيها عنزان »^(٤) .

ويكثر استشهاد المؤلف في كتابه بالأشعار المناسبة للحوادث ، منها ما هو له^(٥) ، بحكم كونه أديباً شاعراً ، ومنها ما هو لغيره مجهولاً^(٦) ، أو معروفاً نص عليه^(٧) بل إنه يضمن الشعر حديثه الثرى^(٨) ، كما سبقت الإشارة للاستشهادات القرآنية والحديثية .

(و) الأهمية :

نال كتاب الاعتبار شهرة كبيرة حتى أن مؤلفه عرف به غالباً من بين كتبه العديدة وأشاد به كثير من الباحثين ، يقول عنه محققه د. حتى : « وأخيراً في أواخر أيام حياته دون لنا - يقصد أسامة - كل ما خبره بالذات وعرفه من مصادره الأصلية ، في مذكرات شائفة رائعة قل نظيرها - من حيث الأمانة في النقل والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة والنكهة في التعبير - في مجمل الآداب العربية »^(٩) . وقد ترجم المحقق د. حتى الكتاب إلى الإنجليزية ، كما ترجم إلى الألمانية ، ونشره . سالير M. Sallier ترجمة روسية له سنة ١٩٢٢م^(١٠) .

(١) سبق تبيان معناهما .

(٢) الاعتبار ١١ .

(٣) السابق ١٠٣ .

(٤) نفسه ٧ .

(٥) نفسه ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٦) نفسه ٤٧ .

(٧) نفسه ٥١ ، ٦٣ ، ٦٥ .

(٨) نفسه ٧٦ .

(٩) الاعتبار مقدمة المحقق ص ب ، وانظر ص ك أيضاً ، وكذلك انظر : د. مسفر بن سالم مرآة الزمان

١ : ١٩ . محمد أحمد حسن أسامة بن منقذ ٣٤ .

(١٠) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٦ : ٢٤ .

٢. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

(أ) المؤلف :

بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد ، الفقيه الشافعي ، (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ / ١١٤٥ - ١٢٣٤ م) ، ولد بالموصل ، ونشأ في كنف أخواله بني شداد لوفاة والده وهو صغير فنسب إليهم ، وفي الموصل حفظ القرآن صغيراً ، ثم رحل للبصرة وغيرها ، ودرس الحديث وشروحه والتفسير والفقه والقراءات والأدب على شيوخ المدرسة النظامية في بغداد ، حيث عين معيداً بها . ثم صعد إلى الموصل سنة ٥٦٩ هـ مدرساً بمدرسة القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، واشتهر بالانزان ورجاحة العقل وسداد الرأي ، فاختره أمراء الموصل سفيراً إلى بغداد لطلب تدخل الخليفة الناصر لدين الله بين صلاح الدين والمواصلة ، وكذلك إلى صلاح الدين في مفاوضات الصلح حتى تمت الهدنة بينهم .

وفي سنة ٥٨٢ هـ ، شد الرحال حاجاً إلى مكة وعاد إلى الشام لزيارة البيت المقدس ، وصلاح الدين حينذاك على حصار حصن كوكب سنة ٥٨٤ هـ ، فاستدعاه لسمع منه فأعجبه وطلب إليه أن يقابله عند عودته من زيارة بيت المقدس ، فلما عاد اجتمع بصلاح الدين على حصن الأكراد وقدم له كتاباً في فضائل الجهاد ، وعزم على المسير إلى الموصل فلم يسمع له صلاح الدين وتمسك به ، وكان قد طلب منه قبل ذلك أثناء المفاوضات مع المواصلة أن يوليه قضاء مصر فاعتذر ، ولكنه قبل في هذه المرة قضاء العسكر والحكم بالقدس ، ومنذ ذلك الحين (سنة ٥٨٤ هـ) لم يفارق ابن شداد صلاح الدين حتى وفاة الأخير سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م .

ثم توجه ابن شداد إلى حلب سنة ٥٩١ هـ ، حيث عينه صاحبها الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن صلاح الدين وزيراً وقاضياً له ، وحاول ابن شداد جمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين وتخليف بعضهم لبعض ، حيث تنقل لأجل ذلك من حلب للقاهرة أكثر من مرة أعوام ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٩ هـ ، سعياً وراء الإصلاح وجمع الكلمة . وظل ابن شداد متمتعاً بمكانة رفيعة ونفوذ كبير في

حلب أيام الظاهر وابنه العزيز أول أمره ، بيده الحل والعقد ، فاعتنى بترتيب أمور حلب ، وجمع الفقهاء بها وعمر مدارسها ووقف عليها المال الكثير ، وظل يعمل حتى لحقته الشيخوخة .

ولما بلغ الملك العزيز سن الرشد استقل بالحكم ، واستولى عليه جماعة من الشبان وسيطروا على أمور البلاد ، فلزم ابن شداد داره مع احتفاظه بوظيفته في القضاء وأرزاقه . وأسمع الناس الحديث إلى أن توفي بحلب وقد نشطت في زمنه حركة الدراسة والعلم ، ووضع هو مؤلفات عدة منها : دلائل الأحكام وفضائل الجهاد والعصا ، وفي التاريخ : تاريخ لحلب (مخطوط في بطرسبرج) ، وسيره للملك الظاهر (مخطوطة بتركيا ، ترجمت للتركية وطبعت) ، ولا بد أنها للظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، ويبدو أن « بروكلمان » أخطأ في تسميتها « سيرة الملك الظاهر بيبرس » لأن ابن شداد توفي قبل قيام دولة المماليك - ومنهم بيبرس - بفترة . ومن كتبه أيضا سيرة صلاح الدين المسماة « النوادر السلطانية » ، وهي مطبوعة في مجلد واحد ، وهي محل الدراسة هنا^(١) .

(ب) مضمون الكتاب :

يبدأ الكتاب بديباجة تقليدية موجزة تتضمن الحمد والثناء والشهادة والصلاة والتسليم على سيدنا محمد ، ﷺ ، ثم ينطلق من ذلك إلى الحديث عن الباعث على هذا التأليف حيث يعلل ذلك بأن شخصية « صلاح الدين » وأفعاله وما شاهده المؤلف من أحواله وأمجاده وسمو أخلاقه هي التي دفعت به إلى هذا التأليف : « فأنى لما رأيت أيام مولانا السلطان الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبده الصلبان »^(٢) ، ويستطرد إلى أن يقول : « وسميت هذا المختصر من تاريخها -

(١) انظر في ترجمته : ابن خلكان ، الوفيات ٧ : ٨٤ - ١٠٠ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت تحقيق لجنة التراث العربي بالدار ، ٥ : ١٥٨ - ١٥٩ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٦ : ١١ - ١٤ ، د. حسن علي حسن ، عصر الحروب الصليبية ، مكتبة الشهاب سنة ١٩٨٨ م ، ٤ ، ٥ ، د. العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ١٩٨ - ٢٠٤ ، د. نظير سعادوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ١٤ - ١٩ .

(٢) النوادر ٣ .

أى تاريخ أيام صلاح الدين الأيوبي - النوارذ السلطانية والمحاسن اليوسفية، وجعلته قسمين : أحدهما فى مولده ، رحمه الله ، ومنشئه وخصائصه ، وأوصافه وأخلاقه وشمائله الراجحة فى نظر الشرع الوفية . والقسم الثانى فى تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه وتواريخ ذلك أيام حياته ، قدس الله روحه ، والله المستعان فى الصيانة عن هفوات اللسان والقلم ، وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم ، وهو حسبى ونعم الوكيل (١) . ويبدأ القسم الثانى بدخوله مصر مع عمه شيركوه وينتهى بوفاته سنة ٥٨٩ هـ ، وقد أوجز ابن شداد كثيراً فى القسم الأول من سيرته والذى خصصه للحديث عن سيرة صلاح الدين الشخصية وصفاته وحميد أخلاقه ، ليبدأ فى القسم الثانى وهو الخاص بالحديث عن قلب أحوال صلاح الدين وحرابه وفتوحه ، أى سيرته السياسية والعسكرية حتى وفاته ، وهو ما يشغل معظم مساحة السيرة ، حيث ينتهى القسم الأول عند ص ٢٨ من مجموع ٢٥٢ صفحة هى حجم متن الكتاب ، ويختتم ابن شداد القسم الأول قائلاً : «فهذه نبد من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، اقتصرت عليه خوف الإطالة والسامة وما سطرت إلا ما شهدته أو أخبرنى الثقة به وحققته ، وهذا بعض ما اطلمت عليه فى زمان خدمتى له ، وهو يسير فيما اطلع عليه غيرى ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ، ولكن هذا القدر يكفى الأديب فى الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال ، حيث نجز هذا القسم فنشرع الآن فى القسم الثانى من الكتاب فى بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته فى تواريخها ، قدس الله روحه ، ونور بنور رحمته ضريحه » (٢) . فليت ابن شداد أعفى نفسه من خوف الإطالة وأطال فى هذا القسم وفصل ، ولم يسارع إلى الدخول إلى الجانب السياسى العسكرى من حياة مترجمه ، إذ على الرغم من أهمية هذا القسم لمعاصرة ابن شداد له ، فإنه هو غاية المؤرخين ومنتهى الكتاب ، فكل أدلى فيه بدلوه وفصل فيه وأعاد ، ولكن الجانب الآخر من الشخصية وأحاسيسها ومزايها الخلقية واتجاهات تفكيرها ونبضات قلبها ، هذا - فيما أعرف - مالم يتطرق إليه أحد من المعاصرين كثيراً غير « ابن شداد » بحكم ملازمته لمترجمه ، وهو ما نحتاج إليه بشدة لإيضاح صورة المترجمين فى أذهاننا

(١) النوارذ ٤ .

(٢) السابق ٢٨ .

وبخاصة العظماء اللامعين منهم ، لأن التاريخ غالباً ما يحفظ لنا جليل أعمالهم ومشهور وقائعهم ، أما ما يحدث وراء « الكواليس » ، حيث تتشكل دوافع التصرفات وظروف صنع القرار ، فإنه لا يتطرق إليه عادة ، ولعل هذا الجانب هو ما يميز سيرة ابن شداد عن كثير مما كتب عن صلاح الدين حتى من قبل معاصريه ككتاب « الفتح القسى » للعماد مثلاً ، فإنه ركز على الجانب العسكري والسياسي ومشهور الوقائع وعظيم الأحداث في شكل رسمي ، فالعماد يشبه في ذلك كثيراً المتحدث الرسمي باسم الدول والرؤساء في الوقت الحاضر ، حيث لا يعطى كثيراً كل الحقيقة ، ولا يتطرق إلى بواطن الأمور وخبائها ومكنوناتها .

والنوادير ليس سيرة كاملة ، وإنما هي لقطات من حياة رجل سجلها رجل معاصره ، ساعدت كثيراً على تكوين صورة لملامح شخصيته وإن كانت غير تامة ، لأن ابن شداد يتحدث عن صلاح الدين الشاب والكهل والسلطان والفارس المجاهد ، ولم يتحدث عن صلاح الدين الطفل أو الصبي أو الفتى . ولم يتطرق إلى الحديث عن جو الأسرة وظروف النشأة والبيئة كثيراً ، ربما لأنه يريد التركيز على الفترة الحاسمة في حياته وهي التي عاصرها معه .

ويسير الكتاب على الطريقة الموضوعية ، وإن وافق الترتيب الزمني في القسم الثاني منه ، فهو يشبه الحوليات كثيراً .

(ب) مصادر الكتاب : أولاً : المعاصرة والمشاهدة والإطلاع الشخصي :

أهم مصادر المؤلف في كتابه نظراً لقربه وإطلاعه ، يقول عن أيام صلاح الدين « ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروى ، عنه أخبارها وأنبأؤها ، ومسنى من رقى نعمتها وحق محبتها ، وواجب خدمتها ، ما يجب على به إبداء ما حققت من حسناتها ورواية ما علمت من محاسن صفاتها ، رأيت أن اختصر من ذلك ما أملاه على العيان أو الخبر الذي يقارب مظهره درجة الإيقان » (١) . وابن شداد مصدر أساسي من سنة ٥٨٤هـ إلى سنة ٥٨٩هـ سنة وفاة صلاح الدين وهي الفترة التي

(١) النواذر ٤ .

لاؤمه فيها ، يقول : « وكان الله قد أرقع في قلبي محبته ، منذ رأته وحببه الجهاد ، فأحبته لذلك وخدمته ، من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل وجميع ما حكيت قبل إنما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهده ، ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان ، والله الموفق » (١) .

ومن أمثلة المشاهدات الحية التي وقف عليها ابن شداد ، قوله عن قتلى الفرنج بعد ذكر « الوقعة العادلية » ، وكانت للمسلمين على الفرنج ، يقول : « واختلف الناس في عدد القتلى منهم - أي من الفرنج - فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف . ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف ، أولها في خيم العدل وآخرها في خيم العدو . ولقد لقيت إنساناً جندياً عاقلاً يسمى بين صفوف القتلى وبعدهم ، فقلت له : كم عددت ؟ فقال لي : ها هنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلاً ، وكان قد عد صفين وهو في الصف الثالث ، لكن ماضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي ، وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الإسلام » (٢) .

ثانياً : السماع :

رأينا من نصوص سابقة أن ابن شداد اعتمد إلى جانب الإطلاع الشخصي بدرجة كبيرة على السماع من الثقات والمطلعين على الأمور ، يقول مثلاً : « وقد سمعت من صاحب ديوانه - يقصد صلاح الدين - يقول لي ... » (٣) ، « وقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل ... » (٤) ، « ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر ، أعز الله أنصاره ... » (٥) ، « ولقد سمعت منه - أي صلاح الدين - يقول ... » (٦) ، « هكذا بلغني على السنة جماعة لأنني لم أحضر هذه الواقعة » (٧) .

(١) النوادر ٧١ .

(٢) السابق ١١٤ .

(٣) نفسه ١٤ .

(٤) نفسه ١٤ .

(٥) نفسه ٢٣ .

(٦) نفسه ٣٣ .

(٧) نفسه ٢٧ .

« هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم »^(١).

ثالثاً : الوثائق :

استعمل المؤلف كثيراً منها في النوادر ، ومن أمثلتها نص كتاب «الكايفكوس» الأرمني ، إلى صلاح الدين وأوله : « كتاب الداعي المخلص الكايفكوس ما أطلع به علم مولانا مالکنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان »^(٢) ، وهو يكثر من الاعتضاد بنصوص الوثائق من مراسلات وعهود وخطب ، من ذلك نص خطبة صلاح الدين في أمراءه في اجتماع عقده معهم للتشاور فيما يفعلونه إزاء اشتداد ضغط الفرنجة عليهم^(٣) ، ونصوص المراسلات بين المسلمين والفرنجة في المرحلة التي عالجها النوادر مبثوثة في الكتاب ، وقد يستعمل مضمونها دون إيراد نصها كقوله : « ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حرز »^(٤) ، « ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه أنهم ... »^(٥) . لكن استعمال الوثائق لدى ابن شداد أقل كثيراً مما لدى العماد ، ربما لأن الأخير زاول أعمال سكرتارية مكنته من مطالعة الوثائق^(٦) .

(د) منهج الكتاب :

تبدو روعة معاصرة المؤرخ للأحداث والشخصيات ، وكون ابن شداد لصيقاً بالسلطان ملازماً له ، أنه يسجل من حركاته وسكناته ما يحصل أمالدين خطيباً لأول تطرق إلى دقائق وتفاصيل خاصة بقول مثلاً في حديثه عن مواظبة «صلاح الدين» رحمه الله - على القواعد الدينية وملاحظته للأمر الشرعية : « وأما صوم رمضان

(١) النوادر ١٢٥ .

(٢) السابق ١٠٧ ، وانظر أيضاً ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) نفه ٢١٢ .

(٤) نفه ١٢٢ .

(٥) نفه ١٢٢ .

(٦) انظر في ذلك M. Hilmy M. A hmad, Some notes on ... p. 88, in historians of the middle east .

فإنه كان عليه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها ، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ،^(١) بل إن ابن شداد يكاد يحصى على صلاح الدين أنفاسه وبعد قطرات دموعه ، يقول في موضع آخر : « وصلت إلى جانبه على العادة وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ورأيت ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول »^(٢) .

ويحرص المؤلف على بيان شرعية تصرفات وأخلاق ومعاملات صلاح الدين ، وعدم مناقاتها للقواعد الدينية ، ومراعاتها للهدى النبوي ، فكأنه أحبه من خلال تلك الشمائل واجتمع به بدافع من تلك الفضائل ، وما أسماه من دافع يهدي إلى الخير في الدنيا والآخرة ، فالأخلاء متعادون يوم الآخرة إلا المتقين منهم . ومن مظاهر ذلك وتصديقاً له يفتح المؤلف كل فقرة في حديثه تحت عنوان جديد بآية أو حديث نبوي في بابها ، ثم يربط أعمال صلاح الدين وأخلاقه بذلك الهدى القرآني أو النبوي ، وذلك في القسم الأول من كتابه ، يقول مثلاً تحت عنوان « ذكر عدله رحمه الله تعالى » : « روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : الوالي العادل ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ومن خانته في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه »^(٣) ، ثم يعدد من أمثلة عدل السلطان وإنصافه ما يؤيد ذلك ، وفي موطن آخر تحت عنوان « ذكر طرف من كرمه رحمه الله » ، يقول : « قال ، ﷺ ، إذا عثر الكريم فإن الله أخذ بيده ، وفي الكرم أحاديث »^(٤) ثم يذكر من ضروب كرمه

(١) النوادر ٦ .

(٢) السابق ١٠ .

(٣) نفسه ١٠ .

(٤) نفسه ١٣ .

ما يحقق ذلك . وتحت عنوان « ذكر اهتمامه بأمر الجهاد » يقول : « قال الله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين . ونصوص الجهاد كثيرة »^(١) ، ثم يتحدث عن ضروب جهاده وكفاحه في سبيل الله ونصرة الإسلام ، فكان صلاح الدين في نظر « ابن شداد » نموذج للمسلم الشرعي الملتزم أو الإنسان الذي تحققت فيه إرادة الله من ذرة الإنسان على وجه الأرض . والحق أنه قريب من أن يكون كذلك بالفعل .

ويرر ابن شداد كل التصرفات والوقائع في عهد صلاح الدين ، بأنه بذل فيها الوسع ولم يكن وراء ذلك طاقة أو مزيد ، حتى إن كان حال هزيمة أو اضطراب لصلح فإن مرد ذلك عنده لظروف قاهرة قادرة ، يقول : « ولم يزل أى - صلاح الدين - مصابراً لهم - للصليبيين - وهم في العدة الوافرة ، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مستول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح ، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما في مكنوناتها »^(٢) . ويبلغ من حماس ابن شداد لبراء ساحة صلاح الدين من أى شبهة في جهاده للصليبيين ، أنه بعد حديثه عن تمام صلح الرملة سنة ٥٥٨هـ بين المسلمين والفرنجية ، يعلق عليه قائلاً : « والله العظيم ، إن الصلح لم يكن من إشاره - يقصد صلاح الدين - فإنه قال لى فى بعض محاوراته للصلح ، أخاف أن أصالح وما أدرى أى شىء يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعتة ، يعنى حصنه ، وقال لا أنزل فيهلك المسلمون ، هذا كلامه وكان كما قال ، ولكنه رأى المصلحة فى الصلح لسامة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة ، وكانت مصلحة فى علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له »^(٣) .

(١) النوادر ١٦ ، وفى النص : الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٢) السابق ١٦ ، ويقصد بما أبدته الأقضية ، وفاة صلاح الدين بعيد إتمام الصلح ، فلو مات قبل تمامه وظل المسلمون والصليبيون فى حالة حرب لكان فى ذلك كل الخطر .

(٣) نفسه ٢٢٧ .

ولم يعمد ابن شداد إلى رسم صورة مثالية لصلاح الدين ، كما يحدث عند مترجم لهم كثيرين مع مترجم لهم يتضاءلون بجانب صلاح الدين ، وإنما تحدث أحياناً عما كان يعترض شخصه من قصور بشرى ، يقول مثلاً فى حديثه عن تفويض وزارة مصر إليه بعد وفاة عمه شيركوه : « وفوض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام وبذل المال وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله عليه فتاب من الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته ،^(١) .

وتتجاور فى الكتاب شخصية المؤلف مع شخصية صلاح الدين بحكم صحبته له ، ويتميز حديث ابن شداد عن نفسه بالصراحة وعدم التكلف وإدعاء ما ليس فيه ، يقول مثلاً : « ثم سرنا فى خدمته - أى فى خدمة السلطان - إلى الساحل طالبى عكا ، وكان الزمان شتاء والبحر هائجاً شديداً وموجه كالجبال كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى حتى خيل لى أنه لو قال لى : إن جزت فى البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل ، واستسخت رأى من ركب البحر رجاء دينار أو درهم ، واستحسن رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر ، هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر ، فبينما أنا فى ذلك إذ التفت إلى رحمة الله ، وقال : أما أحكى لك شيئاً ؟ .. فى نفسى إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ، فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان خطر لى ، وقلت له : ليس فى الأرض أشجع نفساً من المولى ، ولا أقوى منه فى نصره دين الله تعالى ، فقال : فكيف ؟ فقلت : أما الشجاعة ، فإن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله ، وأما نصره دين الله ، فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص فى الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم ، واستأذنت أن أحكى له ما كان خطر لى ، فحكيت له ،^(٢) .

(١) النوادر ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) السابق ١٧ ، ١٨ .

ونظراً لانحصار اهتمام ابن شداد فى التأريخ لأخبار صلاح الدين وحرابه وأحواله فى الفترة التى عالجها ، ونظراً لشهوده هذه الأحداث غالباً ، فإن حديثه قد اتسم بالتفصيل الشديد أحياناً ، من ذلك مثلاً حديثه عن منازل الجيش الإسلامى قبالة الفرنج منذ خروج هؤلاء من « عكا » بعد استيلائهم عليها سنة ٥٨٧هـ ، إلى ناحية عسقلان^(١) . وكذلك حديثه المفصل عن ظروف مرض صلاح الدين الذى توفى فيه رحمه الله - إذا يؤرخ للأحداث فى أجزاء اليوم المختلفة ، يقول مثلاً : « ولما كانت ليلة السبت وجد - أى السلطان - كسلاً عظيماً ، فما انتصف الليل حتى غشيتته حمى صفراوية كانت فى باطنه أكثر من ظاهره ، وأصبح فى يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلاً ، عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس ، لكن حضرت أنا والقاضى الفاضل ودخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه فى الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة الملك الأفضل ، ولم يكن القاضى عادته ذلك فانصرف . ودخلت أنا إلى الإيوان ، وقد مد الطعام والملك الأفضل قد جلس فى موضعه فانصرفت وما كان لى قوة على الجلوس استيحاشاً ، وبكى جماعة تفاقلاً بجلوس ولده فى موضعه ، ثم أخذ المرض فى تزايد من حيثذ ونحن نلازم التردد طرفى النهار وندخل إليه أنا والقاضى الفاضل فى النهار مراراً ... »^(٢) . وفى وفاته - رحمه الله - يقول : « ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وهى الثانية عشرة من مرضه ، اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الأمر فى أوله ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضى الفاضل تلك الليلة وابن الزكى ، ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت . وحضر بيننا الملك الأفضل وأمر أن نبني عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضر الشيخ أبى جعفر إمام الكلاسة وهو رجل صالح للمبيت بالقلعة ، حتى

(١) النوادر ١٦٥ - ١٨١ .

(٢) السابق ٢٤٦ .

إذ احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى ، ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة على حال المتقلبين إلى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق ، إلا في أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر لما انتهى إلى قوله تعالى ، وهو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة . سمعه وهو يقول ، رحمه الله عليه : صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به ، فله الحمد على ذلك ، وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ، ووصلت وقد مات وانتقل إلى رضوان الله (١) .

والمؤلف لا يولى الوفيات اهتماماً إلا وفيات معدودة ذكرها لأمرء وكبار ، كوفاة الفقيه عيسى الهكاري سنة ٥٨٥ (٢) ، ووفاة تقي الدين الملك المظفر سنة ٥٨٧ هـ (٣) ، ثم يختم الكتاب بحديث مفصل عن وفاة السلطان الناصر صلاح الدين - رحمه الله - يذيله بيت من الشعر - ولم يستشهد بالشعر في غير هذا الموضع تقريباً - مبرزاً حزنه وأسفه ، يقول :

ثم انقصت تلك السنون وأهلها . . فكأنها وكأنهم أحلام (٤) .

ورغم أن ابن شداد ليس مؤرخاً حزبياً متطرفاً ، ولكن يبدو أنه تأثر ببوادير وإرهاصات روح العداة التي بذرت بذورها قبل وفاة نور الدين ، ونمت باصطدام صلاح الدين ببقايا البيت الزنكي ووراثته لدولتهم ، فإنك بالفعل تحس في حديث « ابن شداد » عن نور الدين بمناسبة وفاته سنة ٥٦٩ هـ ، بالجفاء أو على الأقل

(١) النوادر ٢٤٩ - ٢٥٠ ، وابن الزكي : هو القاضي محيي الدين ابن الزكي ، الذي اختاره صلاح الدين خطيباً لأول جمعة بالقدس بعد فتحه . ونمام الآية بالنص : « هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم » الحشر ٢٢ .

(٢) السابق ١٠٠ .

(٣) نفسه ١٩١ .

(٤) نفسه ٢٥٢ .

تحس أنه تحدث عنه بطريقة عادية عابرة لا تليق بمثله ، انظر إليه يقول : « وكانت وفاته بسبب خوائيق اعترته أيضاً ، عجز الأطباء عن علاجها وتوفى يوم الأربعاء فى الحادى والعشرين من شوال سنة تسع وستين ، وذلك فى قلعة دمشق وأقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل ، ولقد حكى لى السلطان قال : كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ، ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شىء من ذلك . ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته »^(١) . وهذا كل ما قاله « ابن شداد » عن المجاهد العظيم « نور الدين محمود بن زكى » - بمناسبة وفاته - الذى قام بدور لا ينكر فى تقوية الجبهة الإسلامية وجهاد الصليبيين وكان صلاح الدين تابعاً له أول أمره . ونص ابن شداد يؤكد ما سبق أن ملت إليه من احتمال وقوع الوحشة بالفعل بين صلاح الدين ونور الدين ، وهذا ما رفضه أحد الباحثين^(٢) . واتهم ابن أبى طى وابن الأثير بأنهما أول من أورد الحديث عن هذه الوحشة لأغراض شخصية - يقصد عدم ميلهم لصلاح الدين - ويحصر الأمر فى أنه ربما كان خلافاً فى وجهات النظر ، فهذا هو « ابن شداد » - وهو غير متهم عند هذا الباحث بالطبع لأنه من رجال صلاح الدين - ينقل إلينا من فهم صلاح الدين شخصياً ما يرشح بقوة وقوع الخلاف والشحناء . ولم ألمس لدى المؤلف فى الفترة التى أرخ لها فى سيرته أى لمحات نقدية ، كالتى لوحظت لدى العماد وابن الأثير وغيرهما .

ويسكت المؤلف أحياناً أو يفضى عن ذكر أشياء ، أما بقصد الإيجاز وهذا مستبعد لأن الكتاب ليس من طابعه الإيجاز على الدوام ، فهو يفصل أحياناً ، وإما للجهل بها وهذا مستبعد أيضاً لأن صيغة كلامه وإيحائه لا يؤيدان ذلك ، وإما لعدم رغبته فى ذكر المسكوت عنه ، وهذا ما يبدو راجحاً ، يقول مثلاً : « ووصل السلطان - صلاح الدين - حران الثانى والعشرين من صفر - سنة ٥٨١ هـ - وفى

(١) النوافر ٣٧ .

(٢) دريد نورى : سياسة صلاح الدين فى ص ١٠٠ - ١٠٧ .

السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين ابن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسول ، فلم يقف عليه وأنكر ، فأخذ منه قلعة حران والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأديبا ، إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد إليه قلعة حران وبلادها التي كانت بيده ، وأعادته إلى قانونه في الإكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ، ووعده بها^(١) . فلم يشر ابن شداد لسبب التغيير على مظفر الدين ، وهو أنه وعد بعود وأموال لصالح الدين ليحضره على حرب جيرانه المواصله الزنكيين الذين ناوهم وخرج عن طاعتهم ، ولم يف بوعوده ، فربما أغضى المؤلف عن ذكر ذلك حفاظا على صورة صالح الدين بينما يقول العماد الأصفهاني ، وقد كان مرافقا لصالح الدين في هذا الوقت ، في هذا الشأن : « قد مضى ذكر الأمير مظفر الدين كوكبوري - بن - زين الدين على كوجك في سنة ثمان وسبعين عند توجه السلطان إلى الموصل ووصوله إلى الخدمة وحلوله محل المشاركة في الدولة والنعمة ولم يفارق الخدمة على الموصل وسنجار وكان معنا على آمد عند افتتاحها واختتم كل خدمة نجاحها ، وحلب على حلب أفريق الوفاق وظاهر في الغزوات وظافر على العزمات ولم يزل بأخيه زين الدين يوسف بن علي صاحب إربل يستعطفه ويستجديه ويحسن له الالتجاء إلى الخدمة السلطانية ويرغبه . وصار مظفر الدين لكل من يرغب في الخدمة قدوة ، ونال بذلك من القرب والزلفى حظوة وعاد من يهتدى به يقتدى وبوسيلته يحتذى وبخطابه يتتدى ، ولما عدنا من غزوة الكرك في سنة ثمانين وأقام السلطان بدمشق لأداء فرض الصوم ، وظن أنه يريح ويستريح وتواصلت كتب مظفر الدين بالحض والحث وتتابعت رسله على هوى الهوادة عادلين وللمعونة بالمؤنة باذلين وبذل رسوله الخاص ابن ماهان عن صاحبه ما عز وما هان ، وقال : إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كل ما فات ويقوم بكل ما يحتاج إليه في تلك البلاد ويقدم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار ، وكتب خطه بما أفصح به من قول وأوضحه من قرار ، وأرغب الأمراء والحجاب والخواص في البذل ، فسرنا على ما سبق ذكره على البلاد ، والإقامة بها بارزة الاستعداد حتى خيمنا على حران

(١) النوادر ٥٤ ، ٥٥ .

بالشرح الذى تقدم ، وسكت السلطان عن طلب ما كان من البذول وما تملككم ، فإن شيمته الحياء وسجيته السخاء ، لكنه لما وجد مظفر الذى غير منبعث لحركة ولا متحرك فى مملكته وهو غير مبد لا اهتمام ولا مجد بالتزام ، ارتاب سكوته وسكونه وتواجهت مختلفات ظنونه ووشى الوشاة ومعى السعادة وقيل لولا عمارة الحال بينه وبين المواصلة لبقى على حميته وتحقق بفعله ما تبرع بقوله ^(١) ، ثم يروى ما حدث له من القبض ، ثم الإفراج بوساطة جماعة من رجال صلاح الدين منهم العماد نفسه ، ويوافق ابن الأثير هذا الكلام قائلاً : « وسبب قبضه عليه أن مظفر الدين كان يرسل صلاح الدين فى كل وقت ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويحسن له ذلك ويقوى طمعه ، حتى أنه بذل له ، إذا سار إليها خمسين ألف دينار ، فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم يف بما بذل من المال ، وانكسر ذلك فقبض عليه وركل به ثم أطلقه ، وأعاد إليه مدينتى حران والرها ، وكان قد أخذهما منه ، وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية - نسبة للجزيرة - لأنهم كلهم عملوا بما اعتمده مظفر الدين معه من تملكه البلاد فأطلقه ^(٢) وإن لوحظ هنا اختلاف دافع الإطلاق بعد القبض فهو عند العماد الشفاعة وعند ابن الأثير الخوف من انتقاض البلاد الجزرية ، وربما أمكن القول بأن الشفعاء قد وضعوا فى اعتبارهم احتمال هذا الانتقاض وخشوا آثاره .

ويدقق ابن شداد كثيراً ، بحكم معاصرته للحوادث ومشاركته فى بعضها فى ذكر التواريخ حتى أنه يذكر الجزء من اليوم الذى وقعت فيه الحادثة ، يقول مثلاً : « ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال ^(٣) ، « توفى - يقصد الفقيه عيسى الهكارى - رحمه الله ، طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذى القعدة من شهر سنة خمس وثمانين ^(٤) .

(١) سنا البرق ٢٥٤ .

(٢) الكامل ١١ : ٥١١ .

(٣) النواذر ٨٩ .

(٤) السابق ١٠٠ .

بسيط عادى ، لم يلتزم السجع إلا فى مواطن قليلة منها دىاجة الكتاب ولكن فى رصانة وسلاسة وسهولة دون تكلف ، ومما جاء منه عرضاً قوله : « حتى بدت منه أمارات السعادة . ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة »^(١) ، ويقول عن انتصار المسلمين على الفرنج فى دمياط سنة ٥٦٤ هـ : « ونصر الله المسلمين وأيدهم . وحسن قصدهم فى نصر دين الله وأسعدهم وأنجدهم ، حتى بان للإفرنج الخسران ، وظهر على الكفر الإيمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين »^(٢) .

(١) النوادر ٥ .

(٢) السابق ٣٤ .

الفصل الرابع

ملاحم إجمالية للحركة التاريخية

انتشر بين سطور هذه الدراسة الحديث عن بعض ملامح الحركة التاريخية ببلاد الشام خلال فترة الدراسة (٥٢١ - ٦٦٠ هـ) ، من خلال الحديث عن الاتجاهات والمؤلفات ومؤلفيها والمقارنة بينها ، وفيما يلي رصد وتوضيح وإجمال لهذه الملامح الملحوظة على المؤرخين وعلى الإنتاج التاريخي .

أولاً : في المؤرخين :

يعتبر عدد كبير من أهم مؤرخي الشام في تلك الفترة مؤرخين شبه رسميين ، وإن لم يكونوا - غالباً - رسميين بشكل كامل ، مع التفاوت بينهم في درجة الالتزام بذلك ودوافعه ، فبعضهم رسمى بحكم الوظيفة والمكانة كالقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وابن شداد وابن نظيف وابن العديم ، وبعضهم بالولاء كابن الأثير ، وقد ظهر أثر ذلك في إنتاج بعضهم ، إذ بدت فيه صورة الولاء والميل لأولياء النعمة ، وانتقاد أعدائهم ومخالفهم إن وجدوا ، ولكن ذلك جاء بشكل معتدل غالباً .

وفي معنى المؤرخ الرسمى يرى أحد الباحثين^(١) أنه موظف حكومي تصدر له الأوامر بتناول أمر وترك آخر وعكسه من يعنى بالتاريخ لمجرد الرغبة الشخصية ، فيؤلف فيما يحلو له من الحوادث ، دون أن يلتبس منه الحاكم معالجة أمر معين ، مما يضمن له حرية الرأي والنزاهة في معالجة الأحداث . ويمثلون للمؤرخ الرسمى دائماً بمثال مشهور هو أبو إسحق الصائبي (ت ٣٨٤ هـ) كاتب الإنشاء في بغداد للعباسيين والبويهيين ، وكان قد مال لعز الدولة بختيار البويهى ضد عضد الدولة البويهى ، فلما دخل الأخير بغداد اعتقله وعزم على إلقائه تحت أرجل الفيلة ، فشفع فيه ، فأبقاه في السجن ، ثم أطلقه وطلب إليه أن يصنف كتاباً في أخبار الدولة البويهية ، فكتب له التاريخ المعروف « بالتاجى » ، نسبة إلى عضد الدولة : تاج الملة ، ويبدو أنه كتبه وهو كاره وقد داجى فيه وناق استرضاء لعضد الدولة^(٢) .

(١) انظر : د. حسين نصار نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) د. شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ٥٩ ، ٦٠ .

ويمكن أن يمثل له في الوقت الحاضر بكتب التاريخ المدرسية التي تقرر وتدرس في ظل أنظمة شمولية أحادية النظرة تفرض فكرها على شتى مناحي النشاط ، فتتشكل في عهدها ملامح ورموز وشعارات معينة ، ثم تعقبها أنظمة أخرى شبيهة لها في شموليتها واستبدادها ولكنها مخالفة لها في الفكر ، فتقلب الأمور رأساً على عقب ، وفي كل مرة يكون لهذه وتلك مفكروها ومنظروها ومؤرخوها المسايرون لها ، ويجيء كل ذلك على حساب الحقيقة التاريخية .

وعن مولف التاريخ الإسلامي يقول باحث آخر : « كان المؤلفون في النادر جداً مؤرخين رسميين ، يقتضيهما واجبهم تسجيل ما تريد الحكومة تسجيله ومن المكن وضع تاريخ اليميني أو أخبار غزوات يمين الدولة في الهند للعتبي مع التواريخ الرسمية ، وقد يقال الأمر نفسه عن الوصف المليء بالعجيج ، الذي قام به عماد الدين الأصبهاني ، كاتب صلاح الدين ، لاسترجاعه بيت المقدس ، وأعطاه العنوان الفخور ، الفتح القسي في الفتح القدسي »^(١) .

والحق أنه ليس مهماً من حيث مضمون الإنتاج الفعلي للمؤرخ أن يجيء بأمر مباشر صريح من الحاكم أو بالايحاء أو بدونهما ، حتى يتصف بالرسمية من عدمها ، ولكن المهم هو مدى تأثير المؤرخ بنفوذ الحاكم الذي يعيش في عهده ويستظل بظله في كتاباته ، ومدى خشيته وتحيزه من قول الحق والإنصاف خصوصاً في الأحداث القريبة والمعاصرة . من هذه الزاوية يبدو لي أن كثيراً من مولف التاريخ الإسلامي كانوا رسميين أو شبه رسميين ، إذ تأثر كثير منهم بنفوذ الحكام الذين عاصروا في عهودهم وأرخوا لها . لهذا افتقدنا كثيراً في التراث التاريخي روح النقد الصريحة من قبل المؤرخين خصوصاً تجاه تصرفات معاصريهم

(١) مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة د. حسين نصار ص ٢٥ ، ٢٦ ، وانظر كذلك : د. سيدة إسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، مكتبة الخانجي سنة ١٩٧٦ م ص ٤٨ ، المنهج التاريخي لابن عبد الحكم ، مقال ضمن كتاب دراسات عن ابن عبد الحكم ، تأليف مجموعة من الأساتذة ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ ص ٣٥ ، د. عبد الله محمد جمال الدين ، نشأة التاريخ الإسلامي في الأندلس ، بحث بحوليات دار العلوم عدد ١٣ سنة ١٩٩١ م ، ص ١٦٠ .

من الحكام ، وإن لمنا كثيراً من الاستثناءات لهذه القاعدة من خلال الدراسة السابقة للمصادر .

وقد مارست الكتابة التاريخية خلال هذه الفترة ثلاث طبقات تقريباً ، هي على التوالي والأهمية ، رجال الدين كابن الاكفاني وابن عساكر وسبط ابن الجوزي وابن أبي الدم ، والكتاب كالقاضي الفاضل والعماد وابن القلانسي والقفطي وأرباب السيوف كابن شاهنشاه وجده نور الدين شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، وابن منقذ ومؤرخون صغار من أسرته . وليست الحدود فاصلة بدقة بين أبناء كل طبقة ، فبعضهم جمع بين أكثر من تخصص كالعماد الذي كان رجل دين شافعيًا وكتابًا وابن العديم القاضي والكاظم الأديب . وقليلًا ما نجد بين هؤلاء المؤرخين من صرف جل اهتمامه للتاريخ وتخصص فيه وغلب عليه ، كابن الأثير مثلاً وابن القلانسي وابن نظيف ، إن لم يكن لهما مؤلفات أخرى ضائعة في فروع أخرى ، فمعظم هؤلاء المؤرخين يمارس إلى جانب التاريخ نشاطات أخرى في ميدان الأدب أو الحديث والفقه ، وغير ذلك .

وقد اتسمت مجموعة كبيرة من مؤرخي هذه الفترة بالتعارف فيما بينها ، سواء بالتعارف الشخصي كاجتماع القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وابن شداد وابن شاهنشاه على صحبة صلاح الدين ، وكاتصال ياقوت الحموي بابن العديم ، إذ يروي أن ياقوت سأله أن يكتب له تاريخ أسرته ففعل وكتب « الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة » وهم أهل ابن العديم ونقل ياقوت أكثر ما فيه إلى معجم الأدباء^(١) . كما سمع ابن العديم من ابن شداد والقفطي^(٢) . أو بالتعرف على الإنتاج العلمي لكل منهم ، فهم - غالباً كما بدا من خلال دراسة بعض مؤلفاتهم - يشارون لمؤلفات أو لأسماء بعضهم في مصادرهم ، ينقلون عن بعضهم البعض ، ولعل هذا ينسجم مع الروح العلمية السائدة إبان عصور ازدهار الحضارة والثقافة الإسلامية - ومنها عصر الدراسة - والتي كانت تعول كثيراً على الرحلة والمشيخات . وإن كانت ترجمات بعضهم لبعض حين الوفاة نادرة كترجمة ابن الأثير القصيرة للعماد في الكامل ، وترجمة ابن العديم القصيرة جداً لابن شداد في

(١) زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٤ من المقدمة

(٢) السابق ج١ ، ص ١٣ من المقدمة .

الزبدة ، بينما ترجم السبط للعماد ترجمة طويلة ، ولعل سبب ذلك انصراف من ترجموا منهم للوفيات في كتبهم إلى الترجمة لمشاهير رجال السياسة والعسكريين ورجال الدين بالدرجة الأولى .

ويلاحظ على هؤلاء المؤرخين عدم تحاملهم - غالباً - على أصحاب المذاهب الفقهية المخالفة عند الترجمة لهم . فكثير من هؤلاء المؤرخين عرف بمذهب فقهي انتسب إليه ، فبعضهم شافعي كابن عاكر والعماد وابن الأثير وابن شداد وابن أبي الدم . وبعضهم حنفي كابن العديم ، أو حنبلي ثم حنفي كسبط ابن الجوزي - إن صحت الرواية في ذلك - ، ومع ذلك فقد ترجم كل منهم لأصحاب المذاهب الأخرى دون تحامل ظاهر . يقول ، مثلاً ، ابن الأثير في وفيات سنة ٤٩١ هـ : « وفيها توفي أبو الفضل عبد الوهاب بن أبي محمد التميمي الحنبلي ، وكان فاضلاً فصيحاً » ، وفي وفيات سنة ٥١٢ هـ يقول : « وفي هذه السنة ، في شعبان ، توفي أبو الفضل بكر بن محمد بن علي بن الفضل الأنصاري من ولد جابر بن عبد الله ، وهو من بلد بخارى ، وكان من أعيان الفقهاء الحنفية ، حافظاً للمذهب » . ويقول سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٢٣ هـ : « وفيها توفي أسعد بن أي نصر أو الفتح الميهني الإمام الشافعي صاحب التعليق تفرقه على أبي المظفر السمعاني وغيره من الفقهاء وفاق أبناء جنسه في النظر وجعلت له منزلة عند الملوك وقدم بغداد ودرس بالنظامية وعلق عنه جماعة التعليقة الخلافية وخرج من بغداد فنزل همدان فمرض ، وكان في بيت فقال لمن عنده أخرجوا عني فخرجوا عنه ، فجعل يلطم وجهه يكي ويقول يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ، يرددها حتى مات » .

وينعدم تقريباً في بلاد الشام في تلك الفترة وجود مؤرخين من الطوائف غير المسلمة ، ربما لاحتدام الحرب ببلاد الشام تحت لواء الإسلام والمسيحية مما أدى إلى انزواء المسيحيين العرب ، وربما لجأ بعضهم إلى التأليف بلغات أخرى كالسريانية ، كما فعل بعد فترة أبو الفرج ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) الذي وضع من كتابه المشهور « تاريخ مختصر الدول » نسختين بالسريانية والعربية^(١) ،

(١) د. شاعر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ٢ : ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

وكانت الكتابة بالسريانية في ذلك الوقت عادة عند أصحاب الملل غير المسلمة .
ربما قوى هذا الظن أن مصر التي لم تكن محلاً رئيسياً للصراع الإسلامي الصليبي
كالشام ، ولم تقم بها إمارات صليبية تناوى المسلمون ظهورت بها في الفترة نفسها
عدة أسماء لمؤرخين مسيحيين مثل : أبو صالح الأرمني (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م)
وله تاريخ معروف باسم « كنائس وأديرة مصر » ، وابن ممتى (ت ٦٠٦ هـ /
١٢٠٩ م) صاحب « قوانين الدواوين » والشيخ المكين بن العميد (ت بعد
٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) صاحب « تاريخ المسلمين » .

ثانياً : فن الإنتاج التاريخي :

جاء إنتاج مدرسة الشام التاريخية في هذه الفترة غزيراً متشعباً مغطياً معظم
اتجاهات الكتابة التاريخية بوجه عام من تواريخ عامة وإقليمية وتواريخ دول وتراجم
وكتب جغرافية ورحلات وغير ذلك ، ولعل سر ذلك ظروف بلاد الشام السياسية
في هذه الفترة وتعرضها - أكثر من غيرها - لعدوان صليبي خطير ، مما جعلها
محط الأنظار وأنشأ بها دولاً وإمارات قوية لتجابه هذا الخطر ، وقد استجلب ذلك
وأفرز كثيراً من العلماء والمؤرخين ، شاركوا في الجهاد بسيفهم وألسنتهم
وأقلامهم . تتضح هذه الغزارة في إنتاج الشام التاريخي في ذلك الوقت إذا ما قورن
بمدرسة تاريخية أخرى قريبة هي مدرسة مصر ، يقول أحد الباحثين عن ضعف
مستوى مدرسة مصر خلال هذه الفترة وتألق مدرسة الشام : « ولم يكن مؤرخو
الطبقة الأولى - يقصد في مصر - بالكثيرين ، فإنهم على امتداد ثلاثة قرون
ونصف القرن ، ما بين مطلع القرن الرابع وأواسط السابع لا يزيدون على عدد
أصابع اليد الواحدة . ومعظمهم إنما ظهر في الفترة الأولى أي في عهد المجد
الفاطمي ، أما في عهد الانهيار ، ما بين سنة ٤٥٠ هـ حتى سقوط الدولة سنة
٥٦٧ هـ ، وفي العهد الأيوبي التالي (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) فإن حجم المؤرخين
يتضاءل وطموحهم العلمي ، من خلال المؤلفات التي نعرفها ، ويتقلص فلا نكاد
نعثر فيهم على اسم بارز . ولعل السبب في ذلك هو أن تألق الخلافة الفاطمية في

قرنها الأول في مصر ، بعد تألق الطولونيين والأخشيديين ، ثم استقلال مصر خلال هذا وذاك بمصيرها وتجمع العدد الواسع من العلماء حول قصور آل طولون والإخشيد ، ثم حول البلاط الفاطمي ، كل ذلك قد أغرى الأقلام المؤرخة بتسجيل الوقائع التي يعيشها الناس ، ثم جاء عهد التخلف وسيطرة القواد والوزراء على الخليفة الفاطمي فظهرت بعض الكتب التي تتحدث عن هؤلاء أو عن رسوم الدولة وذاخاتها ونظمها ، وبالرغم من أن العهد الأيوبي كان عهد مجد عسكري ، فإن مجال ذلك المجد إنما كان في الشام ، فلم يسجل المصريون وقائعه البعيدة عنهم ،^(١) كما أن ضعف بغداد المستمر أدى إلى خفوت ضوء مدرسة العراق الباهر رويداً رويداً ، إلى أن ضعفت بشكل كبير على أثر سقوط بغداد المدوى على يد المغول (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، وذلك في مقابل توهج الشام وازدهاره بالحركة والنشاط المصاحبين للحروب والجهاد ، مما أغرى كثيراً من العلماء والمؤرخين بالهجرة إلى الشام وبخاصة من العراق كالعماد وابن شداد وغيرهم .

وقد تركزت المؤلفات التاريخية في الشام في النصف الثاني من فترة الداسة (٥٢١ - ٦٦٠ هـ) تقريباً ، فمنذ البداية سنة ٥٢١ هـ وحتى سنة ٥٨٤ هـ ، لانصاف غير عدد لا يجاوز أصابع اليد الواحدة من المؤرخين محدودى الإنتاج غالباً مثل : ابن الأكفاني (ت ٥٢٤ هـ وهو أستاذ ابن عساكر ، والأثري ت ٥٤٢ هـ وابن القلانسي ت ٥٥٥ هـ والعظيمي ت بعد ٥٥٨ هـ وختمت بابن عساكر ت ٥٧٢ هـ وابن منقذ ت ٥٨٤ هـ . أما في باقى الفترة فإننا نلتقى مع كوكبة من الأسماء اللامعة الغزيرة الإنتاج بدءاً بالعماد الأصفهاني ومروراً بابن شاهنشاه وياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ ، وابن أبى طى ت ٦٣٠ هـ وابن الأثير وابن أبى الدم والقفطى ت ٦٤٦ هـ وسبط ابن الجوزى وغيرهم ، وانتهاء بابن العديم ت ٦٦٠ هـ . وربما كان صعود نجم صلاح الدين وتوالى انتصاراته وجهاده منذ سنة ٥٨٣ هـ والتفاف العلماء والكتاب حول دولة بنى أيوب فى جهادها ضد الصليبيين ، وراء بروز هذه المجموعة الكبيرة من المؤرخين اللامعين ذوى الإنتاج الوفير الذى مثل كافة الاتجاهات تقريباً .

(١) د. شاعر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ٢ : ١٦٧ .

وقد توزعت المؤلفات التاريخية بين اتجاهات وأشكال الكتابة التاريخية المختلفة واستأثر اتجاه التاريخ العام بنصيب كبير منها إلى جانب التراجم ، فإذا ما وضعنا التراجم في جهة مقابلة لتواريخ الحوادث بدت كثرتها أمراً طبيعياً ، أما كثرة التواريخ العامة فإن أحد الباحثين^(١) يعللها بظروف بلاد الشام السياسية وتعرضها للعدوان ووقوفها في وجهه ممثلة للعالم الإسلامي ، مما أدى إلى إحساس عارم بالكيان الإسلامي العام ووحدة الأمة في مواجهة الخطر الخارجي ومحاولة استيحاء تاريخها الطويل وتجاريه ، وربما يلوح سبب آخر بجانب ما سبق وهو انقسام الدولة الأيوبية الموحدة بعد صلاح الدين لدويلات وحكام مدن ومقاطعات لكل منهم حاشيته التي عادة ما يأمر حاكمها أحد مؤرخيها أو يطلب منه ، أو يتطوع المؤرخ من نفسه بتأليف كتاب تاريخي وإهدائه للأمير شاملاً التاريخ الإسلامي إلى عصره بغرض الاستفادة من تجارب الماضين والاعتبار بها ، وقد سبق الحديث عن ذلك خلال دراسة التواريخ العامة .

وتهمل كل المؤلفات التاريخية في هذه الفترة طريقة الإسناد المشهورة . بل إنها قليلة الإشارة لمصادرها بوجه عام وإن أشارت ففي اقتضاب وبشكل مموه غالباً ، كما بدا خلال دراسة هذه المؤلفات ، وتتنوع مصادرها بين المصادر المكتوبة والشفاهية والمطالعة الشخصية وغيرها ، وقد تجاوب المؤرخون الشاميون في هذه الفترة مع مؤرخي المناطق الأخرى فأخذوا وأعطوا ونقلوا عن كثيرين من خارج الشام كابن الجوزي وابن السمعاني وكتب المؤرخين المغاربة وإن لم ينصوا على أسمائهم غالباً . وقد سبق بيان ذلك .

وتسير المؤلفات التاريخية على وتيرة واحدة من حيث طريقة التأريخ المفككة والمعلومات المتناثرة هنا وهناك بغير تناسق ، على طريقة التأليف في تلك العصور ، وقد يستثنى إلى حد ما من هذا « ابن الأثير » في الكامل ، والمضمون يكاد يتشابه غالباً في تواريخ الحوادث ، ولا يفترق مصدر فيها عن الآخرين غالباً ويقدم شيئاً جديداً نسبياً إلا في الفترة التي عاصرها مؤلفه . وكأنها تستقي من موارد موحدة

(١) د. شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ٢ : ٢٢٠ - ٢٢٢ .

معينة غالباً ، ولذا فإن المحصلة العامة فى النهاية ضئيلة . والحق أن هذ سمة تطبع التراث التاريخى كله لدينا ولا تخص إنتاج هذه الفترة ، يقول أحد الباحثين حول قيمة هذا التراث الخضم : « فإن إنتاج العرب فى كتابة التاريخ كان ضخماً جداً . أحصى المستشرق الألمانى وستنفلد عدد من ألفوا فى التاريخ فى الألف الأولى من الهجرة بستمائة مؤلف ، على أن ضخامة الإنتاج تهولنا مظهرًا لا حقيقة ، فإننا إن حذفنا الأسانيد من تاريخ دمشق لابن عساكر مثلاً ، أمكننا أن نهبط بالمجلد الواحد من ذلك التاريخ ، من عشرات الأوراق إلى خمس ورقات ، هذا وقد جرى المؤرخون على أن يوصلوا ما أعدوه ... بمادة منقولة من كتب السابقين نقلاً حرفياً وبهذا تكبر مصنفاتهم »^(١) ، ويقول آخر : « إن هذا التاريخ ، موجود اليوم فى صورتين ، صورته فى المصادر العربية القديمة ، وهذه من التجوز الشديد أن تسمى تاريخاً ، بل هى لا يمكن أن تحمل هذا الاسم ، فهى نثار من الحوادث والوقائع والحكايات والأحاديث والنتف والملح والخرافات والأساطير والروايات المتضاربة والأقوال المتعارضة على كل حال ، وإن كانت بعد ذلك كله غنية كمصدر تاريخى بالمواد الخام الذى يسعف من يريد الدراسة ، ويوهب الصبر ويحاول الغريلة بالمواد الأولية اللازمة فى بناء هيكل التاريخ »^(٢) .

ومن بين هذه المؤلفات تولى كتب التاريخ السياسى وتواريخ الأحداث الأحداث السياسية الرسمية جل اهتمامها ، إلا أنها تلتفت أحياناً للجوانب الحضارية فتقدم إلى حد ما صورة للحياة الاجتماعية والظروف الحضارية للفترات والمواطن التى تتحدث عنها ، - وإن كانت محدودة غير متسقة - بما تورده من أخبار اجتماعية وظواهر حضارية ، وعمرانية وطبيعية ، كما تولى اهتماماً للتراجم والوفيات مع تفاوت بينها فى درجة الاهتمام ، حيث يبالغ بعضها بصورة واضحة فى ذلك

(١) محمد شفيق غربال : أساليب كتابة التاريخ عند العرب ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية ، ج٤ سنة ١٩٦٢م ، ص ٢٥ .

(٢) سيد قطب : فى التاريخ فكرة ومنهاج ، دار الشروق ، ط ٧ سنة ٧ سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ، ص ٤٢ .

بشكل يطفى على أخبار الحوادث فيها ، كما هو الحال مثلاً عند سبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان فى تواريخ الأعيان » . وعن أثر اهتمام المؤرخين بالتاريخ السياسى والتركيز على دور الأفراد والشخصيات الكبرى كالخلفاء والملوك ، وإهمال الجوانب التاريخية الأخرى ، يقول أحد الباحثين : « وتصل النزعة إلى المبالغة فى تأثير العظماء ومآثرهم بالنزعة إلى إهمال التطورات الاجتماعية والثقافية الخارجية التى تمثل مؤثرات ومآثر ، تفوق ما أحرزه عظماء معينون » (١) .

وتهتم مؤلفات هذه الفترة اهتماماً واضحاً بالحديث عن أهم حدث سياسى عسكرى إبان ذلك العهد فى الشرق الإسلامى وهو العدوان الصليبي ، إذ تحتل روايات الحروب الصليبية وأحوال البلاد الإسلامية المصطلية بناها والبلاد المحيطة بها مساحة واسعة على صفحات تلك المصادر وهذا طبيعى بالنظر لأهمية الحدث ، إذ إن هذه المؤلفات غالباً ، إما سير لأبطال خاضوا غمار هذه الحرب أو تواريخ دول ومدن اصطلت بنيرانها . أو تواريخ عامة تؤرخ للعالم الإسلامى كله ، على مر العصور ، فإذا ما جاءت إلى تلك الفترة انحصرت جل اهتمامها وتركزت أضواؤها على أقاليم مصر والشام والجزيرة ، حيث محل الصراع الدامى ، وتلاشى الاهتمام ببقية أجزاء العالم الإسلامى ، على أنه يلاحظ أن المؤرخين المسلمين القدماء لم يفرّدوا - فيما أعلم - الحركة أو الظاهرة الصليبية بمؤلفات خاصة تتحدث

(١) هيج . اتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ، ترجمة د. محمود زايد ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٦٣م ، ص ١٨١ ، واتساقاً مع هذا الكلام ، يقول أحد الباحثين : « ومن بين مزايا فولتير التى لا نزاع فيها ، أنه أدرك قصر الكتابة التاريخية المقتصرة على السياسة وحدها ، واستطاع التغلب على ذلك ، ولم يلبجأ فى هذا الشأن إلى أية مناقشة سلبية ، بل وضع مثلاً جديداً إيجابياً ، وحاول إدراكه فى مؤلفيه الرئيسيين ، بأن ذكر أن التاريخ لن يكون فقط بياناً عن المعارك والعمليات الحربية ، أر عن المؤامرات ، والدسائس الدبلوماسية ، بل ينبغي عليه أن يشرح السياق الفكرى بأكمله ، فإلى جانب الأحداث السياسية عليه أن يرسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية ، وكذلك الميول الأدبية والفنية لكل عصر . وعليه فى النهاية أن يعرض نظرة عامة للحياة الخلقية بأسرها فى العصر » . أرنست كاسيرر فى المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، دار النهضة العربية ، ص ٦٨ ، ويوحى ذلك بأن تضاعف الحديث عن الأوضاع الحضارية وأحوال عامة الشعب ، لم تكن خصيصة تلزم التراث التاريخى الإسلامى فقط .

بالتفصيل عن خلفيتها ودوافعها وتميزها عن كل ما جابه الإسلام والمسلمين من عدوان ، وكذلك عن أصول الصليبيين وعاداتهم ومؤسستهم ، ويعلل باحث غربي⁽¹⁾ لذلك بأنه ربما يرجع إلى إحساس المسلمين بالتفوق تجاه الصليبيين وازدراءهم لهم ، وأنهم اعتبروهم ابتلاء من الله كالجاعة والزلازل والوباء ، وهو يصور حال الصليبيين مع العالم الإسلامي صورة طريفة إذا جعل موقفه منهم كموقف جمل الصحراء نحو الفأر المستقر على جانبه والذي يصعد ثم ينزل بسبب الطول الأملس وأخيرا يسقط بعد أن يسبب مضايقة كثيرة لمضيفه المرغم الذي لم يظهر أى استياء إلا هزة من ذيله . ورغم طرافة الصورة إلا أنها تبالغ فى تصوير استهانة المسلمين بالصليبيين وعدم مبالاةهم بهم ، فالحق أنهم قاسوا وعانوا حتى أخرجوهم من ديارهم .

وامتداداً لهذه النقطة فإن هذه المؤلفات فى تأريخها للحروب الصليبية ركزت بصورة واضحة على العلاقات العدائية والوقائع العسكرية بين المسلمين والصليبيين على نحو تفصيلى مما غطى على الجانب الآخر وهو العلاقات فى أوقات السلم وما كانت تتيحه فترات السلام هذه من أوضاع طبيعية ومعاملات اقتصادية وتبادلات تجارية بين الطرفين وهو ما لم تعره المصادر اهتماماً كافياً ، ولعل مرد ذلك إلى شيوع ورسوخ الروح العدائية لدى الطرفين ، يقول أحد الباحثين وهو يقدم لموضوع كتابه : « وكان مما دفعنا لتناول الموضوع أن غالبية المؤرخين القدامى والحديثين من المسلمين والصليبيين كرسوا جهودهم وعنايتهم لتناول مظاهر العداء والحروب بين الجانبين ، وأفاضوا فى ذكر التفاصيل والمعلومات التى تتعلق بها ، وذلك على النحو الذى ورد فى العديد من المصادر الأصلية ، وأن الاتجاه للتركيز على العلاقات العدائية والمعارك العسكرية ، أدى بشكل غير مباشر إلى تعميم الدور الذى قام به المسلمون فى المجال الدبلوماسى مع الصليبيين ، وطمس الكثير من معالمه ، حتى بدا للكثيرين وكأنه من العسير أن تقوم علاقات دبلوماسية فعالة بين

(1) Francesco Gabrieli , The arabic historiography of the Crusades, PP. 98 - 99 . in , historians of the middle east .

الجانبين لتسوية ما ينشب بينهما من خلافات وصراعات وكذلك لوضع الأسس والتنظيمات للتعامل السلمى بينهما ، وفى الواقع إن الكثير من معالم العلاقات السلمية بين الجانبين لا تزال فى حاجة لمزيد من الإيضاح ،^(١) وربما جاز القول بأن الفاصل اللغوى كان - إلى جانب البعد النفسى - عاملاً من عوامل التباعد وعدم الالتفات للعلاقات السلمية وبخاصة من الجانب الإسلامى^(٢) .

ولهذا فإننا نحس شيوخ الطابع العدائى فى مؤلفات تلك الفترة تجاه الصليبيين باعتبارهم أعداء أثاروا قلق الشرق ردحاً طويلاً من الزمن ، وعبرت عن ذلك ألفاظ وعبارات وردت خلال الدراسة ، يقول أحد الباحثين : « وبهمننا أن نتعرض لصفة الكافر التى نعتت بها المصادر التاريخية العربية المقاتل الصليبي والحقيقة أن هذه المصادر بصفة عامة تتعامل مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية عدائية عدوانية من جهة وباعتبارها شخصية كافرة من جهة ثانية وتتجسد هذه الحقيقة واضحة جلية من خلال العبارات التى ترد كثيراً فى ثنايا هذه المصادر ، والتى تصف الصليبيين بالكفار تارة وبأنهم العدو المخذول تارة ثانية وبأنهم الإفرنج لعنهم الله تارة ثالثة . ومن الطبيعى تماماً أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية من منطلق عدائى ، وهى فى هذا تعكس المشاعر التى خلفها العدوان الصليبي فى وجدان الناس فى العالم الإسلامى »^(٣) ، ويقول باحث آخر معللاً لهذه الظاهرة برمتها : « وفى التعليق على هذه النزعة فى كتابات واضعى التاريخ الحولى وغيره من المصادر ، يبدو أنهم تأثروا بالاختلاف الدينى والعنصرى بين المسلمين والصليبيين ، كما تأثروا بالاختلاف الحضارى بينهما ، فضلاً عن تأثرهم بالمشاعر

(١) د. عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، مؤسسة شباب الجامعة ، سنة ١٩٨٦ ص ١٢ ، وانظر أيضاً : نخبة من الأساتذة ، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) فى شأن الحاجز النفسى والفاصل اللغوى ، انظر : د. شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، ج ٤ ص ١٤ ، د. نظير سعادوى : ثلاثة من مؤرخى الحرب الصليبية ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) د. قاسم عبده ، صورة المقاتل الصليبي فى المصادر العربية ، بحث بالمجلة التاريخية المصرية مج ٢٧ ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨١ م ، ص ١٤ .

التامة ، وما صاحبها من حماسة دينية ، لينعكس كل ذلك فيما دونه من أخبار ، كما يبدو أن بعض هؤلاء المؤرخين اعتبروا أن الجدير بالتسجيل والكتابة عنه في مؤلفاتهم إنما هي العمليات العسكـرية والمعارك الحربية ، ولهذا جاءت كتاباتهم تعكس صوراً متتالية للخصومات والمعارك والمشاعر العدائية ، وكأنهم رأوا أن العلاقات بين الجانبين يجب ألا تقوم إلا على حد السيف ، وأنه لا مكان لقيام علاقات طبيعية ودبلوماسية بين دار الإسلام ودار الحرب ، وكأن تلك العلاقات الأخيرة أمر ينال من مكانة المسؤولين سواء أكانوا من المسلمين أو الصليبيين ، ويحط من شأنهم أمام رعاياهم ، وربما كانت هذه النزعة لدى المؤرخين مما يفسر أسلوب تلك المصادر التاريخية ونزعتها ومنهجها ، وأنها لما تأتى بمعلومات فى مجال العلاقات المدنية عامة والدبلوماسية خاصة ، كان ذلك على شكل نتف وأخبار موجزة^(١) . ويرى الباحث نفسه أن من الأسباب المسؤولة عن ضآلة ما وصلنا من المعلومات ، عن العلاقات الدبلوماسية والسلمية بين المسلمين والصليبيين ما تتسم به من تكتـم وسرية مراعاة للظروف^(٢) .

ورغم هذه الروح العدائية ، فإن المصادر الإسلامية - فى مجملها - منصفة للصليبيين لا تبالغ فى تصوير انتصارات المسلمين عليهم ، كما لا تهضم انتصاراتهم حقها ، بل إنها تشيد بشجاعتهم وبسالتهم أحياناً كثيرة كما رأينا فى كتاب الاعتبار على سبيل المثال . يقول أحد الباحثين فى ذلك : « بيد أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه المصادر فى تعاملها مع الصليبيين كعدو كافر ، لم تخل من السمة الموضوعية التى افتقرت إليها المصادر اللاتينية التى تتحدث عن تلك الفترة ، فكثيراً ما نلاحظ أن المؤرخ المسلم يحترم فى عدوه صفات الشجاعة والبسالة والقدرة القتالية ، والمناورة فى ميدان القتال فضلاً عن جلدته وقوة تحمله^(٣) .

(١) د. عمر كمال : الدبلوماسية الإسلامية ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) انظر : السابق نفس الموضع .

(٣) د. قاسم عبده : صورة المقاتل الصليبي ... ص ١٥ ، ١٦ ، وفى روح الإنصاف هذه ، انظر :

Francesco Gobrieli the arabic Historiography of the Crusades, in
Historians of the middle east .

وقد حاز صلاح الدين - كأبرز الأسماء في عصر الحروب الصليبية - وأعماله نصيب الأسد في حديث تلك المصادر ، ويكفى أن ثلاثة من أربع سير كتبت عنه والرابعة تمت بصلة إليه ، ولكنها في الغالب سير متوازنة غير ممالئة .

وتشيع في ثنايا هذه المؤلفات روح نقدية للحكام والمجتمع ، خاصة لدى ابن الأثير في الكامل ، ولكنها تنصب على الماضي بدرجة كبيرة ، كما لم يخل بعض هذه المؤلفات من روح الممالأة للحاكم المعاصر - أحياناً - كما عند ابن أبي الدم في التاريخ المظفرى كما سبقت الإشارة لذلك .

وتقبلت هذه المصادر بدرجات متفاوتة روح الأسطورة والمبالغة والأخبار التي تدور حول الغيبيات دون تعليق في أحيان كثيرة ، ولعل أبرزها في ذلك كتاب مرآة الزمان للسهب ، كما أن أكثرها نقداً لذلك في الطرف المقابل كتاب « الكامل » لابن الأثير .

وقد توافرت الخلفية الدينية القوية لدى أصحاب هذه المؤلفات غالباً ، مما ترك مسحة دينية على مادتها وأعطى انطباعاً بالإحساس العام بالكيان السياسي الإسلامي العام ، كما سيطرت على مؤلفي هذه المصادر غاية الاتعاض والاعتبار من سوابق الأحداث انطلاقاً من خلفياتهم الدينية والأخلاقية ، في الغالب .

وافتقدت هذه المؤلفات ، بوجه عام ، روح النقد المنهجي ، بمعنى النقد والتحليل والتعليل والربط بين الوقائع وإخراج الموضوع الواحد في صورة حية مجسدة مهيكله لا تقديمه على شكل مزق وشتف ، والترجيح بين الآراء على أسس واقعية ومنطقية والوصول إلى قواعد وملامح عامة يمكن أن يقاس عليها في مسيرة التاريخ . فالواقع أن هذه المؤلفات ، بل التراث التاريخي كله اتصف بالسرد ووصف الحقائق بعضها بجوار بعض ، دون تعليل أو توجيه أو إبداء وجهة نظر وتكوين نظرة عامة تقوم على استقرار الوقائع الموجودة إلا في القليل . وربما قام لهؤلاء المؤرخين العذر بأن مناهج البحث العلمي بهذا الوصف لم تعرف إلا حديثاً ، ولكننا هنا نصف الواقع ، كما أن المسلمين من المعروف أنهم سبقوا في تلك العهود إلى استنباط كثير من قواعد هذه المناهج في العلوم الأخرى كالكيمياء والطب وغيرها .

فتقدم زمن هؤلاء المؤرخين ليس عذراً كافياً .

ويبدو أن ذلك لم يكن عيباً في التراث الإسلامي فقط ، وإنما أصاب تراث بقية الأمم في تلك العهود ، وتقول إحدى الباحثات عن منهج المؤرخ المصري ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ : « وإن كنا نأخذ على هذا المنهج بعض المآخذ ، مثل المغالاة في بعض الروايات أو الاستطراد أو خلط الروايات التاريخية بالقصص والأساطير أو النقل من مؤلفات الغير ، فإن هذه الأمور لم تكن من عيوب المؤرخين القدماء في ديار الإسلام فقط ، وإنما كانت شائعة في الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، سواء أكانت في الشرق أم في الغرب ، وطبعاً كان لها ما يبررها ، كما ذكرنا من قبل ، فضلاً عن أن المؤرخ القديم كان يفتقد أدوات البحث المختلفة كالمعاجم ومجموعات الوثائق ونتائج دراسة الآثار والفنون ، وغير ذلك من الوسائل التي يعرفها المؤرخ في العصر الحديث »^(١) . بل ربما كان مؤرخو الإسلام أفضل من غيرهم ، تقول الباحثة نفسها : « ونلاحظ بوجه عام أن أفق بعض المؤرخين في ديار الإسلام ونصيبهم من العلم والمعرفة في شتى الميادين كان أوسع وأعظم من مؤرخي الغرب الذين عاصروهم في أوروبا »^(٢) .

وحتى لا نقع في دائرة التعميم فقد استثنى بعض الباحثين بعض مؤرخي العرب من فقدان روح النقد إلى حد ما ، كابن الأثير وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) ، يقول أحدهم : « وكان يعوز مؤرخي العرب روح النقد على العموم ، كما كان يعوز جميع مؤرخي العصور الوسطى ، وكما يعوز الكثيرين ممن قلدهم من الكتاب المعاصرين ، وقد قلت على العموم لوجود مؤرخين قليلين بلغوا درجة عالية من تلك الروح المسيطرة كابن خلدون »^(٣) ، ويقول آخر : « ويقول الأستاذ روبرت فلنت وهو يتحدث عن كتابة التاريخ عند العرب في كتابه عن تاريخ فلسفة التاريخ : لم تكن كتابة التاريخ عند العرب خالية من المزايا الواضحة ، ولكنها لم

(١) د. سيدة الكاشف : المنهج التاريخي لابن عبد الحكم ، ٣٥ .

(٢) السابق ٣٤ .

(٣) د. غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي ، ط ٤ سنة ١٩٦٤م ، ص ٤٥٣ .

تصل قط إلى المرحلة العالمية أو الفلسفية ، وأكثر الذين عالجوا كتابة التاريخ لم يتجاوزا مرحلة الوصف والسرد الحولى ، والمرجع أن ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٢ ميلادية) ، مؤلف كتاب التاريخ العام يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهو أقرب ما يكون إلى تلك المرحلة^(١) . والواضح أن الباحثين حيال هذا الأمر فريقان ، فريق يرى أن مؤرخى الإسلام قد أدوا ما عليهم بتسجيل ما وقع تحت أيديهم بكل أمانة وأن ما وراء ذلك من نقد وتحليل وتعليل يخرج عن مهمتهم ، بل يشوه الحقائق والوقائع ، يقول أحدهم : « فحسب المؤرخ كما يرى الطبرى صدق النقل وأمانته ، والصدق هنا يرجع إلى المصدر لا إلى المضمون وهذا أصل من أصول المنهج الإسلامى فى الرواية ، الذى غلب كما رأينا على المؤرخين المسلمين فى كتاباتهم وطبقوه متأثرين بروحه هذه وفلسفته »^(٢) .

بينما يرى فريق آخر أن ذلك من صميم عمل المؤرخ وإلا صار مجرد كاتب وجامع للأخبار ، يقول أحد الباحثين : « وهذا أول ما نريد إثباته فى هذا الفصل : وهو أن تعليل التاريخ أمر طبيعى للإنسان ، ومرتبطة بإنسانيته منبثق عنها ، وليس بمكنته أن يتعمى عنه أو يلقيه جانباً »^(٣) ، ويقول آخر : « فالمؤرخ يسجل حقائق الوجود الإنسانى وهذا فى حد ذاته عمل شاق وطموح ، ولكن المؤرخ ينجز مهمتين أخريين يجب وضعهما فى الاعتبار عند محاولة صياغة أى تعريف لمصطلح التاريخ ، فعلى المؤرخ أن يفسر الحقائق التى توصل إليها بطريقة منهجية وعقلانية ، كما ينبغى عليه أيضا أن يحاول استكشاف النماذج والاتجاهات ، أو أن يصوغ التعميمات التى تشرح سلوك الناس والأمم عبر الزمن ، فإذا لم يقم المؤرخ بهاتين المهمتين فإنه لن يكون مؤرخا ، وإنما سيكون مجرد كاتب حولية أو يوميات أو جامع للأخبار والروايات التاريخية وبذلك تخلو صفحات التاريخ الإنسانى من أى

(١) على أدهم ، تاريخ التاريخ ، سلسلة كتاب دار المعارف ، ص ٨٥ .

(٢) د. عثمان موافى : منهج النقد التاريخى الإسلامى والمنهج الأوربى ، دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٨٤ م ، ط ٣ ص ٢٢٨ .

(٣) د. قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ١ ، سنة ١٩٥٩ م ، ص

مغزى أو دلالة،^(١) .

ويبدو لى أن أصحاب هذا الاتجاه الأخير على صواب ، فنحن ندرس التاريخ ، لا لمعرفة الوقائع والأحداث فحسب وإنما لنستخلص منها العظة والعبرة ونخرج منها بمبادئ يمكن أن تقينا شر الوقوع فى أخطاء الماضى . من هنا كان لابد من التحليل والتعليل ، والمؤرخ أقدر الناس على ذلك بحكم معاصرته أو قربه إن كان معاصراً أو قريباً من الأحداث ، وبحكم تعدد مصادره وسعة اطلاعه إن كان يعالج أمراً ماضياً ، ولا يخلو عمل بشرى من عيب ، فيمكن أن نعالج مسألة الغرض والهوى ، ونقف على آثارها فى عمل هذا المؤرخ قدر الإمكان عن طريق الاستقراء والمقارنة بين أقواله جميعاً ، واكتشاف ما إذا كانت تحوى تناقضاً ما ، وكذلك المقارنة بين أقواله وكتابات معاصريه فى المجال نفسه ، وكذا تحكيم الواقع التاريخى ومنطق الأشياء ، لا شك أن ذلك سيمكننا كثيراً من تلافى بعض عيوب المؤرخ الناقد الذى يدلى بوجهة نظره فى الأحداث - إن وجدت عيوب - وذلك خير من أن نفتقد هذه الروح الناقدة لدى المؤرخ بالكلية . وفى نظرى أن المؤرخين المسلمين ما كان يجب أن يصبحوا أقل من المؤرخين الإغريق القدماء - فى هذه الناحية - الذين يقول عنهم أحد الباحثين : « ولما كان الإغريق قد أهملوا تاريخ البشرية ككل ، واهتموا بالحوادث وحدها ، فقد وصلوا بأسلوب الرواية والعرض والتفسير إلى درجة رفيعة من الاتقان الفنى ، وكان المؤرخون يحصلون على مادتهم من الذكريات الشخصية ومن المؤلفات الأدبية ومن السجلات المحفوظة ومن شهود العيان

(١) د. قاسم عبده : الرؤية الحضارية للتاريخ ص ٢٨ . وإلى جانب ما سبق ، وفى آراء باحثين آخرين بين مؤيد ومعارض لمسألة ضرورة تعليل التاريخ من عدمه ، انظر حسين أحمد أمين ، حول الكتابة التاريخية عند المسلمين مقال بمجلة العربى الكويتية ، العدد ٤٠٦ سبتمبر ١٩٩٢ م ، ص ٩٤ . حيدر بامات مجالى الإسلام ، ترجمة عادل زعبيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦ م ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ، د. ج . كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ترجمة : محمد بكير خليل ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦١ م ، ص ٣٤ - ٣٦ ، ١١٢ ، شوقى جلال ، حول قضية إعادة كتابة التاريخ ، مقال بمجلة العربى الكويتية العدد ٤٠٦ سبتمبر ١٩٩٢ م ص ١٥٣ ، د. محمد يرمى مهران : التاريخ والتأريخ ص ١٢٨ - ١٣١ ، د. محمود إسماعيل عبد الرزاق : منهج المؤرخ ابن تفرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة ص ١١٨ - ١١٩ .

ومن الأساطير أيضاً ، فإذا جمعوا هذه المادة عمدوا إلى تصنيفها وتنقيتها ومناقشتها ثم بسطوها في عرض جميل . ولتستوعب إلى مؤرخ إغريقي آخر - بوليبيوس Poly-bius - وهو يقول : على الكاتب أن يوجه اهتمامه إلى الظروف التي سبقت الحادث أو واكبته أو جاءت بعده ، لأن دلالة هذه جميعاً تفوق ما يروى عن الحادث نفسه ، ثم يستطرد قائلاً : نحن إذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الأسباب والأساليب والأهداف التي حركت الإنسان ، وأغفلنا دراسة النتائج التي توخاها من عمله ، والقدر الذي استطاع تحقيقه من هدفه الكلي ، فإننا لا نبقى من التاريخ سوى تمارين أدبية لا عبرة فيها ، ولقد يكون متعة للأذان وملهاة للأذهان لا نتيجة لها بالنسبة لمستقبل الأيام . فالتاريخ عند بوليبيوس له هدف مادي ، وذلك يحتم على كاتبه توخي الدقة العلمية قدر الطاقة ، ويدفعه إلى محاولة إصابة كبد الحقيقة ، وميزان الحقيقة هنا هو مدى تقبل العقل لها كشيء مجرد لا دخل للغيبيات فيه ^(١) . ويؤكد على تميز التواريخ الإغريقية والرومانية عن التواريخ الإسلامية في عمق التحليل باحث آخر ، فيقول : « فإن الأبحاث في المستقبل لن تكشف أن التاريخ الإسلامي قد وصل في عمق التحليل وجمال التعبير إلى الدرجة التي وصلها التاريخ الإغريقي الكلاسيكي والروماني ، وإن كان قد فاق بالتأكيد ما وصلته الكتابات التاريخية السابقة في الفهم الاجتماعي للتاريخ أو التنظيم العلمي للمادة التاريخية » ^(٢) .

ولا توجد فواصل حادة وخصائص مميزة تفرق بشكل واضح مؤلفات كل اتجاه

(١) د. محمد عواد حسين : صناعة التاريخ ، مقال بمجلة عالم الفكر مج ٥ عدد ١ ، ١٩٧٤م ص ١٢٤ . وبوليبيوس (حوالي ٢٠٤ - ١٢٢ ق . م) مؤرخ إغريقي عاش في رومية وأرخ للجمهورية الرومانية . وكتابه يعد نموذجاً للحكم المبرأ عن الهوى . انظر : ج . هرنشو علم التاريخ ، ترجمة وتعليق عبد الحميد العبادي ، دار الحدائق ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨م ص ٣١ ، ٣٢ . والعبارة الأخيرة من النص المقتبس في المتن ، قد لا تتفق معها نحن - كمؤمنين بالأديان والغيبيات - بشكل كامل ، إذ إن للغيبيات دور محدد أخبرتنا به الأديان ربما لا يصلح العقل مقياساً له وعليه أن يسلم به ، كمعجزات الأنبياء والتي قد لا يؤمن بها مثل بوليبيوس بناء على قواعده تلك ومقاييسه .

(٢) روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ٢٦٩ .

عن مؤلفات بقية الاتجاهات ، وإن وجدت ملامح دقيقة مميزة لكل ، بدت متناثرة خلال الدراسة .

والتواريخ العامة المختصرة في هذه المؤلفات هدفها النهائى الفترة المعاصرة بدليل حجم حديثها عنها مقابل بقية الفترات ، وإنما التزمت اتجاه التاريخ العام لتقدم رؤية شاملة لتفيد المهدي إليه الكتاب ، وإن كانت سريعة ملخصة . ولم تلتزم تواريخ الدول والمدن التحديد الصارم لاتجاهها وتصنيفها كتاريخ دولة معينة أو مدينة محددة وهى فى الغالب عبارة عن تاريخ ينظر للعالم الإسلامى من نطاق هذه المدينة أو الدولة ، وتركز فى المقام الأول على أخبارها .

وقد توافرت لدى هذه المؤلفات بوجه عام - إلى حد كبير - الحس الزمنى والمكانى فى تحديد الأحداث . وقد وردت أمثلة كثيرة لذلك خلال الدراسة .

وأسلوب هذه المؤلفات بوجه عام ، عدا كتب العماد الأصفهاني ، بسيط لحد كبير ، فصيح ، وتندر فيه العبارات العامية والمحلية ، ولا تتميز كلفة لتلك الفترة إلا من خلال بعض المصطلحات العسكرية والإدارية . وهى فى تسجيلها لأسماء الأعلام - كقيادة وأمراء الصليبيين - خالفت المراجع الحديثة ، فهى تسمى مثلاً : بلدوين : يغدوين أو بردويل ، تنكرد : طنكرى ، بوهيموند : ييمند أو ييمنت ، رينودى شاتيون : أرناط ، عمورى : أمارى ، جاي : كى ، هيو : أوله ... وهكذا ... يقول ابن الأثير : « وكان ييمند ، صاحب أنطاكية ، وطنكرى ، صاحب الساحل ... »^(١) ، « وكان القمص بردويل ، صاحب الرها ، ... »^(٢) . وتكثر هذه المصادر من الاستشهاد بالشعر على تفاوت بينها فى ذلك ، ومعظمه معبر عن الحوادث مرتبط بها .

وأخيراً ... فقد نال كثير من هذه المؤلفات شهرة واسعة ، ونقل عنه كثير ممن جاء بعده من المؤرخين ، مثال ذلك : الكامل ، والاعتبار ، والمرآة ، النوادر ، ذيل تاريخ دمشق ، والباهر ، وتاريخ دمشق لابن عساكر . بينما ندر تأثير بعضها فيما تناقلته المصادر مثل : المضمار ، التاريخ المظفرى .

(١) الكامل ١٠ : ٢٧٤ .

(٢) السابق ١٠ : ٣٧٤ .

القسم الجنوبي من بلاد الشام

- نقلاً عن : د. محمد حلمي محمد أحمد : مصر والشام والصليبيون .

القسم الشمالي من بلاد الشام

- نقلاً عن : د. محمد حلمي محمد أحمد : مصر والشام والصليبيون .

- ٢٠٨ -

خريطة رقم (١) إقليم الجزيرة
كى . لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية

- نقلاً عن : د. عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى .

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : المصادر

(أ) المصادر المخطوطة :

ابن أبي الدم : شهاب الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله (ت ٦٤٢هـ) :

التاريخ الإسلامى المعروف باسم : التاريخ المظفرى ، مخطوط بمعهد
المخطوطات العربية بالقاهرة برقمى (٦٠٤ - ٩٦٦ تاريخ) نسخة
مصورة عن النسخة الموجودة بمكتبة خدابخش برقم (٣٨٦٩) .

الأصفهاني : الشيخ عماد الدين :

البستان الجامع أو بستان الحوادث الجامع لتواريخ الزمان مخطوطة
مصورة بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية برقم (٨٧) تاريخ .

الحموى : أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف (ت بعد ٦٣٣هـ) :

التاريخ المنصورى صورة عن الأصل المخطوط نشرها : بطرس غرياز
نيويج ، معهد الدراسات الشرقية موسكو سنة ١٩٦٠م .

(ب) المصادر المطبوعة :

ابن أبي الدم : شهاب الدين أبى عبد الله (ت ٦٤٢هـ) :

التاريخ الإسلامى المعروف باسم التاريخ المظفرى ج١ تحقيق د. حامد
زيان ، دار الثقافة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

ابن الأثير : عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ) :

التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات ،
دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٣م .

الكامل فى التاريخ ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩م .

الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن صفى الدين محمد (ت ٥٩٧هـ) :

تاريخ دولة آل سلجوق اختصار أبو الفتح البندارى تحقيق ونشر دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط ٢ سنة ١٩٨٠م .

خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر نشر : د. أحمد أمين وآخرين سنة ١٩٥١م .

البغدادي : إسماعيل باشا سرهنك :

هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين طهران ط ٣ سنة ١٩٦٧م .

البغدادي : أبو الفضائل صفى الدين عبد المؤمن بن الخطيب عبد الحق بن عبد الله بن على البغدادي الحنبلى (ت ٧٣٩هـ) :

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ط ليدن .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) :

النجوم الزاهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، مطبعة الكتب المصرية سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

ابن الجوزى : السبط شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى (ت ٦٥٤هـ) :

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الدكن الهند ، الجزء الثامن فى قسمين سنة ١٩٥١م ، سنة ١٩٥٢م ، ج ١ تحقيق د. إحسان عباس ، دار الشروق ط ١ سنة ١٩٨٥م .

ابن الجوزى : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ) :

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١ سنة ١٩٩٢م .

حاج خليفة : مصطفى بن عبد الله كاتب چلبى (ت ١٠٦٧هـ) :

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، طبع وكالة المعارف سنة ١٩٤١م .

ابن حجر : أحمد بن على العقلاى (ت ٨٥٢هـ) :

لسان الميزان ، نشر مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت لبنان ، ط ٢ سنة ١٩٧١م .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ) :

جوامع السيرة تحقيق : د. إحسان عباس ، د. ناصر الدين الأسد ، دار المعارف .

الحموى : ابن نظيف (ت بعد ٦٣٣هـ) :

التاريخ المنصورى ، تحقيق : د. أبو العيد دودو ، مطبعة الحجاز بدمشق ، سنة ١٩٨١م .

الحموى : ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) :

معجم الأدباء ، نشر مرجليوث مط ، دار المأمون سنة ١٩٣٦م .

معجم البلدان ، مطبعة السعادة ، ط ١ سنة ١٩٠٦م .

الحنبلى : العماد أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ) :

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، نشر المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط دار الآفاق الجديدة بتحقيق لجنة إحياء التراث العربى بالدار .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر خلكان

(ت ٦٨١هـ) :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت لبنان .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :

- العبر في خبر من غير ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الجزء الثالث ، تحقيق : أبو هاجر محمد بن بسيوني زعلول .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : إبراهيم الزبيق وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، سنة ١٩٨٤م .

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ) :

طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي ، مطبعة عيسى الحلبي ، ط ١ .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ) :

الطبقات الكبرى ، تصحيح وطبع إدوارد سخاو ، ط ليدن ، سنة ١٣٢٢هـ ، نشر مؤسسة النصر ، طهران .

أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس (ت ٦٦٥هـ) :

تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، نشر : عزت العطار الحسيني ، ط ١ سنة ١٩٤٧م .

ابن شاهنشاه : الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت ٦١٧هـ) :

مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : د . حسن حبشي ، عالم الكتب ، سنة ١٩٦٨م .

ابن شداد : بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ، سنة ١٣١٧هـ .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) :

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار
المعارف ط ٤ .

ابن العديم : أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ) :

زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق : د. سامي الدهان المعهد الفرنسي
بدمشق للدراسات العربية ، ٣ أجزاء سنة ١٩٥١م ، سنة ١٩٥٤م ،
وسنة ١٩٦٨م .

ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ) :

ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٠٨م .

المقريزي : تقي الدين أبو محمد أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ) :

المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر تحقيق : د. أيمن فؤاد سيد ،
المعهد العلمي الفرنسي ، للآثار الشرقية ، بالقاهرة ، سنة ١٤٠١هـ /
سنة ١٩٨١م .

ابن منقذ : مؤيد الدولة ، أسامة بن مرشد الشيزري (٥٨٤هـ) :

كتاب الاعتبار ، تحقيق : د. فيليب حتى ، ط بيروت سنة ١٩٨١م .
المنازل والديار ، القاهرة سنة ١٩٦٨م .

ابن النديم : محمد بن إسحاق (ت بين ٣٨٥ ، ٣٩٠هـ) :

الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان سنة ١٩٧٨م .

النسوي : محمد بن أحمد :

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، نشر وتحقيق : حافظ أحمد
حمدي ، دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣م .

اليافعي : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليمنى المكي
(ت ٧٦٨هـ) :

مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،
بيروت لبنان ، ط ٢ سنة ١٩٧٠م .

ثانياً : المراجع :

اتكن : هيوج :

دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ، ترجمة د/ محمود زايد ،
دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٦٣م .

أحمد : د. أحمد رمضان :

تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى الهيئة المصرية
العامة للكتاب سنة ١٩٨٩م .

أحمد : د . محمد حلمي أحمد :

مصر والشام والصليبيون ، ط ٢ سنة ١٩٨٢م .

أدهم : علي :

تاريخ التاريخ ، سلسلة كتاب دار المعارف .

أرنولد : توماس :

الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د . حسن إبراهيم حسن وآخرين ،
النهضة لمصرية ، ط ٣ سنة ١٩٧٠م .

بارنز : هاري إلمر :

تاريخ الكتابة التاريخية ، ترجمة : د. محمد عبد الرحمن برج ، الهيئة
العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م .

مجالى الإسلام ، ترجمة عادل زعبيتر ، دار إحياء الكتب العربية ،
القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

بدوى : د . أحمد أحمد :

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام مكتبة نهضة
مصر .

بروكلمان : كارل :

تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ترجمة : د . السيد يعقوب بكر ، د .
رمضان عبد التواب ، دار المعارف ، ط ٢ .

توفيق : د . عمر كمال :

الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، مؤسسة
شباب الجامعة ، سنة ١٩٨٦ م .

جب : هاملتون :

دراسات فى حضارة الإسلام ، ترجمة د . إحصان عباس وآخرين ، دار
العلم للملايين ، بيروت ط ٣ سنة ١٩٦٤ م ، ١٩٧٩ م .

جمال الدين : عبد الله محمد :

نظام الدولة فى الإسلام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع . سنة ١٩٩٠ م .

الجندي : أنور :

الإسلام وحركة التاريخ ، دار الكتاب اللبنانى ، ط ٨ ، سنة ١٩٨٦ م .

حاطوم : د . نور الدين ، نبيه عاقل ، أحمد طرين ، صلاح مدنى :

المدخل إلى التاريخ ، مطبعة الإنشاء بدمشق ، سنة ١٩٦٤ م .

أبو حديد : محمد فريد :

صلاح الدين الأيوبي وعصره ، مطبعة دار الكتب ، سنة ١٩٢٧ م .

- حسن : د. حسن إبراهيم :
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٤ ط ١ .
- حسن : د. حسن علي :
عصر الحروب الصليبية ، مكتبة الشباب سنة ١٩٨٨ م .
- حسن : د. زكي محمد :
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف .
- حسين : محمد أحمد :
أسامة بن منقذ ، دار الكتاب سنة ١٩٤٦ م .
- حلمى : أحمد كمال الدين :
السلاجقة في التاريخ والحضارة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ط ١
سنة ١٩٧٥ م .
- حمزة : د. عبد اللطيف :
الحركة الفكرية في مصر في العصرين ، الأيوبي والمملوكي ، الأول ،
دار الفكر العربي ، ط ١ .
- الحويرى : د. محمود محمد :
الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث
عشر من الميلاد ، دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .
- داهموس : جوزيف :
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى ، ترجمة : د. محمد فتحى
الشاعر ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ م .
- الدجيلي : عبد الصاحب عمران :
أعلام العرب والعلوم والفنون ط ٢ .
- الدورى : د. عبد العزيز :
بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
سنة ١٩٦٠ م .

تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. السيد الباز العريني ، دار الثقافة
بيروت .

ر . ج كولنجوود :

فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ، لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، سنة ١٩٦١ م .

الرمادي : د. جمال الدين :

صلاح الدين الأيوبي ، سلسلة كتاب الشعب ، رقم ٢٥ مطبعة
الشعب سنة ١٩٥٨ م .

رونثال : فرانز :

علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة : صالح أحمد العلي ، مؤسسة
الرسالة ، بيروت ط ٢ ، سنة ١٩٨٣ م .

الريس : د. محمد ضياء الدين :

الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، دار المعارف ، ط ٣ سنة
١٩٦٩ م ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

زامبور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة
واخراج : د. زكي محمد حسن وآخرين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول
سنة ١٩٥١ م .

الزركلي : خير الدين :

الأعلام ، ط ٣ .

زريق : د. قسطنطين :

نحن والتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ سنة ١٩٥٩ م .

زيدان : جورجى :

تاريخ آداب اللغة العربية ، ط دار الهلال ، بدون تاريخ ج ٣ .

سالم : د. السيد عبد العزيز :

التاريخ والمؤرخون العرب ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٧ م .

السامر : د. فيصل :

ابن الأثير ، بغداد ط ٢ سنة ١٩٨٦ م .

سعداوى : د. نظير حسان :

- ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، سنة ١٩٥٧ م .

- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٢ م .

سليمان : د. أحمد السعيد :

تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة ، دار المعارف .

سيزكين : فؤاد :

تاريخ التراث العربى ، ترجمة : د. محمود فهمى حجازى ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، سنة ١٩٨٣ م .

شلى : د. أحمد جاب الله :

موسوعة التاريخ الإسلامى ، مكتبة النهضة العربية ، ج ٢ ط ٧ ، سنة ١٩٨٤ م ، ج ٥ ط ٧ سنة ١٩٨٦ م .

طليمات : د. عبد القادر أحمد :

ابن الأثير الجزرى ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٨٣ سنة ١٩٦٩ م .

عاشور : د. سعيد عبد الفتاح :

الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ سنة ١٩٦٣ م .

عبد الحميد د سعد رغلول

تاريخ المغرب العربي ، دار المعارف

العدوى : د. إبراهيم أحمد

بهر التاريخ الإسلامي ، دار الفكر العربي

العريبي : د السيد الباز .

مؤرخو الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٢ م .

العزاوي : عباس

التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ، بغداد سنة ١٩٥٧ م

علي محمد كرد

خطط الشام ، مطبعة الترقى بدمشق ، سنة ١٩٢٦ م .

عمارة : د. محمد :

تيارات الفكر الإسلامي ، ط دار الشروق ، سنة ١٩٩١ م .

قاريليف :

العرب والروم ، ترجمة د محمد عبد الهادي شعيرة ، د. فؤاد حسنين

علي ، دار الفكر العربي .

قالين : جورج أوفست :

صور من شمال جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر ترجمة

: سمير سليم شلبي

قاسم د قاسم عبده

الرؤية الحضارية للتاريخ ، دار المعارف ، ط ٢ سنة ١٩٨٥ م .

ماهية الحروب الصليبية ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٤٩

سنة ١٩٩٠ م

قطب سيد

في التاريخ فكرة ومنهاج ، دار الشروق ، ط ٧ سنة ١٤٠٧ هـ ، سنة

١٩٨٧ م

كاسيرر : أرنت :

في المعرفة التاريخية ، ترجمة : أحمد حمدي محمود ، دار النهضة العربية .

كاشف : د. سيدة إسماعيل :

مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٩٧٦ م .

كاهن : كلود :

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ترجمة : د. بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٩٨٣ م .

كحالة : عمر رضا :

التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية ، دمشق سنة ١٩٧٣ م .

معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، بدمشق سنة ١٩٥٨ م .

لامونت : جون :

الحروب الصليبية والجهاد ، مقال بكتاب دراسات إسلامية ، لمجموعة مستشرقين ، ترجمة : د. نقولا زيادة وآخرين .

لوبون : غوستاف :

حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي ، ط ٤ سنة ١٩٦٤ م .

ماجد : د. عبد المنعم :

الناصر صلاح الدين يوسف ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨ م .

مختار باشا : اللواء محمد :

التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية ، دراسة وتحقيق وتكملة د. محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .

دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة : د. حسين نصار ، دار الثقافة ، بيروت .

مصطفى : د. شاكر :

التاريخ العربي والمؤرخون ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ٣ ، سنة ١٩٨٧ م .

المنجد : د. صلاح الدين :

سلسلة أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب ٣ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت سنة ١٩٦٣ م .

مهران : د. محمد يومي :

التاريخ والتأريخ ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٩٢ م .

موافي : د. عثمان :

منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي ، دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٨٤ م . ط ٣ .

ابن موسى : تيسير :

نظرة عربية على غزوات الإفرنج ، الدار العربية للكتاب .

نخبة من الأساتذة :

أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ، الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٧ م .

نصار : د. حسين :

نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، مكتبة النهضة المصرية .

النقاش : د. زكي :

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت سنة ١٩٥٧ م .

هـ . أ. ل فشر :

تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة : د. زيادة والمريني ، ط ٤ ، دار المعارف سنة ١٩٦٦ م .

هرنشو :

علم التاريخ ، ترجمة وتعليق : عبد الحميد العيادى ، دار الحدائة ،
بيروت ، ط ١ سنة ١٩٨٨ م .

و . هـ - وولش :

مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة : أحمد حمدى محمود ، مؤسسة
سجل العرب سنة ١٩٦٢ م .

رابعاً الرسائل الجامعية :

(أ) رسائل الماجستير

خليل : د. عماد الدين :

عماد الدين زنكى ، رسالة ماجستير منشورة ، الدار العلمية ، بيروت
ط ١ سنة ١٣٩١ هـ / سنة ١٩٧١ م .

سلطان : مظفر :

العماد الاصفهاني ، حياته وأدبه ، رسالة ماجستير منشورة ، مطبعة
الجمهورية السورية ، سنة ١٩٥١ م .

طليمات : عبد القادر أحمد :

تحقيق مخطوط الدولة الأتابكية ، رسالة ماجستير بأداب عين شمس ،
سنة ١٩٦٢ م .

عبد الفتاح : عبد الفتاح فتحى :

الدراسات التاريخية فى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، رسالة
ماجستير ، بدار العلوم سنة ١٩٩٢ م .

العزاوى : عبد الرحمن حسين :

المنهج التاريخى عند المؤرخين العراقيين فى العصر البويهى ، رسالة
ماجستير ، بدار العلوم سنة ١٩٧٩ م .

غانم : حامد زيان :

حلب فى العصر الزنكى رسالة ماجستير بأداب القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

المغراوي : رابع :

لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون ، دراسة تاريخية مقارنة ، رسالة
ماجستير بدار العلوم ، سنة ١٩٨٨ م .

(ب) رسائل الدكتوراه :

يلى : د. أحمد :

حياة صلاح الدين الأيوبي ، رسالة دكتوراه منشورة ، مطبعة السعادة .

خليل : د. عماد الدين :

الإمارات الأرتقيّة في الجزيرة والشام ، رسالة دكتوراه منشورة ، مؤسسة
الرسالة ، بيروت ، ط ١ سنة ١٩٨٠ م .

سعداوى : د. نظير حسان :

التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، رسالة دكتوراه
منشورة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٧ م .

طليمات عبد القار أحمد :

المؤرخ ابن الأثير ، رسالة دكتوراه بأداب عين شمس سنة ١٩٦٧ م .

الغامدى :

مسفر الزمان لسبط ابن الجوزى ، تحقيق ودراسة السنوات من ٤٨١ -

٥١٧ هـ ، رسالة دكتوراه منشورة فى جزأين سنة ١٩٨٧ م .

نوار : صلاح الدين محمد عبد القادر :

تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر

الميلادى ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة

١٩٨٩ م .

خاصاً الدوريات :

أحمد : د. محمد حلمى محمد :

الحياة العلمية فى مصر والشام بين ١١٢٧ - ١٢٥٠ م بحث

مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٧ سنة ١٩٥٨ م .

أمين : حسين أحمد :

حول الكتابة التاريخية عند المسلمين ، مقال بمجلة العربي الكويتية ،
العدد ٤٠٦ ، سبتمبر ١٩٩٢ م .

جلال : شوقي :

حول قضية إعادة كتابة التاريخ ، مقال بمجلة العربي الكويتية ، العدد
٤٠٦ ، سبتمبر ١٩٩٢ م .

جمال الدين : د. عبد الله محمد :

نشأة التاريخ الإسلامي في الأندلس ، بحث منشور بحوليات كلية دار
العلوم ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٩١ م .

حبشي : د. حسن :

ديوان الإنشاء نشأته وتطوره ، مقال ضمن كتاب : أبو العباس
القلقشندي ، وكتابه صبح الأعشى ، الهيئة العامة للكتاب سنة
١٩٧٣ م .

حسين : د. محمد علوان :

صناعة التاريخ مقال بمجلة عالم الفكر ، مج ٥ ، عدد ١ سنة
١٩٧٤ م .

خليفة : ناصر :

صلاح الدين الأيوبي والنصر العظيم في حطين ، مقال بجريدة
القوات المسلحة ، السنة الأولى ، العدد الخامس ، الخميس ١٢ ربيع
الأول سنة ١٤١٣ هـ ، ١٠ سبتمبر ١٩٩٢ م .

عاشور : سعيد عبد الفتاح :

الإمبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي ، بحث منشور بالمجلة
التاريخية المصرية ، مج ١١ سنة ١٩٦٣ م .

دراسة حول كتاب « الكامل في التاريخ » طبع ضمن كتاب بحوث
ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، جامعة بيروت العربية ، سنة
١٩٧٧ م .

عبد الرازق : محمود إسماعيل :

منهج المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه « النجوم الزاهرة » مقال
ضمن مجموعة أبحاث بعنوان : المؤرخ ابن تغرى بردى أعدتها لجنة
التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٤ م .

غريال : محمد شفيق :

أساليب كتابة التاريخ عند العرب ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية ،
سنة ١٩٦٢ م .

قاسم : د. قاسم عبده :

صورة المقاتل الصليبي فى المصادر العربية ، بحث بالمجلة التاريخية
المصرية ، مج ٢٧ الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٨١ م .

كاشف : د. سيدة إسماعيل :

المنهج التاريخى لابن الحكم مقال ضمن كتاب دراسات عن ابن عبد
الحكم ، تأليف مجموعة من الأساتذة ، الهيئة العامة للكتاب ، سنة
١٩٧٥ م .

محمد : د. عبد الله نجيب :

خزائن المخطوطات بجمهورية أوزبكستان الإسلامية ، مقال بمجلة
الأزهر ، جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٢ م .

سادساً : المعاجم ودوائر المعارف :

- دائرة المعارف ، بطرس البستاني ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .
- دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد وآخرين .
- دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى ، مطبعة دائرة معارف
القرن العشرين ، سنة ١٩٢٣ م .

- قاموس الفارسية ، فارسي / عربي ، د. عبد النعيم حسنين ، دار الكتاب المصري واللبناني ، ط ١ سنة ١٩٨٢ م .
- لسان العرب ، ابن منظور ، ط دار المعارف .
- المصباح المنير ، الفيومي ، المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٩٢٥ م . ط ٦ .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط ٣ ، طبعة دار المعارف ، سنة ١٩٨٠ م .

- ***Cahen : Claude :***

La Syrie du nord Al , epoque descroisades , Paris 1940 .

- ***Gibb : Hamilton :***

The Damascus chronicle of the crusades, London 1932 .

The Life of Salodin from the works of Imad ad din and Baha ad - Din, Oxford 1973 .

- ***Lewis : Bernard and P. M. Holt :***

Historians of the middle east London 1962 .

- ***Louise and Jonathan Riley - Smith :***

The crusades idea and reality 1 .95 - 1274 , First published , 1981 .

- ***Mayer, Hans Ederhard :***

The cruades, translated by John Gillingham Oxford university Press 1972 .

Poole : Stanly lane :

History of Egypt in the middle ages , Mettuen Col ttd Lonon Fourth edition 1925 .

- The new encyclopaedia britannica vol 1, 4 .

الفهرس

أ - د	مقدمة
	تمهيد : ملامح الأوضاع السياسية والحضارية فى بلاد الشام خلال فترة الدراسة (٥٢١ - ٦٦٠ هـ) وتأثيرها فى
٧	الحركة التاريخية :
٩	أولاً : ملامح الحالة السياسية :
	(أ) نبذة عن الأوضاع السياسية ببلاد الشام فى ظل
٩	السلاجقة
١٠	(ب) أثر الحروب الصليبية
١١	(ج) هجوم المغول
١٢	(د) لمحة عن الزنكيين والأيوبيين
١٣	ثانياً : ملامح الأوضاع الحضارية :
١٣	(أ) عناصر المجتمع الشامى وطوائفه
١٦	(ب) الشام ملتقى تجارات الشرق والغرب
١٧	(ج) ملامح النشاط الثقافى
	ثالثاً : الحركة التاريخية ببلاد الشام وتأثيرها بالأوضاع
١٨	السابقة
٢٤	رابعاً : نطاق البحث :
٢٩	الفصل الأول : « التاريخ العام »
٣١	أولاً : مدخل : مفهوم هذا الاتجاه وتطور حركة التأليف فيه
٣١	(أ) مفهوم مصطلح « التاريخ العام أو العالمى »
٣٢	(ب) دواعى مصطلح « التاريخ العام أو العالمى »
٣٣	(ج) بداية ظهور هذا الاتجاه وتطور حركة التأليف فيه

- ٣٦ (د) الكتابة الحولية - مزاياها وعيوبها
- ٣٨ ثانياً : دراسة تطبيقية لمؤلفات تمثل هذا الاتجاه :
١. كتاب : « مضمار الحقائق وسر الخلائق »
- ٣٨ (أ) المؤلف
- ٣٨ (ب) مصادر الكتاب :
- ٣٩ ١ - الوثائق
- ٤٣ ٢ - المعاصرة والمشاهدة والإطلاع الشخصي
- ٤٤ ٣ - السماع
- ٤٥ (د) منهج المؤلف في كتابه
- ٥٠ (هـ) الأسلوب
- ٥٢ (و) بين المضمار والمصادر المعاصرة له
٢. كتاب « الكامل في التاريخ »
- ٥٦ (أ) المؤلف
- ٥٧ (ب) مضمون الكتاب
- ٥٧ (ج) مصادر الكتاب :
- ٥٨ أولاً المصادر المكتوبة :
- ٥٨ ١ - المؤلفات السابقة
- ٥٨ ٢ - الوثائق
- ٦٠ ٣ - النقوش
- ٦٠ ثانياً : المصادر السماعية أو المشافهة
- ٦١ ثالثاً : المعاصرة والإطلاع الشخصي
- ٦٤ رابعاً : منهج المؤلف في استخدام مصادره
- ٦٦ (د) منهج الكتاب :

٦٦	أولاً : طريقة التأليف
٦٨	ثانياً : السمات العامة لمنهج الكتاب
٨٣	ثالثاً : النقد التاريخي في الكتاب
٨٣	١ - نقد الرواية الضعيفة واللامعقولة
٨٣	٢ - نقد المصادر
٨٦	٣ - نقد الشخصيات العامة
٨٧	٤ - نقد الحكام
٩٧	٥ - نقد الشعوب والأجناس
٩٩	رابعاً : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون
١٠٥	(هـ) الأسلوب
١٠٧	(و) مآخذ على كتاب « الكامل »
١١١	(ز) بين « الكامل » والمصادر المعاصرة له
١١١	(ح) الأهمية والتأثير

٣. كتاب « التاريخ المنصوري »

١١٣	(أ) المؤلف
١١٤	(ب) مضمون الكتاب
١١٥	(ج) مصادر الكتاب
١١٦	(د) منهج الكتاب
١١٨	(هـ) الأسلوب
١١٨	(و) مآخذ على الكتاب
١١٨	(ز) الأهمية والتأثير

٤. كتاب « التاريخ الإسلامي ، المعروف باسم

« التاريخ المظفرى »

١١٩	(أ) المؤلف
-----	-------	------------

- ١٢٠ (ب) مضمون الكتاب
١٢٠ (ج) مصادر الكتاب
١٢١ (د) منهج الكتاب
١٢٤ (هـ) الأسلوب
١٢٤ (و) مأخذ على الكتاب

٥. كتاب : « مرآة الزمان في تاريخ الاعيان »

- ١٢٩ (أ) المؤلف
١٢٩ (ب) مضمون الكتاب وجهود نشره
١٣١ (ج) مصادر الكتاب
١٣١ أولاً : المصادر المكتوبة :
١٣١ ١ - المؤلفات السابقة
١٣١ ٢ - الوثائق
١٣٢ ثانياً : المصادر السماعية أو المشافهة
١٣٢ ثالثاً : المعاصرة والاطلاع الشخصي
١٣٣ (د) منهج الكتاب
١٣٣ أولاً : السمات العامة
١٣٨ ثانياً : النقد التاريخي
١٣٨ ١ - نقد المصادر
١٣٨ ٢ - نقد عام
١٣٩ (هـ) الأسلوب
١٤١ (و) مأخذ على الكتاب
١٤٧ (ز) بين « المرآة » والمصادر المعاصرة له
١٤٨ (ح) الأهمية والتأثير

الفصل الثاني : التاريخ الإقليمي : تاريخ الدول والأسر

- ١٥١ وتاريخ المدن ،
- ١٥٣ أولاً : ظهور هذا الاتجاه وتطور حركة التأليف فيه
- ١٥٦ ثانياً : دراسة تطبيقية لمؤلفات تمثل هذا الاتجاه
١. كتاب « تاريخ دولة آل سلجوق ،
- ١٥٧ (أ) المؤلف
- ١٥٩ (ب) مضمون الكتاب
- ١٦٢ (ج) مصادر الكتاب
- ١٦٢ أولاً : المصادر السماعية
- ١٦٣ ثانياً : المعاصرة والاطلاع الشخصي
- ١٦٥ ثالثاً : الوثائق
- ١٦٦ رابعاً : الآثار
- ١٦٦ (د) منهج الكتاب
- ١٦٦ أولاً : السمات العامة
- ١٧٤ ثانياً : النقد التاريخي
- ١٧٤ ١ - نقد الروايات
- ١٧٤ ٢ - نقد المصادر
- ١٧٤ ٣ - نقد الحكام
- ١٧٨ (هـ) الأسلوب
- ١٧٩ (و) مآخذ على الكتاب
٢. كتاب « التاريخ الباهر في الدولة لاتابكية ،
- ١٨٠ (أ) المؤلف
- ١٨٠ (ب) مضمون الكتاب

- ١٨٣ (ج) مصادر الكتاب
- ١٨٣ أولاً : المصادر السماعية
- ١٨٤ ثانياً : المعاصرة والإطلاع الشخصي
- ١٨٥ ثالثاً : الوثائق المكتوبة
- ١٨٥ ١ - المصادر السابقة
- ١٨٥ ٢ - الوثائق
- ١٨٦ (د) منهج الكتاب
- ١٨٦ أولاً : السمات العامة
- ١٩١ ثانياً : النقد التاريخي
- ١٩٢ ثالثاً : نظرات تاريخية في « الباهر »
- ١٩٢ (هـ) الأسلوب
- ١٩٤ (و) مآخذ على الكتاب
- ٢٠٠ (ز) بين الباهر والمصادر المعاصرة له
- ٣ . الكتاب المعروف بـ : « ذيل تاريخ دمشق »
- ٢٠٣ (أ) المؤلف
- ٢٠٣ (ب) مضمون الكتاب
- ٢٠٦ (ج) مصادر الكتاب
- ٢٠٦ أولاً : المصادر المكتوبة
- ٢٠٦ ١ - الوثائق
- ٢٠٨ ٢ - المؤلفات السابقة
- ٢٠٩ ثانياً : المصادر السماعية
- ٢٠٩ ثالثاً : المشاهدة الشخصية
- ٢١٠ (د) منهج الكتاب

- ٢١٠ أولاً : السمات العامة
- ٢١٥ ثانياً : النقد التاريخي في الكتاب
- ٢١٩ (هـ) الأسلوب
- ٢٢١ (و) مآخذ على الكتاب
- ٢٢٥ (ز) الأهمية والتأثير

٤. كتاب « زبدة الحلب من تاريخ حلب »

- ٢٢٦ (أ) المؤلف
- ٢٢٧ (ب) مضمون الكتاب
- ٢٢٨ (ج) مصادر الكتاب
- ٢٢٨ أولاً : المصادر السماعية
- ٢٢٩ ثانياً : المصادر المكتوبة
- ٢٢٩ ١ - المؤلفات السابقة
- ٢٢٩ ٢ - الوثائق
- ٢٣٠ ثالثاً : المعاصرة والمشاهدة
- ٢٣١ رابعاً : الآثار
- ٢٣١ خامساً : النقود
- ٢٣١ (د) منهج الكتاب
- ٢٣٧ (هـ) الأسلوب
- ٢٣٨ (و) مآخذ على الكتاب

الفصل الثالث : السير والمذكرات

- ٢٤٧ أولاً : ظهور هذا الاتجاه وتطور حركة التأليف فيه
- ٢٤٩ ثانياً : دراسة تطبيقية لمؤلفات تمثيل هذا الاتجاه

١. كتاب « الاعتبار »

٢٤٩ (أ) المؤلف
٢٥٠ (ب) مضمون الكتاب
٢٥٢ (ج) مصادر الكتاب
٢٥٢ أولاً : المشاهدة والتجربة
٢٥٤ ثانياً : السماع
٢٥٥ (د) منهج الكتاب
٢٦٩ (هـ) الأسلوب
٢٧٠ (و) مآخذ على الكتاب

٢. كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »

٢٧١ (أ) المؤلف
٢٧٢ (ب) مضمون الكتاب
٢٧٤ (ج) مصادر الكتاب
٢٧٤ أولاً : المعاصرة والمشاهدة والاطلاع الشخصي
٢٧٥ ثانياً : السماع
٢٧٦ ثالثاً الوثائق
٢٧٦ (د) منهج الكتاب
٢٨٥ (هـ) الأسلوب
٢٨٧ الفصل الرابع : « ملامح إجمالية للحركة التاريخية »
٢٨٩ أولاً : في المؤرخين
٢٩٣ ثانياً : في الإنتاج التاريخي
٣١١ المصادر والمراجع
٣٣٢ الفهرس

مطبعة العمرانية للأوقست
الجيزة ت: ٥٨١٧٥٥٠

